تاريخ الصحافة العربية

الجزء الثاني

تأليف

فيليب دي طرازي

الكتاب:تاريخ الصحافة العربية .. الجزء الثاني

الكاتب:فيليب دي طرازي

الطبعة: ٢٠٢٠

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩١٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

طرازي، فيليب دي

تاريخ الصحافة العربية .. الجزء الثاني / فيليب دي طرازي،

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٤٥٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٢٧ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٧٤٨٠ / ٢٠٢٠

تاريخ الصحافة العربية

الجزء الثاني

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الحقبة الثانية

تمتدُ من تاريخ افتتاح قناة السويس إلى التذكار السنوي الرابع لاكتشاف العالم الجديد ١٨٦٩– ١٨٩٢

المقدمة

كانت الصحافة في الحقبة الأولى شبيهة بالجنين، إذ قضى عليها بالتخلق والتكوُّن قبل تخطيها إلى دور الانتشار الذي تحرَّينا البحث عنه في هذه الحقبة الثانية. وتسهيلًا لذلك نبسط الكلام عن صحافة كل مملكة وقطر على حدةٍ مبتدئين بالدولة العثمانية؛ لأن أكثر الصحافيين في هذا الدور كانوا من العثمانيين لا سيما أبناء سوريا الذين يرجع إليهم الفضل في إحياء النهضة العربية والحركة الفكرية شرقًا وغربًا، وسنتتبع هذا الأسلوب في الأدوار اللاحقة كي يقف القراء على سنَّة التدريج الطبيعي الذي رافق تاريخ الصحافة العربية في العالم عمومًا وفي كل قطر خصوصًا. ولم يكن للصحافة في ١٨٧٠ شأن يذكر حتى قَّيض الله لها رجالًا من ذوي النشاط، فأقدموا عَلَى نشأتها وهم مدركون الصعوبة التي كانت تحول دون انتشارها ماديًّا وأدبيًّا، فصادفوا العقبات الكثيرة في أول عهدها ولكنهم تغلبوا على تلك المصاعب بثباتهم واجتهادهم حتى أوصلوا الصحافة إلى ما هي عليه الآن من الأهمية. وكان انتشارها في بادئ الأمر بطيئًا لقلة استعداد القوم لقبولها. ثم لم تلبث أن هبت من رقادها وأنارت بنبراسها عقول الشعب. وقد قسمنا أخبار الصحافة في هذه الحقبة إلى أربعة أقسام كبرى؛ وهي:

أولًا ـ الصحافة العثمانية.

ثانيًا ـ صحافة أوروبا.

ثالثًا – صحافة مصر.

رابعًا ـ صحافة سائر الأقطار.

وكلُّ قسم منها يحتوي على أبواب وكل باب يتفرَّع إلى فصول، استوفينا فيها البحث عن هذا الموضوع الجلل. ومن الأمور الجديرة بالذكر أنه بين الجرائد والمجلات التي ظهرت في الحقبتين الأولى والثانية، أتيح لأكثر من ثلاثين صحيفة أن تعيش شوطًا بعيدًا من العمر. ولما كان ثلاثة أرباعها لم يزل حيًّا حتي الآن، فقد جعلنا نجمة صغيرة بجانب الصحف التي احتجبت تمييزًا لها عن سواها وهي: أولها وأقدمها عهدًا «الوقائع المصرية» المؤسسة عام ١٨٢٨ في القاهرة بلغت اليوبيل الألماسي. وأربع منها تجاوزت عيدها الذهبي أي خمسين سنة وهي: المبشر (١٨٤٧) في مدينة الجزائر بشمال أفريقيا ثم حديقة الأخبار* (١٨٥٨) في بيروت والرائد التونسي (١٨٦١) في تونس وسوريا (١٨٦٥) في دمشق. ويمكن أن يضاف إليها جريدة «النشرة الأسبوعية» التي قامت على أنقاض جريدتي «النشرة الشهرية» المؤَسسة عام ١٨٦٦ و«أخبار عن انتشار الإنجيل» التي صدرت عام ١٨٦٣ في بيروت

وإليك أسماء بقية الصحف التي بلغت خمسًا وعشرين سنة فما فوق عَلَى ترتيب أعوام ظهورها، وهي: الجوائب*(١٨٦٠) في القسطنطينية. لبنان (١٨٦٧) في لبنان، فرات (١٨٦٨) في حلب. أعمال شركة مار منصور (١٨٦٨) في بيروت. الزوراء (١٨٦٨) في

بغداد. النحلة* (١٨٧٠) في بيروت ولندن والقاهرة. البشير (١٨٧٠) في بيروت. طرابلس الغرب* (١٨٧٠) في طرابلس الغرب. ثمرات الفنون* (١٨٧٥) في بيروت. المقتطف (١٨٧٦) في بيروت والقاهرة. الأهرام (١٨٧٦) في الإسكندرية والقاهرة. الطبيب (١٨٧٧) في بيروت. أبو نظارة (١٨٧٧) في القاهرة وباريس، الوطن (١٨٧٧) في القاهرة، لسان الحال (١٨٧٧) في بيروت، صنعا (١٨٧٩) في اليمن. المصباح* (١٨٨٠) في بيروت، المحروسة (١٨٨٠) في الإسكندرية والقاهرة. الاتحاد الاتحاد المصري (١٨٨١) في الإسكندرية، الموصل (١٨٨٥) في الموصل، الصفا (١٨٨٦) في بيروت ولبنان. اللطائف* (١٨٨٦) في القاهرة، بيروت الرسمية (١٨٨٦) في بيروت، الحقوق (١٨٨٦) في القاهرة، الحاضرة (١٨٨٧) في تونس الزهرة (١٨٨٩) في تونس، المقطم (١٨٨٩) في القاهرة، المؤيد (١٨٨٩) في القاهرة.

يتضح مما سبق بيانه أن أطولّ الصحف العربية عمرًا بلغ عددها أربعًا وثلاثين جريدة ومجلة منذ ظهور الصحافة إلى الآن. منها تسعُ صحف احتجبت ودخلت في خبر كان وخمس وعشرون لم تزل منتشرة في الوقت الحاضر. ولا يستثنى منها سوى مجلة «أعمال شركة مار منصور» التي تحوَّلت إلى برنامج سنوي وبهذه الصفة يمكن اعتبارها صحيفةَ وْرقية كما لا يخفي. نسأل الله سبحانه أن يوفقنا لخدمة الأدب وإِعلاءِ منار لسان العرب وهو وليُّ التوفيق والإحسان، إنه الكريم المنان.

الباب الأول

الصحافة العثمانية

الفصل الأول

أخبار جرائد بيروت سنة ١٨٧٠م

عَلّى المذابح الفظيعة التي جرت في سوريا سنة ١٨٦٠ ولطخت وجه الإنسانية بمداد العار، حضرت العساكر الفرنسية إلى بيروت لمساعدة الدولة العثمانية على تأييد الراحة وا.لاقتصاص من الثائرين الذين عاثوا في البلاد فسادًا. وبعد انسحاب العساكر، أخذت الحركة الفكرية تنتعش في روح السوريين، فأنشأوا المدارس الابتدائية والعالية لتعليم الناشئة الحديثة ولم يكن حينئذٍ في سوريا مدرسة كبرى سوى مدرسة عينطور المؤَسسة عام ١٨٣٤ بعناية الآباء العازبين، وأول مَن شمر عن ساعد الهمة لهذه الغاية الشريفة كان المعلم بطرس البستاني الذي أنشأ سنة ١٨٦٣ «المدرسة الوطنية» الشهيرة. ثمَّ غريغوريوس الأول بطريرك الروم الكاثوليك الذي أسس عام ١٨٦٥ «المدرسة البطريركية» ثم المرسلون الأميركان الذين نقلوا سنة ١٨٦٦ مدرستهم المؤسسة في عبيه عام ١٨٤٦ إلى بيروت وسموها «المدرسة الكلية السورية الإنجيلية»، فاقتدى الآباء اليسوعيون بمثلهم وافتتحوا سنة ١٨٧٥ «كلية القديس يوسف» التي شيدوها في بيروت عَلّى أنقاض مدرستهم القديمة في غزير. وفي تلك السنة قامت «مدرسة الحكمة» للمطران يوسف الدبس الماروني ثم «المدرسة الإسرائيلية» على يد الحاخام زاكي كوهين. وظهر أيضا غيرها من المدارس الثانوية التي نضرب

عنها صحفًا لكثرتها كمدرسة «ثلاثة الأقمار» للروم الأرثوذوكس سنة ١٨٦٢ ثم «المدرسة السريانية» بإدارة الدكتور لويس صابونجي سنة ١٨٦٤.

وكانت الحكومة الفرنسية تمد بالمال المدارس الكاثوليكية منها. كما أن الجمعيات البروتسانية كانت تجود على المدارس الإنجيلية بسخاء وافر وكان التلامذة يؤمون هذه المعاهد العلمية من بيروت ولبنان وسائر بلاد سوريا ومصر وقبرص وأرمينيا والأستانة وما بين النهرين والعراق وسواها. وهكذا تفجرت ينابيع المعارف وفي وقتٍ قصير كثر عدد الكتاب والمؤلفين وأُنشئت المطابع ودخلت البلاد في عصر جديد من الرقي والفلاح. وكان النصيب الأوفر في هذه الحركة الفكرية للصحافة البيروتية التي جابت البلاد وأنارت الشعب بالمعارف. وحسبنا القول إن عدد الصحف التي ظهرت عام ١٨٧٠ في بيروت بلغ سبعًا بين جريدة أو مجلة وهو أمرٌ جدير بالذكر في تاريخ الصحافة العربية.

كان السلطان عبد العزيز أكبر عامل عَلَى تنشيط الآداب لا سيما بعد ما شاهد بعينه حضارة الغربيين أثناء رحلتهِ المشهورة عام ١٨٦٧ إلى معرض باريس بدعوة مخصوصة من الإمبراطور نابليون الثالث. وكان خديوي مصر إسماعيل باشا الموصوف بالكرم الحاتمي شديد الرغبة في الاقتداء بالخلفاء العباسيين الذين كانوا يتقرب إليهم العلماء والشعراء، فأخذ يقتفي آثارهم لإحياء الآداب العربية ويجود بالعطايا عَلَى أئمة الصحافة، لا سيما عَلَى بطرس البستاني عميدهم في بيروت وأحمد فارس

الشدياق زعيمهم في الأستانة، وكانت مصر قبل تقدم صحافتها تلجأ إلى صحف تركيا لمعرفة الأخبار.

فلما اعتلى عبد الحميد الثاني أريكة الدولة العثمانية كانت الصحافة مطلقة الحرية تنشر الأنباء على علاَّتها زينًا كان أو شينًا. وتنتقد أعمال الحكومة ومأموريها حتى أنها لم تصفق على السلطان نفسه. وناهيك أن جريدة الجوائب في الأستانة وصحف الجنان والجنة والبشير والتقدم وثمرات الفنون في بيروت كانت بلا أدنى خوف تنشر المقالات عن مواقع الخلل في تركيا. بل كتبت صريحًا عن مقتل الوزراء في دار الخلافة وذكرت خلع السلطانين عبد العزيز ومراد الخامس عن سرير الملك، وأذاعت خبر انتصار الروس سنة ١٨٧٧ عَلَى العساكر العثمانية. غير أن السلطان عبد الحميد الذي لم يكن يهمهُ من كل أمور السلطنة إلا صيانة حياته خشي سوء العاقبة من دولة الجرائد وصولة كتابها، فأصدر أمرًا بتقييد حريتها وضيق عليها المراقبة حتى صارت جسمًا بلا روح. فما كانت تنشر سوى ما يطيب للسلطان من ألفاظ التفخيم والتعظيم في مدح عدالتهِ الموهومة عَلَى رغم مظالمهِ واستبداده وسوء إدارتهِ التي كادت تجر الخراب عَلَى المملكة لولا لطف الباري سبحانه كما سترى. ومن ألطف الأقوال في وصف مراقب الجرائد في تركيا ما نظمهُ أحمد شوقي، شاعر خديوي مصر، بهذا المعنى وهو:

لو ابتلى الله بهِ عاشقًا	ماتَ بهِ لا بالجوى والولة
لو دام للصحفِ ودامت لهُ	لم تنجُ منهُ الصحف المنزلَة
لو خال «بسم الله» في مصحفٍ	تغضب تحسبْنًا من البسملةْ

هكذا سئمت نفوس الأدباء، فهاجر أكثرهم إلى مصر والبلاد الأجنبية، حيث أنشأوا الصحف المعتبرة كما جرى لرزق الله حسون والدكتور لويس صابونجي في لندن وكذلك لجبرائيل دلال وخليل غانم وميخائيل عورا ويوسف حاج والأمير، أمين أرسلان في باريس. ومنهم أنطون فارس وعقل بشعلاني في مرسيليا ووديع كرم في طنجه ويوسف باخوس في غلياري. ومثل ذلك فعل سليم بك تقلا وبشارة باشا تقلا وأديب إسحق وسليم نقاش وخليل نقاش وروفائيل زند وعزيز بك زند ورشيد شميل وخليل زينيه والشيخ نجيب الحداد والشيخ أمين الحداد وعبده بدران وطانيوس عبده ويعقوب نوفل ونجيب إبراهيم طراد والشيخ شاهين الخازن والشيخ نسيم العازار وحنا جاويش وسبع شميل في الإسكندرية. ثم نذكر أنيس خلاط والدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر وشاهين مكاريوس والشيخ إبراهيم اليازجي والشيخ خليل اليازي وسليم بك عنحوري وسليم فارس وجرجي بك زيدان ومحمد رشيد رضا ونقولا بك ثوما وأمين شميل وأمين بك ناصيف والدكتور شبلي شميل وحبيب فارس وديمتري نقولا وسليم سركيس ومحمد سلطاني ومحمد كرد على وإبراهيم نجار وأيوب عون والدكتور أديب زيات والدكتور بشاره زلزل ونجيب جاويش وأمين شدقان واسكندر شاهين والشيخ يوسف الخازن وفرح انطون ويوسف آصاف وسواهم في القاهرة. ونضيف إلى هؤلاء جميع أرباب الصحف في أميركا الشمالية والجنوبية وهمُ يعدون بالعشرات، فضلًا عن مشاهير الكتبة الذين كانوا يساعدون

كلّ من ذكرنا في التحرير والتحبير ونضرب صفحًا عن سرد أسمائهم لكثرتهم؛ فإنهم قاطبةً تركوا البلاد العثمانية كي يخدموها بصدق في جرائدهم ويكونوا آمنين عَلَى حياتهم من غدر السلطان عبد الحميد وأعوانه.

نشرة أسبوعية ذات ثمان صفحات صغيرة أنشأها في غرَّة كانون الثاني ١٨٧٠ يوسف الشلفون على عهد راشد باشا والي سوريا. وتتضمن فصولًا تاريخية ونكتًا أدبية وفوائد علمية بقلم منشئها وبعض حملة الأقلام السوريين، فعاشت حولًا كاملًا وصدر أخر أعدادها في ٢٤ كانون الأول للسنة المذكورة. ثم خلفتها مجلة «النجاح» التي سيأتي ذكرها. وأخص الذين كتبوا فيها وهم: الشيخ إبراهيم اليازجي وفرنسيس مرّاش والسيد محمد سعيد دجاني وسليم بك تقلا وسليم نقاش واسعد طراد والدكتور بشاره زلزل وإبراهيم الحوراني وإبراهيم مشاقه وشاكر شقير وسليم الخوري وداود كنعان ونخله جريدتني.

أصدر الزهرة بالشركة (راجع مجلة النعمة: سنة٢ صفحة ٧١٩)، فاقتضى التنويه والتنبيه وقد نظم الشاعر البيروني الحاج حسين قصيدة في مدح هذه الجريدة، نورد منها الأبيات الآتية:

صاح نورُ «الزهرة» الغرَّاء لاحْ ... في ربي بيروتَ فازداد الفلاحْ
يا لها من نشرةٍ قد نشرتْ ... نشر طيبٍ طاب نشراً حينَ فاحْ
أَزهرت أغصانها بل أثمرت ... بفكهاتِ وجدٍ ومزاحْ
قطفت من كل فٍ ثمرًا ... فيهِ تغثي تاروحُ عن أقداح راحْ

هو عنوان نشرة دينية أدبية تاريخية روائية ذات ثمان صفحات بحجم صغير. ظهرت في ٢٥ شباط ١٨٧٠ مرَّتين في الشهر لمنشئها خليل عطية اللبناني، وكانت معتدلة المشرب تحتوي على شذرات مفيدة ونصائح حكمية وأشعار لطيفة. وفي ١٢ آب للسنة ذاتها احتجبت بعد صدور العدد الثاني عشر منها وقد طبعها صاحبها في المطبعة اليزبكية، وصدَّرها بهذين البيتين:

يا باذلًا بجنى الفوائد جهدهُ إن شئت أن تغنى عن الأعوازِ
فإلى السباق على مطهم همةٍ وطنيـــةٍ وعلــــك لاهمــــازِ

ولما ظهرت جريدة «الهدية» لجمعية التعليم المسيحي الأرثوذكسي عام ١٨٨٣، تولى خليل عطيهةكتابة فصولها لمدة سنتين. كما أفادنا المحامي البارع إلياس بن جرجس طراد، وتوفي رحمهُ الله بعد التاريخ المذكور بزمن قليل.

صحيفة أسبوعية سياسية تجارية أدبية. أنشأَها في ١١ حزيران ١٨٧٠ سليم ابن المعلم بطرس البستاني وكان عنوانها محاطًا بغصنين من ورق الغار يعلوها رسم الهلال والنجمة كأكثر الصحف العثمانية في ذاك العهد. وإلى جانبي العنوان أسماء وكلاء الجريدة ومحلات الاشتراك في الجهات وقد اشتهرت هذه الصحيفة بصدق المبدأ وانتقاء الأخبار الصحيحة وجلب الأنباءَ البرقية لحسابها الخاص عند اللزوم. وكان التجار يعوَّلون عليها في أسعار التجارة وسوق القراطيس المالية والحوادث السياسية. وفي الشهر الثاني من ظهورها، صارت تصدر مرتين في الأسبوع بمطبعة المعارف إلى غرَّة كانون الأول

١٨٨١، فصارت تُطبع في المطبعة الأدبية لمنشئها خليل سركيس. وحينئذ جرى الاتفاق بين المعلم بطرس البستاني منشيء «الجنان» وسليم البستاني مدير «الجنة» وخليل سركيس صاحب «لسان الحال» على ضم هذه الصحف إلى دائرة واحدة ومطبعة واحدة، فاستلم خليل سركيس إدارتها وفُوض إليه أمر طبعها وتوزيعها وحساباتها. وإنما بقيت كتابة كل صحيفة متعلقة بصاحبها الأصلي كما كانت سابقًا. وبعد وفاة سليم البستاني في ١٣ أيلول ١٨٨٤، تحوَّل امتياز الجنة إلى أخيه نجيب الذي أصدرها لمدَّة حولين كاملين ثم أوقفها باختياره موذعًا الصحافة التي خدمتها الأسرة البستانية نحو خمسٍ وثلاثين سنة بما لا يوصف من الغيرة والصدق واعتدال المشرب؛ لأنه لما اشتدَّت المراقبة عَلَى الجرائد في سوريا، اغتاظت الحكومة من نجيب البستاني لنشره ترجمة مدحت باشا زعيم الأحرار العثمانيين. فأصدرت الأوامر بتعطيل جريدة «الجنة» ومجلة «الجنان» مما ألحق بصاحبها خسارة كبيرة. ولما كانت الصحيفتان المذكورتان عُرفتا بالدفاع عن حقوق العثمانيين والضرب عَلَى أيدي المفسدين، أَبت نفس صاحبهما أن يجعلها آلةً في أيدي مأموري المطبوعات أو هدفًا للأهواء، فتوقفا عن إصدارهما رغمًا من صدور الإدارة السلطانية بالعفو عنهما بمساعي نامق باشا شيخ الوزراء وسعيد ناظر الخارجية سابقًا في عاصمة الدولة. وبالإجمال، فإنَّ الصحيفتين كانتا في عهدهما من أرقى الصحف العربية وأكثرها نفعًا وأعظمها انتشارًا.

وقد عاشت نيفًا وست عشرة سنة ولم تزل فوائدهما مذكورة بكل شفة ولسان. ونظم الحاج حسين بيهم قصيدة في مدح جريدة «الجنة» عند أوَّل ظهورها ثم ختمها بتاريخين أولهما على الحساب الهجري وثانيهما عَلَى الحساب الميلادي، فأحببنا أن نجعلها مسك الختام لأخبار هذه الجريدة المعتبرة وقد ضمنها ناظمها أسماء كل الصحف العربية التي كانت منتشرة في ذلك الحين وهي مطبوعة بين قوسين:

أَلا يـا بنـي الأوطـان عوجـوا «لجنـةٍ» لأخبارهــا بالصــدقِ ألطــفُ رنــةِ
«حديقــة أخبــار» «جوائــب» حكمــةٍ «جنان» معانٍ لفظها شهد «نحلةِ»
«وقائعهـا» «كالنيـل» عـذبٌ «فراتهـا» تفضـلها «الـزوراء» عـن بحـر دحلـةِ
«كروضـة» علـمٍ قد غدت «المدارسِ» «ورائـدها» يهـدي لنـا نشـرَ «زهـرةِ»
«بســروية» الفيحــاءِ يعبــقُ نشــرها وبالشـرقِ ثـمْ بـالغربِ فـازت بشـهرةِ
لمنشــئها العلامــةِ الشــهم شــهرةٌ بخدمتـهِ الأوطـان فـي كـلِّ لحظـةِ
يغـارُ عَلَـى نشـر المعـارف فـي الـورى ويجهـدُ فـي تكثيـر أنـواع صـنعةِ
وينــــدينا للإتحـــاد الـــذي بـــهِ وبالجـــدِّ لا نحتـــاجُ بعـــدُ لأمـــةِ
بظـل مليـك العصـر سـلطاننا الـذي بدولتـــهِ للعلـــم أعظـــمُ دولـــة
عدالتـــه الغـــرَّاءُ مـــدَّت رواقهـــا علنــا فصــرنا فــي أَمــانٍ وبهجــةِ
فـــلا زالـــت الأقطـــارُ تـــزدادُ رونقـــاً بأيامـهِ مـا طـابَ قـارئُ «نشـرةِ»
ومـا قـال مَـن تهـدي لعلـمٍ «جنانـهُ» «وجنتــهُ» تهــدي لنــا كــلَّ طرفــة
أَلا اســـــمعوا أرِّخْ لأخبــــار جنــــةٍ وتاريخهـــا يُلقـــي كـــأَلطف غـــرَّةِ

صحيفة كاثوليكية دينية إخبارية أسبوعية. أنشأَها الأب إمبرسيوس مونو، رئيس الآباء اليسوعيين في سوريا، عَلَى أَنقاض مجلة «المجمع الفاتيكاني» في ٣ أيلول ١٨٧٠ لخدمة الطوائف المسيحية الكاثوليكية الشرقية وقد اتخذ كلمات السيد المسيح «تعرفون الحق والحق يحرّركم» شعارًا لها. وتعدُّ البشير من أرقي الجرائد التي يُركن إلى صحة أخبارها وصفاء مبادئها وإخلاص خدمتها للآداب والعلم والوطن. وكان في أول عهده صحيفة صغيرة تحتوي عَلَى ثمان صفحات بقطع «النشرة الأسبوعية» للمرسلين الأميركان. ثم تحوَّل في ٢ كانون الأول ١٨٧٢ إلى جريدة منشورة بأربع صفحات متوسطة وما زال ينمو حتى صار من

أكبر الصحف حجمًا وأشدّها إتقانًا. ومنذ ٣ كانون الثاني ١٩١١، صار يظهر مرَّتين في الأسبوع بعد ما لبث أسبوعيًّا.

البَشِيرُ سنة ١٨٨١

رسم عنوان البشير في أوائل عهدهِ إحدى وأربعين سنة كاملة. وفي ٣ كانون الثاني ١٩١٣، صدر ثلاث مرات في الأسبوع مع بقاء قيمة الاشتراك فيه كما كانت في عهده الأسبوعي، وبقي ١٥ سنة يصدر بالحرف الأميركاني حتى أَبدلهُ في ١٦ نيسان ١٨٨٤ بالحرف القسطنطيني.

وقد برز في فرص شتى بمظهر جميل يروق للأبصار بنقوشهِ البديعة ورسومهِ الفاخرة التي لم يُعهد لها مثيل في سائر الصحف العربية حتى الآن. وأخص إعداده الممتاز التي تستحق الذكر التي صدرت في المواعيد الآتية: (١) اليوبيل الذهبي سنة ١٨٨٧ لكهنوت البابا لاون الثالث عشر. (٢) اليوبيل الذهبي الأسقفي سنة ١٨٩٣ للحبر الأعظم المشار إليهِ. (٣) اليوبيل الفضي سنة ١٨٩٥ لتأسيس جريدة البشير. (٤) اليوبيل الفضي سنة ١٩٠٢ لارتقاء لاون الثالث عشر إلى السدة البطرسية. (٥) جلوس البابابيوس العاشر سنة ١٩٠٣ عَلَى العرش الرسولي. (٦) اليوبيل الذهبي في السنة المذكورة لتأسيس المطبعة الكاثوليكية. (٧) العيد الخمسيني سنة ١٩٠٤ لإعلان عقيدة الحبل بلا دنس. (٨) اليوبيلان الكهنوني الذهبي والاسقفي الفضي سنة ١٩٠٨

للبابابيوس العاشر. (٩)اليوبيل الفضي الأسقفي سنة ١٩١٢ للسيد أغناطوس افرام الثاني بطريرك السريان الأنطاكي ..

وإليك أسماء الآباء اليسوعيين الذين تولوا إدارة البشير من يوم نشأَتهِ حتى الآن مع تواريخ السنين: الأب يوحنا بلو (١٨٧٠– ١٨٧٤) والأب يوسف روز (١٨٧٥– ١٨٧٦) والأب فيلبس كوش (١٨٧٧) والأب لويس أبوجي (١٨٧٨– ١٨٧٦) والأب جرمانس دروبرتوله (١٨٨٠) والأب فيلبس كوش للمرَّة الثانية (١٨٨١) والأب بطرس ماليه (١٨٨٢) والأب سليمان غانم (١٨٨٣– ١٨٨٤) والأب لويس ابوجي للمرة الثانية (١٨٨٥) والأب سليمان غانم للمرة الثانية (١٨٨٦ – ١٨٩٠) والأب أنطوان صالحاني (١٨٩١ –١٨٩٣) والأب هنري لامنس (١٨٩٤) والأب أنطوان صالحاني للمرة الثانية (١٨٩٥– ١٨٩٩) والأب هنري لامنس للمرة الثانية (١٩٠٠– ١٩٠٢) والأب انطوان رباط (١٩٠٣– ١٩٠٦) والأب لويس معلوف وهو المدير الحالي.

وكنا نود نشر رسوم جميع مدراء البشير منذ نشأته إلى الزمان الحاضر تقديرًا لفضلهم وتخليدًا لذكراهم. ولكن دون ذلك امتناع الأحياء منهم عن تلبية رغبتنا محافظة على قانونهم الرهباني ولم نحصل بعد الجهد إلا على رسوم بعض الأموات منهم مع رسم قديم لأحد الأحياء الذي وجدناه عند عائلته.

وكان لهؤلاء الآباء مساعدون في التحرير بعض أفاضل الكتبة الذين نذكر منهم: المعلم جرجس زوين(١٨٧٠- ١٨٧٦) والخوري يوسف البستاني (١٨٧٧- ١٨٨١) وخليل البدوي (١٨٨٢- ١٨٩٠) ورشيد الشرتوني (١٨٩١- ١٩٠٧) وأنطوان الجميل (١٩٠٨) والخوري بولس طعمة (١٩٠٩-٠٠٠) وهو المحرر الحالي.

وعام ١٨٧٨ نشرت إدارة البشير، بعناية الأب بطرس دمياني اليسوعي، تقويمًا سنويًّا يعرف باسم «تقويم البشير» لا يزال يتزايد كل سنة كمالا وإتقانا. وقد حسنه بعد ذلك الأبوان أنطوان رباط ولويس معلوف اليسوعيان وزادا في حجمه وزيناه بالرسوم الفاخرة وقد وصفته مجلة «المسرة» اللبنانية (جزء ١٢) بقولها:

«فهو يتضمن جداول عديدة لمعرفة الأيام والأسابيع والشهور والأعياد والصيامات إلخ. ثم يذكر الرؤساء الروحيين الكاثوليكيين ثم جدول للمساحات والمعدودات المترية مع فوائد لتحويل النقود والمعدودات. ثم يعقبه نظر في التقسيمات الإدارية في الدولة العلىا مع ذكر قناصل الدول الأجنبية والمديرين وأخص المأمورين في الإدارات والشركات في الدولة. ثم فوائد شتى في البوسطة والتلغراف والجرائد والمجلات. وقد امتاز بنوع بوضع جدول شامل يتضمن السنين الهجرية وما يقابل بدء كل منها في السنين المسيحية مع أمثاله وفوائد صحية وعلمية وفكاهية إلى غير ذلك مما يجعل هذا الكتاب الذي يشتمل على ٢١٥ صفحة كاملا في بابه ويكفيه مدحًا أن نقول عنه بلا مراء أحسن

تقويم يصدر في اللغة العربية. وأننا لا يمكننا أن نجد في كتاب سواء الإفادات التي نجدها فيه»

ومن أحسن الشهادات التي تركن إلى صدق ينبوعها وثقة روايتها عن نزاهة مبدأ البشير، ما روته جريدة «سورية» الرسمية في شهر كانون الثاني ١٨٨٧ قالت:« البشير جريدة قديمة٠٠٠ لا تكتب في سياق الأخبار السياسية وحوادث العالم شيئًا مضرًّا بحق الدولة والملة أصلًا».

ولما نشبت الحرب في طرابلس الغرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا سنة خلال عامي ١٩١١، ١٩١٢ أصدر ناظر الحربية العثمانية أمرًا منع فيه الجرائد عن نشر المعلومات المتعلقة بالدفاع الوطني، فتخيل للمجلس العرقي في بيروت أن جريدة «البشير» خالفت الأمر المذكور. فحكم على مديرها المسؤول بدفع ستين ليرة عثمانية وبتعطيلها لمدة الحرب. ولكن حازم بك والي بيروت وجد هذا القرار شديدًا، فطلب نسخة من الأستانة واستحصل عليه ثم عادت الجريدة إلى الانتشار. وفي مدة تعطيلها صدرت باسم «صدى البشير» في ٤ حزيران ١٩١٢ وقد ظهر منها عددان فقط.

واشتهر البشير بصدق الرواية وجرأة الكتابة في كل أدوار حياته وكان في أول ظهوره مكتوبًا بعبارة ركيكة مثل بقية صحف ذلك العهد وكانت مواضيعه تتناول المسائل الدينية وبعض الحوادث المحلية وسائر أخبار الكون التي لها علاقة بالدين. وكان لا يطالعه سوى جماعة

الكاثوليك دون غيرهم. فلما تولى الأب سليمان غانم اللبناني اليسوعي إدارته، كان خليل البدوي قائمًا بشؤون مؤسس مجلة «الزهور» في القاهرة وأحد محرري «البشير» و«الأهرام» سابقًا التحريرية. فأنعش كلاهما روحًا جديدة في البشير ووسعا نطاق مباحثه وحسنا عبارته ومواضيعه حتى صار يطالعه الكاثوليكيون وغير الكاثوليكيين. وعلى إثرها جرى مديرو الجريدة والمحررون فيها إلى الزمان الحاضر وصارت نسخ البشير تباع بكثرة كسائر الصحف السيارة في أسواق بيروت والجهات والذي ساعد على نجاحه تسليم إدارته للآباء الوطنيين اليسوعيين بعد ما كان يتولاه منهم الأجانب عن بلادنا ولغتنا وقراؤه يعدون بالألوف في بيروت وكل قرى لبنان وسائر أنحاء سوريا وفلسطين وقبرص ومصر والسودان وشمال إفريقيا والعراق وبين النهرين.

وله مشتركون عديدون في أوروبا وأمريكا والهند والحبشة واستراليا وغيرها من الأقطار المأهولة بالمسيحيين الناطقين بالفساد. ومديره الحالي الأب لويس معلوف رجل نشيط مشهود له بالعلم والغيرة والفضل وسداد الرأي. وله اليد البيضاء في ترقية شؤون الجريدة وزيادة تحسينها وإليه يرجع الفخر في إصدارها مرتين في الأسبوع ثم ثلاث مرات في الأسبوع بعد ما لبثت أسبوعية أكثر من أربعين سنة.

وقضى البشير أيام بؤس في عهد المراقبة على المطبوعات. وبسبب ذلك تعطلت مرات شتى بلا مسوغ قانوني سوى تعنت المراقبين لاسيما في عهد حسن فائز الذي كان يضغط بكل قواه على الجرائد،

فاضطر رئيس اليسوعيين مع الأب أنطوان صالحاني مدير البشير أن يذهبا إلى الأستانة ويقيما الشكوى لدى الباب العالي على المراقب المذكور. فساعدتهما سفارة فرنسا للحصول على إنصاف السلطان الذي أمر بإعادة ظهور الجريدة.

وللبشير مجادلات دينية ومناظرات علمية شهيرة في مواضيع مختلفة جرت بينه وبين أهم الصحف العربية التي نذكر منها: «الجنان» و«النشرة الشهرية» و«النشرة الأسبوعية» و«الجنة» و«التقدم» و«مرات الفنون» و«الفنون» و«الهدية»في بيروت. ثم «المقتطف» في بيروت والقاهرة. ومنها «الفلاح» و«اللطائف» و«الهلال»في القاهرة. وأخيرًا «المناظر» في بعيدات بجبل لبنان وغيرها. وقد ذكرنا أكثر تلك المجادلات وأسبابها ومواضيعها عندما سردنا أخبار الصحف المذكورة وقد تلطف كثير من الوزراء والعظماء فزاروا إدارة «البشير» ومطبعته. فلما زارها عزيز باشا والي بيروت سنة ١٨٨٩، أخذت آلات المطبعة تنشر مدائحه باللغات التركية والعربية والفرنسية، ومنها هذه الأبيات:

باهت عراص الدار لما زارها — وال خطير في الكرام عزيز
بالله يابكم اهتفي بقدومه — فليحي مولانا وعاش عزيز
قد أرخوا بالرغد كن أرخت نل — سد في الورى واظفر وقاك عزيز

الفصل الثاني

أخبار جرائد بيروت منذ ١٨٧١م إلى ١٨٧٦م

كوكب الصبح المنير

هو عنوان نشرة شهرية دينية مصورة ذات أربع صفحات، متوسطة الحجم، أصدرها القساوس الأمريكان في بيروت بتاريخ غرة كانون الثاني ١٨٧١ لتوزيعها مجانًا على تلامذة مدارسهم البروتستانتية. وتتضمن أخبارًا وحكمًا وألغازًا روحية وترانيم دينية وفوائد أدبية. وقد جعلوا شعارها هذه الآية: «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة». وكان عنوانها مكتوبًا بشكل كوكب تنبعث أشعته على بيروت. وإلى طرفي العنوان رسمان آخران يمثل أحدهما بناية الكنيسة الإنجيلية مع برج الساعة الأمريكية في هذه المدينة. وفي ٣١ تموز ١٣٠٦ مالية (١٢اب ١٨٩٠ مسيحية) تعطلت لأن أصحابها كانوا غير حائزين على الرخصة الرسمية من الحكومة بنشرها. قابلوها بنشرة شهرية ذات صفحتين موسومة «بالنشرة الأسبوعية» لم تزل حية حتى الآن. وهي غير النشرة الأسبوعية التي تصدر مرة في الأسبوع وحجمها أكبر من الثانية. وأخص الذين كتبوا في جريدة «كوكب الصبح المنير» هم: الدكتور كرنيليوس فانديك وإبراهيم سركيس وإبراهيم الحوراني ورزق الله البرباري.

النشرة الأسبوعية

هو عنوان صحيفة دينية أسبوعية مصورة، شعارها «فتح كلامك ينير». أنشأها المرسلون الأمريكان في ١٠ كانون الثاني ١٨٧١ خلفًا لجريدة «النشرة الشهرية» التي سبق وصفها في الجزء الأول. وهي ذات ثمان صفحات صغيرة مطبوعة طبعا نظيفا وقد تولى إدارتها وتحريرها في أول عهدها الدكتور كرنيليوس فايديك. ومن بعده تحولت إدارتها لعهده القس صموئيل جسب ثم لأخيه هنري جسب الأمريكيين، فكتب فيها الأساتذة إبراهيم سركيس ورزق الله برباري وأسعد شدودي. وبعد ذلك عهد بتحريرها للكاتب البليغ والشاعر المطبوع إبراهيم الحوراني الذي لم يزل قائما بهذه المهمة منذ سنة ١٨٨٠ حتى الآن. وفي السنين الأخيرة، أخذ يساعده في الترجمة من اللغة الانكليزية إلى العربية الأستاذ إلياس بهنا من راشيا. وفي شهر كانون الثاني ١٨٩٠، تعطلت بأمر الحكومة سنة كاملة؛ لأنها نقلت من الجرائد المحلية تلغرافات لا توافق مشرب الحكومة في ذلك العهد. فلما احتج مدير النشرة لدى المراجع الايجابية على هذه المعاملة، إجابه مراقب المطبوعات: إن الحكومة تعول على صدق أصحاب «النشرة الأسبوعية» وتدعوهم إلى زيادة التحري في انتقاء الأخبار.

وقد جرت مناقشات طويلة بين «النشرة الأسبوعية» وغيرها من الصحف البيروتية لا سيما «البشير» و«الهدية»سنة ١٨٨٨ فيما يتعلق ببعض القضايا المختلف عليها بين الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستنت

وحمى وطيس الجدال بين هذه الجرائد الثلاث واستعرت نيرانها، فكانت الواحدة تخطئ الأخريين وتسعى في إسقاطهما. ومن أهم فصول النشرة أثناء المناقشة المذكورة مقالات تحت عنوان: «سيف ذو حدين» أو«امضي من كل سيف ذي حدين» وغيرها حملت فيها على البشير والهدية.

وبعد احتجاب الأخيرة عام ١٨٨٩ حدثت مجادلات ليست ذات شأن بين الأوليين ثم انقطعت تماما في الزمان الحاضر. ومنذ تولى إبراهيم الحوراني تحرير «النشرة الأسبوعية»، تحسنت عباراتها وأخذ ينشر على صفحاتها فصولًا أدبية وعلمية جزيلة النفع ولكنها صارت تصدر خالية من الرسوم إلا ما ندر. ولهذه الجريدة نسخة شهرية ذات صفحتين ينشرها المرسلون الأمير كان منذ سنة ١٨٩٠ بدلا من جريدة «كوكب الصبح المنير» الملقاة، وهي مخصصة بصغار التلامذة في المدارس البروتستانتية.

الجنينة

جريدة سياسية تجارية ذات صفحتين بقطع متوسط. ظهرت عام ١٨٧١ لصاحبها سيلم البستاني وهو أول صحفي عربي حاول أن يصدر جريدة يومية، فتسنى له ذلك بإصدار «الجنينة» أربع مرات كل أسبوع. وكانت جريدته «الجنة» السابقة الذكر تظهر في يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع. وهكذا كان قراء هاتين الصحيفتين يتناولون الأخبار

الجديدة كل يوم. وكانت «الجنينة» مصدرة بالأنباء البرقية السياسية تليها الحوادث المحلية ومراسلات الجهات. وكان القسم التجاري فيها مطولا ومتقنا يشمل أسعار التجارة والقراطيس المالية، وقد عاشت أربع سنين ثم احتجبت عام ١٨٧٥ عندما تفشى الهواء الأصفر في بيروت وبعض أنحاء سوريا. وكان بدل الاشتراك السنوي في «الجنينة» وحدها عشرة فرنكات. أما بدل اشتراكها مع «الجنة»، فكان ١٧ فرنكا ومع «الجنان» و«الجنة» ٣٣ فرنكا. وكان اسم الجريدة محاطًا برسم بديع تخفق بجانبية رايتان عثمانيتان نقش على إحداهما رسم الهلال والنجمة وعلى الأخرى شكل الطغراء السلطانية. وهذا الرسم صنعه الحفار المشهور ميخائيل فرح اللبناني. وكان سليم البستاني ينشئ فصول «الجنة» و«الجنينة» بمساعدة نسبية العلامة سليمان البستاني معرب «الإلياذة» للشاعر اليوناني أوميرس وأحد أعضاء «مجلس الأعيان» في السلطة العثمانية.

الجنينة

جريدة عمومية صدرت في مفتتح عام ١٨٧٤ بعد إلغاء مجلة «النجاح» لصاحب امتيازها يوسف الشلفون، فكانت أولا نصف أسبوعية في صفحتين متوسطي الحجم يحررها منشئها وحده. ثم انضم إليه أديب بك إسحق الدمشقي الذي كتب فيه سنة كاملة وتركها. وفي عامها الثالث صارت أسبوعية في ثمان صفحات صغيرة خالية من المواضيع المفيدة وطلاوة الأنباء الجديدة. وكانت مقالاتها منقولة على الغالب من الصحف

المحلية أو المصرية أو الجوائب في الأستانة، فانحط شأنها وسئم الناس من مطالعتها واضطر صاحبها إلى تعطيلها في السنة الرابعة، وقد نظم فيها القس لويس صابونجي هذا البيت المشهور:

إن التقـــــدم دائمـــــا يتـــــأخر   مـــا زال للشـــلفون اســـم يـــذكر

ولبثت محتجبة إلى بداية سنة ١٨٨١، فعادت إلى الظهور مرتين في الأسبوع بأربع صفحات كبيرة وصارت تطبع في مطبعة القديس جرجس للروم الأرثوذكس بعد ما كانت تنشر في «المطبة الكلية» لصاحب امتيازها يوسف الشلفون. وقد تولى تحريرها أديب اسحق للمرة الثانية بعد عودته من أوروبا وكان يدفع لصاحب الامتياز ستين فرنكًا في الشهر لقاء تنازله عن إدارتها له. فألبسها حلة قثيبة من البلاغة ورتب مباحثها وحسن مواضيعها حتى أقبل القوم على مطالعتها من كل البلاد العربية وقد افتتحها بمقدمة نفيسة جاء فيها ما نصه:

«ولقد أتى على هذه الصحيفة حين من الدهر دفنت حية وجرد غصن نفعها بما طرأ عليها من حوادث الأيام وعاديات الحدثان. ثم انجلت بهذا المظهر لم تنشأ من العدم البحت ولم تبد بعد المحو المطلق. ولكن تقمصت من الحياة ثوبًا جديدًا».

وكان الشيخ إسكندر العازار مع اشتغاله في بنك «سرسق أبناء عم» يساعد صديقه أديب إسحق في كتابة بعض فصول «التقدم» بدون توقيع اسمه على صفحات الجريدة. ومثل ذلك كان يفعل صديقه الآخر سليم

نجار، مدير إشغال محل مورك دالك. وبعد مرور سنة من التاريخ المذكور، سافر أديب إلى مصر فخلفه في تحرير الجريدة جرجس بن ميخائيل نحاس وانتقلت من بعده إلى عوني إسحاق. ولما كان عام ١٨٨٣ استلم تحريرها أديب للمرة الثالثة مدة شهور قليلة حتى اشتدت عليه العلة التي ذهبت بحياته، فأخذ الشلفون يصدرها مرة في الأسبوع بحجم أصغر واشترك فيها معه رجل لبناني يدعى يوسف جرمانوس. بينما قل إقبال الناس عليها لخلوها من المقالات الشائقة التي كان أديب يدبجها ببراعة العسال. ودامت الحال على هذا المنوال ثلاثة أعوام تنازعها عوامل البقاء والعناء حتى استلم إدارتها وتحريرها إسكندر بن جرجس طاسو ونجيب بن إبراهيم طراد الببروتيان، فأصدراها في ٣١ تشرين الأول ١٨٨٧ بحجم الجرائد الكبرى وأنعشا فيها روح النهضة الأدبية. وفي ٧ شباط ١٨٨٨ عطلها نصوحي بك، حاكم بيروت، لمدة غير معلومة؛ لأنها نشرت في اليوم السابق عبارات موجبة لتهييج الأفكار ثم صدر العفو عنها وعاشت إلى أواخر سنة ١٨٨٩ بادرة اسكندر طاسو المشار إليه. وقد جرت تقدم لا سيما في عهد أديب اسحق وبين جريدة «البشير» للآباء اليسوعيين. مناقشات طويلة لاختلافهما في المبادئ على قضية «التعليم الإلزامي» بالمدارس العلمانية في فرنسا. فإن الأولى كانت في أعوامها العشرة الأخيرة من الصحف الحرة التي تضرب على وتر الأفكار العصرية بينما الثانية تحافظ أشد المحافظة على التقاليد

الكاثوليكية. ولما قرظ اليسوعيون في بشيرهم كتاب«الدرر» لأديب اسحق، شهدوا لمؤلفه بآداب المناظرة وهذا ما كتبوه[1]:

«ومما يمدح به أنه في جداله معنا لو قابلناه مع كتاب بعض الجرائد، وجدناه متعاليًا عنهم في عدم تطويح قلمه مثلهم في ما يشينهم من السفاهة والطعن الشخصي. فكان الأجدر بأصحاب أديب كتبه هذه الجرائد خصوصا أن يقتفوا أثره في جدالهم معنا»

ثمرات الفنون

صحيفة أسبوعية سياسية أدبية، أنشأتها «جمعية الفنون» المؤلفة من بعض أدباء المسلمين وأعيانهم برئاسة الحاج سعد بن السيد عبد الفتاح حمادة. وفوضت إدارتها لصاحب امتيازها السيد عبد القادر قياني، أحد أعضاء الجمعية المذكورة وهي أولى الجرائد الإسلامية في بيروت وثانيها في السلطنة العثمانية بعد «الجوائب» في الأستانة. وكانت ثمرات الفنون في بداية عهدها شركة مساهمة تتألف من اثنى عشر سهمًا وقيمة كل سهم ألفان وخمسمائة قرش وهي باكورة الصحف العربية خلافًا لما رواه جرجي زيدان[1] من أن جريدة «اللواء» المصرية كانت أول جريدة عربية مساهمة. إلا أن «جمعية الفنون» لم يطل عمرها لحلول روح الحسد في بعض النفوس واندفاعها إلى معاكسة الجمعية التي

---

(1) راجع جريدة"البشير" عدد ٨٥١: ٥ كانون الثاني ١٨٨٨

(1) مجلة «الهلال» سنة ١٨ صفحة ٤٨٨

دخلت في خبر كان عند وفاة مؤسسها الحاج سعد حمادة، فانتقل اسم الجريدة ومطبعتها إلى صاحب الامتياز الذي جعل قبلته خدمة الأمة الإسلامية والجامعة العثمانية وكثيرا ما افتتح الاكتتابات على صفحات جريدته في سبيل الإعانات الخيرية والوطنية، وأهمها: اكتتابان أحدهما لإعانات غرقى الباخرة «أرطغول» العثمانية في مياه اليابان والآخر لمشروع السكة الحديدية الحجازية.

وكان صدور العدد الأول من «ثمرات الفنون» في ٢٠ نيسان ١٨٧٥، فتولى كتابتها رهط من أفاضل المحررين والمترجمين وهم الشيخ يوسف الأسير الأزهري والشيخ إبراهيم الأحدب وإسماعيل ذهني بك محاسب في حكومة لبنان سابقًا، وسامي قصيري وعوني إسحق وسليم بن عباس الشلقون واسكندر بن فرج الله طراد والشيخ أحمد حسن طبارة والحاج محمد محمود الحبال وغيرهم. وفي شهر تشرين الثاني ١٨٨٩، كبرت حجمها فصارت أعمدتها ١٦ بعد أن كانت ١٢ فقط. وفي ١٢ آيار ١٨٩٩ جرى الاحتفال بعيدها الفضي احتفالًا زاهيًا بأهل الفضل والوجاهة؛ تقديرًا لخدمة صاحب امتيازها ورئيس تحريرها المشار إليه. فنشرت الجرائد عبارات الثناء وعدت ذلك حدثًا تاريخيًا للصحافة العربية. وفي تلك الأثناء صدرت بثمان صفحات وكانت تصدر في أربع فقط. وبعد ما كانت صفحاتها الثماني تتألف من ٢٤ عمودًا صارت ٣٢ عمودًا. وعلى إثر ما أحرزته هذه الجريدة من المكانة بخطتها الوطنية ودعت عالم الصحافة يوم الإثنين ٢ تشرين الثاني ١٩٠٨ بالغة العام الرابع والثلاثين لعهد نشأتها.

السيد عبد القادر قباني

صاحب امتياز «ثمرات الفنون» (رسمه عند تأسيس الجريدة) ..كانت للمسلمين ثقة عظيمة بهذه الصحيفة التي بقيت لسان حالهم مدة طويلة، لاسيما بعد احتجاب «الجوائب» في الأستانة، فكانوا يطالعونها من جميع الجهات لأنها كانت تنشر أخبارهم وحوادث ممالكهم وأحوال شعوبهم في مشارق الأرض ومغاربها وتدعوهم لطاعة أمير المؤمنين والالتفاف حول عرش الخليفة. وكثيرًا ما جرت المجادلات بينها وبين بعض الصحف كالجوائب لأحمد فارس والبشير لليسوعيين. أما الجوائب، فنظرًا لسفاهة عبارتها فقد أعرضت عنها «ثمرات الفنون» وتركتها وشانها وجريدة «البشير» معروفة بتعصبها للدين الكاثوليكي. كما أن «ثمرات الفنون» موصوفة بتعصبها للدين الإسلامي وكان أهم جدال بين هاتين الصحيفتين يتناول مسالة «النخاسة» التي قررت دول أوروبا إلغاءها من شمال أفريقيا وما وراءها من الصحراء على يد الكردينال لافيجري، فاستحسنت «ثمرات الفنون» هذا الرأي ولكنها خشيت أن يكون القصد منه تنصير القبائل الإسلامية في تلك الأصقاع وبسط الحماية الأوروبية عليها، فذهب «البشير» غير هذا المذهب بحجة أن عمل الكردينال لافيجري هو محض خدمة لخير الإنسانية ولا علاقة لذلك بالدين والسياسة.

وعقب إعلان الدستور في الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨، جاهر السيد عبد القادر قباني صاحب «ثمرات الفنون» بما يأتي وحبذا القول: «إن مسؤولية أصحاب الجرائد في زمن الدستور أعظم منها في دور الاستبداد ولذلك يلزم أن يقوم بتحرير كل جريدة نخبة من الكتاب من جميع العناصر

للمحافظة على تأليف وحدة عثمانية من عناصر الوطن، فتعتز الجامعة العثمانية بهذه الوحدة. ولا أقدر من الجرائد لتحقيق هذه الأمنية التي هي روح الدستور إذا اتفق كتابها على التفاهم والتحاب ونبذ كل ما يدعو إلى سوء التفاهم». ولعل عدم فوزه بهذه الأمنية حمله على إهمال نشر الجريدة.

الفصل الثالث

أخبار جرائد بيروت من سنة ١٨٧٧ إلى سنة ١٨٨٥

لسان الحال

جريدة سياسية تجارية عملية زراعية صناعية. ظهرت في ١٨ تشرين الأول ١٨٧٧ لصاحب امتيازها خليل سركيس، فجرت منذ أول نشأتها حتى الآن على خطة الاعتدال والمسالمة وعدم التشيع إلى عنصر دون آخر، فاشتهر أمرها بذلك ونالت ثقة القريب والبعيد وأقبل الناس على مطالعتها من جميع الملل والنحل. وبين مشتركيها عدد كثير يرتقي عهد اشتراكه فيها إلى أول ظهورها بلا انقطاع؛ وذلك برهان جلي على ميل الناس إلى هذه الجريدة القديمة التي عرف منشئها بشيخ الصحافيين وانتدب عوارًا لفصل الاختلافات الطارئة بين أهل مهنته في حاضرة بيروت. وقد ظهرت في بدء عمرها صغيرة الحجم ثم أخذت تنمو وتتحسن تبعًا لسنة الارتقاء الطبيعي حتى بلغت الحد الذي يمكن لجريدة وطنية أن تبلغه في هذا الزمان وكانت أولاً نصف أسبوعية ثم صارت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع ثم أربع مرات حتى انتهى بها الأمر في ٢٣ أيلول ١٨٩٥ أن تصدر بمظهرها اليومي. ومنذ ذاك العهد أصدرت عددًا أسبوعيًّا يتضمن خلاصة حوادث الأسبوع وأخباره المهمة. ومن مزايا هذه الجريدة انها اقترحت على المتأدبين وأساطين اللغة أن يضعوا

ألفاظًا ترادف بعض التعابير الأجنبية وينحتوا منها ألفاظًا تكون على أوزان الأسماء العربية، فصادف اقتراحها استحسان المشتغلين باللسان العربي وهكذا درجت بالاستعمال ألفاظ كثيرة أقرها الأدباء في كتاباتهم. أما الذين تولوا تحرير «لسان الحال» مع صاحب امتيازه، فهذه أسماؤهم مرتبة بحسب التاريخ: المعلم جرجس زوين– الشيخ يوسف الأسير– أمين افرام البستاني– يوسف قيقانو– سليم سركيس– نجيب المشعلاني– الدكتور رزق الحداد– المعلم الياس بهنا– المعلم عبد الله البستاني– المعلم رشيد عطية– سليم بن عباس الشلقون– سعيد فاضل عقل، وهو المحرر الحالي مع يوسف قيقانو المشار إليه.

ومواد «لسان الحال» تشتمل اليوم على المواضيع الآتية: في الصفحة الأولى مقالة افتتاحية سياسية أو عمرانية ثم أخبار بريد أوروبا وخلاصة أقوال صحف الكون. وفي الصفحة الثانية الأنباء البرقية والأخبار المحلية مراسلات الجهات. وفي الصفحة الثالثة أسعار التجارة والقراطيس المالية وحركة البواخر وأحوال ميزان الحرارة والمطر وفصل من رواية تهذيبية يستطيع قراءتها كل إنسان لخلوها من كل ما يشين الآداب. والصفحة الرابعة مختصة بالإعلانات الكثيرة على اختلاف أنواعها.

المحرر في جريدة «لسان الحال» سابقًا وجريدة «المؤيد» المصرية» ومنشئ صحيفة «الأرز» و«المشير» في الإسكندرية والقاهرة و«ورجع الصدى» في لندن و«الراوي» في نيويورك و«البستان» في بوستون، وأخيرًا

«مجلة سركيس» في القاهرة وهي مطبوعة طبعًا نظيفًا وحروفها مصنوعة في المسكب الخاص بالجريدة. وفي فرص شتى ظهرت مزينة بالرسوم والنقوش التي تستحق الوصف المخصوص رسمه بالملابس العربية .

جريدة «لسان الحال"

رامز سركيس مدير التحرير ، واشتهرت هذه الجريدة في العالم الأدبي بأخبارها الصادقة ومباحثها المفيدة ومبادئها الشريفة وإخلاص خدمتها للوطن. يشهد على ذلك إقبال القوم على مطالعتها وتزاحم باعة الجرائد على باب إدارتها صباحًا ومساء لمشتري النسخ العديدة منها وما عابها في أكثر أدوار حياتها قبل إعلان الدستور العثماني سوى مبالغتها في محاسنة الحكومة ومدح المأمورين الخائنين مدفوعة إلى ذلك بحكم الضرورة ومراعاة أحوال الزمان. أما اليوم فإنها أطلقت للقلم عنان الحرية وجاهرت على صفحاتها بانتقاد أعمال الحكام مع وجوب تعميم الإصلاح في السلطنة عمومًا وبيروت خصوصًا تحت ظل الراية العثمانية. وفي ١٧ ايلول ١٨٩٥ نكبت باحتراق بنايتها الواسعة، فالتهمت النار مطابع الجريدة والحروف والكتب وصناديق المربين وسائر المطبوعات الباقية هناك منذ سبع وعشرين سنة. ولا تسل عما كان فيها من الأوراق على اختلاف أجناسها من الحبر والرصاص والقماش وغيره من لوازم المطابع. فلم يبق من ذلك سوى هيكل مطبعتين بخاريتين ومطبعة حجرية. ولم يسلم من المطبعة سوى مكتب الإدارة ودفاترها، فكان ذلك خسارة عظيمة على صاحبها تقدر بمائة ألف فرنك. وفي ٢٢ نيسان

١٩٠٤ حرى الاحتفال يوبيل الجريدة الفضي، فأهديت لمنشئها التحف النفيسة والنقود المالية والقصائد الرنانة اقرارًا بفضله. وبهذه المناسبة جمعت تقاريظ الأدباء وأقوال الجرائد في كتاب خاص يتألف من ١١٥ صفحة. ومن جملة تلك القصائد تثبت هذه الأبيات الرقيقة التي نظمها الشيخ إسكندر العازار وفيها يعتذر عن الاشتراك في الاحتفال بداعي ألم في عينيه:

حل في العينين إنذار من ... مشهد في سجن بيتي مختبي
حرمتني شقوة الطالع من ... مشهد مذ ربع قرن مطلبي
لي بحرماني قصاص ثم لي ... من شقاء الحال ما يشفع بي
يا لسان الحال ها تهنئة ... من قريض بالعيا مضطرب
من صديق عرسك الفضي في ... سفر ناديه اسمه لم يكتب
أنت وجه حسن لكنما ... نحن فيه حبة من حلب
بي أنا أفديك لا غير فقد ... رحم الرحمن أمي وأبي
نفع الله بكم أمصارنا ... وبجمع الوصفاء النجب
رارانا الذهبي المشتهي ... نخلط الجد به بالسير
أنت بالعكاز تمشي وأنا ... أسكب الفضة فوق الذهب
هي كأس سر من يسر بها ... وهي أيضًا سر من لم يشرب

ولخليل سركيس روزنامة سنوية يرتقي عهد ظهورها إلى سنة ١٨٦٩ تعرف بالروزنامة السورية وهي من أقدم التقاويم السنوية التي برزت في لغة العرب بعد تقويم مجلة «مجموع فوائد» التي سبق ذكرها، فكانت هذه الروزنامة في بادئ أمرها تطبع بالمئات، فزادتها السنون والأيام رواجًا

حتى صارت تطبع بعشرات الألوف؛ وهذا دليل كبير على ثقة الشعب بها واعتماده على ضبطها وإتقانها وسائر مضامينها المفيدة، وما قلناه عن الروزنامة نقوله عن «مفكرة لسان الحال» السنوية المشهورة.

ومنذ سنتين نيطت إدارة الجريدة وشؤون مطبعتها برامز سركيس، نجل صاحب الامتياز، لاحتياج والده إلى بعض الراحة من عناء الأعمال التي أثرت في جسمه مدة خمسين سنة بلا انقطاع ورامز سركيس هو شاب نشيط زكي الفؤاد. أخذ عن أبيه كل الصفات المحمودة لاسيما محبة الوطن وخدمة المعارف والصدق في المعاملات والانصباب على الأشغال وحسن السلوك بين الناس. ولا غرو فأحسن ما يقال فيه «أن هذا الشبل من ذاك الأسد» وله على صفحات «لسان الحال» كتابات شائقة تدل على سلامة ذوقه في صناعة التحرير.

المصباح

اسم لجريدة سياسية تجارية علمية أدبية. ظهرت في غرة كانون الثاني ١٨٨٠ ثلاث مرات في الأسبوع لمنشئها نقولا نقاش، فكانت خطتها كاثوليكية وصبغتها مارونية تنشر أخبار هذه الطائفة وتدافع عن مصالحها وبنوع أخص كانت لسان حال المطران يوسف الدبس، رئيس أساقفة بيروت الماروني الذي لا تنكر مساعدته المادية لها من أول نشأتها حتى أدركته المنية. وقد قدرت فضله عليها فكانت تنطق في كل فرصة بالثناء عليه، ولما تم الاحتفال بيوبيله الأسقفي الفضي، أصدرت

عددًا ممتازًا في ٢٠ أيار ١٨٩٧ يتضمن رسم المطران المشار إليه والفصول الطويلة عن ترجمته وأعماله. وقد نظم فيها الشاعر البيروتي مصباح رمضان هذين البيتين:

هـذي صـحيفة أخبـار لقـد بزغـت   من أفق عصـر تسـامـى فـيـه
كأنمـا هـي مشـكاة وأحرفهـا   ليـل ومفهومهـا للعقـل مصـباح

وللشاعر الدمشقي "جبران البحري" ثلاثة أبيات أيضًا ضمتها تاريخًا لصدور «المصباح»؛ وهي:

سـطح المصـباح فـي أفـق النهـى   وظـلام الجهـل فيـه انقرضـا
ونفـى الشـر وبـالخير أتـى   وأصـاب السـهم فيـه الغرضـا
ولسـان العصـر نـادى ارحلـوا   قـد بـدا مصـباح خيـري أرضـا

سنة ١٨٨٠ ميلادية

وفي كل أدوار حياته، اشتهر «المصباح» ببلاغة الإنشاء في ما كان ينشر على صفحاته من اللمع السياسية والمقالات الأدبية والفصول الاقتصادية والآثار العدلية. وكان أكثر قرائه والمشتركين فيه من اللبنانيين ولذلك كان يكثر من المباحث المتعلقة بشؤونهم في الوطن والمهجر. ولما توفي بطل لبنان يوسف بك كرم في ٧ نيسان ١٨٨٩ منفياً في مدينة نابولي، رثاه «المصباح» بمقالة رنانة لم ترق في عيون أرباب الحكومة، فصدر الأمر بتعطيله وكانت المقالة المذكورة مفتتحة بهذه الأبيات:

من للشجاعة من للسيف والقلم ... من المهمات من للضيف
لقد مضى ذلك الشهم ... آثاره الغر بين العرب والعجم
يا لهف لبنان بل يا لهف طائفة ... عن مثله عقمت فلتبكه بدم

وعند احتضار نقولا نقاش عام ١٨٩٤، تحول امتياز الجريدة ومطبعتها باسم نجلة جان بك نقاش الذي جرى على خطة والده. وأشهر الكتاب الذين تولوا تحرير «المصباح» تباعًا في عهد صاحبيه المشار إليهما، هم: المعلم جرجس زوين وبولس زين والشيخ خطار الدحداح وسليم نقاش وأديب إسحق وأنطون شحير وداود نقاش وسليم الشلفون. ولما كانت أشغال المحاماة التي ورثها صاحب الامتياز الثاني عن سلفه تستغرق أكثر أوقاته، سلم إدارة الجريدة وتحريرها في ٢٨ آب سنة ١٨٩٩ لإبرهيم بن سليم نجار، فأصدرها النجار أسبوعية على نفقته بحجم أصغر من حجمها الأول في ١٦ صفحة. وكان «المصباح» في عهده أنطق الصحف وأجرأها حتى أن جرأته هي التي جنت عليه، فتعطل عقب مقالة إصلاحية انتقد فيها أعمال بلدية بيروت وما فيها من الخلل. وبعد الإفراج عنه، أعاد جان بك إصداره في أربع صفحات كبيرة مدة سنتين. وفي عام ١٩٠٣ أناط إدارته وتحريره بالمرحوم نجيب حبيقه وإلياس جدعون، فتبع هذان إبراهيم نجار تمامًا ولكن بلهجة معتدلة. ومع ذلك فإنهما لم يسلما من شدة ضغط مراقب المطبوعات الذي عطل الجريدة لأنهما لم يدفعا له ما يبهر نظره عنهما. وبعد ذلك بقي «المصباح» محتجبًا حتى إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ في الدولة

العثمانية، فأصدر منه صاحب الامتياز بعض إعداد في ٤ صفحات صغيرة ولم يزل معطلًا من ذلك العهد.

وقد تلقى جان بك نقاش دروسه في كلية الآباء اليسوعيين ثم انتقل إلى «مدرسة الحكمة»، فقرأ علم الحقوق على والده وعلى الشيخ يوسف الاسيرونال الشهادة في ذلك. وسنة ١٨٨٨ صار يتعاطى مع والده فن المحاماة حتى تعين سنة ١٨٩٧ عضوًّا في محكمة استئناف ولاية بيروت، فخدم هذه الوظيفة أربع سنين ثم عاد إلى المحاماة وألف كتاب «مغني المتداعين عن المحامين» ونال الرتبة الثانية مع الوسام العثماني الثالث من الحكومة العثمانية وأحرز وسام «محامي القديس بطرس» من الجمعية المعروفة بهذا الاسم.

الهدية

هي نشرة شهرية دينية ذات صفحتين صغيرتين، ظهرت بادئ أمرها باسم «هدية إلى أولاد مدارس الأحد الأرثوذكسية» على مثال صحيفة «كوكب الصبح المنير» للبروتستنت في بيروت. غير أن الأولى كانت أصغر حجمًا من الثانية وخالية من التصاوير. وأنشئت «الهدية» في عهد السيد غفرئيل شاتيلا، مطران الروم الأرثوذكس وبإيعازه، فصدر عددها الأول بلا تاريخ ثم ظهر العدد الثاني مؤرخًا في غرَّة كانون الثاني ١٨٨٣ ثم العدد الثالث في شهر شباط. وظلت تصدر بهذه الهيئة مدة ثلاثة أعوام كاملة وتنشر قصصًا وحوادث دينية توافق ذوق الأولاد التي كانت

تهدى إليهم وكانت تديرها «جمعية التعليم المسيحي الأرثوذكسية» ويحرر فيها تبرعًا منهم بعض أعضاء هذه الجمعية الذين نذكر منهم: خليل عطية ووديع فياض وسامي قصيري وفضل الله أبي حلقة وغيرهم. وكان إسكندر العازار معتنيًا بالشؤُون الجدلية وكتابة مقالاتها.

الشيخ رشيد نفاع

أحد المحررين في جريدة «الهدية» ، وفي بدء عام ١٨٨٦ أُطلق عليها اسم « الهدية»، فتحسنت مواضيعها وصارت تصدر في الشهر مرَّتين بهيئة شبه مجلة، فتولت تحريرها لجنة أيضًا من « جمعية التعليم المسيحي» لتأَليف من الشماس غريغوريوس حداد (هو غبطة البطريرك الأنطاكي حاليا) ويوسف بن توما ترزي الحائز على شهادة اللاهوت من مدرسة حالكي في الأستانة والشيخ رشيد نفاع اللبناني. وفي أواسط تلك السنة، استقال الأخيران من تحريرها وبقي الشماس غريغوريوس وحده ينشئ فصولها. ثم أضيف إليه الشماس جراسميوس مسرة (سيادة مطران بيروت حاليا) واعظ الكرسي لأنطاكي حينئذ، بصفة مراسل في دمشق. وفي أثناءَ ذلك جرت المناظرة المشهورة بين «الهدية» وجريدة « البشير» على موضوع: « رئاسة القديس بطرس» وسواه من المواضيع المختلف عليها بين الأرثوذكس والكاثوليك كعصمة بأبوات رومة وسعادة القديسين والمطهر وغيرها. وكان لهذه المناظرة شأن كبير من الوجهتين الدينية والتاريخية؛بحيث أفرغ كل من الفريقين المتناظرين جهدًا لتأَييد دعواه بالأدلة التي توافق تعلم كنيسته.

وفي بداية سنة ١٨٨٧ أصدرت « الهدية» مرَّة كل أسبوع ولبثت إدارة تحريرها بيد الشماس غريغوريوس حداد وقد زاد احتدام الجدال حينئذٍ بين

الصحيفتين المار ذكرهما، فاضطرمت نيران المناظرة واشتد سعيرها حتى انقطع الجدال أخيرًا بمداخلة بعض أصدقاء الطرفين وعقلاء الطائفتين الكاثوليكية والأرثوذكسية. وفي فاتحة عام ١٨٨٨ استقال الشماس من إدارة شؤون الجريدة وتحريرها. فتولاها بعده الشيخ رشيد نفاع مدة سنتين كاملتين وكانت مواضيعها بين دينية وعلمية وتاريخية وسواها ما خلا السياسة. وفي أواخر سنة ١٨٨٩ جرت تلك المناظرة الشهيرة بين «الهدية» وجريدة «النشرة الأسبوعية» للبروتستنت على مواضيع شفاعة القديسين والصلاة لأجل الموتى وغيرها. وبعد ذلك بوقت قصير توقفت الهدية، فظهرت بدلا منها مجلة «المنار» لصاحب امتيازها الشماس أرسانيوس حداد مطران اللادقية حاليا. وسيأتي الكلام عن «المنار» في جزء آخر من هذا التاريخ.

وكانت «الهدية» ثاني الصحف الدينية التي أنشأها أبناء الطائفة الأرثودكسية بعد جريدة «المهماز» المار ذكرها. ومن مميزاتها أنها أنعشت في قلوب الأرثوذكسيين روح النهضة الأدبية وحملتهم على التنقيب عن مفاخر أجدادهم وعتائق تواريخ كنيستهم. ومن ذلك الحين انتشرت عندهم أكثر من سائر الطوائف الشرقية الصحف الدينية الرسمية وهي: «المنار» والمحبة في بيروت و«الكنيسة الأرثوذكسية» في القاهرة و«الكلمة» في نيويورك و«النعمة» في دمشق و«حمص» في حمص و«بشير فلسطين» في القدس الشريف.

الفصل الرابع

أخبار جرائد بيروت من سنة ١٨٨٦ إلى سنة ١٨٩٢

بيروت

هو اسم جريدة علمية سياسية تجارية أدبية. برزت مرَّتين في الأسبوع بتاريخ ٢٢ أيار ١٨٨٦ لصاحبها محمد رشيد الدنا. فراجت سوقها لأنَّ منشئها عَرف بلين الجانب واعتدال المشرب وإخلاص النية في خدمة الوطن. واتفق حينئذٍ أنَّ شقيقهُ عبد القادر الدنا كان رئيسًا لمجلس تجارة بيروت وذا كلمة نافذة يؤيدهُ كامل باشا الصدر الأعظم، فأُرسلت الجريدة لجميع تجار بيروت ولبنان وسوريا وسائر الجهات، فاشتركوا فيها إكرامًا لخاطره ولم يستطع أحد منهم أن يرفضها؛ لأنَّ أعيان بلادنا لسوء الحظ كانوا ولم يزالوا يضنون ببذل الدرهم في سبيل المشاريع الأدبية. ولذلك كان أكثرهم يشترك في الجرائد خجلًا من أصحابها لا بقصد مطالعة أخبارها والاستفادة منها. وفي شهر تشرين الثاني ١٨٨٩ ظهرت «بيروت» بحلة بهية من الحروف القسطنطينية المصنوعة في المطبعة الكاثوليكية وزادت فيها ١١٢ سطرًا.

وبعد وفاة منشئها عام ١٩٠١ انتقل امتيازها لعهدة أخيه محمد أمين الدنا الذي جعلها أسبوعية ثم قضت عليه أعماله التجارية بالانسحاب من إدارتها عام ١٩٠٥ مع بقاء الامتياز باسمهِ، فتولاها

أخوه عبد القادر الدنا وكان عهدئذٍ رئيسًا للمجلس البلدي، فحسَّن مواضيعها ثم جعلها يومية بعد إعلان الدستور العثماني بمدة قليلة. وما لبث أن أوقفها لكثرة ما ظهر في ذلك العهد من الصحف المصرية والأسبوعية والشهرية التي ثبت منها العدد القليل. ولما تعين أدهم بك سنة ١٩٠٩ واليًا عَلى بيروت للمرة الأولى قامت بعض الجرائد تطعن فيهِ، فأوعز الوالي إلى عبد القادر الدنا أن يعيد إِصدار الجريدة دفاعًا عنه وساعده بالمال، فصدرت «بيروت» ثلاث مرات في الأسبوع ولكن بلا انتظام وكان حجمها يختلف باختلاف كثرة موادها أو قلتها وجرت حينئذ بينها وبين جريدة «الاتحاد العثماني» تلك المناقشة الموجعة التي أدَّت بهما إلى إلى الطعن الشخصي. وعلَى إثر ذلك احتجبت «بيروت» في شهر تموز ١٩٠٩ بعد ما بلغت عامها الرابع والعشرين.

ومن مميزات هذه الجريدة؛ أنها كانت تحاسن النصارى أكثر من سائر الجرائد الإسلامية لذلك العهد وعند ذكرها رؤساء الدين المسيحي لا تبخل عليهم بالألقاب المختصة بهم رسميًا، بل كانت تعاملهم بالقسط كما تعامل الصحف المسيحية رؤساء الدين الإسلامي من هذا القبيل. وقد حر فيها مدة ١٨ سنة سليم بن عباس الشلفون ثم خلفه الشيخ محيي الدين خياط وكلاهما من ذوي الفضل والمعرفة.

دليل بيروت

جريدة إِحصائية. ظهرت عام ١٨٨٨ بهيئة مجلة صغيرة تصدر سنويًّا تحت عنوان: «الجامعة» أو «دليل بيروت» لمنشئها أمين الخوري.

وقد حذا فيها حذو الإفرنج للصلات بين الوطني والغريب وتسهيلًا للأشغال والعلاقات مع بقية الجهات عَلَى ما هو جار في الممالك المتمدنة، فإنهُ ضمنها كل ما نهمُّ الإنسان معرفته عن أحوال بيروت وأخبارها ومأموري حكومتها ومشاهير رجالها وأسماء تجارها وأطيابها وصيادلتها ورؤَساء الأديان وقناصل الدول ووكلاء الدعاوى وسائر أرباب الحرف فيها.

أمين الخوري

مؤسس صحيفة «دليل بيروت» في بيروت وجريدتي «العثماني» و«الإعلان» في الإسكندرية ، وهي تشتمل أيضًا عَلَى أسماء المعابد والمدارس والمكاتب والمطابع والجرائد والشوارع والمصارف والمستشفيات والشركات المهمة والمنتزهات العمومية الخ. فكان هذا المشروع المبتكر في بلادنا الشرقية نموذجًا جرت عليه سائر البلدان العربية لإرشاد الغريب إلى كل ما يهم معرفته من أحوالها. وهكذا ظهر من بعده «دليل الإسكندرية» ثم «الدليل» في باريس ثم «دليل مصر والسودان» وغيرها. واستمرت الجامعة تصدر سبع سنوات متوالية حتى أوقفها صاحبها بداعي سفره إلى الإسكندرية وسكناه فيها. فلما رجع إلى بيروت، أعادها بمظهر جريدة تحت عنوان: «دليل بيروت» فقط. إلا أنها كانت غير منتظمة في أوقات نشرها وكلُّ ما صدر منها بعد إعلان الدستور العثماني لا يتجاوز عدد الأصابع ولصاحبها أمين الخوري مكتبة تعرف بمكتبة الآداب في بيروت وقد وضع مؤلفات شتى مذكورة في

قائمة مكتبته؛ أهمها: معجم في اللغتين العربية والفرنسية مزين بالرسوم العديدة.

بيروت الرسمية

صحيفة رسمية أسبوعية أُنشئت في ٢٢ كانون الأوَّل ١٨٨٨ بعناية على باشا حاكم بيروت بعد انفصالها عن ولاية سوريا. وهي تنشرْ باللغتين العربية والتركية لإذاعة أوامر الحكومة والإعلانات الرسمية. وكان يقوم بتحرير قسمها العربي بعض المأَموريين كأحمد فائق وإبراهيم بك حكيم وكمال الشريف وعبد الرحمن الحوت وممدوح بك. ومنذ العدد ١١١٦ الصادر في ١٧ ربيع الأول ١٣٢٩ (١٨ أيار ١٩١١) أَدخلت فيها تحسينات شتى وترقت عبارتها وقد اتسعت دائرة مباحثها؛ بحيث صارت تظهر في ثمان صفحات وتنشر المقالات العلمية والأدبية المشتملة عَلَى الخدمة العمومية. وفي ٢٢ تشرين الأول ١٩١٢ أخذت تُصدر عددًا يوميًّا في أربع صفحات صغرى لإِذاعة الأخبار البرقية وحوادث الحرب بين الدول العثمانية ودول البلقان، أي بلغاريا والرسب والجبل الأسود واليونان، ثمَّ أَوقفت نشر هذه النسخة اليومية بعد شهر من إِصدارها.

ولهذه الجريدة مطبعة خاصة بها مع مطبعة حجرية قد استُدعي لتركيبها الأخ أنطون كنعان اليسوعي المشهور بفن الطباعة. فلما فرغ من العمل، أرادت الحكومة أن تؤدي لهُ ولمساعديهِ أجرة أتعابهم، فأَبت

نفسهُ الكريمة قبول ذلك لقاء هذه الخدمة الوطنية. غير أنَّ الولاية قدَّرت عملهُ حق قدره، فأَرسلت إلى رئيس اليسوعيين كتابًا يعلن شكر الحكومة ثمَّ شفعتهُ بساعة ذهبية على سبيل التذكار للأخ أنطون المشار إليهِ.

وتطبع هذه الجريدة بحرف حسن وعَلَى ورق جيد وقد صدر منها عددان ممتازان بالنقوش والتصاوير، وهما من أبدع ما ظهر حتى اليوم من الصحف العربية المصوَّرة وطُبعا في مطبعة اليسوعيين. أَولهما ظهر في ٩ شعبان ١٣٢٦ بمناسبة تذكار الجلوس السلطاني والآخر في السنة التابعة احتفاءً بجلوس السلطان محمد الخامس على الأريكة العثمانية. أما مدير هذه الجريدة ومطبعتها والقائم بجميع مهامها، فهو حضرةالنشيط عبد المجيد أبو النصر الذي لم يزل في خدمتها منذ نشأتها حتى الآن.

عبد الغني سني بك

مكتوبي ولاية بيروت وأحد المحررين في جريدة «بيروت الرسمية»

الفوائد

نشرة دينية علمية إخبارية ذات أربع صفحات صغيرة. أنشأَها خليل البدوي في شهر أيار ١٨٨٩ لمنفعة فتيان طائفة الروم الكاثوليك، فصدرت أربع مرات في سنتها الأولى ثم صارت شهرية في سنتها الثانية. ومنذ ١٠ كانون الثاني ١٨٩١ تحوَّلت إلى جريدة أسبوعية أدبية علمية إخبارية في ثمان صفحات وقد اتخذها غريغوريوس الأول، بطريرك الروم

الكاثوليك، لسان حال طائفته بمنشور أذاعه في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور. ولكنَّ عمر هذه الجريدة لم يطل إلا خمسة أسابيع؛ إذ صدر أمر الباب العالي بتعطيلها لأنها قالت عن مدينة رومة العظمى أنها مقام «الخلافة البطرسية»، فاختلق الأعداء لهذه العبارة تأويلًا سياسيًا وأفهموا السلطان عبد الحميد أنها ترمي إلى نقل الخلافة من القسطنطينية «رومة الجديدة» إلى رومة القديمة مقرّ البابوات. ولهذا السبب الخيالي، ورد إلى والي بيروت عزيز باشا تكدير تلغرافي شديد اللهجة من جانب الصدارة العظمى لأنه لم يأبه إلى هذه الدسيسة الموهومة، فاصطرَّ صاحب «الفوائد» أن يذهب بنفسه إلى عاصمة السلطنة حيث تغَّيب نحوا من ثلاثة أشهر وبجهد عظيم أَفهم أصحاب الشأن أنه ليس بالرجل الذي يعزون إليه الفتنة. وأن لقبه «البدري» لا يدل عَلَى أنه من صميم العرب الناقمين عَلَى الخلافة في آل عثمان. فلما حصل الاقتناع والاطمئنان من جانبه، صدرت له الأوامر السلطانية بإنشاء جريدة «الأحوال» بدلًا من «الفوائد» الملغاة.

الأحوال

جريدة سياسية تجارية، علمية أدبية زراعية صناعية. أنشئت في غرَّة تشرين الأول ١٨٩١ لصاحبها خليل البدوي الذي أسسها على أنقاض جريدة «الفوائد» الملغاة. وفي عامها الثالث صدرت كل يوم وهي أول جريدة يومية نُشرت في السلطنة العثمانية وكانت تُطبع في السنين الثلاث الأول في مطابع المدينة ثمَّ أُنشئت لها مطبعة خاصة باسم «مطبعة

الفوائد» التي صدر بها امتياز جريدة «الفوائد» السابقة الذكر. وفي سنة ١٩٠٠ قيَّض الله لمنشئها أن يشيد لها بناية فخيمة قائمة في جادَّة المرفأ وهي من أجمل أبنية بيروت. وقد صادفت الأحوال في طريقها الصحافية عراقيل جمة ونزلت بها مصائب شديدة كانت كل واحدةٍ منها كافية لقتلها. ولا سيما أن صاحبها كان عَلَى ضعفهِ وقلة أنصاره حرًا جسورًا لا يحسب للائمين حسابًا. وبالرغم من هذه المحن أفلحت الأحوال وأحرزت مقامها العالي بين الصحف وقد ذاقت الأمرَّين من المراقبة واضطهاد المأمورين وأعداء الإصلاح، فصودرت أمام المحاكم مرارًا وصدرت عليها عدة أحكام بدائية ردئها محكمة الاستئناف إلاَّ مرةً واحدةً غرمتها المحكمة بدفع ثمانية عشر ألف قرش بإغراءِ أحد العمال الخونة مدفوعًا من بعض الأعداء. وكان رئيس المحكمة شديد الوطأة عَلَى الأعضاء، فنجح في تثبيت الحكم في التمييز، فدفع صاحب الجريدة ثمانية عشر ألف قرش ظلمًا.

وعُطلت الأحوال مرارا لجرأَتها في نشر الحقائق الجارحة وهي أوَّل جريدة نشرت بإعلان الدستور في هذه الديار ونادت عَلَى صفحاتها بالحرية والمساواة والإخاء قبل جرائد العاصمة نفسها.

خليل البدوي

مؤَسس مجلة «الكنيسة الكاثوليكية» وجريدة «الفوائد» وصحيفة «الأحوال»

ومحرر جريدة «البشير» سابقًا (رسمهُ في سنة ١٨٨٩) وفي غرَّة أيلول ١٩٠٨، أصدرت مرتين صباحًا ومساء، فأحرزت قصب السبق عَلَى

سائر الصحف العربية في جميع الأقطار؛ وذلك يدل على همة منشئها وإقدامهِ عَلَى عظائم الأمور وشدّة تفانيهِ في سبيل الخدمة العمومية. لكنَّ اندفاعها في الغيرة على إصلاح البلاد، قد أثّار الأحقاد في صدور الأعداء والحساد، فهيجوا عليها العامة من جهلاء المدينة فهجم منهم عّلى إدارتها نحو عشرة آلاف رجل من حاملي السلاح يوم الأربعاء في ٧ نيسان ١٩٠٩ وكادوا يفتكون بصاحبها، لولا عناية الله التي أنقذته من أيديهم. وكان هذا الاعتداء الفظيع سببًا لهدر صحته، فلازم البيت زهاء عشرين يومًا لم يفتر في خلالها من مداومة نشر المقالات الإصلاحية وتقبيح أعمال الجهال والمفسدين. عَلَى أنهُ إجابةً لدواع عائلية، اضطر أن ينسحب أخيرًا من الصحافة، فباع المطبعة في أوائل سنة ١٩١٠ وأّجر الجريدة عشرين سنة لقيصر بوبز وشركاه، فنشرها أصحاب الإدارة الجديدة مدة سنتين وسبعة أشهر ثم اضطروا إلى توقيفها في ١٠ أيلول ١٩١٢ لأسباب مالية. فكان ذلك سببًا لعزوف مطالعيها من التجار والأدباء وأصحاب المصالح الذين كانوا يرتاحون إلى طلاوة كتاباتها ويعتمدون عَلَى صدق أخبارها. وقد بلغا أنها ستستأنف الظهور قريبًا بهمة صاحبها المفضل.

واشتهرت الأحوال بسرعة في نقل الأخبار قبل سواها من الجرائد وخصصت قسمًا وافرًا من أعمدتها بإذاعة الأسعار التجارية والمالية لتسهيل المعاطيات بين الناس. ولها الفصول الشائقة في الدفاع عن مصالح الشعب والتنديد بالحكومة وعمالها على قدر ما تسطتيعهُ جريدة في بلاد لم تنضج فيها الحرية الحقيقية وسافر منشئها مرارًا إلى أوروبا

بحيث كان يتحف القراء بالمقالات الضافية عن حضارة الغرب ويحثُّ الشرقيين عَلَى اقتباس حسنات الغربيين. وأجمل عددٍ صدر من الأحوال كان في غرَّة أيلول ١٩٠٠ بمناسبة اليوبيل الفضي لجلوس السلطان عبد الحميد الثاني. فإنه يروق للأبصار بتأنق ألوانه وجمال نقوشهِ وأخص الذين تولوا كتابتها مع صاحب الامتياز نذكر منهم: خليل مطران ونجيب شوشاني وأمين الحلبي وإبراهيم الخوري البكاسيني وقيصر بوبو وسليم عقاد وسعيد فاضل عقل.

أخبار مجلاَّت بيروت من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٧٥

المجمع الفاتيكاني

مجلة أسبوعية دينية ذات ثماني صفحات، نشرها الآباء اليسوعيون في غرَّة كانون الثاني ١٨٧٠ بإدارة الأب فرنسيس غوترلت وكان يساعده في التحرير الأب يوحنا بلر، المستشرق اليسوعي، والمعلم جرجس زوين تابناني الماروني؛ وغرضها إذاعة أخبار هذا المجمع المسكوني وإعلان أحكامه ومباحث آبائهِ بين الطوائف الشرقية الكاثوليكية، فظهر منها ٣٥ عددًا آخرها في ٢٧ آب للسنة المذكورة وكان شعار البابا بيوس التاسع مطبوعًا في رأس المجلة تعزيزًا لشأن خليفة القديس بطرس في سوريا. وقد تعطلت المجلة عند توقيف أعمال المجمع بسبب دخول عساكر الطاليان إلى عاصمة البابوات واستيلائهم عليها، ومما لا يسعنا السكوت عنهُ أنهُ جرى جدال بين مجلتي «المجمع الفاتيكاني» و«الجنان»؛ لأن

الثانية نشرت فصولًا منقولة عن جريدة «التيمس» الإنكليزية ضد حقوق الحبر الأعظم، فقامت الأولى للدفاع عن رأس البيعة الجامعة وبينت لمجلة «الجنان» فساد زعم القائلين بأن السدة الرومانية تقصد سلب ما يسمونه «استقلال الكنائس الشرقية» وكان فرنسيس مرَّاش الحلبي يكتب المقالات الطويلة منتصرًا للمجمع الفاتيكاني ضد «الجنان» مع محافظته على أصول الجدال وآداب المناظرة وعدم التعرُّض للطعن الشخصي.

الجنان

اسم لمجلة سياسية علمية أدبية تاريخية، صدرت في غرَّة كانون الثاني ١٨٧٠ مرتين في الشهر لمنشئها المعلم بطرس البستاني، فجعل شعارها «حب الوطن من الإيمان». ومن ذاك العهد درجت العادة عند أكثر أرباب الصحف العربية أن يتخذوا لجرائدهم ومجلاتهم شعارًا خاصًا ويصدروها بهِ وقد افتتحها المعلم بطرس بهذين البيتين:

إليك صحيفةً نشرت حديثًا فأَغنت بالسماع عن العيانِ
كفروس حوى ثمرًا شهمًا لذاك دعوتها باسم الجنانِ

وكانت سوق «الجنان» رائجةً في البلاد العربية لما نالهُ صاحبها من الشهرةِ العلمية الواسعة والصيت العظيم بتأسيس «المدرسة الوطنية» وتأليف قاموس «محيط المحيط» وكتاب «دائرة المعارف» وغيرها من الآثار. وكان سليم البستاني ابن المعلم بطرس وأنشأ أكثر مقالاتها ولا سيما السياسية والتاريخية والروائية، وأهمها وأشهرها كتاب «تاريخ عام

قديم» وكتاب «تاريخ فرنسا الحديث» الذي نشر سنة ١٨٨٤ في مجلد ضخم وآخر صفحة من المجلة كانت تتضمن ملحًا فكاهية وأشعارًا أدبية وحكمًا تهذيبية ونالت «الجنان» عناية أحمد مدحت باشا في ولايته لسوريا، حتى أنهُ كان يزور إدارتها في مجيئهِ لبيروت ويبث أفكاره الإصلاحية بواسطتها، فيصدر العدد منها بجميع مواده لغاية واحدةٍ؛ كالتكريه بالحاكم الظالم ومحبة الحاكم العادل. ومن جملة الآثار المهمة التي زينت صفحات الجنان كتاب عنوانهُ: «البانيا والألبانيون» بقلم واصا باشا المتصرف الرابع عَلَى جبل لبنان سابقًا وقد نقله نجيب البستاني من اللغة الفرنسية إلى اللسان العربي في فصول شتى.

وبعد وفاة منشئها سنة ١٨٨٣، تحوَّل امتيازها لنجله البكر سليم البستاني في السنة التابعة لثالث أنجاله نجيب البستاني حتى انطفأ في العام السابع عشر لظهورها. ولأكثر علماء ذاك العصر مقالات شائقة ظهرت في هذه المجلة نذكر منهم: الشيخ إبراهيم اليازجي وسليمان البستاني والمطران انطون قندلفت والدكتور كرنيليوس فانديك واسكندر آغا ابكاريوس والمركبز موسي دي فريج والشيخ خطار الدحداح وسليم دياب ونوفل نوفل وأديب أسحق والمعلم إبراهيم سركيس وإبراهيم الحوراني وفرنسيس مرَّاش وشاكر شقير وجميل مدوّر وجرجي يني وأسعد طراد ونعمان قساطلي وسواهم. وقد نشر فيها جرجي يني المشار إليه كتابه المشهور «تاريخ حرب فرنسا وألمانيا» الذي طبع بعد ذلك على حدة سنة ١٩١١ بعناية يوسف توما البستاني. ولما تكلم عيسى اسكندر

المعلوف في مقالته «الصحافة العربية» عن تأثير الصحف عَلَى الأقلام، قال:

«أما التأثير على الأقلام، فإن بعضها كان في أول عهده ركيك العبارة، إفرنجي الأسلوب، ولكن سمو أفكارها كان يشفع بركاكة ألفاظها. ولا سيما مجلة «الجنان»، فإن فيها أفكارًا دقيقة تحت عبارات ركيكة مما يدل عَلَى أن منشئيها انصرفوا بكليتهم عن اللباس اللفظي إلى الجوهر المعنوي».

ولعلَّ المعلم بطرس البستاني عمد إلى هذه الوسيلة في كتابات مجلته عند أول ظهورها؛ لأن أكثر القوم في ذلك العهد كانوا لا يكترثون لمطالعة الصحف المكتوبة بعبارات فصيحة. فتسهيلًا لهم أن ينشئ فصول «الجنان» بلغة تفهمها العامة ولا تأنف منها الخاصة. وهي خطة حسنة يُشكر عليها المعلم بطرس البستاني وأنجاله الذين أجادوا في ابتكار هذه الطريقة دون سواهم لخدمة الصحافة والعلم والوطن. وكانت هذه المجلة مطبوعة طبعًا نظيفًا وتنشر من وقتٍ إلى آخر رسوم المناظر الشهيرة وصور أعاظم الرجال.

النحلة

مجلة أسبوعية صدرت في ١١ آيار ١٨٧٠ لمنشئها القس لويس صابونجي السرياني وهو أول كاهن دخل في سلك الصحافة من جميع كهنة الطوائف المسيحية الشرقية. وكانت النحلة تتناول ما أفاد من أهم

المواضيع مرتبة عَلَى عشرة أبواب ما خلا الدين والسياسة، وهي: العلم والصناعة والتاريخ واللغة والحوادث الداخلية والخارجية والتجارة والفلسفة والفكاهات والروايات الأدبية. ولذلك فإنها تعدُّ الأُم لمجلات العربية في حسن تبويبها وترتيب موادها وكثرة مباحثها بحيث لم ينشأ قبلها مجلة منتظمة عندنا كالمجلات الراقية عند الأفرنج. وروى الأب لويس شيخو غلطًا في كتابه: «الآداب العربية في القرن التاسع عشر» أن «النحلة» أنشأَها يوسف الشلفون بالاشتراك مع القس لويس صابونجي فأقتضى التنويه. وقد صدرها صاحبها بالأبيات الآتية:

هـا نحلـةٌ تجنـي زهـورَ معـارفٍ ... من روضـةٍ فيها صـدورٌ تنشـرحْ
زهـدت ببحـث ديانـةٍ وسياسـةٍ ... حفظاً عَلَى دينٍ وحكـمٍ مقترحْ
قلد أمولاَ الدين أرباب الهـدى ... ودَعِ السياسـة للرئاسـة تسـترحْ

وكان الكونت نصر الله دي طرازي أكبر عضد للقس لويس صابونجي في تأسيس هذه المجلة المعتبرة؛ حيث ساعده ماديا وأدبيا عَلَى نشرها بين أعيان بلادنا وتجارها وأدبائها ثم سعى لهُ في ترويجها في كثير من أنحاء أوروبا عَلَى يد أخويهِ نعمة الله طرازي في ميرسيليا وفتح الله طرازي في مانشستر. وهي المجلة الأولى التي جعلت فهرسًا لمواد عدة منها على مثال المجلات الأوروبية.

خـدمتُ إلـهَ العـرش قسـا مقدِسًـا ... عَلَـى مـذبح حـولي الملائـكُ سُـجَّدُ
وصـرتُ سياسـيا أديـر صـحافةً ... بهـا الملـكُ والأوطـانُ تهـدى وترشَـدُ
فسـبحانَ مَـن فـي كفـهِ أمـرُ خلقـهِ ... يغيـرُ فـيهم مـا يشـاءُ ويقصـدُ

هو مؤسس مجلة «النحلة» في بيروت ولندن والقاهرة ومجلة «النجاح» ونشرة «النحلة الفتية» في بيروت و«النحلة الحرَّة» في القاهرة وصحيفة «الخلافة» و«الاتحاد العربي» في لندن و«موسى الحلاقة» في ليفربول وجريدة «مجلس المبعوثين» في القسطنطينية ومحرر «مرآة الأحوال» في لندن. وهو أوَّل كاهن صحافي عند جميع الطوائف الشرقية وعميد الأحياء قاطبةً بين الصحافيين الناطقين بالضاد الأول منها مفتتحًا ومختتمًا بقصيدة في مدح السلطان عبد العزيز الذي كان يجود بالعطايا السخية بحرف دقيق في المطبعة المخلصية.

وبعد صدور العدد الحادي والثلاثين منها، صدر أمر راشد باشا والي سوريا بتعطيلها؛ لأن صاحب النحلة ندَّد بالعالم بطرس البستاني وخطأه في بعض المسائل العلمية التي نشرت في مجلة «الجنان» وجريدة «الجنة» المار ذكرهما. ثم إنهُ تجاوز الحدود التي فرضها على نفسهِ وتطرف إلى مسائل سياسية ومناظرات دينية. وكان القس لويس يكتب أكثر مقالات المجلة بقلمه وينشر فيها فصولًا شائقة وقصائد بليغة لبعض الأفاضل والعلماء والأعيان الذين نذكر منهم: المطران انطون فندلفت السرياني وكان حينئذٍ خورياً في حاب والمركيز اسكندر دي جروه في الإسكندرية والدكتور بشارة زلزل والدكتور يوسف ابيلا قنصل دولتي انكلترا وأسبانيا في صيدا والدكتور قيصر ابيلا والخوري اسطفان صوصة، سليل الرهبانية المخلصية، وسعيد بك تلحوق والدكتور بشارة منسي وإبراهيم معوض وفضل الله عربيني وسواهم. وقد قرظها سليم بك

تقلا أستاذ الآداب العربية حينئذ في المدرسة البطريركية، قصيدة نورد منها هذه الأبيات:

حبَّـذا نحلـةُ علـمٍ قـد جنـى   ثمـــرَ الآداب منهـــا الرجـــلُ
جَمعت من أحسن الأزهار في   كــل فــنٍ مــا بــهِ يُتحتفــلُ
وكــذاك النحــلُ مــن عاداتــهِ   جمــعُ مــا يحلــو ومــا يقتبــلُ
مبحــثُ الأديــان عنهــا والسـيا   شــاتِ عــدلاً قــد غــذا يعتــزلُ
أصـبحت للمـرء مشـكاةَ الـذكا   بفنـــون لـــيس فيهـــا خلـــلُ
لـــــذةٌ للعقـــــل ارخ واصــــفاً   من صـفاها بـاتَ يقضـى الأمـلُ

سنة ١٨٧٠ مسيحية

قـد نبـدت نزهـةً مـن حيـث ليـ   سَ لمـــنْ يقـــرأُ فيهـــا ملـــلُ
مـد جنيـتُ الشـهيد مـن أفنانهـا   عـــن معـــانٍ لـــيس فيهـــا زلـــلُ
قلــتُ أرخْ شــادياً فــي حــدها   من قفيـر النحـل يُجنى العسـلُ

سنة ١٢٨٨ هجرية

وقد وقفنا على قصائد كثيرة في تقريظ هذه المجلة واستحسان خطتها، نقتصر منها عَلَى أبيات لطيفة نظمها الحاج حسين بيه الشاعر البيروتي وهي بالحرف الواحد:

عـاتِ راحي باصاح من شهدِ نحلهْ   لسـتُ ارضى ببنتِ كرمٍ ونحلهْ
انَّ شـــهدَ العلـــوم خيـــرُ دواءٍ   كـلُّ نـدْبٍ فيـه يطبـبُ جهلـهْ

صاحب اليد البيضاء عَلَى مجلة «النحلة» ومن أعضاء «الجمعية العلمية السورية» في بيروت

ما مات من عاش في رضوان خالقهِ   بـل ذكـرهُ دائمـاً حـي بكـل فـمِ
لـئنْ مضى جسـمهُ فالرسـمُ بـاتَ لنـا   مـن بعـده ناطقًـا بالفضـل والكـرمِ
إنمـــا العلـــمُ للأنـــام كنـــورٍ   مدحتــهُ مــن الــورى كــلَّ ملهــة
يـا رعـى اللهُ نحلـةً قـد رعـت مـن   كـل روضٍ مـا ترتضـي كـل نحلهـة
نشرةٌ تنشر العلوم وفي الأسبوعِ تبدى   مـــن الفنـــونِ مجلَّهـــة
عـــذبت مـــورداً وطابـــت وروداً   وحلــت مشــرباً وفاقــت محلــة
هـــي كـــالروضِ للعلـــوم فمنهـــا   كـل شـخص ينـالُ لا شـكَ سؤلهْ
قـد غـدت لـلآداب سـوق عكـاظٍ   قســمهُ بــالفنونِ يكــرمُ أهلــهْ
عـــالمٌ بـــارعٌ أَديـــبٌ نجيـــبٌ   وعباراتُـــهُ البليغـــةُ مهلـــهْ
رق طبعـــاً ودق فكـــراً وأضـــحى   مُظهــراً للأنــام بــالعلم فضــلهْ
رامَ نفـع الأوطـان فـي نشـر علـمِ   أنَّ نقـعَ الأوطـانِ أكـرمُ خصـلهْ
دامَ يـولى حسـنَ الصـنيع ويهـدى   مـن خـف ايـا افكـارهِ شـهد نحلـهْ

مجلة سياسية علمية تجارية نصف أسبوعية ظهرت في ٩ كانون الثاني ١٨٧١ لصاحبيها القس لويس صابونجي السرياني ويوسف الشلفون الذين أصدراها على أنقاض صحيفة كل منهما وهما النحلة والزهرة، فصادفت إقبالًا كبيرًا ثم انسحب القس لويس من هذه الشركة قبل نهاية سنتها الأولى لاعتماده على الطواف حول الكرة الأرضية، فاتفق السلفون مع رزق الله خضرا صاحب المطبعة العمومية على متابعة نشرها وإصدارها مرة في الأسبوع بعشرين صفحة بدلًا من مرتين في ١٦ صفحة وانتدبا الشيخ

إبراهيم اليازجي لتحريرها بقاء حصة معلومة من أصل الأرباح. «فظهر اقتداره عَلَى الإنشاء العصري مما لم يعهد الناس مثله في المرحوم ابيه فضلاً عن تمكنه من قواعد اللغة ومعاني الفاظها»، كما ورد في ترجمته المطبوعة في كتاب «تراجم مشاهير الشرق».

فلما رأَى اليازجي أن واردات الجريدة لا تقوم بمصروفها، ترك تحريرها بعد ما اشتغل فيها نحو السنة، فتقدم الشريكان شلفون وخضرا إلى المطران يوسف الدبس الماروني وطلبا مساعدتهُ المادية. فأجاب إلى طلبهما وكلف نقولا نقاش وبولس زين بتحرير «النجاح» وأوعز إلى نعمان الخوري اللبناني أن يترجم لهما الأخبار الخارجية نقلًا عن صحف أوروبا ودامت هذه الحال إلى أواخر العام الثالث وتعطل النجاح وكان احتجابه بسبب مقالة شديدة اللهجة نشرها إثر حادثة جرت في حي المصيطبة بين النصارى والمسلمين وأَورد فيها نصائح لم ترُقْ في عيون أرباب الحكومة، فأصدر رائف أفندي متصرف بيروت أمره بتعطيل المجلة متذرعًا إلى ذلك بدعوى أنها تصدر بدون رخصة رسمية. مع أن صدورها كان سابقًا لوضع هذا القانون في عهد راشد باشا والي سوريا. وكان للمقالة المذكورة تأثير عظيم بين القرَّاء، حتى أن النسخة الواحدة من العدد الذي نُشرت فيه بيعَ بأربعة فرنكات، وقد نظم الحاج أبياتًا وختمها بتاريخ شعري لظهور هذه الصحيفة، وهي:

أَحاطتنـــــا بــــأحوال البرايـــــا ... مـــع الإمعـــان يعقبهـــا الفـــلاحُ
وفـــي بيـــروت دار العلـــم لاحـــتْ ... جرائـــد فـــي قرائهـــا انشـــراحُ
تربـــكَ حـــوادثَ الـــدنيا ومنهـــا ... نـــؤرخُ بالهنـــا ظهـــر النجـــاحُ

سنة ١٢٨٧ هجرية

أخبار مجلاّت بيروت من سنة ١٨٧٦ إلى سنة ١٨٨٥

مجلة شهرية علمية صناعية زراعية، أنشأَها في غرَّة حزيران ١٨٧٦ الدكتور يعقوب صُرف والدكتور فارس نمر من بواكير تلامذة المدرسة الكلية الأميركية في بيروت ونوابغ علماء سوريا، فكانت تشتمل عَلَى ٢٤ صفحة ثم اتسع نطاقها تدريجيًا حتى بلغ عدد صفحاتها ١٠٤. وهي الآن من أكثر المجلات العربية الراقية انتشارًا بل من أعظمها شهرةً وأوسعها مادةً وأدقها بحثًا في مشارق الأرض ومغاربها. وناهيك أن مباحثها تتناول كل فنٍ ومطلب بحيث لو جمعت موادها العديدة عَلَى ترتيب حروف الهجاء، لتأَلفت منها دائرة معارف أو قاموس كبير يرجع إليهِ الباحثون في فروع العلوم المختلفة. فإذا أرادوا معرفة ما قيل عن عمر الأرض مثلًا قالوا: هلم إلى مجموعة المقتطف لنرى ما فيها عن هذا الموضوع. وهكذا قُل عن سائر المواضيع العلمية والأدبية والصناعية والتاريخية والتجارية والزراعية والفنية والآثار القديمة والاكتشافات الحديثة والاختراعات العصرية وتراجم مشاهير الرجال وغيرهم. أما أخبار تأسيس «المقتطف»، فقد رواها صاحباهُ كما يأتي:

«ورأَينا في تلك الأثناء أنهُ يستحيل علنا أن نجاري الأمم الغربية في العلوم والمعارف، إذا اقتصرنا عَلَى ما يترجم ويؤلف من الكتب؛ لأن العلوم الحديثة جارية جريًا حثيثًا. فما يؤَلف فيها هذا العام يمسي بعضه قديمًا في العام التالي ولا بد من جريدة تقطف ثمار المعارف والمباحث العلمية وتذيعها في الأقطار الغربية. فعقدنا النية عَلَى إنشاء المقتطف

لهذه الغاية ورسمنا خطتهُ التي سار عليها منذ إنشائه إلى الآن. ولم نختر له اسمًا بل قمنا كلانا وذهبنا إلى أستاذنا الدكتور فان دبك وكان في المرصد الفلكي حيث كان يقضي أكثر أوقاته، فاستشرناه بما عزمنا عليه وسأَلناه أن يختار لنا اسمًا له. فجعل يشدد عزائمنا ويسهل علنا الصعاب وقال سمياهُ «المقتطف» واجعلاه كاسمه وحسبكما ذلك. ثم كتب إلى صاحب السعادة خليل أفندي الخوري، الشاعر المشهور، وكان مديرًا للمطبوعات. ففي سورية يطلب إليه أن يسعى لجلب الرخصة السلطانية بأسرع ما يمكن. ففعل ولم يمضِ شهر من الزمان حتى أتتنا الرخصة السلطانية، فذهبنا وبشرناهُ بها فقال: «سيرا في عملكما والله معكما وأنا سأشرع من هذه الساعة في كتابة بعض الفصول للمقتطف». فكتب فصول «أطباء اليونان والشرق» ونشرنا أول فصل منها في الجزء الثاني من المقتطف الذي صدر في غرة يوليو (تموز) سنة ١٨٧٦، وأباح لنا كل ما عندهُ من الكتب والجرائد والآلات والأدوات لكي تستعملها كما تشاء من غير سؤَال».

وقد صرف منشئا هذه المجلة غاية الجهد في انتقاء مواضيعها وزيادة تحسينها وتزيين صفحاتها بالرسوم، حتى صارت منهلًا للقاصي والداني وأَقبل القوم من كل الطوائف على مطالعتها في خمسة أقطار المسكونة. ولذلك ثبتت ثبات الجبال الرواسي، فأطلق عليها القرَّاء لقب «شيخ المجلاَّت العربية»؛ لأنها بلغت عمرًا طويلًا لم تبلغهُ مجلة سواها على الإطلاق. فكانت واسطةً لنشر المعارف وتاريخًا للمكتشفات العلمية والصناعية وسبيلًا لنقل علوم أهل الغرب إلى الشرق عَلَى قدر ما

تستطيعهُ المجلات. ولما اشتدت المراقبة عَلَى المطبوعات في الدولة العثمانية، لم يرَا حيلةً لمتابعة هذه الخدمة الجليلة إلاَّ الانتقال بمجلتهما إلى عاصمة القطر المصري. فهاجرا إليه سنة ١٨٨٤ وأول عددٍ صدر منها هناك كان السادس من المجلد التاسع وجعلا فاتحة سنتها في بدء السنة الميلادية بدلًا من غرة حزيران وهو تاريخ نشأَتها، فلقي المقتطف من عظماء المصريين وعلمائهم ترحيبًا يخلد بلاده ولغته وقد وصفه الوزير الخطير مصطفى رياض باشا، رئيس الوزارة المصرية، بقوله:

«إنني ولعتُ بمطالعته منذ صدوره إلى اليوم، فوجدت فوائده تتزايد وقيمته تعلو في عيون عقلاء القوم وكبرائهم ولطالما عددتهُ جليسًا أنيسًا أيام الفراغ ونديمًا فريدًا لا تنفد جمبة أخباره ولا تنتهي جُدد فرائده، سواء كان في العلم والفلسفة أو في الصناعة والزراعة».

وفضلًا عن المقالات التي يكتبها في المقتطف صاحباه العلامتان، فإنهُ مشحون بفصول كثيرة لأفاضل حملة الأقلام في الشرق. وبيانًا لذلك نسرد هنا أسماء بعضهم، وهي نقطة من بحر:

أولًا– أسماء الأطباء والصيادلة: كرنيليوس فانديك، بشاره زلزل، وليم فانديك، يوحنا ورتبات، يوسف ابيلا، شبلي شميل، وديع برباري، نقولا فياض، أمين معلوف، بشارة منسي، سليم داود، نقولا نمر، إلياس صليبي، إبراهيم شدودي، توفيق صوصه، سعيد أبو حمزة، يعقوب ملاط، إبراهيم عربيلي، اسكندر بارودي، سليم موصلي، سالم أبي خليك، أمين

أبي خاطر، جورج بوست، ميخائيل ماريا، ميخائيل مشاقه، مرا بارودي، جرجس طنوس عون.

إقليميس يوسف داوود

مطران دمشق على السريان ، ومن أشهر العلماء الذين زينوا صفحات «المقتطف» بالمقالات التاريخية

مضى الحبر اقليميسُ عن أعين الورى … وخلف آثاراً مدى الدهر تُشكَوُ
فبتنا وكان الرسمُ خيرَ ذخيرةٍ … لنا بعد من بالعلم والفضل يُذكرُ

ثانيا– أسماء جهابذة اللغة: الشيخ إبراهيم اليازجي، الشيخ سعيد الشرتوني، إبراهيم الحوراني، سليمان البستاني، جبر ضومط، جرجس همام، السيد محمود حمزة، الشيخ حسين الجسر.

ثالثًا– أسماء الشعراء: الأمير شكيب أرسلان، وليم بك عنحوري، وديع الخوري، أحمد بك شوقي، أسعد داغر، حافظ إبراهيم، الشيخ إبراهيم الأحدب.

رابعًا– أسماء المؤرخين: إقليميس يوسف داوود، مطران دمشق عَلَى السريان، جرجي يني، جرجيبك زيدان، عيسى إسكندر المعلوف، حنين الخوري، نعوم شقير، وسليم شحاتة.

خامسًا– أسماء الصحافيين: أحمد كامل، بولس الخولي، نجيب بستاني، عبد القادر حمزة، محمد كردعلى، جرجي الخوري المقدسي،

صموئيل يني، إسكندر شاهين، أحمد بك تيمور، سليم مكاربوس، إبراهيم جمال، نقولا بك توما.

سادسًا– أسماء الكاتبات: سارة خير الله، مريم جرجي ليان، شمس شحاتة، مريانا ماريا، فريدة حبيقة، روجينا شكري، جوليا طعمة، أنيسة صيبعة، ندى شاتيلا، ياقوت صروف، مريم مكاريوس، مريم سركيس، جميلة كفروني، فؤيدة عطية، سلمى طنوس، وغيرهنَّ.

سابعاً– أسماء العلماء والأدباء: حسن محمود باشا، رفيق بك العظم، إدوار بك إلياس، نجيب شاهين، قاسم بك أمين، نجيب صروف، خليل تابت، أمين ظاهر خير الله، الشيخ سليمان العبد، نسيم برباري، محمد أبي عز الدين، نسيم خلاط، فارس الخوري، شفيق بك منصور، متري قندلفت، مصطفى الرافعي، جميل مدور، إسكندر البستاني، حسن بيهم، محمود باشا الفلكي، نعمه يافت.. إلخ.

وقد جرت بين المقتطف وجريدة «البشير» البيروتية عدة مناظرات علمية يطول شرحها وإنما أشهرها المناظرة عَلَى قضية «مذهب الارتقاء والنشوء» المنسوبة إلى دروين القائل بأن الإنسان يتسلسل من القرد، فأراد المقتطف عَلَى رواية مناظرة إثبات الآراء الدورينية بحجة أنها لا تناقض الدين ولا تضاد الكتاب المقدس، فخالفه «البشير» في هذا الرأي واحتدم الجدال بين الفريقين.

وللعلاَّمتين يعقوب صرُّوف وفارس نمر مركز أدبي سامٍ في البلاد الشرقية والغربية وحَسبهما فخرًا أنهما نالا سنة ١٨٩٠ رتبة دكتور في الفلسفة من «المدرسة الجامعة» في نيويورك ثمَّ أَحرز ثانيهما «وسام المعرفة الذهبي» من حكومة أسوج وهو الذي قال عنه اللورد كتشنر معتمد انكلترا قي مصر: «إن الدكتور نمر كله عقل».

وكان المقتطف مضمارًا تتبارى فيه أقلام كبار المنشئين والعلماء والمؤرخين من كل البلاد العربية ومن مزايا صاحبيهِ الفاضلين أنهما إذا ارتكبا خطأ في مسألَة وأرشدهما أحدُ إلى الصواب، بادرا إلى الإقرار بالخطأ مع الشكر لمن نبههما عليه وهاك برهان ناصع بما كتباه[٢] للسيد إقليميس يوسف داوود مطران دمشق السرياني الذي ردَّ عَلَى انتقادهما لكتابه «القصارى» وهو بالحرف الواحد:

«هذا وإننا نختم هذه الأسطر بالشكر الجزيل لسيادته ونؤكد له أننا نجلُّ الرسالة التي تنبهنا إلى خطأ ارتكبناه أكثر من الرسالة التى تمدحنا على صواب أتيناه. ولسنا ممن يحسب أن قدر الناس يحط بالاعتراض على أقوالهم، ويا حبذا لو كانت كل الرسائل التي ترد إلينا مثل رسالة سيادته في العلم واللطف. وللشيخ العلامة إبراهيم الأحدب الطرابلسي قصيدة شائقة قرظ بها مجلة "المقتطف" نقتطف منها الأبيات الآتية:

وإن أحســن مــا جلــت مقاصــده   صــحيفة ســميت منهــا بمقتطــف

([٢]) المقتطف: صفحة ٢٩٨: سنة ١٢ في غرَّة شباط ١٨٨٨

تلك التي أوضحت طرق الفنون لنا حتى بدت كسراج لاح في السدف
فشـــاقنا وردهـــا إذ راق مشـــرعه فكـم علـل بطيـب الـورد منـه شـفي
أبـان يعقـوب مجلـي يوسـف بسـنا آياتـه فانجلـت للطـرف بـالطرف
وفـارس قـد جـرى فيهـا فـأحرز فـي مضـماره قصـبات السـبق بالشـرف

الطبيب

مجلة شهرية طبية، ظهرت في غرة كانون الثاني ١٨٧٨ لصاحب امتيازها الدكتور جورج بوست، أستاذ الجراحة والنبات في المدرسة الكلية الأمريكية وغرضها نشر كل ما يهم الأطباء والصيادلة من معرفة مهنتهم وممارستها، فكانت مباحثها تتناول علم الكيمياء والنبات والحيوان والجماد والتشريح والمواد الطبية والطب الشرعي وغيرها.وبقي منشئها قائمًا بإدارتها وتحريرها في أعوامها الثلاثة الأولى. ومنذ العام الرابع، سلم إدارتها لشامين مكاريوس واتخذ مساعدين له في التحرير الدكتور وليم فان ديك والدكتور نقولا نمر والصيدلي مراد باررودي.

وفي ١٥ آيار ١٨٨٤، صارت تصدر مرتين في الشهر محبرة بقلم الشيخ إبراهيم اليازجي والدكتورين بشارة زلزل وخليل بك سعاده[٣]. وكانت موادها تدور حول المباحث الطبية والعلمية والصناعية.

---

(٣) الدكتور خليل بك سعاده لبناني الأصل تلقي الأصل تلقى االعلوم في المدرسة الكلية الأميركية في بيروت في عهد نشأتها الأولى وهو من الأطباء المشهود لهم بالفضل والمعارف. ومن مآثره الكتابية ما يلي: «قيصر وكيلوبطرا» وهي رواية انكليزية. ثم ترجمة «انجيل يرنابا» ورواية «اسرار الثورة الروسية»

وهي أول صحيفة دورية عربية استعملت لفظة "مجلة" بمعناها المصري، وقد أشار باستعمالها شيخنا اليازجي رحمه الله. ومنذ التاريخ المذكور بدأت سلسلة أعوامها الجديدة بدون الالتفات إلى ما سبق من أعوام حياتها الماضية وبقيت بإدارة هذه اللجنة التحريرية إلى العام التابع ثم توقفت وقد وضعت الدكتور خليل بك سعادة لبناني الأصل. تلقى العلوم في المدرسة الكلية الأمريكية في بيروت في عهد نشأتها الأولى وهو من الأطباء المشهود لهم بالفضل والمعارف. ومن مآثره الكتابية ما يلي: «قيصر وكليوباترا» وهي رواية إنكليزية ثم ترجمة «إنجيل برنابا» ورواية «أسرار الثور الروسية» ورواية "أسرار الباستيل" وكتاب "الوقاية من السل الرئوي وطرق علاجه"، ورسالة عنوانها: «نبلة من كنانة» وردت في مجلة المقتطف.

وأشهر مؤلفاته كتاب "قاموس سعادة" وهو معجم إنكليزي عربي يفضل على سائر الكتب التي من نوعه لغزارة المادة وشدة البحث وأمانة الترجمة.

حينئذ مئات بل ألوف من الأوضاع اللغوية والمسميات المصرية والمعربات التي أشار إلى بعضها عيسى إسكندر المعلوف وهناك شيء منها: مقياس الثقل (بارومتر)– الميزان المئوي (ثرمومتر)– الخرشوف

ورواية «اسرار الباستيل» وكتاب «الوقاية من السل الرئوي وطرق علاجه» ورسالة عنوانها «ننبلة من ...» رد فيها على مجلة المقتطف. وأشهر مولفاته كتاب «قاموس سعاده» وهو معجم انجليزي عربي يفضل على سائر الكتب التي من نوعه بنزارة المادة وشدة البحث وأنانة الترجمة

(أرضي شوكة)- الشعار (القميص)- الدثار(ما فوق القميص)- الشعرية (الفرشاة التي يطلى بها)- الطلاء (الفرنيش)- راجبيات (بكتيريا) - انبوبيات (باشلش)- تفاعلات (انفوزوريا)-ذريرات (مكروككس)-رواميز (مساطر)- أنزال (لوكندات)- فيالج (شرانق)- مقوي (كرتون)- المنظر الطيفي (سبكتروسكوب)- الأكمه (الأعمى خلقة)- أجار (صانع الآجري القرميد)- شكيكة (سلة توضع فيها الفاكهة)- مشوش (منديل خشن تمسح به الأيدي) بمعنى المنشفة- اللحم العريض (الطازة أو الجديد)- الخرزة (وجع الظهر)- الآح (زلال البيض)-المح (صفار البيض)- إلى غير ذلك؛ مما انتبه أصحابها إليه بطريق القياس أو الاشتقاق أو استخرجوه من كتب اللغة وكان لهذا الدور الثاني من تاريخ حياة «الطبيب» شأن كبير في عالم الصحافة العربية لما نشر على صفحاته من الفوائد الجليلة التي جعلته في طليعة أعظم المجلات شهرة وانتشارًا.

وفي غرة حزيران ١٨٩٥، تولى تحريرها الدكتور إسكندر بارودي الذي أصدرها مرة في الشهر. فجرى على خطة من سلفوه وفتح فيها بابًا جديدًا لكل الفروع الطبية وللعمليات الجراحية والطبابة الأهلية والطب البيطري والمسائل العمومية، ثم جعل لها في هذه السنين الأخيرة فرعًا تحت عنوان: «حفظ الصحة والزراعة» يصدر شهريًّا في كراس على حدة. وفي ٢٣ كانون الثاني .١٩١ استقل بامتيازه وإدارته وتحريره إثر وفاة الدكتور جورج بوست صاحب الامتياز الأول.

ومازال «الطبيب» ينشر في مطابع بيروت إلى هذه المدد الأخيرة ثم صار يطبع منذ سنة ١٩١٢ في المطبعة الرشادية في كفر شيما بلبنان.

وكان في جميع أدوار حياته مكتوبًا بعبارة بليغة تدل على سعة معارف أصحابه ومحرريه الذين تخرجوا في الكلية الأمريكية الشهيرة أو درسوا فيها وهو وحده بين جميع المجلات الطبية العربية بلغ هذا الشوط البعيد من العمر. ومما ساعد على نجاح هذه المجلة في أدوار حياتها السابقة؛ أن مدرسة «قصر العيني» المصرية ومدرسة «الكلية الأمريكية» في بيروت كانتا تدرسان علم الطب في اللسان العربي. فلما أبدلتاه باللسان الإنكليزي، انصرفت عناية أكثر أطبائنا الوطنيين لسوء الحظ عن مطالعة «الطبيب» إلى مطالعة المجلات الطبية في اللغات. من هذا كله فإن الدكتور إسكندر بك البارودي لا يألوا جهدًا في نشر المواضيع الجليلة وخلاصة الاختراعات الحديثة التي تعود بالفائدة على قراء مجلته القديمة العهد؛ خدمة للعلم وحفظًا للمنزلة السامية التي أحرزها «الطبيب» في عالم الصحافة.

المشكاة

مجلة شهرية سياسية علمية صناعية تاريخية فكاهية ذات ١٦ صفحة. أصدرها خليل سركيس بتاريخ غرة نيسان ١٨٧٨ أثناء تعطيل جريدة «لسان الحال» لمدة أربعة شهور بأمر الحكومة، فكانت جزيلة الفوائد، معتدلة اللهجة، وحلاه بمقالات لا برع كتاب في ذاك العهد. نذكر منها مقالة "المقل النرجسية في الأخبار الأندلسية" وهو تاريخ الأندلس أيام الاستلام إلى فتوح دولة الملثمين بقلم سليم بن ميخائيل شحادة، ترجمان القنصلية الروسية وأحد صاحبي كتاب « آثار الازدهار»

وغيره. واحتجبت «المشكاة» إثر صدور العدد الرابع منها؛ عندما أعيد نشر « لسان الحال» بعد عطلته ولا تختلف مجلة "المشكاة" عن شقيقتها «لسان الحال» في اعتدال المشرب وسلامة الذوق وإخلاص الخدمة للوطن وحسن انتقاء الأخبار الصادقة.

الفصل الخامس

أخبار مجلات بيروت من سنة ١٨٨٦ إلى ١٨٩٢

الصفا

مجلة شهرية علمية صناعية تاريخية فكاهية ، نشرت في غرة كانون الثاني ١٨٨٦ لصاحب امتيازها على ناصر الدين اللبناني. وهي باكورة الصحف الدورية التي ظهرت على يد أبناء الطائفة الدرزية، فعاشت ثلاثة أعوام ثم تعطلت لقلة رواج سوق الأدب حينئذ بسبب شدة المراقبة على المطبوعات. وقد حرر فيها حينئذ إلياس بن جرجس طراد والشيخ فضل القصار. وفي عام ١٨٩٧ انتقلت إدارتها إلى «بعيدا» في لبنان حيث ظهرت مدة سنة كاملة، وفي ١٨ شباط ١٨٩٩ تحولت إلى جريدة أسبوعية أدبية سياسية وصارت تطبع في "عبيه" مدة أربع سنين. فاحتجت بعد ذلك حتى عادت إلى الظهور بتاريخ ١١ نيسان ١٩٠٨ في قرية "كفر منى" ثم نقلت منذ ٢ أيار ١٩٠٩ إلى عالية ومنزلتها عند الدروز كمنزلة جريدة البشير عند الكاثوليك والنشرة الأسبوعية عند البروتستنت وهي الآن من أرقى جرائد لبنان لنزاهة المبدأ وإخلاص النية خلافًا لبعض الجرائد التي تعودت التمليق والتزلف من الكبراء خوفًا منهم أو طمعًا في مساعدتهم. وإثباتا لذلك ننقل فصلًا ورد فيها بتاريخ كانون الثاني ١٩١١ تحت عنوان: "ابن السعيد من الأمين" وهذا نصه بالحرف

الواحد: الأمير "أمين أرسلان قنصل"، جنرال الدولة العليا في الأرجنتين، رجل شهدت له أعماله بأنه خيرة الرجال ولو عمدنا إلى ذكر تلك الأعمال، لكان من قبيل تحصيل الحاصل. وكفاك برهانًا على مكانته في النفوس استقبال العثمانيين إياه في المهجر ذلك الاستقبال المقرون بالحفاوة، وفي الحديث الذي دار بينه وبين رئيس الجمهورية الذي أجل استقباله مع أركان حكومته ما ينبئنا عن حصافته ومكانته. وللأمير شقيق كنت أود أن تكون سجاياه وأعماله كسجايا وأعمال شقيقه لكن لسوء الطالع، قضي بألا يكون السعيد كالأمين. في بدء الحوادث الحورانية قام الأمير أمين يطلب إلى قائد الحملة أن يعامل الدروز بالتؤدة ويعرض عليهم الطاعة قبل أن يبدأهم بالشدة، أما الأمير سعيد فقام بدعوة إلى استئصال شأفتهم قائلا: إنه لا يأسف لا على أفرادهم ولا على مجموعهم لأن وجودهم مضر بالهيئة الاجتماعية. فانظر الفرق بين الاثنين!! وبعد أن بعث سامي باشا تكذيبًا رسميًّا للذين زعموا بأن بين أشقياء العربان في فتنة الكرك دروزًا لم يشأ حضرة الأمير سعيد الأفحم إلا أن يجعل للدروز نصيبًا في الفتنة رغمًا عن حقيقة الحال وعن سامي باشا، فكتب في جريدة "النصير" مقالة زعم فيها بأن للدروز يدًا في الحادثة. لكن زعمه هذا لم يكن له من نتيجة إلا إطالة الألسنة في سبه وقول الناس: أين السعيد من الأمين؟".

ويتولى الآن رئاسة تحرير الصفا أمين ناصر الدين نجل الامتياز ومن الكتبة المعدودين الذين يشار إليهم بالبنان وهو أيضًا شاعر مجيد كان يقول أبياتًا من الشعر قبل تعلمه القراءة والخط، فظل والده يكتبها له

ويصحح لغتها دون وزنها. ومرة بعث إلى الشيخ خليل اليازجي بيتين من شعره الصبياني، سر بهما كثيرًا وأجابه عليهما بهذه الأبيات:

أنت الصغير الكبيلا النفس منتسبًا ... بهـا لأسـلافك الشـم العـرانين
هـلال سـعد نرجـي منـه بـدر سـناً ... يلـوح فـي أفـق بـاليمن مقـرون
غالبت فن القريض المستطاب وقد ... غلبتـه بانتصـار منـك ميمـون
منـه لـك الأمـن والنصـر المبـين ولا ... بـدع فأنـت أمـين ناصـر الـدين

نخله قلفاط

منشئ مجلة "سلسلة الفكاهات" في بيروت والقاهرة

قلبـي إلـى مجمـع الخـلان يـدفعني ... والجسـم عـنهم قضـاء الله دافعـه
لـم يبـق منـه سـوى رسـم لهيكلـه ... عنـد الأحبـة للتـذكار أودعـه

سلسلة الفكاهات

لا يجهل أحد اسم « سلسلة الفكاهات في أطايب الروايات» التي نشرها في تشرين الثاني ١٨٨٤ نخلة قلفاط البيروني وهي مجموعة قصص تاريخية وروايات أدبية تعد من أقدم الصحف من نوعها. كانت تصدر أجزاء متواصلة تارة مرة وطورًا مرتين في الشهر وكان من أعوانه في ترجمة بعضها عن اللغة الفرنسية سامي قصيري وغيره، فنالت رواجًا عظيمًا في كل الديار العربية ثم تعطلت في السنة الرابعة لظهورها. وقد

نفي حينئذ صاحبها إلى مدينة قونية بدسيسة من جواسيس الحكومة الذين اتهموه زورًا وظلمًا بإثارة الخواطر بين أفراد الشعب. فلبث في منفاه سنتين يتقلب على جمرات العذاب حتى أفرج عنه بعد دفع كل ما ملكت يداه لإشباع بطون الحكام الظالمين، وهناك انتهز الفرصة لدرس اللغة التركية حتى أتقنها وصار يستطيع الترجمة منها وإليها. وفي أثناء إقامته في المنفى، نظم قصيدة استرحامية ورفعها للسلطان عبد الحميد، قال في مطلعها:

أمــين الله جئتــك مســتجيرًا ... أجـل وقـد اتخـذتك لـي نصـيرًا
الله روح العـــدل أنــتم ... فكيــف أكــون مظلومًــا حقيــرًا
أمــين الله أولادي صـــغار ... ورحمــتكم غـدت لهــم محيــرًا
أجزنــي يــا أمــين الله إنــي ... ظلمــت وحقكــم ظلمًــا كبيــرًا

إلى إن قال:

فمــن سـنةٍ نفيـت بغيـر ذنـبِ ... وحســبي الله فــي ظلمــي خبيــرا
وحســبي الله انــك لــي مــلاذ ... فـلا أخشـى بـذي الـدنيا شـرورا

ولما يئس من قضاء العيشة تحت سماء الدولة العثمانية، عوَّل على السكنى في وادي النيل وهناك أصدر سنة ١٨٩٣ مجلة باسم «سلسلة الفكاهات» قرظها عبد الله فريج بقصيدة، جاء فيها:

مجلة قد علت أعلى المقامات ... كأنهــا فــي بهــاء روض جنــات

لله سلسلة بالبشر قد برزت في أوجِ علمِ حوت حسن الفكاهات

ثم عاد إلى وطنه وتعاطى مهنة بيع الكتب بالشركة مع سليم ميداني، فانتهز أنصار الاستبداد هذه الفرصة لينصبوا له المكائد ووشوا به لدى الحكومة؛ بحجة أنه يتاجر بالكتب الممنوعة مثل كتاب "أم القرى" وسواه. فألقى القبض عليه سنة ١٩٠٤ وزج في السجن مع أصحاب الجرائم الكبرى مدة سنة كاملة أصيب في أثنائها بداء الفالج. ومات في ١٣ تشرين الأول ١٩٠٥ بعد إطلاق سبيله من الحبس بأيام معدودة وقد نقشت على ضريحه هذه الأبيات التي نظمها الأستاذ إلياس:

فقدت بنو قلفاط نخلة من به أهل المعارف والمكاتب تأنس
واروا بهذا اللحد شهماً فاضلاً ندباً له أضحى المقام الأقدس
من بعدما نشر المعارف حل في دار البقا حيث المهيمن يحرس
لما هوى الموت الزؤام بنخلةٍ أرختها بسما الأعالي تغرس

وُلد نخلة بن جرجس بن ميخائيل بن نصر الله قلفاط سنة ١٨٥١ في بيروت، وقرأ مبادئ العلوم على إسكندر أغا أبكاريوس ثم مالت نفسه إلى درس علم الفقه والقوانين الدولية، فنال منها نصيبًا وافرًا. كان نخله قلفاط رجلًا نشيطًا خلف من الآثار الأدبية ما يشهد بفضله واجتهاده وقد كافأه قيصر الروس على ذلك بوسام شرف ونفحه بهبة مالية قدرها ألف وخمسمائة فرنك. وإليك أسماء الكتب التي ألفها أو ترجمها من اللغات الأجنبية بغض النظر عن الكتب التي طبعها على نفقته: حقوق الدول، تاريخ روسيا، تاريخ ملوك المسلمين، حمزة البهلوان، بهرام شاه، فيروز

شاه، ألف نهار ونهار، ديوان أبي فراس الحمداني (شرح أكثر أبياته) وغيرها. وخلف ديوان شعر يحتوي على منظومات شتى في مواضيع مختلفة نقتطف منها هذه الأبيات التي رفعها لكامل باشا عندما وجهت إليه رتبة الصدارة العظمى. وكل بيت منها يتضمن تاريخًا لإحدى السنين الثلاث الميلادية والهجرية والمالية:

لسان إلهنا أرخت جاء مرددًا   بكامل باشا اليوم تزهو الصدارة

سنة ١٨٨٥ ميلادية

وقدت أشرقت يوم البشائر   أرخوا بهاء وعدلاً منه تلك الإدارة

سنة ١٣٠١ هجرية

ألا بشر الدنيا بحكمة ذاته   وأخ بها حقًا تليق الوزارة

سنة ١٣٠٢ مالية

ديوان الفكاهة

مجلة شهرية تشتمل على روايات تاريخية وغرامية وأدبية كانت تنشر في مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس وهي أول مجلة روائية صدرت باللسان العربي.أنشأها في غرة سنة ١٨٨٥ المرحومان سليم بن ميخائيل شحاده وسليم بن بولس طراد وهما من اخص أعيان مدينة بيروت وأقدم عائلاتها.وكان أكثر رواياتها معرباً عن اللغة الفرنسية بقلم الكاتب البارع يوسف بشارة قيقانو.وبعد عامها الرابع احتجبت مدة

ثلاث سنين ثم استقل بها إلى نهاية اجلها سنة ١٨٩٣ سليم طراد وحده. وقد تولى حينئذ تعريب رواياتها شاكر شقير اللباني، صاحب مجلة "الكنانة" المصرية، الذي صدرها بهذين البيتين:

تحـــالف النـــاس والزمـــان فحيـــث كـــان الزمـــان كـــانوا

أيهـــا المعرضـــون عنـــي عـــودوا فقـــد عـــاود الزمـــان

وكان "ديوان الفكاهة" مجموعًا حسن الوضع والترتيب حاويًا أطايب الروايات ومن أشهر الرحلات على أكثرها فائدة ومن آداب الحكايات والقصص على أدناها مأخذًا وألطفها مشربًا وأرقها أسلوبًا. كان بوجه الأحمال لا يتعرض لمذهب ديني ولا يلمح لأمر سياسي ولا ينشر إلا ما يوافق طرحه بين أيدي القوم كبارًا وصغارًا وكان إقبال الناس كبيرًا على مطالعة رواياته اللذيذة المنزهة من الشوائب الأدبية التي لا يخلو منها أكثر الروايات المطبوعة في زماننا.

الإيكونوموس ثئوفانس البدوي

الرئيس العام على الرهبانية الباسيلية الحلبية سابقًا ومدير مجلة "الكنيسة الكاثوليكية"وشقيق صاحب امتيازها .

الكنيسة الكاثوليكية

هي رسالة شهرية تعلمية تاريخية. أنشأها خليل البدوي كانون الثاني ١٨٨٨ أثناء قيامه بتحرير جريدة البشير وهي ذات ثمان صفحات صغيرة،

كانت إدارتها متعلقة بالآباء اليسوعيين وطبعها بإذن البطريرك غريجوريوس الأول، فأقبل القوم على مطالعتها والاشتراك فيها لما كانت تذيعه على صفحاتها من المواضيع المفيدة. وفي عامها الثاني اتسعت دائرة مباحثها وصارت تصدر في ٣٢ صفحة مرتين في الشهر، فاستحسن جميع بطاركة الطوائف الشرقية الكاثوليكية خطتها القويمة وامتدحوا منشئها برسائل خاصة. وعند ذلك أخذ خليل البدوي ينشرها بمصادقتهم منذ العدد الرابع عشر في ٣٠ تموز ١٨٨٩ ولبثت "الكنيسة الكاثوليكية" على هذه الحال، حتى احتجبت في أواخر عامها الثالث عندما ترك صاحبها جريدة البشير. وفي شهر كانون الثاني ١٩٠٢ صدر منها عدد فريد بإدارة الايكونوموس تثوفانس البدوي، شقيق صاحب امتيازها المشار إليه. وكان ذلك بأمر البطريرك بطرس الرابع (الجريجبري) الذي قصد إعادة نشرها لخدمة بني ملئه، ولكن المرض الذي أصاب البطريرك الإيكونوموس ثتوفانس نائب أسقفي على أبرشية حمص وحماه، ولم يزل في هذه الوظيفة إلى يومنا. ومن أهم المباحث التي نشرت في هذه المجلة نذكر: "التوفيق بين العلم وسفر التكوين" للأب دي كوبية اليسوعي ومعربة بقلم خليل البدوي. ثم مقالة "الموسيقى الكنسية" للخوري كيرلس رزق ومنها كتاب "كشف المكتوم في تاريخ أخر سلاطين الروم"، ونبذة في "تاريخ مصر وزراعتها"، وغير ذلك من المقالات المفيدة بقلم صاحب المجلة.

الباب الثاني

تراجم مشاهير الصحافيين في بيروت في الحقبة الثانية

«١»

سليم البستاني

منشئ مجلة «الجنان» و«الجنة» و«الجنينة» (رسمه في سنة ١٨٦٦ بالملابس الوطنية القديمة)

أفنيت عمرك في علی ومآثر   وإفساده للعلم أو تصنيف

وسبحت في بحر العلوم مكابدًا   أمواجه والناس دون سيوف

هو بكر أنجال المعلم بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد بن أبي شديد بن محفوظ بن أبي محفوظ البستاني. ولد في ٢٨ كانون الأول ١٨٤٨ في قرية عبيه عندما كان والده أستاذًا في المدرسة الأمريكانية، فقرأ العلوم العربية على الشيخ ناصيف اليازجي في بيروت وأتقن اللغات التركية والانكليزية والفرنسية على أشهر الأساتذة. وفي سنة ١٨٦٢ صار ترجمانًا لقنصلية الولايات المتحدة الأمريكية بدلًا من أبيه وكان الساعد الأيمن له في جميع الأعمال الأدبية التي قام بها، لاسيما في تجبير شؤون "المدرسة الوطنية" التي كان نائب رئاستها وتولى فيها

تدريس الصفوف العالية الإنكليزية. واشتغل في تأليف كتاب "دائرة المعارف"وتحبير المقالات المهمة في مجلة الجنان، ثم أخذ على عاتقه تحرير جريدتي الجنة والجنينة واشتغل بنشاط في الجمعية العلمية السورية التي كان نائب رئاستها ومن أهم أركانها.

وفي عام ١٨٧١ اعتزل إشغال القنصلية وأقبل يضافر والده في مهماته العلمية والصحافية وترجم كتاب "تاريخ فرنسا الحديث" في مجلد ضخم بمعاونة الشيخ خطار الدحاح اللبناني وألف عدة روايات تمثيلية أو قصصية مثل رواية "الإسكندر" و"قيس وليلى" ورواية "يوسف واصطاك" ثم"الهيام في جنان الشام" و"زنوبيا" و"بدور" و"اسمي" و"سلمى" وقد جمع فيها من ضروب الأدب والسياسة والاقتصاد والإدارة والتاريخ إلى غير ذلك من المقاصد النبيلة، فتمكنت مكانته في الوطن وقربه الحكام إليهم. وكان قلمه أعظم ترجمان للتمدن الغربي في ديار الشرق وسار مرتين إلى مصر وعاد منهما والحقائب تحدث عن مكارم الحضرة الخديوية مشاريعه وترويج مصنفاته.

وفي عام ١٨٨٠ نشأت فيه رغبة التجارة فأتجر ولكنه لم يفلح، فأعاد أموره إلى نصابها الأدبي كأنما قدر له أن يحيا ويموت في سبيل خدمة العلم. وبعد وفاة والده استقل بكل المشاريع المذكورة وطبع الجزء الثامن من كتاب دائرة المعارف وهيأ أكثر مواد أجزائه الباقية، غير أن الأجل لم يفسح له الوقت الكافي لإتمام هذا المشروع الخطير، فاعتنى إخوته أمين ونجيب ونسيب مع سليمان البستاني بإبراز الأجزاء التاسع

والعاشر والحادي عشر إلى لفظة «عثمانية» فقط ثم توقفوا عن العمل ولا نتمالك هنا من إبداء الأسف الشديد لعدم إنجاز هذا الأثر العظيم، بل الكنز الثمين الذي يتوق إلى إحرازه كل ناطق بالضاد لأنه وحده يغني عن اقتناء خزانة كتب برمتها.

وكان سليم البستاني موصوفًا بدماثة الأخلاق وحدة الذكاء، جامعًا بين علو الهمة وشهامة النفس وسلامة السريرة، وكان حريصًا على ولاء الأصدقاء لا ينقض وعدًا ولا يحل عهدًا. وبتاريخ ١٣ أيلول ١٨٨٤ انتقل فجأة من هذه الحياة في قرية "بوارج" حيث كان يروح النفس من عناء الأشغال تحت سماء لبنان مع نسيبه سليم بك أيوب ثابت، فقصفته يد المنية غصنًا رطيبًا في ربيع العمر ثم شيعت جثته إلى بيروت بين تردد الحسرات وذرف العبرات، ودقت بجانب تربة والده المأسوف عليه في مقبرة البروتستنتية بعد ما رثاه الشعراء والخطباء، فابنه بالكنيسة راعي الطائفة الإنجيلية وفي المقبرة الدكتور فارس نمر وإلياس طراد وسامي قصبري وخلف ولدًا وحيدًا يدعى حبيبًا درس فن الزراعة في أوروبا وسكن في القطر المصري مع والدته السيدة حنه بنت أيوب ثابت، وقد رثاه بعض الشعراء بقصائد نفيسة، فاخترنا هذه الأبيات لناظمها الشيخ خليل اليازجي:

وهو الموت إلا أن خطبك أعظم	ورزؤك في الأرزاء أشجى وأجسم
ومن فلتات الدهر أمرك أنه	لا شفق في أمثال هذا وأرحم

لك الله ميتًا كالقتيل ولم يسل	له من دم لكن مدامعنا الدم
وإن نحن طالبنا المنايا بثأره	رمتنا وقالت من يطالب عنكم
وإن نحن عاتبنا الزمان بفعله	قرعنا سماعًا ما له من يترجم
فعدنا وقد خبنا من الدهر ما ملا	ننوح على ما كان منه ونلطم
كذا الدهر إلا أم من زاد همه	وقصر عن تفريجه يتظلم
فقدنا بني الأوطان عضوًا مكرمًا	كجسم مضت منه يد فهو أجذم
إلا أننا في فقده اليوم أسرة	وأوطاننا في نوحه اليوم مأتم
على مثله يبكي وهيهات مثله	فتى طاب منه القلب واليد والفم

وكان ضليعًا باللغات العربية والتركية والإنكليزية والفرنسية، فكان يكتب فيها ويترجم منها وإليها بسهولة وبلاغة، وباشر تأليف معجم تركي على نسق كتاب "دائرة المعارف" وقصد أن يسافر للأستانة ليقدمه للحضرة السلطانية، إلا أن الوفاة عاجلته قبل إبراز هذا العمل لدائرة الوجود. وكان شاعرًا مطبوعًا نظم كثيرًا من القصائد المتفرقة التي نتمنى أن يتم تجميعها في ديوان خاص قبل أن تلعب بها أيدي الضياع، ومن جيد نظمه ما يأتي:

تقلبت الدنيا فما جدها جد	ولا وصلها وصل ولا صدها صد
فراق وراء الوصل فيها وما لها	وفاة ولا عهد يدوم ولا وعد
نشيد للآمال قصرًا محصنًا	فتهدمه جبرًا ولا ينفع الجهد
تطاردنا الأيام مثل عداتها	فيسمى أمير القوم وهو لها عبد

إلى أن قال:

ومن يرتقي في حالة الفقر والعنا　　سريعًا إلى علىا يضر به المجد
ومن يدخل العش الخبيث فؤاده　　فما نومه نوم ولا مهده مهد
ومن لطيف أشعاره في رواية　　"قيس وليلى" هذه الأبيات:
الموت صعب والصبابة أصعب　　والكل من هجر الحبيبة أعزب
والقلب يطلب قرب من أحببتها　　والموت من قرب الحبيبة أقرب
دون الديار مناهل وذوابل　　وصواهل وكتائل تتكتب
يا قلب صبرًا في المصائب فالفتى　　من كان أقتاب المصائب يركب

الدكتور لويس صابونجي

هو يوحنا لويس بن يعقوب بن إبراهيم بن إلياس بن ميخائيل بن يوسف صابونجي الأرفلي. ولد في ٧تشرين الثاني ١٨٣٨ بمدينة "ديرك" التابعة لولاية ديار بكر وكانت ولادته هناك من باب الصدفة أيام خرج إليها والده فرارًا من وباء الهواء الأصفر الذي فشا وقتئذٍ بديار بكر.

وقد أشار إلى ذلك في أبيات من قصيدة له:

خلقت بأرض قد تجلت ببهجة　　سقاها إلهي من قرأت ودجلة
بلاد ثواها آدم بعد جنةٍ　　إليها انتمى الأبطال في كل حقبةِ

ولدت بها فورًا على غير موعد غـــداة أتاهـــا والـــدي لنزهـــةِ
بشـهر فشـا فيهـا الوبـاء مؤلفًـا وشـاع انتشـارًا فـي بـلاد الجزيـرةِ

وسكن والده بمدينة ماردين بعدما هاجرت أجداده من أورفا ثم انتقل منها إلى ديار بكر. لما بلغ لويس السنة الثانية عشرة خرج إلى سوريا يريد الدرس على أساتذة مدرسة الشرفة بجبل كسروان، وبوصوله إلى مدينة بيروت حل ضيفًا على منزل المرحوم أنطون طرازي جد كاتب هذه السطور. وفي ٣ كانون الثاني ١٨٥٠ انتظم في سلك تلامذة المدرسة المذكورة، حيث تلقى أصول اللغات العربية والسريانية والإيطالية. وفي كانون الأول ١٨٥٤ أرسله أغناطيوس أنطون سمحيري، بطريرك السريان الأنطاكي، إلى مدرسة مجمع انتشار الإيمان في روما، فتلقى فيها العلوم العقلية والنقابة على اختلافها حتى نبغ فيها كلها ونال رتبة ملفان(دكتور) في الفلسفة. وفي حزيران ١٨٦٣ عاد إلى الشرق ميممًا مدينة ماردين، فأراد البطريرك المشار إليه أن يمنحه رتبة الكهنوت، فتردد المترجم متمنعًا عن قبولها؛ لأنه لم ير من نفسه ميلًا إلى الدخول في هذا السلك الروحاني، ولكنه رضخ لإرادة البطريرك بتشويق بعض الكهنة ومنح في ٢٩ تشرين الثاني ١٨٦٣ الرتبة المذكورة ثم ذهب إلى ديار بكر لرؤية أهله ومنها جاء بيروت حيث تعين رئيسًا للطائفة السريانية، فأنشأ فيها مطبعة لنشر الكتب في اللغات العربية والسريانية والتركية وأسس مدرسة صار لها شأن عظيم حتى قصدها طلبة العلم من كل أرجاء المدينة، فصارت تباري غيرها من المدارس العلا وكان من جملة تلامذتها أنجال متصرف بيروت كامل باشا الذي صار بعد ذلك

صدرًا أعظم وهو الذي أدخل فن التصوير الشمسي في بيروت وكاد يكون مجهولًا فيها قبل ذلك الحين، فعلمه أخيه جرجس الذي برز في هذه المهنة حتى استحق أن ينال لقب "مصور العائلة الإمبراطورية البرلينية".

ولما قدم فرنقو باشا إلى جبل لبنان، عين القس لويس أستاذًا لأولاده ومرشدًا لآل بيته في أمور الدين ثم عكف المترجم على درس فن الموسيقى فأحكمه في وقت قصير واختاره حينئذ الدكتور بولس، رئيس المدرسة الكلية الأميركية، أستاذًا لتلامذتها في اللغة اللاتينية وكلفه أيضا الخوري فيلبس نمير، رئيس المدرسة البطريركية، بتعلم اللغتين التركية والإيطالية لطلبتها.

وفي ١١ أيار ١٨٧٠، أصدر مجلة "النحلة" بهدف إصلاح وتعميم المعارف ولكن طرأت على منشئها حوادث ساقته إلى تجاوز الحدود التي كان قد فرضها على نفسه وتحرش بمسائل سياسية ومناظرات دينية ساقت راشد باشا والي سوريا إلى إلغاء النحلة، فتجلد صاحبها وأصدر مجلة أخرى سماها "النجاح"، فنابها ما ناب النحلة من سوء العقاب ثم أعاد نشرها وجعل يوسف الشلفون كاتبها المسؤول حتى تنازل عنها له ابتغاء الراحة. فلما استراح من تضييق الحكام سولت له نفسه أن يطوف حول الكرة الأرضية، فركب البحر نهار الجمعة الثالث عشر من شهر آب ١٨٧١ واستكمل دورة الأرض في سنتين وسبعة

شهور، فكان أول طواف من آل سام أتيح له أن يقوم بمثل هذه السياحة الكبرى، كما أشار إلى ذلك في أبيات له من قصيدة في الفخر:

وقد طفت حول الأرض شرقًا ومغربًا وصيتي سري قبلي يذيع برحلتي
وما طاف قبلي من بني سام طائف ولا جال منهم بالبسيطة جولتي

ولما عاد إلى بيروت واستراح من عناء ذلك السفر الطويل، اقترح عليه بعض الأصدقاء إعادة نشر صحيفة "النحلة"، فلبى طلبهم وأصدرها باسم "النحلة الفتية" واتفق في غضون ذلك ظهور مسألة تاريخية تتعلق بأصل إيمان الطائفة المارونية، فاستنصر القس لويس للقائلين بعكس ما ترتأيه الملة المذكورة ونشر في صحيفته مقالات خارجة عن هذا الموضوع، فثارت عليه من جراء ذلك فتنة من الرعاع كاد يذهب فيها قتيلًا، فهاجر إلى ليفربول حيث نشر رسالة سماها "موسى الحلاقة" وشحنها بالرد على خصومه المذكورين ورحل مرة ثانية إلى أميركا ولبث في نيويورك وفيلادلفيا بضعة شهور، ثم عاد إلى بلاد الإنكليز قاصدًا مدينة مانشستر فاخترع فيها آلة صغيرة لنقل التصاوير وأحرز امتياز التوحد بالعمل بها من دولة بريطانيا العظمى. ولما نقل سكناه إلى لندن، باع حقوقه في الآلة المذكورة إلى شركة تعرف باسم " Stereoscopie Company" واخترع آلة أخرى لفن التصوير سماها " Authomatic Apparatus"، فأحرز امتياز التوحد بالعمل بها من الحكومة الفرنسية ثم استعاد بلندن نشر صحيفة "النحلة" عام ١٨٧٧ وأصدرها بتاريخ ٢ نيسان باللغتين العربية والإنكليزية وحلاها بمناظر البلاد وتصوير رجال

العصر المعدودين في السياسة والعلم، وأنشأ فيها أيضًا جريدة "الاتحاد العربي" وجريدة "الخلافة" وساعد رزق الله حسون في تحرير صحيفة "مرآة الأحوال" الشهيرة، فنشر فيها كل آراءه التي كانت ترمي إلى تعميم الإصلاح ومحاربة الاستبداد في الدولة العثمانية.

وكان صاحب النحلة وكيلًا خصوصيًّا للسيد برغش سلطان زنجبار مدة ثماني سنين حتى قبض هذا إلى رحمة ربه. وكان السلطان يكاتبه كل شهر ويلح عليه بمراسلته مع كل بريد، فاتفق للصابونجي أنه سهى مرة عن موعد سفر البريد من لندن إلى زنجبار وما رفع كتابًا إلى السيد برغش، فبعث يعاتبه عتابًا لطيفًا ويطلب منه ألا يغفل عن رفع تفاصيل الأحوال إليه مع كل بريد وكان يتقاضى لقاء ذلك مبلغًا سنويًّا من المال عدا الهدايا التي كان ينعم السلطان بها عليه. وتشرف في ٢٧ أيار ١٨٧٩ بالمثول بين يدي فكتوريا ملكة بريطانيا العظمى ونال مثل هذا الشرف مرتين لدى الحبر الأعظم في روما ولدى ناصر الدين شاه إيران. وسنة ١٨٨١ زايل لندن ليطوف في بلاد نجد وخيل ابتغا الوقوف على أحوال سكان تلك الأقطار ثم عرج على وادي النيل فأخذ مصالح الدولة البريطانية نحو السنتين أثناء الفتنة العرابية وسعى مع مستر بلونت ولادي، حفيدة اللورد بيرون الشاعر الإنكليزي المشهور، في إنقاذ عرابي باشا من الحكم الذي أصدره غلادستون رئيس الوزارة الإنكليزية في إعدامه مباشرةً بلا محاكمة.

ولما عاد انكلترا، عمد إلى إلقاء الخطب في مسائل علمية وتاريخية وما يتعلق بسياسته ولبث يخطب تسعة أسابيع متواصلة في "قصر البلور" بلندن واتفق له في بعض الأيام أن يخطب تسع مرات في النهار وكان يحضر الخطب نحو ألف وخمسمائة شخص ثم خطب في محفل "الاثينيوم" بمدينة مانشستر وفي مدرسة الصم والبكم وكان أستاذهم يترجم لهم الخطبة بالإشارات الموضوعة لتعلمهم، فصار ذلك مصداقًا لما قاله الدكتور صابونجي في بيت من قصيدة له في الفخر:

وإن قمت بين الصم والبكم خاطبًا أنفذ سمع الصم تقريع وعظتي

ثم خطب بمدينة باريس في قاعة الخطب الكائنة في الشارع المسمي Boulevard des Capucines. وفي "انستيتو رودي" الكائن في الشارع الملكي وكذلك بعض القاعات المعدة للخطب في المعرض العام سنة ١٨٨٩. وأثناء ذلك اختاره ولي عهد انكلترا (صار فيما بعد ملكًا باسم إدوارد السابع) أستاذًا للغات الشرقية في دار الفنون أنشأها هذا الأمير بلندن وسماها"The Imperial Institute" وتناول الطعام مرتين على مائدة سموه بدعوة مخصوصة وقد انضم حينئذ إلى سلك الجمعيتين المعروفة إحداهما باسم " The Royal Society Asiatic" في لندن والأخرى باسم "Accademin Arcadi degli Lettararia" في روما العظمى وقد أتحفه الملوك المشار إليهم وإمبراطور اليابان وملك حيدر آباد وحمد بن ثويني سلطان زنجبار أيضًا بالرسائل العديدة التي يعربون فيها عن اعتبارهم لصاحب الترجمة. وما عدا ذلك

فإن لديه شهادات كثيرة من أعيان الانكليز وعلمائهم في تقريظ مجلة النحلة وفي سنة ١٨٩٠ خرج إلى الأستانة، فأمر السلطان عبد الحميد بتعيينه في المعية الشاهانية وأنعم عليه بدار فسيحة في أحسن بقعة من ضواحي الأستانة بكل ما فيها من الرياش وجعل له خمسين ليرة عثمانية راتبًا شهريًّا وأصدر إليه إرادته السنية بالمثول بين يديه مرتين في الأسبوع واختاره أستاذًا لأنجاله في فن التاريخ العام ومترجمًا لجلالته من اللغات العربية والإنكليزية والفرنسية والإيطالية إلى التركية ثم أقامه عضوًّا في المجلس الكبير لنظارة المعارف. وكانت خدمته للسلطان بإذن صريح من بطريرك السريان جرجس الخامس ومن السيد بونتي القاصد الرسولي بالأستانة. ولبث الدكتور صابونجي على هذه الحال حتى أعلن الدستور في السلطنة العثمانية، فاعتزل المأموريات ملازمًا بيته ومنقطعًا إلى التأليف والمطالعة وهذا البيت المعروف باسم "فقير النحل" قائم في جزيرة الأمراء على شكل هندسي جميل وقد نقش في صدر البيت صورة "عين" مع هذه العبارة "عين الله تعالى على محبيه الصادقين" وحفر فوق المدخل والأعمدة سبعة أبيات قال في آخرها:

اجعل بلطفك يا إله سعادتي   يومي بها بالعز يتلو ليلتي

أما ما كان من صفات الأستاذ صابونجي، فإنه ولع بالدرس واكتساب المعارف منذ نعومة أظفاره وقد اعتاد الكتابة والمطالعة ليلًا إلى ما بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين وإذا خرج إلى التنزه.

شغل باله في النظم أو إنشاء المقالات السياسية والعلمية وأثبتها في دفتر يحمله دائمًا في جيبه وهو يطوف الشوارع ويتجول في الحدائق دون أن يبالي بضجيج المركبات وازدحام الناس. وقد أشار إلى ذلك في أبيات له:

أسير إلى التنزيه طورًا ودفتري ... رفيقي أنيسي في مسيري وجلست
وكم من برود في السياسة حكتها ... وكم قلت شعرًا في شوارع بلدة
وفي البر ثم البحر قلت قصائد ... وما خمدت طول الليالي فريحتي
نظمت قريضاً أو كتبت مقالة ... وقد جن ليل دون نور وشمعة

وكان إذا أرق ليلًا فكر في عدو الغياهب وليس لديه يراع ومداد وقرطاس وثب من فراشه وحرق قضيب كبريت وفحم رأسه وأثبت به أفكاره في جدار الحجرة كما قال:

وليل أتاني فكر شعر بديهة ... ولا حبر عندي في دواةٍ بليقة
حرقت قضيبًا قد تكبرت رأسه ... كتبت بفحم في جدار قصيدتي
حذوت بفعلى حذو آدم عندما ... أتاه من الرحمن إلهام كتبة

وقد تحرى الطلاوة في شعره وتحاشى فيه الكلام المهجورة الألفاظ اللغوية البعيدة عن إدراك الجميع. وقد سلك فيه أسلوبًا جديدًا لا يعهد في أساليب شعراء العرب ونهج منهجًا حديثًا يندر فيه ذكر البيداء والنوق والرحال والرمال والخيام وما جرى مجراها مما يدور عليه محور كثير من أشعار أهل الوبر، واعتاض عن ذلك بالسكك الحديدية والقطار والباخرة

والكهرباء وما أشبه ذلك من اختراعات العصر عند الحضر، وقد أشار إلى ذلك في هذه الآبيات:

لأسفار أهل البيـــد رحـــل وهـــودج ونـوق عليـه العـرب تغـزو وتســـرح
ونحن قد اعتضنا عن الكل في السري بفلـك كحـوت البحـر تجريوتسـبح
وفـي البـر مرنـا فـي قطـــار يجــــره بخار يحاكيــــه العقـــاب المجنـــح

ومما يستحق الذكر شدة ولعه بالصنائع وتركيب الآلات وله فيها اختراعات مفيدة كما سبق الكلام وتعلق على درس عشر لغات، فأحكم أصول سبع منها فقط وهي: العربية والسريانية والتركية والإيطالية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية. وقد تحرى في شعره ونثره الكلام البسيط الخالي من التعقيد والمحسنات اللغوية التي لا فائدة منها للعموم ولا تهذب أخلاقهم ولا تساعدهم على اكتساب معيشتهم؛ فهو "كاتب شعبي وليس بمنشئ لغوي" كما قال عن نفسه، فكأنه أراد أن يقتفي آثار السيد المسيح الذي كان يخاطب الشعب بأمثلة بسيطة مأخوذة من الشباك وصيد السمك وزراعة الحقول وغير ذلك أو كما قال محمد نبي العرب للصحابة: "أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم"، أو كما قال يوحنا الذهبي الفم: "خيرٌ لي أن ألحن في كلامي ويفهم عموم الشعب مضمونة من أتفاصح في أقوالي ولا يفهمها إلا القليلون". ومن أشرف مناقبه مراعاة الذمام وقد قام الدليل على ذلك في أبيات له:

ورثـــت مراعـــاة الـــذمام ســـلالة رعيـــت وداد الخـــل منـــذ فتـــوتي

تقـر لـي الأعـداء رغمًـا بـأنني أراعـي ذمـام الخـل حتـى المنيـة
وأجزي بخيـر مـن دهـاني بشـره وأصـفح عـن قـوم أرادوا أذيتـي

وإذا أحسن إليه محسن حسب إحسانه، طوق منه في عنقه لا يحل له خلعه ولو في الجفاء؛ والشاهد على ذلك أبيات أنشدها لأحد الرجال:

أموت وشكري لا يموت مدى الدهر ويحيـا ذمـامي فـي ترابـي إلـى النشـر
أموت وفـي قلبـي مـن الشـكر نسـمة لمن مدّ كف الجود نحوي مدى العمر
وإن مـت مـا مـات الوفـاء بمهجتـي وديدان جسمي تنشـد الشكر في قبر
فــلا رحمــة مثــل الوفــاء مفيــدة ولا يـرحم الـرحمن نفسًـا بـلا شـكر

واشتهر الصابونجي بتمسكه بالعقائد الدينية وثباته على المبادئ الصحيحة رغمًا عن الاختلافات التي طرأت بينه وبين رؤساء الدين وحملته على إهمال وظيفة الكهنوت. فحاجه ذات يوم قوم من الدهر بين في مسألة خلود النفس، فأنشدهم بعد ما أفحمهم بالأدلة الفلسفية:

إلـى الله تنحـو الـنفس بعـد انفصـالها وتجـــزي بخيـــر أو بشـــر فعالهـــا
وإن قيــل: بعــد القبــر لــيس قيامــه فقلنــا: علــى الزنــديق كــان ويالهــا
وإن قيـل: لـيس الـنفس تـدري معادهـا فقلنـا: سـتدري حـين يـأتي ارتحالهـا
إلــى الله عــود الــنفس بعــد جهادهــا متــى حــل مــن قيــد الحيــاة عقالهــا

وحاجه كذلك ذات يوم فيلسوف من طائفة يوسف اسبينوزا اليهودي الجاحد وجود الله سبحانه، فأنشده صاحب الترجمة هذه الأبيات بعد جدال طويل أفحمه فيه:

يسبح من في البر والبحر والعلا ... إلهًا تجلى بالخلائق للملا
كيان بلا بدش وحد وحيز ... به البدء منذ البدء كان ممثلا
إله على عرش بلا حد مركز ... بسوس وحيدًا لا شريك له ولا
رآه بعين العقل كل موحد ... وغاب عن الزنديق بالكنه واعتلى

ونظم هذه الأبيات لتنقش على قبره:

قضى العمر في الأسفار طالب حكمة ... يروم فنونًا لا تحد وتحصر
ومن كانت الدنيا الفسيحة كلها ... تضيق لديه في الحياة وتصغر
كفته بعيد الموت أضيق حجرةٍ ... كما اكتفيا بالمثل كسري وقيصر

ومن مآثره التي تستحق الذكر أنه رسم صورة طولها أربعة أمتار وعلوها ثلاثة أمتار بألوان الزيت وهي تمثل تسلسل جميع الأديان من عهد آدم إلى يومنا هذا وفيها ٦٦٠ شخصًا من جملتها تصوير جميع الذين أنشئوا دينًا أو مذهبًا مع طريقة عبادتهم ورموز عقائدهم وطقوسهم وكلها منقول عن آثار قديمة اكتشفها الحفارون في بلاد مختلفة. وهذه الصورة التي ليس لها نظير في كل الدنيا قد اشتغل الأستاذ صابونجي في أمرها منذ كان في أمريكا سنة ١٨٧٢ حتى أكملها سنة ١٩٠٩، فجاءت فريدة في نوعها وقد ألف رسالة باللسان الإنكليزي بمثابة دليل

أو مفتاح للصورة المذكورة وما فيها من الرسوم مع ذكر تاريخ تلك الأديان وزمان اكتشاف الآثار الدالة عليها والأماكن التي كانت مطمورة فيها، إلى غير ذلك من الأمور المهمة.

ونال من علامات الشرف وسام "شبر خورشيد" من ناصر الدين، شاه إيران، ثم "الوسام العثماني" من دولة تركيا ووسام "الكوكب الدري" من سلطان زنجبار وغيرها. ومن مزايا الأستاذ أنه شديد الحرص على وقته وصحته؛ فبالرغم من كبر سنه لا يضيع دقيقة واحدة بلا عمل مفيد، وكذلك لا يستعمل التبغ ولا يذوق اللحم ولا الكحول ولا القهوة على الإطلاق ويقنع من كل أنواع الطعام بشرب الحليب وأكل البيض وبعض الأثمار الناضجة، وقد كتبت ترجمته ونشرت مطولًا بقلم الأستاذ المستشرق "فروست"، معلم الرياضيات سابقًا في دار الفنون بمدينة أوكسفورد من بلاد بريطانيا العظمى. هذا ما تيسر جمعه بكل اختصار من أخبار الدكتور لويس صابونجي عميد الأحياء بين أرباب الصحافة العربية ونختتم ترجمته بجدول يحتوي على ما اتصل بنا من أسماء مؤلفاته الكثيرة، وهي كالآتي:

(١) نقل إلى اللغة الإيطالية اثنى عشر كتابًا من أشعار "ورجيل" الشاعر اللاتيني.

(٢) ترجم من اللسان اللاتيني إلى العربي قاموس الألفاظ المصطلح عليها في العلوم الفلسفية وسائر العلوم والفنون (غير مطبوع).

(٣) تاريخ فتنة حلب سنة ١٨٥٠ (غير مطبوع).

(٤) تاريخ فتنة لبنان وسوريا سنة ١٨٦٠ (غير مطبوع).

(٥) تاريخ الثورة العرابية في الديار المصرية سنة ١٨٨٢(لم يطبع).

(٦) فلسفة ما بعد الطبيعة.

(٧) تهذيب الأخلاق (طبع في بيروت).

(٨) الحق القانوني (غير مطبوع).

(٩) المرآة السنية في القواعد العثمانية (ألفه الوزيران الخطيران فؤاد باشا وجودت باشا وقد نقله الدكتور صابونجي من اللغة التركية إلى العربية وأفرغه في قالب الأسئلة والأجوبة وطبعه في بيروت)

(١٠) تاريخ بطاركة السريان (يحتوي على تاريخ طائفة السريان الكاثوليك منذ سنة ١٨٥٢ إلى الزمان الحاضر ومنه نسخة مخطوطة في دار التحف البريطانية بلندن وهو غير مطبوع).

(١١) مشاهير الرجال (يشتمل على سير العلماء من اليونان والروم والعبرانيين والسريان والكلدان في اللغة اللاتينية وهو غير مطبوع).

(١٢) "جمال الكائنات"، وفيه وصف الجمال في الحيوان والنبات والجماد (هو فن يقال له "Estetica" في اللغة الإيطالية).

(١٣) الرحلة النحلية (تتضمن رحلة المؤلف حول الكرة الأرضية في اللغتين العربية والتركية وقد ذكر فيها أهم الشؤون العلمية والتاريخية المنوطة بالبلاد التي زارها مع سكانها ولغاتها وصناعتها وزراعتها وتجارتها وحيوانها وأديان أهاليها وعاداتهم وأخلاقهم، وقد طبع قسمًا منها في القسطنطينية وزينه بالرسوم الناصعة).

(١٤) النحلة (مجلة علمية نشرها في بيروت ولندن والقاهرة).

(١٥) النحلة الفتية (رسالة انتقادية طبعها في بيروت).

(١٦) موسى الحلاقة (رسالة انتقادية أيضًا طبعها في ليفربول مع انكلترا).

(١٧) قاموس إنكليزي وعربي (نشره بالاشتراك مع الدكتور جرجس باجر في ١٢٤٤ صفحة بالقطع الكامل وأتقن تشكيله بالحركات).

(١٨) النحلة الحرة (مجلة جدلية نشرها في مصر سنة ١٨٧١)

(١٩) النحلة (مجلة سياسية نشرها في لندن سنة ١٨٨٤)

(٢٠) النجاح (جريدة سياسية نشرها في بيروت سنة ١٨٧١ بالاشتراك مع يوسف الشلفون)

(٢١) الاتحاد العربي (جريدة سياسية نشرها في لندن سنة ١٨٨١)

(٢٢) الخلافة (جريدة سياسية أصدرها في لندن سنة ١٨٨١)

(٢٣) مجلس المبعوثين (جريدة طبعها في الأستانة)

(٢٤) تنزيه الأبصار في رحلة سلطان زنجبار (يحتوي على سياحة السيد برغش سلطان زنجبار بقلم كاتبه الأول زاهر بن سعيد. وقد نقحه الدكتور صابونجي ورتب أبوابه وعلق فوائد كثيرة على متنه وجلاه بمناظر المدن التي دخلها السلطان وزينه أيضًا بصور الملوك والملكات والأمراء والأميرات وأصحاب الشهرة الذين أكرموا منزلة حاكم زنجبار مدة طوافه في بلادهم، فخلع عليه السيد برغش خلعة ثمينة مشفوعة بمبلغ خمسمائة جنيه إنكليزي)

(٢٥) الأصول المنطقية (بحث في الفلسفة العصرية والقديمة لم يُطبع)

(٢٦) مرآة الأعيان في تسلسل الأديان (نشره على صفحات مجلة النحلة في لندن)

(٢٧) مجموع المقالات سياسية كتبها باللسان التركي ويبلغ عددها ٢٠٠٠ مقالة (لم تطبع)

(٢٨) مجموع قصائد لاتينية نظمها في صباه

(٢٩) قصائد وأناشيد باللغة الإيطالية

(٣٠) مجموع قصائد ومقالات سياسية باللغة الإنكليزية

(٣١) مواعظ في اللغات العربية والإنكليزية والفرنسية والإيطالية

(٣٢) أفكاري (كتاب مخطوط جمع فيه كل ما جرى له من الحوادث مدة حياته في مجلدات وفيه من سمو الأفكار والأعمال ما يندر اجتماعه إلا في أعاظم الرجال)

(٣٣) ديوان "شعر النحلة في خلال الرحلة" يحتوي على قسم من منظومات الدكتور صابونجي في ٥٨٦ صفحة كبيرة مزينة برسوم الملوك والأمراء والعلماء والشرفاء والأحبار. وقد طبعهُ في الإسكندرية ورفع منه نسخة مرصعة بالجواهر الكريمة إلى السلطان العثماني

(٣٤) "The Turkish Misrule" طبعه في أمريكا

(٣٥) أصل العرق الأيرلندي (وضعه في اللسان الإنكليزي وسماه " The Oringine of the Irish race" ثم طبعه في إنكلترا)

(٣٦) مختصر تاريخ جميع الأديان (وضعه في اللغة الإنكليزية مبتدئًا من الديانة الطبيعية والأثورية والمترائية والبرهمية والبوذية الوثنية والمصرية واليهودية والمسيحية وغيرها من الديانات، ثم ترجمه إلى التركية والإيطالية ولم يطبعهُ بعد)

(٣٧) مختصر تاريخ الأديان (في اللغتين التركية والإيطالية وهو غير مطبوع)

(٣٨) رسالة في اللغة الانكليزية هي بمثابة دليل للصورة التي مرَّ ذكرها عن تسلسل جميع الأديان

(٣٩) كتاب "السكان في النجوم والأقمار"، يحوى ألف وخمسمائة صفحة مزينة بالرسوم الكثيرة وقد قسمه مؤلفه إلى ثلاثة أقسام، الأول: وفيه ذكر العلماء والشعراء والفلاسفة والفلكيين وأصحاب الأديان العظام الذين علموا من أعصار قديمة إلى القرن العشرين وجود خلائق ناطقة على سطح النجوم والكواكب. وأورد في القسم الثاني: أحوال الشمس وسياراتها وسكانها العلوية. وأتى في الثالث على وصف النجمة الأرضية. ولهذا التأليف شأن كبير بين المؤلفات العصرية بتعدد مواضيعه وأهمية مباحثه. وهو أول كتاب من نوعه وضع في اللغة العربية ويشهد لمنشئه بطول الباع في المعارف والفنون، وقد وصف أحدهم هذا الكتاب ومؤلفه بما نصه: "لأن الذي يتجرأ على جمع المواد من مصادرها المختلفة العديدة يجب عليه مثل الدكتور صابونجي أن يكون مؤرخًا وفيلسوفًا وفلكيًّا وشاعرًا ومتفننًا ولاهوتيا وقسيسًا وسياسيًا ونديمًا للملوك وجوالًا وسائحًا ومتضلعًا من اللغات اللاتينية والفرنسية والايطالية والانكليزية والعربية والتركية والسريانية؛ ليتيسر له أن يطالع ما كتبه العلماء في تلك اللغات من العلوم والمعارف ثم

يصرف نحو ٤٠ سنة في جمع المواد جمع النحل للعسل. ثم يلوك ويلوك تلك المواد ثم يهضمها ثم يسوقها إلى دماغه دمًا صافيًا ثم يبرزها من دماغه دررًا مخروطة ثم ينظمها عقدًا ثم يطرزها ببراعة على قرطاس بنص صريح خالٍ من التعقيد يجمع فيه بين المسلي والمفيد".

(٤٠) شاؤل وداوود (رواية تمثيلية ترجمها عن اللسان الفرنسي عام ١٨٦٩ وطبعها بخط يد على المطبعة الحجرية في ٦٥ صفحة)

(٤١) كتاب "حر عثمانلي" أو "The Freen Ottoman" وضعه باللغتين التركية والإنكليزية في ١٢٤ صفحة بعد إعلان الدستور في السلطنة العثمانية، فأورد فيه الحجج التي تثبت مطابقة القانون الأساسي على الشريعة المحمدية وكيفية تشكيل مجلس المبعوثين بالإنصاف والعدالة. ثم ذكر مطامع الأجانب بتركيا المريضة، مشخصًا أمراضها ومبينًا العلاجات التي تكفل لها الشفاء، لاسيما من داء فساد الأخلاق، وقد زينه برسوم بعض المناظر كالكعبة ومدينة مكة وغيرهما.

(٤٢) مراثي أرميا الثاني السجية على خراب أورشليم السريانية

(٤٣) ديوان الفارض (طبعه في بيروت مشكلًا بالحركات)

(٣)

الأب يوحنا بلو اليسوعي

مدير مجلة "المجمع الفاتيكاني" وجريدة "البشير" وأحد مؤسسيهما

ولد صاحب الترجمة في غرة أيار سنة ١٨٢٢ في "لوكس" بلدة من ولاية برغنديا من أعمال فرنسة، فعرف منذ حداثة سنه بالنشاط والجد بيد أن رغبته في خلاص النفوس حملاه على أن يهاجر العالم ويزهد بالدنيا بعد دروسه الأولى في مدرسة ديجون الإكليريكية، فطلب الانضمام تحت راية القديس أغناطيوس وانتظم في سلك الرهبانية اليسوعية في ١٨ حزيران سنة ١٨٤٢م. وسعى من وقته أن يضع في نفسه أساسًا متينًا للفضائل التي مارسها طول حياته وباشر ببناء ذلك البرج الروحي الذي تكلم عنه المسيح في إنجيله، فبلغه بجده وهمته علوًا شامخًا.

وكانت الدولة الفرنساوية في تلك الأثناء قد عهدت إلى الآباء اليسوعيين بتربية أولاد الذين نفتهم من فرنسة لسوابقهم. وكان هؤلاء الأحداث ألفوا البطالة وسوء السلوك، فرضي اليسوعيون بتهذيبهم في "بن أكنون" قريبًا من الجزائر وتحملوا في ذلك مشقات عديدة، فطلب الأب يوحنا بلو أن يرسل إلى ذلك الدير بعد نهاية زمن امتحانه؛ رغبة في مشاركة إخوته في أتعاب هذا العمل، فقضى سنتين (١٨٤٤- ١٨٤٦) استوقف فيهما أنظار رؤسائه وأسر بحبه قلوب تلامذته. وكان في بعض

أوقات الفراغ يتجول في أحياء مدينة الجزائر، فرأى عربها وأحب أن يختلط بهم ويخدمهم وذلك ما حدا به إلى درس العربية على بعض أساتذة تلك الديار رجاء أن يستفيد بمعارفه بها لصلاح الآهلين. ولما ذهب سنة ١٨٤٧ إلى قسطنطينة (Constantine) توفرت لديه الوسائط لمواصلة هذا الدرس، فعكف عليه وألف لفظ تلك البلاد.

ثم انكب مدة في دير فلس قريبًا من مدينة لوبوي في فرنسا ثلاث سنوات على درس الفلسفة والرياضيات، فبرع فيها حتى أنه أوعز إليه بتدربها بعد ذلك بقليل على أن هذه العلوم لم تشغله عن درس العربية، وكان إذا وجد ساعة لترويح النفس أسرع إلى مراجعة أصولها والنظر في آدابها. ولما رأى أن بعض وصفائه من طلبة الفلسفة يرغبون مثله في تخصيص نفوسهم بخدمة الناطقين بالضاد من أهل الجزائر أو نصارى الشرق في بلاد الشام، تولى تعلمهم اللغة العربية ووضع لهم تأليفًا أفرنسيا دعاه أصول الجراماتيك العربي (Elemens de La Grammairearabe) في ٢٤٠ صفحة ضمنه الصرف والنحو ومبادئ علم العروض وطبعه على الحجر في دير فلس سنة ١٨٤٩ وصدره بهذه الكتابية بيانًا لما ينويه من تمجيد الله فقط: "كل لسان يعترف لله".

وفي سنة ١٨٥٠ أتيح للكاثوليك في فرنسا فتح المدارس للتعلم الثانوي، فانتدب الأساقفة اليسوعيين لتهذيب الأحداث في الآداب وترويضهم في العلوم، فلبي اليسوعيون دعوتهم وأنشئوا عدة مدارس تقاطر إليها الطلبة من كل فج، فأرسل الأب يوحنا بلو إلى أفينيون ثم إلى

بوردو، فدرس البيان وتولى إدارة الدروس فزاد التلامذة بهمته عددًا ونجاحًا ودفعته رغبته في تنشيط الأحداث وحسن سمعة المدرسة إلى أن يقدم أمام أكاديمية إكس فحصًا رشحه لشهادة البكالوريوس في فنون الآداب القديمة وأنجز كل ذلك وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره وقبل ترقيته إلى درجة الكهنوت.

وكانت المهام التي قام بها والخدم التي أداها لم تسمح له بدرس اللاهوت، فلم يشأ الرؤساء أن يحرموه هذه النعمة مع ما عرفوا من سمو فضائله، فسيم كاهنًا سنة ١٨٥٢ يوم عيد الغطاس بوضع يد السيد فريننד بونه، رئيس أساقفة بوردو والخطيب المصقع الشهير. وبقي في شؤونه إلى سنة ١٨٥٤ حيث استطاع الرؤساء أن يخففوا العبء عن عاتقه ويعينوا له خلفًا في نظارته، فأرسل إلى رومية لدرس اللاهوت ووافق وصوله إليها في سنة إثبات عقيدة الحبل بمريم العذراء بلا دنس الخطيئة. فحضر تلك الحفلة التي قلما يجري مثلها رونقًا وأبهة في أنحاء المعمورة وهي أبقت في قلبه ذكرًا لم يمحه وطء السنين وقد حظي أيضًا خلال دروسه برعاية بيوس التاسع والتبرك بلثم أقدامه ثم نال من الطاف عمال الكرسي الرسولي عدة إنمامات روحية وذخائر ثمينة كان يحافظ عليها إلى آخر حياته بكل حرص وتقي، ثم تقلب الأب يوحنا بلو بعد نهاية دروسه اللاهوتية في أعمال متعددة وفاها كلها حقها من الاهتمام والكمال نخص منها بالذكر تهذيبه لطلبة الرهبانية في دير "كلرمون" وهذه المهنة تعد في كل الجمعيات الرهبانية من أهم المشروعات وأخطر المراتب لما يترتب على صاحبها من المسؤولية لحياة الجمعية وترقيها في

سبيل الكمال ولم تعهد إليه أن يكون هو مثالًا حيًّا لكل الفضائل؛ إذ أن عيون المبتدئين شاخصة إليه ينسجون على منواله ويقتدون بأعماله أكثر منهم بأقواله والحق يقال. إن الرؤساء أحسنوا في اختياره لهذا العمل الذي تولاه مدة خمس سنوات بغيرة لا تعرف السأم وقد سمعنا غير واحد كانوا تحت تدبيره أنه لم يفرض على مرؤوسيه فرضًا إلا يتقدمهم في إتمامه، حتى أن مبتدئيه كانوا يتنافسون في مجاراته بهذا الميدان الروحي الذي لم يشق له فيه غبار.

وكان يرأس دير "كلرمون" في أيامه أحد مشاهير الآباء اليسوعيين وهو الأب يوسف بارال (Barrelle) الذي خلد في فرنسة ذكرًا طيبًا بأعماله المبرورة ومساعيه المشكورة. كما تشهد عليه سيرته المسطرة في مجلدين ضخمين، فوجد في الأب يوحنا بلو أشد مؤازر لمشروعاته الخيرية، فكانت رائحة البر تستطع بهمتهما من ذلك الدير أو بالأحرى من ذاك المقدس الذي كانت تقصده النفوس الشغوفة بالكمال وممارسة الفضائل المسيحية. ولما توفي الأب بارال برائحة القداسة في ١٧تشرين الأول سنة ١٨٦٣ خلفه في رئاسته رجلًا آخر من أسرة فرنساوية شريفة يُدعى الأب دي فورستا لم يكن دون الأب بارال فضلًا وفضيلة. وهو منشئ المدارس الرسولية التي أدت للرسالات الأجنبية خدمًا لا تحصى، فكان هذا يعتبر الأب يوحنا بلو كرجل الله ولا يأتي أمرًا دون مشورته.

ومن آثاره في تلك المدة تأليف بعض الكتب الروحية التي أقبل عليها القراء، فنفدت بزمن قليل: منها كتاب "الصلاة كسلاح المسيحي"،

طبع سنة ١٨٦٤ وكتاب آخر في "مواهب الروح القدس السبع" نشر في كلرمون سنة ١٨٦٥ وكتاب ثالث في "الدعوة إلى السيرة الرهبانية" طبع في ليون سنة ١٨٦٩.

وكان صاحب الترجمة مع نشاطه الغريب في فلاحة كرم الرب لا يزال يطلب من الرؤساء أن يرسلوه إلى حيث يمكنه أن يتفانى في سبيل الخير وخلاص القريب في الأقطار النازحة عن وطنه؛ ليكون الله غايته القصوى بعيدًا عن كل سلوة بشرية وكانت رغبته أن يرجع إلى بلاد الجزائر، لكن الطاعة أوعزت إليه بأن يركب البحر إلى سورية، فطفح قلبه فرحًا لهذه البشرى وأبحر إلى بيروت في أول خريف سنة ١٨٦٦.

ما كاد المرسل الجديد يطأ أرض بلادنا حتى أفرغ كل همه في إتقان اللغة العربية؛ ليساعد بمعرفتها إخوته في الأعمال الروحية، حيث قضى سنته الأولى في مدرستنا المنشأة في غزير بصفة أب روحي. وكان مع درسه للعربية لعلم اللاهوت الأدبي ويرشد الطالبين للترهب وغير ذلك مما يثقل عبئه على غير واحد ثم دعا في العام المقبل رئيس الرسالة إلى بيروت، فقدمها ولم يخرج منها إلى آخر حياته، فصرف ٣٦ سنة في أنفع الأعمال لخير البلاد ولمجد الكنيسة. وقد عرفناه طول هذه المدة فيمكننا أن نشهد له– ولا نخاف أن يرد أحد ممن عرفه شهادتنا– بأنه كان مرآة لكل الفضائل الرهبانية ومنشطًا لكل المساعي الأثيرة.

وكان مما عهد إليه في أول وصوله بيروت، إدارة المطبعة، فدخلت بهمته في طور جديد، فهو الذي باشر لأول جريدة كاثوليكية في هذه الديار وكان ذلك سنة انعقاد المجمع الفاتيكاني، فوسمت به الجريدة لمدافعتها عن تعاليمه وكان إذ ذاك قطعها قطع ربع. وفي السنة التالية ظهر بدلًا منها "البشير" فنهج له الأب بلو خطته الدينية التي لم يحد قط عنها وجعلها منارًا تستضئ به كل أبناء الكنائس الشرقية، وقد منحه الله أن يرى هذه حبة الخردل تنمو فتمد أغصانها كالأدواح الباسقة حتى أنها حظيت كل حظوى لدى الكرسي الرسولي وممثلي الطوائف الكاثوليكية الأجلاء.

ولما رأى مكاتب الأحداث في حاجة إلى كتب مدرسية لدرس العربية، أخذ في تأليف مجموع ذي خمسة أجزاء رتبه مع الأب أغوسطينوس روده ومساعده اللغوي الشيخ إبراهيم اليازجي، نعني به كتاب "نخب الملح"، الذي طبع بالشكل الكامل في السنة ١٨٧٠ وتم سنة ١٨٧٤ فأقبل عليه أرباب المدارس وتكررت طبعاته مرات عديدة.

ومما سعى به عمل جليل أفاد الكنائس الشرقية أعظم فائدة تريد تعريب الكتاب المقدس، فإن الأب يوحنا بلو وإن لم يكن من معربيه، لكنه أجدى العمل حسنًا بمراجعة كل الملازم الطبيعية وإصلاحها ومقابلتها على النسخ الأصلية المعتمد عليها في كنيسة الله مع حرصه على جودة طبعها والإسراع في الشغل. ولما أنجز هذا التأليف استفاد منه لتصنيف عدة كتب روحية ومدرسية فطبع الأناجيل الأربعة وأضاف إليها

فهارس لقراءة الفصول اليومية على حسب ترتيب الطقوس الكاثوليكية، ثم جمع سيرة السيد المسيح كما هي في الروايات الإنجيلية ونظمها بحيث جعلها رواية واحدة مسرودة على سياق تاريخ أعمال الرب من ميلاده الأزلي إلى صعوده الجليل إلى السماء. وهو كتاب "القلادة الدرية" جارى فيه دياطسارون طاطيانوس وحذو الأب بتريزي معلمه في الكلية الرومانية. وزين الكتاب بخارطة أورشليم كما كانت في عهد المسيح وكذلك اقتطف لأحداث المدارس أجمل روايات الأسفار المقدسة في ثلاثة أجزاء باسم "الغصن النضير" وقد طبعت طبعات متوالية.

وكان في أثناء ذلك يسعى بمطبوعات أخرى دينية أعظمها شأنًا مثل: كتاب "مروج الأخيار في تراجم الأبرار" كان الأب بطرس فروماج عربه قديمًا. فعنى الأب يوحنا بلو بمراجعة عربيته مع الشيخ الفاضل سعيد الشرتوني وزاد عليه تراجم أولياء الله الذين أدرجت الكنيسة أسماءهم حديثًا في مدارج القديسين. فطبعه أولا سنة ١٨٧٨ ومنه اجتنى بعدئذ "قطف الأزهار في مروج الأخيار" جعلها كراريس منفردة ليطالعها أحداث المدارس وزينها بالتصوير وأتقن تجليدها، ومما عني به أيضًا في ذلك الوقت تنقيح "شرح التعليم المسيحي" الذي عربه الأب فروماج.

وللأب بلو كتب أخري دينية ألفها أو نقحها كرياضيات القديس أغناطيوس مع شروح الأب جانسو وتساعيات لإكرام القديسين يوسف

وأغناطيوس وكسفاريوس وكتاب "قلائد الياقوت في واجبات الكهنوت" ترجمة الأب فروماج. فضلًا من تأليف أخرى عديدة كان هو الساعي في طبعها ومراجعة ملازمها "كالكمال المسيحي" للأب رودريكوس و"مدخل العبادة" للقديس فرنسيس دي سال و "العهد العتيق والجديد" للخوري رويومند، وغير ذلك.

ومع وفرة هذه المطبوعات استحق الأب بلو شكرًا خاصًّا لدى المستشرقين الأوروبيين بما وضع لهم من التأليف لدرس اللغة العربية وتقريب معضلاتها وعرفوا له فضله وأثنوا مرارًا على مصنفاته الجليلة، فمن ذلك معاجمه الثلاثة أعني "الفرائد الدرية في اللغتين العربية والفرنسية" وقاموسه المطول الفرنساوي والعربي في جزئين مع مختصره. وهذه الكتب لحل فوائده وحسن تنظيمها صارت من جملة الكتب المدرسية في أغلب الكليات الأوروبية ولم يزل مؤلفها ينظر فيها وينقحها ويزيد عليها إلى أخر أيام حياته ومنها أيضًا غرامطيقه الفرنسوي في مبادئ اللغة العربية طبعه طبعتين وألحقه بتمارين وجداول. وكذلك اهتم سنين عديدة بطبع "تقويم البشير" وضبط حساباته هذه بعض أعمال ذلك الراهب الهمام الذي صحح فيه قول أحد الكتبة عن رجل مثله "إنه كان مصلوبًا بقلمه". تراه أبدًا في كتابة أو تأليف. قلنا إن هذه بعض من أعماله لأن الأب بلو كونه مديرًا للمطبعة كان ينظر في كل المطبوعات ويصلح ملازمها مرة ومرتين وهو شغل ممل لا يعرف ثقل وطأته إلا من باشره. وقد لزم هذا العمل مدة نيف وثلاثين سنة دون سأم ولا استثقال ولذلك كان العمال كلهم يعتبرونه أحد أولياء الله ولا يذكرونه إلا بالخير.

والحق يقال أن فضائل الأب بلو كانت أعظم من فضله لا نذكر منها إلا شيئًا قليلًا ليتحقق القراء إن كلامنا ليس تقريظًا فارغًا بل هو عين الحق وأول ما يجدر بنا ذكره أنه لم يطلب من أشغاله كلها غير وجه الله. فإذا مدح كاتب أحد تآليفه لم يكترث لمدحه وإن انتقد عليه منتقد شكره وأقر بسهوه إذا وجد نقده صحيحًا. وكثيرًا ما كان يستشير إخوته الرهبان منقادًا لحكمهم بسذاجة الطفل شاكرًا لفضلهم. وكان على عكس ذلك إذا أدى لأحد خدمة لا يحفل بما صنع ويأبي ذكر عمله مهما كان عظيمًا هذا ونضرب عن ذكر أعمال أخرى كثيرة لو أوردناها لأخذ قراءنا العجب من برارة صاحبها. وقد بلغ شيخوخة طيبة ومع ما كان يكابد قبل وفاته بأشهر من ثقل العمر وإسقامه، كنا نراه مثابرًا على الشغل مجتهدًا في إصلاح ملازم المطبعة جهد إمكانه. وفي ١٤ آب ١٩٠٤ انطفأ سراج حياته برائحة القداسة بين أسف الجميع على خسارته.

لويس شيخو

(٤)

الشيخ إبراهيم اليازجي

منشئ مجلة "البيان" ومجلة "الضياء" في القاهرة ومحرر مجلتي "النجاح" و"الطبيب" في بيروت

ومصـور بالشـمس وهـو نظيرهـا أهدتـــه صـــورتها برســـم مثالـــه
ولـو أن شمسًـا صـورت بضـيائها مـــا صـــوروه بغيـــر نـــور جمالـــه

هو الشيخ إبراهيم ابن الشيخ ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط بن سعد اليازجي. ولد في ٢ أيار سنة ١٨٤٧ في بيروت وبها نشأ، ومنذ حداثته أخذ العلوم عن أبيه، فأحكم أصول اللغة العربية وتعلق بآدابها ونظم الشعر صبيًّا ثم انصرف عنه في كهولته. وله فيها القصائد النفيسة والمقتطعات البليغة وهي مجموعة في ديوان كبير مخطوط بيده لم يزل غير مطبوع. ولما علت منزلته في هذا الفن، كثر تقاضي الناس له النظم في الأغراض المختلفة من مدح ورثاء وتهنئة وغير ذلك وتواردت عليه رسائل الشعراء حتى وجد أن استمرار تلك الحال سيقضي به إلى الانقطاع للشعر وإهمال ما سواه، فترك النظم بتة وعكف على الاشتغال باللغة وسائر فنون الأدب والعلوم العقلية.

وقرأ مبادئ الفقه الحنفي على الشيخ محيي الدين اليافي من شاهير أئمة بيروت. وفي سنة ١٨٧٢ أي بعد وفاة والده الشيخ بنحو سنة،

تولى كتابة مجلة "النجاح" فلبث على تحريرها أشهر ثم انتدبهُ المرسلون اليسوعيون في بيروت للاشتغال بتعريب الأسفار المقدسة. فقضي في هذا العمل مع تصحيح كتب أخرى لهم نحو تسع سنوات تولى أمر التعريب فيها مع أحد أكابر علمائهم. ودرس اللسان العبري والسرياني بنفسه تلقيًا عن الكتب الإفرنجية لتطبيق عبارة التعريب على الأصل. وهذه النسخة مشهورة بفصاحة العبارة وجزالة الأساليب. وفي سنة ١٨٨٤ تولى كتابة مجلة "الطبيب" بمعاونة الدكتور بشارة زلزل والدكتور خليل سعادة. وهي المجلة التي كان أنشأها الجراح الشهير الدكتور جورج بوست الأمريكي، فأصدر منها مجلدًا واحدًا ثم توقف عن إصدارها لما رأى من قلة طلاب البضاعة العلمية لذلك العهد. وفي سنة ١٨٨٢ شرع في إكمال شرح ديوان المتنبي وكان والده الشيخ ناصيف قد علق على بعض أبياته شرحًا موجزًا، فعكف على إتمامه باقتراح جماعة من أفاضل الأدباء حتى أتمه في مدة أربع سنوات.

والشرح مشهور متداول، فلا حاجة إلى الإطناب في وصفهِ. أما تأليفه في اللغة وعلم البيان والصرف والنحو والشعر فكأنها متداولة بين الأيدي مشهورة وقد أعاد النظر في أكثر كتب والده الشيخ ناصيف واختصر كتابيه في علم النحو والصرف وهما "نار القري في جوف الفرا" و"الجمانة في شرح الخزانة" وجدد طبع "مجمع البحرين" و"النبذة الأولى" و"نفحة الريحان" و"ثالث القمرين"، وهي الثلاثة الأجزاء المشهورة من ديوان والده و"مفاكه الندماء" و"الجوهر الفرد".. إلخ.

وقد شرع سنة ١٩٠٤ بطبع كتاب "نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد" نسق فيه ما جمعه من ألفاظ اللغة وتراكيبها ورتبه على المعاني دون الألفاظ وهو كتاب يقع في ثلاثة أجزاء كبيرة. فأصدر الجزء الأول منه ثم غل المرض يده وأقعده عن السعي في إنجاز الجزأين الباقيين، وقد اقترح عليه بعضهم منذ عهد بعيد أن يضع معجمًا في اللغة العربية يكون متفردًا على ما تقدمه، فلم يجد بدًّا من إجابة ملتمسهم وأخذ في وضعه من ذلك العهد. فجاء آية في بابه، فريدًا في أسلوبه وطريقته؛ إذ يشتمل على المأنوس من كلام العرب الأولين وعما طرأ من موضوعات المولدين والمحدثين مقتصرا على الفصيح دون المولد والحدث في الاصطلاح. وقد وضعه على نسق غير متابع فيه أحدًا ولا مقلد أحدًا وسماه " الفرائد الحسان من قلائد اللسان"، فلم تفسح الأيام في أجله لإتمامه وحرمت المتأدبين من الانتفاع بهذا الأثر الجليل. فعسى أن يندب له من يجمع شتاته ويمثله للطبع ضنا بفوائده الكثيرة الجديرة بالإحياء واستدرارًا للرحمة على واضعه.. جزاه الله على ما عانى فيه خير الجزاء.

وخلا ما ذكر من تبحره في العربية وفنونها، فإنه من العارفين بالفرنسية والإنكليزية. وله عدا ذلك مشاركات في العلوم الرياضية والطبيعية ولا سيما علم الهيئة وله فيه مباحث دقيقة اشتهر فيها بين أرباب هذا العلم في أوروبا وأمريكا وقد انتدبته كل من الجمعية الفلكية في باريس والجمعية الفلكية الجوية في السلفادور أن ينتظم في عضويتها.

أما الكتب التي تولى تصحيحها وتهذيب عبارتها فكثيرة، منها: الكتاب المشهور في "تاريخ بابل وآشور" تأليف جميل مدور، فإنه بيضه بقلمه وأفرغه في قالب لفظه وأسلوبه، فجاء من أبلغ ما كتب في هذا العصر وأفصحه عبارة، ومنها الكتاب الذي جمعه المرحوم شاكر البتلوني أشار له فيه إلى ما ينبغي جمعه من أقوال علماء الإنشاء والترسل وتولى ضبطه ورسائله ومنها كتاب "نفحات الأزهار في منتخبات الأشعار" من جمع المشار إليه أيضًا وكتاب "عقود الدرر في شرح شواهد المختصر" للمعلم شاهين عطية وضعه في شرح الشواهد الشعرية الواردة في مختصر كتاب "نار القرى" في علم النحو. وله عليه تذييل لطيف في تحقيق رواية بعض الأبيات ومعاني بعضها وساعد الأبوين اليسوعيين يوحنا بلو وأوغسطينوس روده في جمع كتاب "نخب الملح" وترتيبه في خمسة أجزاء وتكررت طبعات هذا الكتاب مرات عديدة وطبع خطابًا عنوانه "أدب الدارس في المدارس" ألقاه في الاحتفال السنوي للمدرسة البطريركية، وغير ذلك مما لا نطيل باستقصائه، وله مقالات كثيرة في انتقادات لغوية نشرها على صفحات "الطبيب" و"البيان" و"الضياء"، وهي:

(١) "اللغة والعصر"

(٢) "لغة الجرائد"، فقد انتقد بها ما هو شائع في الصحف السيارة من الغلط اللغوي.

(٣) مقالة في "التعريب" بين بها شروط التعريب وتاريخ ذلك من صدر الإسلام.

(٤) أغلاط العرب القدماء.

(٥) اللغة العامية واللغة الفصحي.

(٦) أصل اللغات السامية.

(٧) "نقد لسان العرب" وهو بحث طويل انتقد به الطبعة المتداولة من معجم لسان العرب.

(٨) "أغلاط المولدين" بين فيها ما وقع للمولدين من الغلط اللغوي في صدر الإسلام إلى الآن. وفي جملة ذلك ما وقع للمرحوم والده ثم ذكر ما وقع هو نفسه فيه من الخطأ في بعض المواضع.

(٩) مقالة في "المجاز"

(١٠) مقالة في "النبر" وهما في اللفظ العربي.

(١١) "تكون العالم الشمسي" وغيرها وقد قضي أكثر أيامه الماضية في بيروت ولبنان وهو عاكف على الاشتغال والتدريس لا يلوي غير ذلك، وكان أكثر إلقائه في المدرسة البطريركية وقد تخرج عليه كثيرون من رجال العصر في العلوم الأدبية لا سيما الصحافة

والشعر. ونال على ذلك "الوسام العثماني" من لدن الحضرة العليا السلطانية ونال "نوط العلوم والفنون" من جلالة أوسكار الثاني ملك أسوج. وقد أهدى إلى المجمع اللغوي الذي عقد تحت رعاية جلالته طائفة من كتبه وله في الملك أوسكار قصيدة غراء.

وفي سنة ١٨٩٤ سافر إلى البلاد الأوروبية وساح فيها مدة ثم انقلب إلى القطر المري فأصدر في القاهرة مجلة "البيان" سنة ١٨٩٧ بالاشتراك مع الدكتور بشارة زلزل، فصدر منها مجلد واحد ثم حالت عوائق دون متابعة إصدارها، فأنشأ بعدها سنة ١٨٩٨ مجلة "الضياء" المشهورة تابع فيها العمل على وجهه من انتقاء المباحث العلمية والعملية وإثبات الحقائق العقلية والنقلية، بحيث كان يجد فيها كل وارد مشرع وكل رائد منجع وقد أصدر منها ثمانية مجلدات مشحونة بالفوائد اللغوية والأدبية وفصول الاكتشافات والاختراعات العصرية الى غير ذلك من كل ما فيه فائدة للبيب أو فكاهة للأديب. وكان صدور العدد الأخير من المجلد الثامن في شهر تموز ١٩٠٦ عندما اشتدت عليه وطأة المرض العصبي (روماتيزم) الذي أودى بحياته في ٢٨ كانون الأول لتلك السنة، بالغًا الستين من عمره ولم يتزوج وهو أخر غصن من الدوحة اليازجية إلا الشيخ حبيب ابن أخيه الشيخ خليل. فجري لمشهده في اليوم الثاني احتفال كبير ونقلت جثته بقطر خاص من منزله في المطرية إلى القاهرة، فمشي في جنازته عدد كبير من العلماء والوجهاء والأدباء وكبراء العاصمة وعقدت الحفلات لتأبينه في القاهرة والإسكندرية وأكثر أنحاء سوريا وعولت عائلته وأصدقاؤه على نقل جثته لبيروت لتدفن في ضريح الأسرة

اليازجية وقد أرسل الخديوي عباس الثاني بواسطة سر تشربناتي سموه كتاب تعزية للشيخ حبيب اليازجي، وهذا نصه:

جناب الفاضل الشيخ حبيب اليازجي..

لما علم الجناب الخديوي العالي بعظيم رزء اللغة العربية وآدابها؛ لانتقال العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية، أظهر مزيد أسفه على انقضاء تلك الحياة الطيبة الحافلة بجلائل الخدم للعلوم العربية في القطرين مصر والشام وأمرني سموه الفخيم أن أبلغ جنابكم وسائر أعضاء الأسرة اليازجية تعزيته السامية. وإني أشترك مع قراء العربية في تقديم واجب التعزية إلى حضرتكم.

سر تشريفاتي الخديوي

أحمد زكي

وقد أجاد المؤرخ المدقق حرجي بك زيدان منشئ مجلة "الهلال" المصرية في وصف أخلاق صاحب الترجمة ومواهبه وإنشائه وقرائحه وشعره وأعماله وأثاره، فاقتطفنا منها ما يأتي:

أخلاقه وصفاته

كان ربع القامة، نحيف البنية، عصبي المزاج، حاد البصر، ذكي الفؤاد، سريع الخاطر، حاضر الذهن، لطيف المحاضرة، حلو المفاكهة، لا يمل مجلسه يطرب للنكتة الأدبية ويضحك لها وكان مع ذلك شديد الحرص على كرامته لا يحتمل مسها في جد أو هزل لا تلميحًا ولا تصريحًا وكان سريع الانتباه لما يتخلل أحاديث المجالس من الإشارات الأدبية. وكان متعففًا بطعامه وشرابه ولولا ذلك ما صبر على معاناة صناعة القلم بضعة وأربعين عامًا مع نحافة بنيته وقضى أعوامه الأخيرة يقتصر في عشائه على كأس من اللبن خوف التثقيل على معدته، وإنما المعدة في الغذاء على أكلة الغداء، ولم يكن نهمًا.

وأما في الصباح، فيتناول طعامًا خفيفًا ويعكف على العمل. فإذا تغدى في الظهر شرب قهوته ودخن شيشته ونام ثم ينهض ويقضي بقية النهار في الراحة أو في عمل لا يتعبه ويخرج لترويح النفس في بعض الأندية يلاعب بعض معارفه بالنرد على سبيل التسلية أو يقضي ذلك الوقت بالمباسطة والمفاكهة. فإذا آن العشاء عاد إلى منزله، فيتناول اللبن ويستأنف العمل، وكان مولعًا بتدخين الشيشة أثناء الكتابة. كما كان والده مولعًا بالقهوة وتدخين التبغ في ذلك الحين.

وكان عفيف النفس، كثير الإباء، ظاهر الألفة إلى حد الترفع ولا سيما في ما يتعلق بالارتزاق. يعد مجاملة الناس في سبيل الكسب تملقًا وكلما قل ماله زادت إلفته وعظم إباؤه. وكثيرا ما أراد أصدقاؤه إقناعه أن

سنة الارتزاق تقضي بمجاملة الناس والتقرب من كبارهم بالحسنى. فربما أطاع ناصحه برهة ثم يعرض له خاطر فيعود إلى الإباء. ولولا ذلك لعاش في سعة وراحة ولكن القناعة كانت من أكبر أسباب سعادته. على أنه كان يشتغل بالقلم التماسًا لتلك اللذة التي كثيرًا ما أغوت أصحاب القرائح واستنزفت قواهم، فعاشوا فقراء وماتوا أعلاء. ولو أراد الشيخ مجرد الارتزاق، لكان له مما فطر عليه من دقة الصناعة اليدوية خير سبيل، بل لم يعدم منصبًا في بعض مصالح الحكومة وقد ندب أن يكون قائمًا على مدينة زحلة من لبنان سنة ١٨٨٢ فلم يقبل.

ومن إبائه وكرم أخلاقه أنه كان صادقًا في معاملته على اختلاف وجوهها لا يحلف ولا يخلف وأمينًا في ما ينقله أو يقتبسه من الآراء أو الأقوال ينسب الفضل إلى صاحبه. وكان عكس ذلك في ما يفعله مع الآخرين من تصحيح مقالة أو تنقيح عبارة. فإنه كان شديد الإنكار لذلك ولكن ديباجته كانت تتم عليه لظهور أسلوبه من خلال السطور وكان برًّا بأبيه وقد خدم اسمه وزاد في شهرته بما أتمه من آثاره أو شرحه من كتبه، فأنفق في سبيل ذلك جانبًا كبيرًا من وقته وأتم شرح المتنبي أو هو شرحه كله، فنسب الشرح إلى والده واستبقى لنفسه فضل التتميم.

قرائحه ومواهبه

أظهر قرائحه الإتقان الفني. فإنه كان متأنقًا في إتقان ما يتعاطاه من صناعة أو أدب أو شعر، سواء اصطنعه بيده أو أنشأه بعقله أو نظمه بقريحته بما يعبر عنه الإفرنج بقولهم Artist، فكنت ترى التأنق والإتقان

ظاهرين في كل عمل يعمله حتى في لباسه وجلوسه ومشيه وكلامه وطعامه. وكل ذلك فرع من تأنقه في الصناعة اليدوية، فكان حفارًا ماهرًا ومصورًا متقنًا. ظهر ميله إلى ذلك منذ حداثته . حدثنا صديقنا المستر إدوار فانديك، نجل أستاذنا الدكتور فانديك، أنه عرف الشيخ الفقيد منذ نيف وأربعين سنة، إذ كان يتردد على مطبعة الأمريكان في بيروت وإدارتها يومئذ بيد الدكتور فانديك وكانت للشيخ ناصيف علاقة حسنة بالأمريكان من التعليم بمدارسهم والتصحيح في مطبعتهم. قال صديقنا المشار إليه إنه كان يلاحظ في الشيخ إبراهيم ميلًا خصوصيًّا لصناعة الحفر وكثيرًا ما كان يحفر الأختام على سبيل الغية ثم حفر الصور والنقوش. وخطر له يومًا أن يصنع روزنامة عربية تعلق على الحائط من قبيل الروزنامات الشائعة ولم تكن معروفة يومئذ بالعربية، فاستأذن الدكتور فانديك في استخدام بعض أدوات المطبعة لحفر الأحرف والأشكال اللازمة لهذا العمل. فأمر رئيس العمال في ذلك العهد موسى هطا أن لا يمنعه شيئًا يحتاج إليه في هذا السبيل، فتأنق الشيخ في رسم حروف الروزمانة وأرقامها حتى أتمها على أجمل ما يكون وهي أول روزنامة عربية من هذا النوع.

على أن تأنقه ظهر في خط يده؛ فكان جميل الخط من حداثته وظل خطه جميلًا إلى آخر أيامه وقاعدته فارسية. والذين يقرؤون رسالة بخطه لا يكون إعجابهم بجمال ذلك الخط أقل من إعجابهم ببلاغة أسلوبه. ومن هذا القبيل تأنقه في التصوير باليد حتى صور نفسه عن

المرآة صورة ناطقة رأيناها معلقة في منزله وأهم ما نجم من ثمار هذه القريحة اصطناع الحروف الحديثة التي سنذكرها في جمله آثاره.

إنشاؤه

ومن قرائحه اقتداره الغريب على الإنشاء المرسل مع سلامة ذوقه في انتقاء الألفاظ وأسلوب عبارته جمع بين المتانة والبلاغة والسهولة، يشبه أسلوب ابن المقفع شبهًا إجماليًّا ولكنه من أكثر وجوهه خاص بالشيخ، على أن إنشاء ابن المقفع لم يصل إلينا كما كتبه صاحبه، ولكنه جاءنا بعد أن هذبته أقلام المنشئين ونقحته قرائح اللغويين زهاء اثنى عشر قرنًا. أما الشيخ فلم يمس

عبارته سواه، ناهيك عن ما يتعرض الكاتب اليوم من المعاني الجديدة التي لم يعرفها القدماء وليس في المعجمات لفظ يدل عليها مما يقف عثرة في طريق المنشئين.

أما فقيدنا اليازجي، فكان يتخطى هذه العقبات على أهون سبيل، فجاءت عبارته خالية من غريب اللفظ ووحشي التركيب وقد يأتي باللفظ الغريب فيضعه موضعًا يجعله مألوفًا فلا يمحه السمع ولا ينكره الفهم، فكان أسلوبه بليغًا بلا تقعر أو تعقيد، مهلًا بلا ضعف أو ركاكة، متسلسلًا متناسبًا متناسقًا يطابق ما قدمناه من توخيه التأنق والإتقان في كل شيء ورغبته في الإتقان حملته على التأني في نشر ما يكتبه، فكان لا يرسل المقالة إلى المطبعة إلا بعد تنقيحها وتهذيبها ثم يكتبها بحرف واضح

جلي كأنه سلاسل الذهب حذرًا من الوقوع في الخطأ. فآل ذلك إلى إبطائه في إخراج بنات أفكاره وقلل مقدار ما كان يرجى الحصول عليه من ثمار عمله ودرسه.

ومما حمله على المبالغة في التأني أنه كان شديد الوطأة في انتقاد ما يعرض له من الغلط اللغوي في ما يقرأه من الصحف أو الكتب وذلك طبيعي فيمن يخصص بحثه في فرع من فروع العلم يستقصيه ويدرس دقائقه فيكثر ما يقع عليه نظره من الغلط فيما يكتبه سواه في ذلك الفرع. فلا يصبر على السكوت عنه ولا سيما إذا كان عصبي المزاج مطبوعًا على التأنق والإتقان مثل فقيدنا، فالانحراف عن الصواب كان يؤلمه ولا يشفي ألمه غير النقد ويمتاز نقده بشدة اللهجة وبما يتخلله من قوارص الكلم لا يراعي في ذلك صداقة ولا عهدًا؛ وسبب تلك الشدة غيرته على اللغة وإخلاصه في خدمتها. فلما كتب "أغلاط المولدين" لم يستثن والده ولا نفسه لأنه كان يرى الغلط اللغوي أو النحوي من أكبر السيئات ويرى السلامة منهما من أكبر الحسنات. ولذلك كان يثني على شعر ابن الفارض ويعجب بشعر المتنبي على الخصوص لقلة ذلك الغلط فيهما وربما احتقر شعر شاعر مطبوع أو مقالة عالم كبير إذا رأى فيها غلطًا لغويًّا أو نحويًّا، فكان يبالغ في تنقيح ما يكتبه ويتأنق في إلقائه خوفًا من الانتقاد. ولعله تنبه لذلك على الخصوص منذ أخذ في الدفاع عن والده لما انتقده الشيخ أحمد فارس وشدد التكبر عليه وكان الشيخ إبراهيم في إبان شبابه، فأجاد في الدفاع وتعود الحذر من الخطأ بالمراجعة والتنقيح من ذلك الحين، فاعتبر مع سعة علمه بمفردات اللغة

وجزالة أسلوبه كم تكون لغته صحيحة وعبارته بليغة فصيحة حتى أصبح استعماله حجة وإنشاؤه قاعدة، فلا عجب إذ دعوناه حجة اللغة وإمام الإنشاء وأكثر ما يكتبه مرسل سهل وإذا سجع، فلا تجد في تسجيعه تكلفًا.

شعره

وقد رأيت أنه نظم الشعر في شبابه وقعد عنه في كهولته، على أن شاعريته ظاهرة في ما ظهر من شعره وبين منظوماته ما أدى على ألسنة القوم مجرى الأمثال مع رغبته في كتمانه، إذ جمعه في كتاب بخط يده وضن على الناس بنشره وهو لا يزال باقيًا كما تركه، ومن أشهر شعره قصيدته السينية التي مطلعها:

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس

وأختها التي تلاها في "الجمعية العلمية السورية" ومطلعها:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت

والقصيدتان مهيجتان اقتضتهما بعض الأحوال السياسية في سوريا من التحرض على النهوض. ولعل الفقيد حمل على نظمهما بإشارة جماعة أو أمر رجل كبير فجاء نظمهما بليغًا. ومن قوله في النسيب والغزل:

ما مر ذكرك خاطرًا في خاطري إلا استباح الشوق هتك سرائري

وتصـــببت وجــدًا عليــك نــواظر	باتــت بليــل مــن جفائــك ســاهر

ومن قوله في الحكم أيضًا:

وإنما نحن في دار اذا اعتبرت	ليست سوى مأتم ناحت به البشر
في كل يوم أناس فوقها فجعوا	على أناس طوتهم تحتها الحفـــر
بئس الحياة التي ما زال واردها	ممـا يليهـا وأخـرى فاتهـا الحـذر

ومما جرى مجرى الأمثال ويصح أن يكتب بماء الذهب، بيتان قالهما في معرض رد على أحمد فارس الشدياق لما انتقد كتب والده وشدد الطعن عليه، فقال الشيخ إبراهيم:

ليس الوقيعة من شأني فإن عرضت	أعرضت عنها بوجهٍ بالحياء ندى
إنـي أضـن بعرضـي إن يلـــم بـــه	غيــري فهــل أتــولى خرقــه بيــدي

ومن نكاته الشعرية:

تعجـــب قـــوم مـــن تأخـــر حالنـــا	ولا عجــب فــي حالنــا أن تــأخرا
فمـذ أصـبحت أذنابنـا وهـي رؤوس	عدونا بحكم الطيع نمشي إلى الورا

وكانت له قريحة في الرياضيات واطلاع واسع في علم الفلك اتصلت بسببه مخابرات بينه وبين بعض كبار الفلكيين والفرنساويين واشتغل في حل المشكلة الرياضية المشهورة وهي قسمة الدائرة إلى سبعة أقسام وتوصل قبل وفاته ببضع سنين إلى حل يقرب من الصواب كثيرًا بعث به إلى أكاديمية العلم في باريس ولا نعلم ما صار إليه أمره

وكان عارفًا اللغة الفرنساوية وله إلمام بالعبرية والسريانية ومشاركة حسنة في العلوم الطبيعية.

أعماله وآثاره

نظرًا لما قدمناه من طبعه في التأنق والإتقان وتوخيه التأني والتدقيق، فقد جاءت ثمار قرائحه أقل مقدارًا مما كان يرجى من مثله كما قدمنا، فضلًا عن انصراف ذهنه في شبابه إلى الاشتغال بالحفر والرسم. لكنه خدم اللغة العربية من هذا الطريق خدمة ذات بال باصطناع حروف الطباعة العربية في بيروت وذلك أن الطباعة بالحروف الإفرنجية لم تظهر في أوروبا بأواسط القرن الخامس عشر حتى اهتم أصحابها هناك باصطناع الحروف العربية، فاصطنعوا حروفًا طبعوا بها كتبًا بالبندقية وروسيا وباريس ولندرا وأكسفورد وغيرها. ولكل منها تقريبًا شكل خاص وإن تشابهت على الإجمال ثم ظهرت الطباعة العربية في الأستانة وحرفها يعرف بالحرف الإسلامبولي. وفي أوائل القرن الثامن عشر ظهرت الطباعة في سوريا نقلًا عن حروف رومية ثم جاء المرسلون الأمريكان إلى سوريا في أوائل القرن الماضي ولهم مطبعة عربية في مالطة أسسوها سنة ١٨٢٢ وحروفها من حروف مطابع لندن وطبعوا بها كتبًا بعناية المرحوم الشيخ أحمد فارس ثم نقلوها إلى بيروت سنة ١٨٣٤ وبعد انتقالها بأربع سنين اهتم مديرها يومئذ عالي سميث باصطناع حروف جديدة، فاستخدم أحد كتبة الأستانة فكتب له حروفًا جميلة سبكها في لا يبسك وهي الحروف الأمريكانية المشهورة

ولكن القاعدة الأمريكانية على جمالها ورونقها كانت كثيرة النفقة في اصطناعها لكثرة أشكالها والقاعدة الإسلامبولية تفضلها من هذا القبيل لكنها

تقل عنها من جهات أخرى، فعنى الشيخ صاحب الترجمة سنة ١٨٨٦ بصنع قاعدة جديدة يجمع بها حسنات الحرفين وهي القاعدة المعروفة بحرف "سركيس" لأنها تسبك في مسبك خليل أفندي سركيس، صاحب لسان الحال في بيروت، وهي القاعدة الشائعة الآن في أكثر المطابع العربية في سوريا ومصر وأمريكا. واصطناع هذه الحروف يحتاج إلى دقة ومهارة لا يعرف مقدارهما إلا من يعاني هذه الصناعة؛ لأن الحرف لا يتمثل للطبع إلا بعد أن يحفر على قضيب من الفولاذ حفرًا دقيقًا ويقال له باصطلاح الطباعة "الأب" ثم يضرب على النحاس ضربًا حتى يطبع غائرًا في النحاس ويسمونه حينئذ "الأم" وعلى هذه الأم يصبون الرصاص فيخرج الحرف المعروف في المطابع. فالشيخ كان يصطنع الأب من الفولاذ ويضربه على الأم النحاسية واصطنع هذا الحرف عدة أقيسة. ولما جاء القاهرة صنع حرفًا على قياس متوسط بين الحروف الكبرى والصغرى يعرف بحرف (بنط ٢٠) وقد اتخذته مسابك القاهرة واصطنعوا له قوالب وشاع استعماله في مطابعها.

وأدخل في الطباعة العربية بعد قدومه مصر صورًا للحركات الإفرنجية يحتاج إليها المعربون في التعبير عن الحركات الخاصة بها التي لا مقابل لها في العربية. ولما أرادت الحكومة المصرية صنع حروف مطبعة بولاق سنة ١٩٠٣ على قاعدة مختصرة مفيدة، كانت الأبصار متجهة إلى الشيخ لأنه أقدر من يستطيع ذلك بالدقة والرونق ولو فوض إليه هذا العمل لأحسنه صنعًا. واستثمرت قريحته ثمرًا نافعًا للغة العربية ومن آثار علمه أنه انتقى ألفاظًا اصطلاحية لما حدث من المعاني العلمية بنقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربية بما عرف به من سلامة الذوق في اختيار الألفاظ. وقد أوردنا أمثلة على ذلك لما روينا أخبار مجلة "الطبيب" التي كانت في عهدته ونختم هذه الترجمة

بالقصية النفيسة التي نظمها الأستاذ الكبير إبراهيم الحوراني في رثاء الشيخ إبراهيم اليازجي، وهي:

أضحى أبسي حلك الدياجي واخلعي	حلل الشعاع على كواكب مدمعي
لا تلمعي ودعي الشروق لأنه	غربت أشعة ذي الضياء الألمع
نعت النعاة ولم أثق إذ لم يزل	في ناظري وحديثه في مسمعي
كيف التفت أراه مبتسماً على	عهدي به فكأنه يحيا معي
صور بها انسي البلية لحظة	تمحى فيتلوها أشد تفجع
ياليت أخيلة السلؤ حقيقة	فأبشر الدنيا بمحيا من نعي
نفذ القضاء فما الخيال بدافع	جاءت جهينة باليقين الموجع
سجت بإبراهيم سابحة النوى	في اللج من عبرات كل مشيع
لم يبق بعد اليازجي لرائد	من نجعه غير السري في البلقع
عقد اللسان عن البيان وعقده	نثرت فرائده الحسان كأدمعي
لك يا أبا البلغاء معجز منطق	في طرس ما كتبت يمين المبدع
لك يا ابن ناصيف بن عبد الله في	نسب العلا آي الدليل المقنع
أشقيق وردة شامنا ذكر اسمكم	ورد حديقته بواد ممرع
أأخا الخليل العين سال عبابها	فتولد القاموس من ذا المنبع
لم أبككم لكن بكيت بكم على	قلب بسيف بعادكم متقطع
ولهان ودعت الحياة وطيبها	أسفا على من سار غير مودع

جهـد الـبلاء قضـى بنـا ورضـينه | يرضي الوجيع من المصاب الأوجع
يـا نفـس يـوم الجمـع يـوم الملتقـى | بالصـحب بعـد تفـرق المتجمـع
لـم تفـن تلـك الـذات لكـن غيـرت | صـور المركـب مـن فتـات اليرمـع
دفنوا حجاب النفس في جوف الثرى | والـنفس حلـت بالمحـل الأرفـع
وألـو البلاغـة والنهـى دفنـوه فـي | جـدث تحـيط بـه حنايـا الأضـلع
يـاذا اليقـين غـدًا أراك فمـا بنـي | أهل الشكوك على سوى المتزعزع
قـالوا الممـات مـن الحيـاة ومـا دروا | أن الحيـاة مـن الممـات المفجـع
مـاذا تخيـل شـاعر بـل حكمـة | نزلـت علـى روع الحكـيم الأروع
فالحـب ينبـت بعـد مـا يبلـى أمـا | للحـي بعـد ذهابـه مـن مرجـع
غربـت لتطلـع شـمس طلعـتكم ألا | إن الغـروب السـير نحـو المطلـع
مـا ميتـة الإنسـان إلا رقـدة | فقيامـة المـوتى انتبـاه الهجـع
ومعادنـا كـالحتف يحـدث مـرة | مـا للتناسـخ عنـدنا مـن موضـع
إن الخلـود حقيقـة أزليـة | نفـي النفـاة لهـا هبـاءة زعـزع
لـم ينقهـا العلـم الحـديث وأثبتـت | فـي مجمـع العلـم القـديم المجمـع
أذوي الحجـى دون الحقـائق برقـع | والكـل يجهـل مـا وراء البرقـع
لـو أسـفرت هـان الـردي وبـدأ لنـا | حزن الضريح الصعب سهل المضجع
وعلـى مـا لا تهـوى شـعوب وحبهـا | لا لـي الأسـى طبـع بغيـر تصـنع
يـوم الـولادة للمنيـة مشـرع | والعمـر مـدة ورد ذاك المشـرع

يــأتي الوليــد إلــى بســيطة باكيًــا ... فكأنــه قــد ودَّ لــو لــم يوضــع

وكأنـــه ميـــت بـــلا كفنـــي وقـــد ... خيطــت لــه كفنًــا ثيــاب الرضــع

قــل يــا خبيــر لمــن يريــد ســعادة ... فـي الأرض تطلـب مسـتحيلاً فـأربع

كـــم مـــن عزيـــز زى غنـــي وكرامـــة ... حسـد الصـريع على سـريع المصـرع

لله ســـر فـــي البريـــة مـــا طـــوي ... مـن نهجـه الحكمـاء عـرض الأصبع

لــو شــمت لمحــة بــأرق مــن كنهــه ... لكشــفت أســرار الجهــات الأربــع

أنــي جهلــت فكــان غيــق مــدامعي ... جـودًا ومـا فـي الجـو غيـر اليلمـع

يــا ســاكن الــرمس الــذي أقصــيته ... ودنـــا بطيـــب نشـــره المتضـــوع

أعطيــب مصــر الــنفس غيــر مطالــب ... فتمســـكت بنزيلهـــا المتبـــرع

شــربت هــوى النيلــين مصــر فغيبــت ... أصـــفاهما فـــي قلبهـــا المتصـــدع

يــا مصــر أبكــار العلــوم اســتودعت ... أنقــى صــعيدك أنفــس المســتودع

فســـقاه قطــر الشــام قطــر نجيعــه ... مــن مقلتيــه وقــال يــا ارض ابلعــي

ودحـــاه قـــال لا عـــين ترعـــى الســـها ... أســـماء طوفـــان الأســـى لا تقلعـــي

نظــم الرثــاء فيــا مطوقــة اســجعي ... وســـلاف أحزانـــي اجرعيـــه ورجعـــي

أمسـيت بعـد ضـيائه احيـي الـدجي ... بـــين الغـــوارب والنجـــوم الطلـــع

وشــغلت اســحاري بســمع حمــائم ... تبكـــي هـــديلًا غائبًـــا لـــم يرجـــع

وعلــى غريــب الــدار نحــت فــأرخوا ... نــاح الأسـيف علـى غريـب المربـع

سنة ١٩٠٦ ميلادية

سنة ١٣٢٤ هجرية

(٥)

السيد عبد القادر قباني

مؤسس جريدة "ثمرات الفنون" وصاحب امتيازها

يتصل نسب السيد عبد القادر بن السيد مصطفى بن السيد عبد الغني قباني بالإمام زين العابدين من أحفاد الإمام الحسين، كما ورد ذلك في كتاب "بحر الأنساب" وأصل عائلته من الحجاز ثم انتقلت إلى جهات العراق، فأقام أجداده فيها وفي عهد الحروب الصليبية قبل بعضهم إلى سوريا وانضموا إلى جيوش السلطان صلاح الدين الأيوبي لمحاربة الأعداء، فسكنوا أولًا في مدينة جبيل بلبنان ثم تحولوا إلى بيروت. ولما كان عبد الله باشا واليًا على عكا، انتدب إليه السيد مصطفى والد صاحب الترجمة وجعله قائدًا لعساكره. وعند سقوط عكا في ٢٧ أيار ١٨٣٢ بيد إبراهيم باشا ابن محمد على باشا المصري، وقع مصطفى جريحا وأرسل إلى وادي النيل، فكلفه محمد علي باشا أن يخدمه بالأمانة التي خدم بها عبد الله باشا على أن يعينه أميرًا لواء ويعوض عليه كلما خسرت يداه. إلا أنه زايل مصر متنكرًا يتنقل من بلد إلى بلد حتى بلغ القسطنطينية، فأكرمته الدولة العثمانية وجعلت له راتبًا كافيًا لمعيشته، فاستاء إبراهيم باشا منه ثم أبعد عائلته إلى جزيرة قبرص، فأقاموا فيها إلى ما بعد خروج إبراهيم باشا من سوريا وحينئذ تسنى للسيد مصطفى أن يعود إلى بيروت بعائلته التي لم تزل فيها إلى الزمان الحاضر.

أما صاحب الترجمة، فإنه ولد في بيروت سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥هـ) وتعلم في مكاتبها الإسلامية ثم درس مدة في "المدرسة الوطنية" لبطرس البستاني وتلقى بعض العلوم على الشيخ عبد القادر الخليلي والشيخ محي الدين اليافي والشيخ إبراهيم الأحدب. وكان من أعضاء "جمعية الفنون" التي اهتم بتأليفها الحاج سعد حمادة لخدمة المعارف والفقراء. وجرى الاتفاق على أن يكون السيد عبد القادر مديرًا للمطبعة التي أنشئت باسم الجمعية المذكورة ويطلب امتيازًا باسم جريدة "ثمرات الفنون" التي مر ذكرها. ولما لم يطل أجل تلك الجمعية، تحولت الحقوق في المطبعة والجريدة إلى اسم صاحب الترجمة.

وفي غرة شعبان ١٢٩٥ (١٨٧٨ميلادية) تألفت بمساعيه وبمساعي بعض أصدقائه "جمعية المقاصد الخيرية والإسلامية" وتعيينه رئيسًا لها. وقد تأسست على يدها المكاتب الابتدائية للذكور والإناث ونالت نصيبًا وافرًا من النجاح. إلا أن روح الحسد حمل البعض على الوشاية بها ونسبوا لمدحت باشا والي سوريا حينذاك فكر الاستقلال في سوريا بواسطة الجمعية المذكورة، فألغتها الحكومة وأبدلت اسمها باسم "شعبة المعارف" وعينت رئيسًا لها الحاكم الشرعي وكان يومئذ عبد الله جمال الدين أفندي الذي صار فيما بعد قاضيًا للديار المصرية وتوفى هناك وقد تبدلت حال الشعبة المذكورة بانتقال عبد الله جمال الدين إلى مصر وتفرق أهم أعضائها في أنحاء مختلفة.

وتقلب السيد عبد القادر قباني في وظائف الحكومة سنين عديدة، فصار سنة ١٨٨٠ عضوًّا في مجلس إدارة لواء بيروت ثم عضوًّا في المحكمة البدائية. ولدى تشكيل ولاية بيروت ١٨٨٨ تعين عضوا في محكمة الاستئناف، فخدم في هذه الوظيفة مدة عشرة أعوام. وفي سنة ١٨٩٨ انتخبه أهالي بيروت رئيسًا للمجلس البلدي، فجرت على يده إصلاحات كثيرة في المدينة. وفي مدة رئاسته زار غيليوم الثاني إمبراطور ألمانيا وفلسطين وسوريا وجرى له في بيروت احتفال عظيم يليق بمقامه السامي وبالمدينة التي سماها "درة في تاج سلاطين آل عثمان". وفي عهد رئاسته أيضًا وافق العيد الفضي لمرور خمسة و عشرين عامًا على ارتقاء السلطان عبد الحميد الثاني إلى الأريكة العثمانية. فسعى مع أعيان المدينة في تشييد السبيل الواقع في ساحة السور تذكرًا للعيد المشار إليه وأنشأ من أموال البلدية برج الساعة الكائنة بين الثكنة الشاهانية والمستشفى العسكري وهو بديع الصناعة مرسوم على الطراز العربي بقلم المهندس البارع يوسف أفيتموس. وبعد أن أتم صاحب الترجمة مدته النظامية في رئاسة المجلس البلدي تعين بإدارة سلطانية مديرًا للمعارف ولاية بيروت. وبلغنا أن لوائحه التي قدمها للمراجع الإيجابية في إصلاح المدارس ورقى المعارف وبقيت في زوايا النسيان وأهملتها الحكومة رغمًا من اجتهاده في تحقيق هذه الأمنية. وبعد أن لبث في هذه الوظيفة نيفا وست سنين تبلغ في ١٣ أب ١٩٠٨ خبر عزله بلا سبب ومن دون محاكمة، فاستدعى تكرارًا من وزارة المعارف معاملته بالإنصاف أو إجراء محاكمته. فأصدرت الوزارة أمرها استنادًا إلى قرار مجلس المعارف بجواز

استخدامه بإعطائه راتب المعزولة توفيقًا لقانون التنسيق وذيله. وذلك دليل على عدم وجود سبب للعزل. وفي أواخر السنة المذكورة، ودع الصحافة التي خدمها أربعًا وثلاثين سنة كما سبق القول في أخبار جريدة "ثمرات الفنون".

وبعد ذلك ألف مع بعض أبناء الوطن شركة للقيام بأمور عمرانية عمومية لا سيما استخراج الحديد وزيت البترول في أراضى ولاية سوريا، فنالت الشركة رخصة الحكومة بذلك وبلغنا أن الدلائل تبشر بالحصول على المقصود. وقد كافأته الدولة على إخلاص خدمته لها بالرتبة الأولى من النصف الأول وبالوسام المجيدي الثاني الثالث وميدالية التخليص وميدالية السكة الحجازية وميدالية وصول الخط الحجازي إلى معان وأهداه إمبراطور ألمانيا وسام "النسر الأحمر" من الرتبة الرابعة.

«٦»

الشيخ إبراهيم الأحدب

محرر جريدة "ثمرات الفنون" وأحد أركان النهضة العلمية في القرن التاسع عشر

هو ابن السيد علي الأحدب. ولد سنة ١٨٢١ (١٢٤٢هجرية) في طرابلس الشام ويتصل نسبه بالإمام الحسين وطلب العلوم اللسانية والأدبية منذ نعومة أظفاره، فقرأها على الشيخ عرابي والشيخ عبد الغني

الرافعي فبرع فيها. وقد لازم كبار العلماء فتقدم بجده على أقرانه وسار صيته بين الأفاضل شرقًا وغربًا وكان نابغة في حفظ أشعار المتقدمين والمتأخرين ويملى عن ظهر قلب عدة متون من النحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق ومقامات الحريري مع وفور اطلاع على أمثال العرب وتواريخهم ونوادرهم ووقائعهم. وقد قال الشعر في صباه وبرع فيه حتى بلغ ما تضمنه نحو ثمانين ألف بيت وكل بيت من شعره لا يخلو من صناعة بديعة أو نكته أدبية أو حكمة بالغة أو مثل سائر. وكان سريع الخاطر يملى بأسرع من لمح البصر ما يقترح عليه كتابته نظما أو نثرا، فيبرز ذلك كأحسن شيء دون تكلف وقد زار مدينة القسطنطينية على عهد السلطان عبد المجيد، فامتدحه بقصيدة مطلعها:

بنصره دين الله وافت لنا البشرى فأولت أولي الإيمان من نشرها بشرًا

وفي سنة ١٨٥٢ استدعاه سعيد بك جنبلاط، حاكم مقاطعة الشوفين بلبنان، إلى مركزه في "المختارة" فاتخذه مستشارًا في الأحكام الشرعية. وبعد ثمانية أعوام انتدبته حكومة بيروت وعينته نائبًا في محكمة الشرع وعند إجراء تنسيقات النواب صار رئيسًا لكتاب المحكمة المذكورة، فتعاطى شؤونها نيفا وثلاثين سنة. وفي خلال هذه المدة تولى التحرير في جريدة "ثمرات الفنون" فأودعها كثيرًا من المقامات البديعة والرسائل الأدبية والفصول الحكمية ما لو جمعت لبلغت مجلدات وقد عرضت عليه نيابة صنعاء اليمن فامتنع عنها لبعده عن الأوطان. وكان عضوًّا في مجلس معارف الولاية فامتاز فيه بسعة آدابه. ومع ذلك كله كان مجدا

في نشر العلوم وله في كل يوم دروس مختلفة مع اشتغاله بالتأليف ونقله ما ينوف عن ألف كتاب ورسالة بخطه الظريف. وفي سنة ١٨٧٢ زار الديار المصرية، فرحب به علماؤها لاسيما الشيخ عبد الهادي نجا الأبيارى وقد روى في كتابه "الرسائل الأدبية في الرسائل الأحدبية" ما جرى بينهما من المكاتبة.

وكان له من علم الأدب أوفر نصيب، راسل الشعراء والعلماء ونظم القصائد الشائقة في مدح أمراء العرب ووزرائهم وكبارهم مثل الأمير عبد القادر الجزائري وباي تونس محمد صادق باشا الذي رسمه بالألبسة الرسمية واسمه منقوش بالحجارة الكريمة وأنشأ رسالة "لا سلامة من الخلق" وهي التي اقترحها حسين باشا وزير المعارف بتونس على الأدباء، فحكم لصاحب الترجمة بالسبق على ما سواه وأرسل له الجائزة المعينة مع سبحة من العنبر ورسالة بخط يده. ومن شعرها اللطيف قصيدته البائية التي أودعها فنون الحكم ومطلعها:

ورد المعاني بما يصفو من الأدب يقضي براج الصفا في أرفع الرتب

ومنها في الختام:

هذي بدائع قد أودعتها نكتًا من المعاني نبت عن سمع كل غي
جرى إليها يراعي محرزا قصبًا فأطرب السمع في معناه بالقصب
لامية العجم اشتعلت بنسبها وهذه دعت بائية العرب
أنشأتها حكمًا طابت لخاطبها إن كان في ذوقه ضرب من الضرب

من الأشعار التي نظمها في مدح الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، هذه الأبيات:

إني أمدح ابن محيى الدين ذو همم ... إذا نظامي بها في أرفع الدرج
وفي مآثر عبد القادر اطردت ... أبيات شعري فراقت كل مبتهج
غوت النزيل وغيث فيض نائله ... من الأنامل يجرى الدر في خلج
شمس أنارت بلاد الشرق فابتهجت ... سورية بسناها الفائق البهج
في الكون أثاره كالمسك قد نفخت ... إلا لمزكوم طبع عد في الهمج
لله غرب حسام منه قد شهدت ... في الغرب أثاره كالصبح في البلج
لا زلت تهدي إليك الامتداح ما طلعت ... شمس بنورك تغنينا عن السرج

وأشهر مؤلفاته هي:

(١) "ديوان شعر" نظمه في صباه ورتبه على ثمانية فصول.

(٢) ديوان "النفح المسكي في الشعر البيروتى" نظمه سنة ١٢٨٣هجرية.

(٣) له "ديوان ثالث" نظمه بعد هذا الديوان يشتمل على كثير من القصائد الزائفة.

(٤) له "مقامات" تبلغ الثمانين مقامه أملاها على لسان أبي عمر الدمشقي وأسند روايتها إلى أبي المحاسن الطرابلسي جارى في إبداعها العلامة الحريري.

(٥)كتاب "فرائد الأطواق في أجياد محاسن الأخلاق" يتضمن مائة مقالة نثرًا ونظمًا جارى بها مقالات العلامة جار الله الزمخشري.

(٦) كتاب "فرائد اللآلئ في مجمع الأمثال" نظم فيه الأمثال التي جمعها العلامة الميداني في نحو ستة آلاف بيت وقد شرحها في مجلدين طبعا بعد وفاته في المطبعة الكاثوليكية بهمة نجليه سعيد وحسن.

(٧) له"رسالتان في المولد النبوي" إحداهما مطولة والأخرى مختصرة.

(٨) كتاب"تفضيل اللؤلؤ والمرجان في فصل الحكم والبيان" ويشتمل على مائتين وخمسين فصلًا في الحكم والآداب والنصائح.

(٩) "عقود المناظرة في بدائع المغايرة" وهو جزءان مشتملان على خمس وعشرين مغايرة.

(١٠) "نشوة الصهباء في صناعة الإنشاء".

(١١) "منظومة اللآلئ في الحكم والأمثال".

(١٢) كتاب"نفحة الأرواح على مراح الأرواح".

(١٣) كتاب "أبداع الإبداء لفتح أبواب البناء" في علم الصرف.

(١٤) كتاب "كشف الأرب عن سر الأدب".

(١٥)كتاب "مهذب التهذيب" في علم المنطق نظمه وعلق عليه شرحًا لطيفًا.

(١٦)كتاب "الوسائل الأدبية في الرسائل الأحدبية" يشتمل على القصائد والرسائل التي دارت بينه وبين الشيخ عبد الهادي نجا الأبيارى في مصر.

(١٧) له "ذيل ثمرات الأوراق" طبعه على هامش كتاب "المستظرف" وغيره.

(١٨) وأخر مؤلفاته "كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان" ألفه في أربعة أشهر وقد طبعه الآباء اليسوعيون بنفقتهم. (١٩) رسالة "لا سلامة من الخلق" التي مر ذكرها.

وكان له كلف بالروايات حتى بلغ ما جمعه منها نحو عشرين رواية بعضها مبتكر وبعضها مأخوذ من التاريخ أو مترجم عن لغة أوروبية كراوية "إسكندر المقدوني" ورواية "السيف والقلم" ورواية "المعتمد بن عباد" وغيرها. وقد بلغت شهرة رواياته مسمعي راشد باشا والي سوريا في دمشق فأعجب ببراعة منشئها. ولما أراد أن يحتفل بختان أنجاله في نواحي سنة ١٨٦٨، كلف صاحب الترجمة أن يعلم رواية "اسكندر المكدونى" لجوق من الممثلين ويذهب بهم إلى دمشق لأجل تمثيلها. ففعل الشيخ إبراهيم ذلك وكان لتمثيل الرواية صدى استحسان لم يزل يردده سكان الفيحاء إلى الزمان الحاضر. وعند رجوع الشيخ إبراهيم إلى بيروت أهداه راشد باشا خاتمًا ثمينًا مرصعًا بالألماس ونفخه بمائة ليرة عثمانية. ثم إنه نال من مكارم أعيان دمشق وإكرامهم ما لم ينله عالم سواء في عصره.

وفي ليلة الثلاثاء في ٢٢ رجب ٣٠٨ (٢ أيار ١٨٩١) أتم أنفاسه الأخيرة، فتولى طلبة العلم حمل نعشه وشيعه خلق كثير من الأشراف والعلماء والوجهاء إلى مقبرة "الباشورة" حيث دفنوه بالتعظيم اللائق. وتليت المراثي العديدة تعدد محاسنه وشمائله لأنه كان من أكمل العلماء في عصره خلقًا وفضيلة وفضلًا. وبين الشعراء الذين رثوه الشيخ قاسم أبو حسن الكستى من قصيدة طويلة جاء فيها:

لفقدك هذا العصر يا من قضى نحبا   على أهله قد أوجب الحزن والندبا
نعـــزي بـــك يـــؤمن حويتهـــا   وكنـت لمـن يرتادهـا مـنهلًا عـذبًا
يظنك بعض الناس أنك في الثرى   ولـم يـدر عنـد الله منزلـك الرحبـا

وقد نقشت على قبره الأبيات الآتية:

هــذا ضــريح تــوارى ذو شــرف   قـد كـان يمـلأ عـن الـدهر مـراء
كنز المعارف إبراهيم من شهدت   لـه بحسـن التقـى والفضـل دنيـاه
بطلعه الأحدب الماضي له لقب   ورأيـه قـد حكـي بالفضـل معنـاه
تكلفت خدمة الشرع الشريف له   بأنــه ســوف يعطــى مــا تمنــاه
وبشــــرتنا بـــــان الله عاملــــه   بــالعفو أرخ وبــالإكرام أرضــاه

سنة ١٣٠٨ هجرية

«٧»

أديب بك إسحاق

مؤسس جريدة "مصر" في القاهرة والإسكندرية وجريدة "التجارة" في الإسكندرية وصحيفة "مصر القاهرة" في باريس وأحد المحررين في الجرائد "ثمرات الفنون"و"التقدم" و"المصباح" في بيروت

سوى القرطاس لم تعرف حبيبًا	**فإن بصدره رسم الحبيب**
وإذ رسموك كفت كل عين	**بهذا الرسم عن حسد القلوب**
ولا ينسى الأديب فتى أديب	**أنارت ذهنه درر الأديب**

ولد في دمشق عام ١٨٥٦، فلم ينفطم عن الرضاع حتى ظهرت عليه مخايل النجابة، طفلًا تخترق ذهنه مؤثرات التربية لاقتها إشارة وأقلها ظهورًا. ولما ترعرع أدخله والده مدرسة الآباء اللعازريين فتلقى فيها مبادئ العربية والفرنسية بما كان يزيده في أوقات الامتحان تقدمًا على أقرانه. وكان أستاذه في العربية يقول لأبيه "إن ابنك سيكون قوالًا" أي شاعرًا؛ لأن أكثر كلامه كان يرد مسجعًا عفو القريحة وهو لا يعرف إذ ذاك شيئًا من قواعد اللغة. ولما بلغ العاشرة أخذ ينظم الشعر كلفًا به وفي الحادية عشر دخل في خدمة الجمرك براتب يسير وأخذ يعول عائلته؛ إذ أصابها في ذلك العهد سوء حال وعطلة أعمال. وما أتم الثانية عشرة من سنه حتى كان له عدة قصائد وموشحات. ثم عرض لوالده أن يسافر إلى بيروت ودخل في خدمة البريد العثماني فاستدعاه من دمشق ليكون معينًا

له في خدمته وهو في الخامسة عشرة، فجاءها وتعرف ببعض أدباء بيروت وله مع أكثرهم كمصباح رمضان والشيخ فضل القصار وبولس زين والشيخ إسكندر العازار وجرجس وابن ميخائيل نحاس وسليم بن عباس الشلفون وغيرهم مطارحات ومراسلات شهرية. وفي السابعة عشر، نال وظيفة في إدارة جمرك بيروت فقضى فيها مدة يسيرة ثم نزعت به نفسه إلى الاشتغال بفن الكتابة والانصباب على الإنشاء، فتولى تحرير جريدة "ثمرات الفنون" ثم جريدة "التقدم" بعيد نشأتها الأولى زمنًا طويلًا. وله فيها فصول شائقة كما له قصائد كثيرة في ديوان يوسف الشلفون وكان يصرف أوقات فراغه في المطالعة ومعاشرة الأدباء ونظم الشعر، فألف كتابًا أسماه "نزهة الأحداق في مصارع العشاق".

ومن ذاك الحين صارت شهرته الأدبية تنمو؛ لأنه اتخذ أسلوبًا جديدًا في كتاباته قلده فيها سائر حملة الأقلام، لاسيما في سوريا ومصر، ثم دخل "جمعية زهرة الآداب" وكانت برئاسة سليمان البستاني، فقام فيها عضوًا مهمًّا يلقى على مسامع أقرانه الخطب البليغة والقصائد الرائقة والمحاضرات المفيدة ويباحثهم في المواضيع الأدبية.

وبعد ذلك كلفه سليم شحادة بمشاركته مع زميله سليم الخوري في تحرير كتاب "آثار الازدهار" عام ١٨٧٥ وهو كتاب نفيس أتينا على وصفه في الجزء الأول، فاشتغل فيه مدة وكان سنه دون العشرين وله في ثلاثة أجزاء منه فصول تدل على سعة اطلاعه وغزارة مادته ولبث على هذه الحال إلى أن جاء الإسكندرية بإشارة سليم نقاش، فساعده في

تمثيل الروايات العربية على عهد الخديوي إسماعيل الذي أمدهما بالمال. وعرب في بيروت عن "راسين" الشاعر الفرنسي المشهور روايته "أندروماك" وهو في التاسعة عشرة من العمر إجابة لطلب قنصل فرنسا، فترجمها ونظم أشعارها وعلم أدوارها في مدى ثلاثين يومًا ودفعها إلى القنصل، فمثلت إسعافًا للبنات اليتامى ثلاث مرات، فجمعت خمسة وثلاثين ألف قرش. فلما حضر إلى الإسكندرية قلبها بطنًا لظهر ونظم فيها أبياتًا جديدة من الشعر الرائق، فحصل لها وقع عظيم وهي مثبتة في كتاب "الدرر" مع رواية "شارلمان" التي ترجمها في الإسكندرية ونالت من استحسان القوم حظًا وفيرًا.

ثم قصد القاهرة عاصمة البلاد ولزم العلامة جمال الدين الأفغاني، فقرأ عليه شيئًا من الفلسفة الأدبية والفلسفة العقلية والمنطق. ورغب في أثناء ذلك في إنشاء جريدة عربية، فدان له الوطن بذلك فأنشأها باسم "مصر" ١٨٧٧ وليس في جيبه أكثر من عشرين فرنكًا. ولما رأى من إقبال الناس عليها ما يشد الأزر، نقل إدارة الجريدة إلى الإسكندرية يشاركه في إدارتها وتحريرها سليم نقاش فلقيا نجاحًا ليس باليسير. ثم أنشأ كلاهما جريدة "التجارة" فأصدرها يومية وأبقيا "مصر" أسبوعية، فحصل لها جميعًا إقبال عظيم. ثم ألغيت الجريدتان لمقتضيات دعت إلى إلغائهما كما سنذكر في الجزء الثالث من هذا الكتاب، فابتعد الأديب عن مصر عام ١٨٨٠ مهاجرًا إلى باريس حيث أنشأ جريدة "مصر القاهرة" وكتب فيها فصولًا متناهية في البلاغة لا يعاب أكثرها إلا بما كان فيها من آثار الحدة وكفى.

وحصلت له في باريس حظوة موصوفة بأقلام بعض كتاب الجرائد الباريسية وجريدة "مشورة" التركية في تلك العاصمة وتعرف ببعض المتقدمين من رجال الدولة الفرنساوية وحضر في مجلس النواب جلسات كثيرة، فزادت خطب البلغاء منهم إقدامًا وتقدم على الخطابة. ومن حين إلى حين كان يكتب مقالات عن الشرق في الصحف الباريسية وألف كتابًا سماه "تراجم مصر في هذا العصر" لعبت به أيدي الضياع في جملة ما فقد من آثاره.

وكانت صحته في الإسكندرية قد تعرضت للمؤثرات. فلما ذهب إلى باريس اتفق أن بردها كان في منتهى الشدة، فأصيب بعلة الصدر وتألم منها مدة الشتاء ثم عاد إلى بيروت مصدورًا بعد أن قضى في باريس تسعة أشهر، فعهد إليه صاحب "التقدم" بتحرير جريدته، فتولى تحريرها للمرة الثانية وأقام على ذلك نحو سنة. فلما حصل انقلاب الوزارة المصرية في أواخر فبراير عام ١٨٨١، عاد إلى مدعوا إليها فودعه أصحابه وخلانه بنفوس الآسفين على فراقه. فما رأيت قلبًا غير مائل إلى أصحابه وقد أنشده أحد وجهاء بيروت، حسن بينهم، قائلًا له ساعة الوداع:

إنــا نــودع روحنــا وفؤادنــا ومــع الأديــب نــودع الآدابــا

فأجابه بقوله: "ليس بقاءك وداع للآداب" ثم سار وأتى القاهرة فعين ناظر لقلم "الإنشاء والترجمة" بديوان المعارف ورخصت له الحكومة في استئناف نشرة جريدة "مصر"، فأصدرها أولًا في شكل كراسي ثم أعادها إلى مظهرها الأول بأربع صفحات ونال تلك الرتبة الثالثة وعين كاتبًا ثانيًا لمجلس النواب. ولما طرأت الحوادث العرابية، عاد إلى بيروت فيمن هاجر إلى القطر السوري ونفح جريدة «المصباح» بنفثات قلمه. وبعد أن حل الانكليز في الإسكندرية،

جاءها مرَّة أخرى في التماس شأنهِ الأول فلم يحصل عليه. فأُبعد إلى بيروت بعد أن أُودع السجن بضع ساعات ونظم في خلالها أبياتًا ذيل بها قصيدة في مدح سلطان باشا، منها قوله:

أَمولاي هذا نظم حرٍ وتلوهُ ... كلام سجينٍ أَرثقتهُ المآثرُ
أتوهُ بنكرٍ وهو للعرفِ مرتجٍ ... وجازوهُ للخذلان وهوَ مناصرُ
أَيبعد ذو فضلٍ ويدنى منافقٌ ... ويسجن وافٍ حين يطلق غادرُ
ويكرم جاسوسٌ عن الصدق حائدٌ ... ويظلمُ همامٌ على الحق سائرُ
ويرفعُ نمامٌ عن الريبِ كاشفٌ ... ويخفضُ كتامٌ عَلَى العيب ساترُ
بذا قضت الأيامُ ما بين أهلها ... معايبُ قومٍ عند قومٍ مفاخرُ
على التي والشيم تأباهُ شيمتي ... لراضٍ بعقبى ما وفيتُ وصابرُ
فان لم تفدني للوفاء أوائل ... عقدتُ رجائي ان تفيد الأواخرُ
وما ارتجي فيهِ من الناس نائلاً ... ولكنني للبرِ والعرفِ ذاكرُ

فأقام في بيروت متوليًا تحرير جريدة «التقدم» للمرة الثالثة إلى أن اشتد عليه المرض، فأشار عليه الأطباء بالذهاب إلى مصر مستفيدًا من ملائمة هوائها لصحتهِ، فالتمس الرخصة في العودة إليها بواسطة المغفور له سلطان باشا، فأجابت الحكومة الخديوية التماسه كرمًا وإحسانًا، فأتاها ساعيًا إلى العفو لدى مَن لقي من شمائله عفو الكريم وأهل به من عرفوا قدر أدبهِ. فأقام في مصر أيامًا قليلة ثم عاد إلى الإسكندرية، فصرف بضعة أيام في محل الرمل التماس العافية ولكن ضاقت بهِ سعة العمر فلم يرجِ الأطباءَ له شفاءً، فأقنعوه بالعودة إلى أهله في بيروت، فعاد إليها ولم يمضِ عَلَى عودتهِ ثلاثون يومًا حتى وافتهُ المنية بتاريخ ١٢ حزيران١٨٨٥ في قرية «الحدث» بلبنان،

حيث ذهب تبديلًا للهواء، فاحتفل أصدقاؤه بدفنهِ وقام بعضهم بتأبينهِ كخليل باشا خياط والأستاذ إبراهيم الخوراني والشيخ إسكندر العازار وسامي قصيري والدكتور بشاره زلزل. وقد جمعت آثاره المطبوعة والمخطوطة مع ترجمة حاله ومراثي الشعراء وأقوال الجرائد فيهِ في كتاب مخصوص عنوانه: «الدرر» في ٦١٦ صفحة. ومن نفيس شعره هذه الأبيات التي جرت مجرى الأمثال:

قتـــلُ امـــرىءٍ فـــي غابـــةٍ جريمــــــــةٌ لا تغتفـــــــــرْ
وقتـــــلُ شـــــعبٍ آمـــــنٍ مســـــألةٌ فيهــــا نظــــرْ
والحـــــــقُّ للقـــــــوَّة لا يُمطـــــاهُ إلاَّ مَــــن ظفـــــرْ
ذي حالـــة الـــدنيا فكـــنْ مـــن شـــرها عَلَـــى حـــذرْ

وله هذه الأبيات المذكورة في رواية «الباريسية الحسناء» التي عرَّبها عن اللسان الفرنسي:

حســبَ المــرأَةَ قــومٌ آفــةً مَـن يـدانيها مـنَ النـاس هلـكْ
ورآهــا غيــرهم أمنيــةً ملـك النعمـة فيهـا مَـن ملـكْ
فتمنـى معشــرٌ لــو نبــذت وظــلام الليــل مشـتدُّ الحلـكْ
وتمنـى غيــرُهم لــو جعلــت في جبين الليث أو قلب الفلكْ
وصــوابُ القــول لا يجهلــهُ حـاكمٌ فـي مسـلك الحـق سـلكْ
إنمــا المــرأَةُ مــرآةٌ بهــا كـل مـا تنظـره منـك ولـكْ
فهــي شــيطانٌ إذا أفســدتها وإذا أصــلحتها فهــي ســلكْ

«٨»

جرجس زوين

محرر مجلة «المجمع الفاتيكاني» وجرائد «البشير» و«لسان الحال» و«المصباح» و«لبنان» غير الرسمية وأحد أعضاء «الجمعية العلمية السورية». هو المعلم جرجس بن الخوري سمعان زوين، ينتمي لأُسرة مارونية قديمة العهد في جبل لبنان. وُلد سنة ١٨٣٠ في قرية «يحشوش» وتلقى كل دروسه اللسانية والأدبية والفلسفية واللاهوتية في مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير، فلب فيها مدة عشر سنين وكان من بواكير تلامذتها وأنجبهم، فأحكم معرفة اللغات العربية والسريانية واللاتينية والفرنسية والإيطالية مع إلمام بالعبرية واليونانية القديمة. وبعد خروجه من المدرسة، خدم المعارف والآداب بالتأليف وقام بالتعليم في كثير من المدارس الوطنية الأجنبية للذكور والإناث في مدينة بيروت وانتظم سنة ١٨٦٨ عضوًا في «الجمعية العلمية السورية» وألقى فيها خطبة عن «تاريخ سوريا» نشرت في مجلة «مجموع العلوم» ثم أنشأَ غيرها من الخطب والمقالات التي تشهد بعلو كعبهِ في حلبة المعارف.

ثم مالت نفسه إلى خدمة الصحافة، فكان أوَّل من تولى التحرير سنة ١٨٧٠ في مجلة «المجمع الفاتيكاني» وجريدة «البشير» مدة سبع سنوات ثم انتدبه خليل سركيس سنة ١٨٧٧ لكتابة صحيفة «لسان الحال» فأقام عَلَى تحريرها عشرة أعوام. وعندما صدرت جريدة

«المصباح» لنقولا نقاش حرر فيها مدة قصيرة وتركها. وفي آخر حياته عهدت إليه كتابة جريدة «لبنان» لإبراهيم الأسود وكان كاتبًا مجيدًا واسع الاطلاع، حسن المحاضرة، معروفًا بذكاء القريحة وسرعة الخاطر. ومن آثاره القلمية كتاب «الرد القويم عَلَى ميخائيل مشاقة اللئيم» ردَّ فيه عَلَى الدكتور ميخائيل مشاقة لما أخذ يطعن في الكنيسة الكاثوليكية ونقل من اللغات الإفرنجية إلى اللسان العربي كتبًا كثيرة نذكر منها: «مصباح الهدى لمن اهتدى» وكتاب «رواشق الأفكار» لامبرتوس وكتاب «كنيسة الروم الشرقية بإزاء المجتمع المسكوني الفاتيكاني» وهي كلها دينية. وعرَّب أيضًا رواية «وردة المغرب» ورواية «فريدة المغرب» وغيرهما. وساعد أيضًا في تنقيح بعض مطبوعات «المطبعة الكاثوليكية» للآباء اليسوعيين.

وحلت وفاتهُ في صباح يوم الخميس ٢٨ تموز ١٨٩٢ في قصبة «بعبدا» المركز الشتوي لحكومة لبنان، فجرى لهُ مأُتم حافل وأَبنهُ عيسى إسكندر المعارف صاحب مجلة «الآثار» الزحلية بكلام مؤثر ثم نقلت جثته إلى غزير ودُفنت في كنيسة مدرسة القديس لويس في مشهد كبير جمع علماء الدين وأعيان البلادوقد رثاهُ الشاعر المشهور الخوري يوحنا رعد الماروني وداود بركات، محرر جريدة «الأهرام» حاليا وغيرهما من الأدباء ومات صاحب الترجمة بلا عقب وله من العمر اثنتان وستون سنة.

«٩»

الشيخ إبراهيم الحوراني رئيس تحرير «النشرة الأسبوعية»

هو إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن يعقوب بن سليمان فرح الحوراني. وُلد في حلب ١٤ أيلول سنة ١٨٤٤ وعاد والدهُ به وبأخٍ له أكبر منهُ إلى وطنهما حمص في آخر أيلول ١٨٤٥، ولما بلغ السنة الخامسة أخذ يتعلم القراءة فأحكمها في ستة أشهر ثم أخذ يقرأُ عَلَى معلميه الكتب الشعرية المختلفة، فحفظ كثيرًا من القصائد وكلامية ابن الوردي ولامية العجم ولامية المعريّ التي أولها «ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ» وبعض المعلقات السبع. وفي سن السابعة أخذ يتعلم مبادىءَ الحساب والأجرومية وكان يتمرن بما يلقى عليه من الأسئلة الحسابية المتعارفة عند العامة. وتلك المسائل كثيرة فكان يحل كل مسألة تعرض عليه مع صغر سنهِ. فنشأَ في نفسه حب الشعر والرياضيات وكان يقصد كل مشهور من علماء حمص ومنهم الخوري عيسى العلاَّمة الطبيب أبو العلاَّمة سليمان الخوري المشهور ويقرأ عليهم ما يختارونهُ له.

وفي سنة ١٨٦٠ هاجر أهلهُ إلى دمشق وبعد قليل أرسلهُ والدهُ إلى مدرسة «عبيه» القديمة العهد وكانت أعلى مدارس سورية، فأحكم فيها بعض الرياضيات والصرف والنحو والجغرافيا ومبادىء علم اللأهوت وكان أساتذته ثلاثة سمعان كلهون وإسحق برد ورزق الله برباري ثم أقام بدمشق يقرأ العلوم المختلفة عَلَى الدكتور ميخائيل مشاقه، فأحكم الجغرافيا السماوية وكثيرًا من الرياضيات والمنطق وبعض مبادىء

الفسيولوجيا والفلسفة الطبيعية وقرأ الكيمياء على الدكتور يوسف دُمر. وكان يطالع كل فن يصل كتبه إليه ويسأل أربابهُ بيان ما يصعب عليه فهمه. وفي دمشق أحكم كل آداب اللغة ومعانٍ وبيان وغيرها. وفي سنة ١٨٧٠ طُلب للتدريس في المدرسة الكلية السورية الإنجيلية في بيروت، فدرَّس فيها آداب اللغة العربية والمنطق والجبر والهندسة وقياس المثلثات البسيطة والكروية وسلك الأبحر وعلم التسهيل في كتاب التعاليم للدكتور كرنيليوس فنديك. وكان لهذا العلاَّمة وافر الفضل عليه كما كان للدكتور ميخائيل مشاقه. فإنهُ كان يفيده كثيرًا من علم الهيئة ويريه بالمرقب في مرصد الكلية ما لم يكن قد رآه من سيارٍ وقنو وسديم وجبال القمر واوديتهِ وسهولة وتغيرات الزهرة من كونها هلالًا إلى مصيرها بدرًا ومها أقمار السيارات كأقمار المشترى وزحل وحلقاته والنجوم المتعددة في المواقع المفردة لمجرد النظر كالنجم المنير المعروف بقلب العقرب. فإنهُ في الواقع نجمان كما يرى في المرقب وهذا النجم أحمر لامعٌ متوقد، ذكره أبو العلاء المعري في قوله:

غـــادرتني كنـــات نعـــشٍ ثابتًـــا وتركت قلبي مثل قلب العقربِ

وظل يفيده ما يتعلق بعلم الفلك عدّة سنين ثم حصل عَلى اصطرلاب وربع مجيب وأخذ يرصد النجوم في بيتهِ عدة سنين. وقلما مضت ليلة منها لم يراقب فيها وجه السماء بمنظاره وكان هذا العمل يملأُ نفسه عجبًا ويقوّي إيمانه بوجود الواجد تعالى وقدرته وحكمته. وكان من تلاميذه في تلك المدرسة كثيرون من أقدر كتبة العصر وعلمائهِ ومنهم: الدكتور داود مشاقه ورشيد ناصر الدين والمرحوم سعيد البستاني والدكتور مراد

العازوري والدكتور سعيد ناصر الدين والأستاذ جبر ضومط والدكتور أمين المغبغب والدكتور فارس نمر ومراد بك البارودي والدكتور أمين بك أبو خاطر وغيرهم من الكتبة والعلماء المشهورين.

وله عدَّة مؤَلفات طبع منها «الشهب الثواقب» وهو كتاب جدلي ألفهُ في أول الشبيبة و«جلاء الدياجي في الألغاز والمعميات والأحاجي» و«مناهج الحكماء في مذهب النشوء والارتقاء» و«الحق اليقين في مذهب دروين» و«الآيات البينات في عجائب الأرض والسماوات»، وكلها نفذت إلا الأخير فإنهُ باقٍ قليل منهُ في المطبعة الأمريكية في بيروت وله مقالات منها وخطب كثيرة أكثرها في «النشرة الأسبوعية» ومجلة «الرئيس» و«المحروسة» وقليل منها في «الطبيب» في سنينه الأولى وفي «المقتطف» ومجلتي «الصفا» و«المباحث» وغيرها. ومن الكتب التي لم تطبع كتاب مطولٌ في المنطق عنوانهُ: «شمس البرهان في علم الميزان» أي ميزان العلوم وهو علم المنطق وسيطبع مختصره.

وكان صاحب الترجمة مولعًا في صباه بنظم الشعر ولكنهُ كان قليل الحرص على ما ينظمهُ ولولا حرص بعض أصدقائه وتلاميذه والمجلات والكتب التي ذكرت بعضها لم نقف عَلَى شيء منها. قال بعضهم إنهُ لوجُمعت منظومات الحوراني كلها لكانت بضع مجلدات وامتاز شعره بسمو المعاني وحسن الترتيب وفصاحة الألفاظ وبلاغة العبارات والخلو من التكلف وتمكن القافية والخلوص من الحشو. حتى أنكّ إذا أردت أن تجعله نثرًا، صعب عليك أن تغير ترتيبه بلا خسارة شيء من محاسنه، كقوله في الدنيا:

حكت العبادُ بها الهشيم وأُصليت		نـارَ المصـائب فالحيـاةُ دخـانُ

وقوله من قصيدة طويلة:

قـــدم الزمـــانُ وصـــبوتي تتجـــددُ		فكـأنني فـي كـل عصـرٍ أُولـدُ
شــيخاً أَرى بــين الشــيوخ وأمــردًا		في المرد مما شاب منهُ الأمردُ
قالـت غـواني الـرقمنينِ وقـد رأت		ثلج المشيب أظنُّ نارك تحمدُ
فأجبتها: ما الشيب بل لهبُ الهوى		في الرأس مما في الحشا يتوقدُ
قالـت: مشـيبك أسـودٌ فـي نـاظري		قلت: الحقيقة أنَّ لحظكَ أسودُ

ومنها قوله:

لـولا المحبـة كـان سـكان الثرى		حطبـاً لـه فـي كـلٍ ارضٍ موقـدُ

ومن نفس شعرهِ قوله:

كـــرَةُ الهـــواء ولجـــة الـــدماءِ		أنفـــاس أحـــزان ودمـــاء بكـــاءِ
والأرض معتـرك الـردى وترابهـا		آثـــار قتلـــي الغـــمِّ والأرزاءِ
غـذىَ النبـات بهـا فكـان غـذاءنا		وغـــذاء كـــل بهـــائم الغبـــراءِ
فـالحيُّ ينمـو مـن بقايـا ميتهـة		متغيـــرات الشـــكل والأســـماءِ
يـا ويـل سـكان البسـيطة أنهـم		رمـم البلـى فـي صـورة الأحيـاءِ
يتعظمـون بمترفـات جسـومهم		مـع أنهـا مـن أَحقـر الأشـياءِ

وقوله من قصيدة مدح بها خالد بك، أحد ولاة بيروت الماضين، وأنشدها في محفل دار الحكومة:

وطالبُ سلمى والأسودُ حماتها كطالب رؤيا الطيف والطرف ساهدُ
أسود الشرى من كل ليثٍ مقذّفٍ عليه دماءُ الجحفلين شواهدُ
يرى النقع والمران تخطر تحتهُ ضبابة روضٍ تحتها البانُ مائدٌ
ويبسم في الهجاء والموت عابسٌ كأن المنايا الحر بيضٌ خرائدُ

ومنها بيت التخلص قوله:

وأيّد دين الوالهين جمالها كما أيدَّ الأحكام بالعدل خالدٌ

ومن أشعاره في صباه قوله لمن لاموه عَلَى الغرام صغيرًا:

لا تلوموا على التصابي صبيًّا هبَّ من الفطام يهوى الأحبة
ما تجافي بالحب عن دين إن دين المسيحِ دين المحبة

ومنها قوله:

أقول وقد أذابت كل قلبٍ بإرخاء الفروع عَلَى التراتبْ
أَربات الذوائب لا تتبهي فنحن اليوم أرباب الذوائب

وقوله من قصيدة طويلة:

غيدٌ مغانيها لأرباب الهوى سوقٌ وكلٌّ فيه أعظم خاسرِ
تاجرت في حب الحسان بمهجتي فيها فكانالسقم ربح التاجرِ
فشغلت أقلامي بشرح صبابتي وملأت من وصف الحبيب دفاتري

وأنشد في فتاة حسناءَ شاهدها تبكي، فقال لها: أَعَلَى مَن قتلتِ تبكين أَم على مَن لم تقتلي؟ قالت: بل عليك لأنك لم تمت:

شاهدتها في الحمى تبكي فقلت لها		قتلاكِ تبكين أم مَن عن هواكِ لها
قالت: وتربة مَن أهلكتهم ولها		لم أبكِ إلا على مَن لم يمت ولهًا

ونظم هذين البيتين متغزلًا:

تعلمت من سلمى عفافًا ورقةً		وحلمًا وصبر الحر في حومة الحربِ
فإن لم تكن هذي ثمار الهوى فما		يكون الهوى إلا هوانا على الصبِ

وورث الشاعرية عن جد أبيهِ أبي يعقوب بن سليمان فرح الحوراني، فقصَّ عليه أبوه ذلك وأسمعهُ بيتين من نظم جده وحثهُ على الشعر، فقال إبراهيم وهو من أول منظومه:

يقول أبس: بني الشعرُ فخرٌ		لمن بمقالهِ الغاوين يهدي
فزاولْ نظمهُ وانشر علننا		ذكي النشر من وردٍ ورندِ
فجدك كان ذا شعرٍ نفيسٍ		فقلت: أنشر لنا نفحات جدَّي
فقال: إليك ما نقلت حداةٌ		به كانت مطيُّ الشوق تحدي
«ألا دع ما استطعت حديث نجدٍ		ففي ذاك الحديث قديم وجدِ»
«فجزْ تلك الربوع فان فيها		لقتلى غادةٍ ربوات لحدِ»
فقلتُ: طربتُ من ذا الجدَ جدًّا		سأبذل في نظام الشعر جهدي

وله مقاطع عديدة كثيرٌ منها بين مبتدهٍ ومرتجل ومبتكرات في المنطق والرياضيات ومنها عبارات لجمع الأسراد المعينة ومعادلة الجيوب ومعادلة أضلاع الأشكال القياسية الوترية وقد نشرت في النشرة الأسبوعية. ومن مبتكراته مقالة في ما ترجع إليه الرياضيات نشرت في المقتطف وله طرق مختصرة لحل المسائل الصعبة كان يمليها على

تلاميذه في الكلية الأمريكية ولا تزال معلقة عَلَى هوامش كتب الطلبة الأولين. علم في تلك المدرسة ثمان سنين ثم اختير لتحرير «النشرة الأسبوعية» وترجمة بعض الكتب وصلاح الكتب ذات الشأن من المخطوطات والمطبوعات. وكان محررًا للنشرة الأسبوعية منذ سنة ١٨٨٠ وهو رئيس تحريرها اليوم وعلم عدة سنين في المدرسة البطريركية في بيروت وكان من أصدقاء البطريرك بطرس الجريجيري وله فيه عدّة قصائد بليغة طبع أكثرها في كتاب مخصوص بذلك البطريرك الفاضل ولا يزال إلى اليوم رئيسًا لتحرير النشرة ومصلحًا للكتب مع تدريس طلبة «المدرسة اللاهوتية الإنجيلية» في بيروت. وله مترجمات كثيرة منها «المواعظ الميلادية» لسبرجن و«مواعظ مودي» و«رجال التلغراف» و«الطريق السلطانية» و«تفسير التوراة» أي الأسفار الخمسة بزيادة تفسير له عَلَى الأصل و«سيرة القديس أوغسطينوس» و«سكان وادي النيل» وغيرها من الخطب والمقالات التي لم تنسب إليهِ. وهو خطيب مشهور فكثيرًا ما دعتهُ عمدة المدارس والجمعيات العلمية والأدبية والخيرية لإلقاء الخطب في بيروت وصيدا وطرابلس وزحلة والشوير والشويفات وغيرها. ومما اشتهر به أنهُ أحكم كل ما حصله من العلوم أحسن إحكامًا وأن العلوم التي حصلها بالمطالعة أكثر من التي حصلها في المدارس. وكثيرًا ما أَرسلت إليه صعاب المسائل الطبيعية والرياضية وغيرها من دمشق ومصر وحلب وبغداد وأنحاء أمريكا من علماء المهاجرين السوريين وغيرهم، فحلها ونشرها في«النشرة لأسبوعية» ولا يزال يدأب ويجتهد ويزيد علمًا واختبارًا ويقوم بأعمال ثلاثة مجتهدين من

أقوياء الشبان في التعليم والتحرير والتحبير. وهو ينسب كل ما أوليهِ إلى الله من إدراك كل غاية ويقول إن الفضل له تعالى في البداية والنهاية.

منشىء مجلة «الطبيب» وصاحب امتيازها الأول

جورج بن إدوار بوست. وُلد في كانون الأول سنة ١٨٣٨ في مدينة نيويورك وتهذب في مدرستها المعروفة بكلية مدينة نيويورك ونال شهادتها سنة ١٨٥٤ أَي وهو في سن السادسة عشرة ومنح درجة «معلم علوم» سنة ١٨٥٧ وكان أبوهُ من كبراء الجرَّاحين وأحكم الدكتور جورج الدروس الطبية وامتحن في كل فروعها وهو ابن عشرين سنة ونال الإجازة بالتطبيب ودخل «مدرسة الاتحاد اللاهوتية» ودرس سنة واحدة، فاستطاع أن يدرك الشهادة اللاهوتية والظاهر أنه درس كثيرًا من الدروس الطبية كالنبات والكيمياء والفسيولوجيا وغيرها من العلوم التي لا بدَّ منها للطبيب في المدرسة العلمية وامتحن فيها في المدرسة الطبية ودرس التشريح وتركيب الأدوية والتشخيص والباثولوجيا والجراحة، وغيرها من جوهريات الطب في زمن قصير.

ولما التظت الحرب المدنية، عرض نفسهُ للخدمة فقبلت وتزوَّج في ١٧ أيلول سنة ١٨٦٣ السيدة «سارة ريد» وتُعرف بمسس بوست. وبعد قليل اختار الخدمة المرسليي وأتى بيروت في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٨٦٣ وذهب منها إلى طرابلس وبقي فيها إلى ٣٠ من أيلول سنة ١٨٦٨ وعلمه فيها العربية الأستاذ إلياس سعادة ورجع منها في تلك

السنة إلى الولايات المتحدة ورغب هناك في إنشاء مدرسة طبية في كلية بيروت، فأدرك مبتغاهُ ورجع إلى بيروت سنة ١٨٦٨ أستاذًا للجراحة وبقي كذلك إلى سنة ١٩٠٩ فكانت مدَّة تدريسهِ ٤١ سنة واستعفى وكان جرَّاح مستشفى القديس يوحنا منذ تأَسيسه إلى سنة وفاته وكان عضو عدة جمعيات منها «الجمعية النباتية» في إيدنبرغ و«المجمع الطبي» في نيويورك وكان أيضًا رئيس «جمعية الأطباء والصيادلة» في بيروت.

ونقل عدة وسامات فخرية منها «الوسام العثماني» من الدولة العثمانية ووسام «آل دوكان» من مملكة السكس ووسام «النسر الأحمر» من حكومة ألمانيا ولقب «فارس» من «جمعية فرسان أوشليم» الألمانية. ولهُ مؤلفات كثيرة منها:

(١) كتاب «نبات سوريا وفلسطين وسينا» باللغة الانكليزية ومن أهم مؤلفاته.

(٢) كتاب «النباتات البوسطية» طبع في جينوا من سويسرا في اللغتين اللاتينية والفرنسية. وله في اللغة العربية

(٣) كتاب «نبات سوريا وفلسطين ومصر».

(٤) كتاب «مبادىء علم النبات» يتضمن شرح بنيته ووظائفه ووصف الفصائل الطبيعية.

(٥) كتاب «علم الحيوانات ذوات الثدي».

(٦) كتاب «علم الطيور».

(٧) كتاب «مبادىء التشريح والهجين والفسيولوجيا».

(٨) كتاب «الاقرباذين» أو المواد الطبية.

(٩) كتاب «المصباح الرضاح في صناعة الجراح» وهو مطول في الجراحة العلمية .

(١٠) كتاب «فهرس الكتاب المقدس» وهو فهرس أبجدي لجميع الألفاظ الواردة في التوراة والإنجيل والزبور .

(١١) كتاب «قاموس الكتاب المقدس» في مجلدين.

(١٢) مجلة «الطبيب» أنشأها وحرر فيها بنفسه مدة أعوام كثيرة ولهُ مقالات وخطب عديدة كمقالة «العلم ينفخ».

ويعد من أرباب النهضة العلمية في سوريا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولم يتول شيئًا من الأمور إلا نبغ فيه وعدَّ الأستاذ الأكبر واشتهر بأنهُ من عظماء الرجال في العالمين القديم والحديث وكان واعظًا إنجيليًّا أكثر مواعظه في «الفداء» الإلهي. وبعد أن جاهد حياته كلها في سبيل العلم وخدمة الإنسانية، حلت وفاته في

٢٩ ايلول ١٩٠٩ في قرية «عالية» بلبنان فنُقلت جثته إلى بيروت ودُفنت في المقبرة الواقعة بجانب الكنيسة الإنجيلية وقد أُقيمت له حفلة تذكارية في «المدرسة الكلية السورية» حيث أُلقيت خطب شتى وقصائد إقرارًا بفضله عليها وقد وصف جرجي بك زيدان اعماله وآثاره وأخلاقهُ، فاقتطفنا منها شيئًا قال:

"قضى ٤١ سنة وهو يعلم الجراحة وغيرها في «المدرسة الكلية الأمريكية» ويعالج المرضى في المستشفى البروسيوي بالجراحة– وهو الفرع الذي خصص نفسه له واشتهر به بين الخاصة والعامة، حتى أصبح لفظ «بوست» في عرف البعض مرادفًا للفظ «جراح» لأنه أول من اشتهر بينهم بهذا الفن في أثناء هذه النهضة– ولم يكن عمله قاصرًا عَلَى التعليم والتطبيب والتأليف، فقد كان يشتغل بعلوم أخرى يساق إليها شغفًا بالعلم ورغبة في العمل كاشتغاله بالنبات وكان مولعًا بهِ وله فيهِ وفي علم الحيوان آراء واكتشافات مهمة وخصوصًا في النبات، فقد اكتشف كثيرًا من أنواعه في سياحاته بسوريا وفلسطين ومصر وسينا والأناطول وقد سمي بعضها باسمه «بوست» وألف عَلَى إثر ذلك كتابهُ في «نبات سوريا وفلسطين ومصر» وأصبح ثقة بجغرافية فلسطين الطبيعية.

وقد جمع بتوالي الأعوام معرضًا نباتيًّا بالمدرسة الكلية يعدُّ من المعارض الثمينة وكان يقضي أكثر ساعات الفراغ فيهِ وقد أعانهُ في جمعه تلامذتهُ في النبات لأنهُ كان يفرض عَلَى كل منهم أن يجمع أمثلة من النبات ويجففها ويقدمها له. فيختار ما يستحسنه منها ويضيفهُ إلى

معرضه. فهو بهذا الفن يستحق لقب «العالم العامل» ويعدُّ من كبار علماء النبات. وكان لهُ في المدرسة فضلًا عن معرض النبات معارض للمواد الطبية والمستحضرات الجراحية وفيها آثار ما أجراه من العمليات الجراحية كالحصى المثانية والأورام والعظام.

وكان مع ذلك يجد فراغًا يشتغل فيهِ بهندسة أبنية المدرسة، فقد رسم بعضها بيده وكثيرًا ما كان يتعهد بناءها بنفسهِ. ولم يكن يضيع فرصة لا يفيد بها تلامذته حينما التقى بهم من شرح عملية في المستشفى أو تفسير حادثة على الطريق أو في المنزل. وكان رابط الجأش وهو يعمل العمليات، فكثيرًا ما سمعناه يتحدث في السياسة أو الأدب أو الاجتماع ويداه غائصتان في الدم لا يظهر عليه الارتباك مهما يكن من خطر العملية التي يشتغل بها. فضلًا عن خفة يده في العمل كما رحل إلى أمريكا سعيًا في جمع الأموال للمدرسة وخصوصًا للقسم الطبي. ومن ثمار سعيهِ إنشاء قاعة العلم التي جعلوها دارًا للمعارض العلمية وقد سميت باسمه «G.E.Post Science Hall». ومن آثاره الأدبية في خدمة هذه المدرسة أنهُ أنشأ لتلامذة الطب جمعية سماها «الجمعية الكلية» يتباحث فيها التلامذة في المواضيع المفيدة وقد تولى رئاستها مدة طويلة ووضع لها نظامات كانت مثالًا لكثير من الجمعيات التي نشأت في سوريا بعد ذلك.

وكان مدققًا في سائر معاملاته لا يقصر في ما عليه للآخرين ولا يحتمل تقصير الآخرين في حقه وهذا هو السبب في ما أُشيع عنه من

التدقيق في اقتضاء حقهِ من مرضاه، فلم يكن يتجاوز عن شيء من أجرة العيادة أو العلمية وربما نقص المبلغ قرشًا أو بعض القرش، فلا يتحول ما لم يقضبه ولو كان المريض فقيرًا معوزًا ويعدون ذلك بخلًا منه. وظهر هذا البخل مجسمًا بالمقابلة مع أريحية زميله الدكتور فنديك وسخائهِ، فقد كان كثير التساهل مع مرضاه يعين بعضهم بثمن الدواء والطعام فضلًا عن أجرة العيادة، فظهر تدقيق صاحب الترجمة بخلًا قبيحًا وتحدث الناس بهِ .والحقيقة أنه كان يفعل ذلك جريا عَلَى طبيعتهِ في دقة المعاملة كما تقدم بدليل ما عملناه عن ثقة أنه كان إذا دُعي لإعانةٍ في مشروعٍ خيري تبرع بأضعاف ما يتبرع بهِ سواه والتمس أن لا يُذكر اسمه في قائمة المتبرعين.

وكان عصبي المزاج، حاد الطبع، يتسرع إلى سوء الظن– ربما بعثه عَلَى ذلك بالأكثر صممٌ في إحدى أُذنيهِ– فإذا رأى اثنين يتخاطبان سبق إلى ذهنه أنهما يتكلمان عنه، فيحكم بالظن. وكثيرًا ما جرَّ ذلك إلى التنافي بينهُ وبين تلامذتهِ حتى آل إلى التقاضي لدى عمدة المدرسة وتجسم الخلاف مرة حتى اشتكاه طلبة الطب كافة إلى لجنة المبشرين الكبرى في سوريا إثر الخلاف الذي وقع بين الطلبة وعمدة المدرسة سنة ١٨٨٢ وكانوا من أوائل الطلبة، فاجتمعت اللجنة من أنحاء سوريا للنظر في ذلك الخلاف لكنها لم تحسن السياسة في حكمها، فخرج معظم طلبة الطب من المدرسة واستعفى الدكتور فندبك انتصارًا لهم في حديث طويل لا محل له هنا– والكمال لله وحده.

مؤسس جريدة «بيروت» وصاحب امتيازها الأوَّل

(لـئن حســنت فيــهِ المراثــي   لقــد حســنت مــن قبــل فيــهِ

هو الحاج رشيد ابن الحاج مصطفى بن السيد سعيد الدنا. وُلد سنة ١٨٥٧ (١٢٧٤هـ) في بيروت وقرأ الأصول الدينية في حداثتهِ على السيد محمد مرتضى الحسني ثم دخل «المدرسة الوطنية» للمعلم بطرس البستاني، فتلقى آداب اللغات العربية والتركية والفرنسية ونصيبًا وافرًا من العلوم والفنون. وقد خدم لأول عهده في مصلحة التلغراف وأخذ يترقى في معارج التقدم حتى ظهر اقتداره وعينته الحكومة مديرا لشعبة البريد والتلغراف في مدينة مكة. وجاور هناك أكثر من سنتين ثم حضر إلى مسقط رأسه بإشارة أخيه الأكبر عبد القادر الدنا وكان وقتئذ رئيسًا لمحكمة التجارة في بيروت.

ولما كانت الحكومة العثمانية في ذلك العهد تضن بترقية مأموريها غير الأتراك إلى الوظائف العالية، رأى صاحب الترجمة أن يستقيل من منصبه حرصًا على مستقبله ويتجرد للخدمة العمومية الوطنية بواسطة الصحافة، فطلب امتيازًا بإنشاء مطبعة وجريدة سماها "بيروت" وأصدرها في ٢٢ أيار سنة ١٨٨٦. وهي الجريدة التي خدم بها الوطن وأبناءه على اختلاف مذاهبهم مدة ست عشرة سنة بصدق اللهجة وإخلاص النية. ومن آثاره الأدبية أنه طبع في مطبعته كتبًا مفيدة أشهرها "تاريخ الدولة العثمانية" للكاتب الشهير أحمد جودت باشا وقد نقله أخوه عبد القادر من اللغة التركية إلى اللسان العربي. ولذلك فقد كافأته الدولة على

مساعيه الجليلة بأن منحته الوسام "المجيدي الثالث" والوسام "العثماني الرابع" مع "الرتبة الثانية المتميزة". وبينما كان عاملًا على خدمة الصحافة بنشاط إصابته حمى شديدة جاشت بدمه عشرة أيام. فمات على إثرها في ٦ أيار ١٩٠٢(٢٨ محرم ١٣٢٠) مبكيًا من الرفيع والرضيع لما كان متزينًا به من الشمائل الحسنة وحبه لعمل الخير وقد حمل نعشه بغاية الإكرام تتقدمه فرقة من البوليس والجند وكتائب من الجنود البرية والبحرية وكثير من العلماء والوجهاء الذين رافقوا الجثة إلى تربة "الباشورة" ودفنوا الفقيد إلى جوار شيخه وأستاذه السيد محمد مرتضى الحسني[١]

وقد رثاه بعض الشعراء بكثير من المراثي التي لم نتوفق إلى الوقوف عليها لنثبت شيئًا منها. وبعد وفاته احتجبت جريدة "بيروت" مدة أربعة أشهر ثم عادت إلى الظهور في ٨ أيلول ١٩٠٢ بعد تحويل امتيازها لعهدة أخيه محمد أمين الدنا وقد كتبت على ضريح صاحب الترجمة هذه الأبيات مختتمة بتاريخ شعري:

قبـــر بـــه حـــل رشـــيد الـــدنا وقـــد بكـــا حزنـــا عليـــه الزمـــان

---

[١] كانت ولادة السيد محمد مرتضى الحسني الجزائري سنة ١٢٤٢ هجرية (١٨٢٨ميلادية) في "القيطنه" التابعة لولاية وهران من أعمال الجزائر في شمال أفريقيا. فنشأ فيها وحضر مع عمه الأمير عبد القادر الجزائري الشهير بعض الوقائع في حروبه مع الفرنسيس، وفي سنة ١٢٧٣ هاجر إلى البلاد السورية ونشر العلم والطرقة القادرية فيها. وكان أماما جليلا سخيا ذا هيبة عظيمة وفهم عال وحلت وفاته في بيروت بتاريخ ١١ ذي القعدة ١٣١٩.

بيـــروت تبكيـــه بـــدمع جـــرى	فوق خدود الطرس مثل الجمان
كـــان لهـــا ركنـــا ركينـــا وقـــد	نالـت بـه الشـرق اسـمي مكـان
قضـى فنـال الفـوز فـي قصـده	مـــولى كريمًـــا ضـــيفه لا يهـــان
وإن هـــــذا الفـــــوز أرختـــــه	بـــه غـــدا محلـــه فـــي الجنـــان

سنة ١٣٢٠ هجرية

«١٢»

نقولا نقاش .. محرر جريدة «النجاح» ومؤسس جريدة «المصباح» وصاحب امتيازها الأول ..

هو نقولا بن إلياس بن ميخائيل نقاش. وُلد في بيروت في أوائل سنة ١٨٢٥ إثر أن ترك والده صيدا واتخذ بيروت موطنًا له ومنذ بلغ صاحب الترجمة السنة الرابعة من عمره، انكب على تعلم مبادئ اللغتين العربية والسريانية، فظهرت عليه مخايل النجابة والذكاء وما لبث أن أحكم اللغتين المذكورتين قراءة وخطًّا مع الفنون الحسابية.

وبعد ذلك انكب على طلب اللغة الإيطالية وما فتئ أن أتقنها ثم أخذ يتخرج على شقيقه مارون نقاش فأخذ عنه مبادئ اللغة التركية وطريقة مسك الدفاتر على النسق الأوروبي. ولما كان أخوه مارون أزمع في ذلك الحين على السفر إلى أوروبا خلفه في باشكتابة جمارك بيروت وملحقاتها وبقى على هذه الخطة بضع سنوات طلب بأثنائها العلوم

العربية بفروعها على العلامة الخوري يوسف الفاخوري، فصار ينشئ المقالات الرنانة وينظم القصائد المحبرة. وفي الوقت ذاته عكف أيضًا على مطالعة كتب اللغة التركية بدون أستاذ حتى برع فيها وصار كاتبًا بارعًا وشاعرًا مجيدًا. وأثناء ذلك أنشأ شقيقه مارون المسرح العربي وألف بالعربية أول رواية. فأخذت الحمية صاحب الترجمة وبادر إلى تأليف جملة روايات بالعربية وأودعها الحكم والفوائد المصلحة للآداب والأخلاق. فجاءت أبكار أفكار تشهد بطول باع مؤلفها.

وخلال سنتي ١٨٥٢ و ١٨٥٣ تعاطى التجارة باسمه ولحسابه الخاص ثم قدم بيروت أنطونبك ملتزمًا جمارك الأمتعة والدخان والملح في سورية، فقام صاحب الترجمة محاسبًا لها ثم مديرًا عليها.

ولما سافر إنطوان بك إلى الأستانة عهد إلى صاحب الترجمة بإدارة جميع أعماله. ومنذ سنة ١٨٥٩ تعاطى أعمال البانقة بشركة نعوم قيقانو بعنوان: "قيقانو ونقاش وشركائهم".

ولما كان في جميع المهام وفي مؤلفاته ومنشوراته قد أثبت إخلاصه للدولة العثمانية اتخذه كامل باشا بمعيته إذ كان متصرفًا على بيروت ثم انتخب عضوًّا لمجلس الإدارة في اللواء المذكور. ولما نصب مديرًا لجمارك الدخان عكف على مطالعة قوانين ونظام الدولة العثمانية حتى أتقنها. وبعد ذلك أخذ العلوم الشرعية عن أشهر المشايخ العلماء ولاسيما "علم الفرائض" الذي أخذه عن العلامة الشيخ يوسف الأسير.

ومن سنة ١٨٦٩ حتى سنة ١٨٧٦ كان عضوا لمجلس إدارة ولاية سورية في دمشق ثم ترجم وطبع كتاب "قانون الأراضي" وغير ذلك من الكتب القانونية. وفي سنة ١٨٧٧ كان جملة النواب الذين انتخبتهم ولاية سوريا ليمثلوها في مجلس المبعوثان. وفي سنة ١٨٨٠ أنشأ جريدة "المصباح" التي كتبنا أخبارها في الباب الأول من هذا الجزء وعاشت ثمانية وعشرين عامًا. وكان في سنة ١٨٧٢ قد تولى تحرير مجلة "النجاح" التي أصدرها القس لويس صابونجي السرياني ويوسف شلفون. وفي سنة ١٨٨٩ نصب عضوًّا دائمًا لمحكمة بيروت التجارية ثم استقال منها واتخذ المحاماة والوكالات في الدعاوى مهنة له حتى أخر حياته.

الوسامات والرتب:

إن الدولة العليا نظرت إلى اجتهاد صاحب الترجمة وصداقته بعين الرضى، فأنعمت عليه أولا بالرتبة الرابعة ثم رقته إلى الثانية وقد أنعمت عليه أيضًا بالوسام المجيدي من الطبقة الرابعة ثم الوسام المجيدي من الطبقة الثالثة تبديلًا مكافأة لترجمته "شرح قانون الجزاء" وقد أهدى إليه الحبر الأعظم البابا بيوس التاسع وسام "القديس غريغوريوس" من طبقة كواليير مكافأة لما أبداه من آثار الفضيلة وما قام به من الأعمال الخيرية. وفي سنة ١٨٦٩ أقبل إلى سورية زائرًا حضره صاحب السمو الأمير فريدريك (الذي صار فيما بعد إمبراطورًا لألمانيا وهو والد الإمبراطور غليوم الثاني) فامتدحه صاحب الترجمة بقصيدة محبرة وقعت لديه أحسن موقع، فأهدى إليه الأمير دبوسًا ثمينًا مرصعا بحجر كريم.

ولما أقبل الغراندوق نيقولا ،شقيق قيصر الروسية للسياحة، في سورية رفع إليه نقولا نقاش قصيدة فريدة في بابها فأهدى إليه خاتمًا ثمينًا.

مؤلفاته وترجماته:

أما الآثار العلمية والأدبية للفقيد في عالم المطبوعات تأليفًا وتعريبًا، فهي كما يأتي:

أولاـ رواياته: "الشيخ الجاهل" و"الموصي" و"ربيعة"، فضلًا عن غيرها من الروايات الأدبية

ثانياـ ديوانه وهو يشمل على منظومات في الآداب والحكم والرثاء والمديح والأخلاق

ثالثاـ ترجماته القانونية: التي أضاف إلى شرحها كثيرا من آرائه والفوائد التي اقتبسها بالمزاولة والاختبار وهناك أسماء الكتب المذكورة: قانون الأراضي، قانون الجزاء، قانون أصول المحاكمات الجزائية، قانون أصول المحاكمات الحقوقية، قانون التجارة، شرح قانون التجارة، ذيل قانون التجارة (نقل بمناظرته). رسالة في القانون (تأليف)، قانون الأبنية، قانون تشكيلات المحاكم، تعريفه الخروج من المحاكم النظامية والدوائر العدلية. ثم ترجمة كليات شرح الجزاء وهو سفر ذو ٤١٤ صفحة ثم بعض أجزاء من شرح قانون أصول المحاكمات الجزائية وهذه الترجمات

معتمد عليها في جميع المحاكم النظامية في كل من ولايات سورية وبيروت وحلب ولبنان والقدس الشريف وغيرها.

رابعا- مقالاته العدلية التي نشر أكثرها في جريدة المصباح بعنوان: "آثار عدلية"

خامسا- كتاب "تكريم القديسين" أثبت فيه ما للأولياء من الشفاعة

سادسا- جريدة "المصباح" التي أنشأها سنة ١٨٨٠

وفي ٤ كانون الأول ١٨٩٤ انتقل إلى دار البقاء، فشيعت جنازته باحتفال إلى الكنيسة المارونية الكاتدرائية ثم إلى المقبرة وقد حضر ابنه الخوري إسطفان الشمألي قيقانو والدكتور سليم جلخ والشيخ سعيد الشرتوني وإبراهيم الأسود ويوسف خطار غانم وانطون شحيبر بما شف من شديد الأسف على خسارته، فإنه كان واسع الاطلاع خبيرًا في أحوال الزمان، موصوفًا بالتأني وتوقد الذهن وذكاء القريحة وقد رثاه فارس شقير بقصيدة نفيسة نورد منها هذه الأبيات:

من كان بالأمس نقاش الصحاف هدى ينسيك حسان أو يزري بسحبان

إذا انبرى لا يباري في مناظرة وإن جرى لا يجاري بين أقران

مضى إلى الله حيث الدار خالدة مستوفيا أجر أعمال وإيمان

«١٣»

الدكتور يعقوب صروف .. أحد مؤسسي مجلة «المقتطف» في بيروت والقاهرة وجريدة «المقطم» في القاهرة .

يعقوب بن نقولا صروف. ولد في الثامن عشر من تموز سنة ١٨٥٢ في قرية "الحدث" بلبنان وتلقى العلوم العالية في "المدرسة الكلية السورية" في بيروت ونال سنة ١٨٧٠ شهادة "بكالوريوس" في العلوم مع أول فرقة خرجت منها وأقام سنتين في صيدا يدرس المرسلين الأمريكيين اللغة العربية وأنشأ المرسلون حينئذ مدرسة عالية في طرابلس الشام وعرضوا عليه رئاستها فتولاها سنة واحدة. وفي أخرها اختارته عمدة "المدرسة الكلية السورية" لتدريس العلوم الرياضية والفلسفة الطبيعية فيها، فاستعفي من رئاسة مدرسة طرابلس في أواخر سنة ١٨٧٣ وعاد إلى المدرسة الكلية وعكف على الدرس والتدريس وقرن العلم بالعمل وجعل تلامذته يطبقون علم الهندسة وحساب المثلثات على مساحة الأراضي ويصنعون الآلات الطبيعية. وكان ذلك دأبه وهو تلميذ، فإنه صنع آلة تدور بالماء على مبدأ مطحنة "باركر" وهو يدرس علم السائلات، فأخذها رئيس المدرسة وحفظها بين أجهزة الفلسفة الطبيعية وهي التي ذكرته به حينما كانت المدرسة تفتش عن أستاذ لتدريس علم الطبيعيات.

واستعفي أستاذ الكيمياء بعد حين، فوقع الاختيار على يعقوب لتدريسها بدلا منه وجعل يدرس الكيمياء الوصفية والتحليلية ويقرن القضايا النظرية بالتجارب العلمية حتى لم يترك تجربة كيميائية تذكر في كتب التدريس إلا امتحنها أمام تلامذته ولو تحت الخطر الشديد ودرس تلامذة الطب والكيمياء الباثولوجية والاقرباذينية وعلوم السموم (التكسكولوجيا) وهذه العلوم الثلاثة لم تكن تدرس في المدرسة الكلية قبلا، فاضطر أن يؤلف لها خطبًا جمعها من المطولات الانكليزية، فأنهك الشغل جسمه وكاد يذهب ببصره وكان إذا ترك المدرسة الكلية في أواخر سنة ١٨٨٤ بعد أن أقام فيها خمس عشرة سنة أربعًا كتلميذ وإحدى عشرة كأستاذ.

وألف وهو في المدرسة الكلية كتابًا كبيرًا في الكيمياء وخطب في العلوم الثلاثة المتقدمة وترجم كثيرا من الكتب الأدبية ككتاب "سر النجاح" و"الحرب المقدسة" و"الحكمة الإلهية" وترجم بالاشتراك مع الدكتور فارس نمر كتاب "سير الأبطال والعظماء" وكتاب "مشاهير العلماء" وأنفقا أجرة ترجمتهما على مدرسة يومية كانا يقومان بنفقاتها ووضعا هذه التراجم في اللغات العربية والانكليزية والفرنسوية.

ولكن العمل الأعظم والتأليف الأكبر الذي وقف له العمر ولم يزل قائمًا به حتى الآن هو "المقتطف" المجلة العلمية الشهيرة. فقد أنشأه بالاشتراك مع رصيفه الدكتور فارس نمر سنة ١٨٧٦ وهما في المدرسة

الكلية وظلا يحررانه سويا إلى أن أصدر المقطم سنة ١٨٨٩، فانقطع الدكتور نمر لإنشاء "المقطم" والدكتور صروف لإنشاء "المقتطف".

ولما انتقلا بالمقتطف المصري ١٨٨٥ كانت شهرتهما العلمية قد سبقتهما إليه، فرحب بهما عظماء مصر وعلماؤها والدكتور صروف مولع بالمقتطف فيقضى أكثر أوقاته مهتمًا بما يكتبه فيه ولا سيما بعد أن تفرغ له، فهو الكاتب الآن لكل مقالاته إلا ما ينشر منها تحت اسم غيره وهو الكاتب أيضًا لكل أبوابه كباب الصناعة والزراعة وباب تدبير المنزل وباب التقاريظ وباب المسائل والأخبار. وقد يمضي عليه أسبوع كامل وهو يبحث عن المواد اللازمة لمقالة واحدة، بل يمضى عليه أيام وهو يبحث عن كلمة واحدة. والغالب أنه يشرع في الكتابة عند الساعة السادسة أو السابعة صباحا، فلا يأتي الظهر حتى قد كتب ما يملأ خمس صفحات أو ست من صفحات المقتطف على ما تقتضيه من التدقيق والتحقيق والمراجعة في الكتب والصحف المختلفة ويقضي بقية النهار في المطالعة وقراءة المسودات والاهتمام بشؤون الإدارة. ولعلمه إن قراء المقتطف مختلفون علمًا ومشربًا وأنه لابد من جر النفع إليهم حتى يجد كل منهم ما يفيده في كل جزء من أجزائه تراه يبذل جهده لكي ينشر في كل جزء مقالات مختلفة المواضيع بين فلسفية وعلمية وأدبية. عدا ما ينشره في أبواب"المقتطف" الخاصة من الفوائد الصناعية والزراعية والمنزلية والأخبار المقتطفة من أشهر الصحف العلمية في أوروبا وأمريكا.

ويختلف إنشاؤه في هذه المواضيع باختلافها، فالمواضيع الأدبية "كالصداقة" و"نعيم الدنيا" و"الاغتراب" و"المهاجرة" و"فوائد الغنى ومضاره" أكثر فيها من السجع والتمثل بالأشعار. ومن قبيل ذلك الفصول التي كتبها في رحلته إلى الصعيد الأعلى وسماها "رسائل النيل" وفي رحلته إلى عواصم أوروبا وسماها "مشاهد أوروبا" ونشرت كلها في المقطم والمقتطف والمواضيع الفلسفية ك"قياس العقول" و"الحياة وآراء الفلاسفة فيها" و"آراء الناس في النفس" و"غرائب العقول" "حرية الإرادة" بدأها غالبا بالأمثلة لكي يتدرج القارئ من المحسوسات إلى المجردات ومن الجزئيات إلى الكليات، فلا يعز إدراكها على جمهور القراء. والمواضيع العلمية سواء كانت طبيعية أو صحية أو اجتماعية وهي الجانب الأكبر من مقالات المقتطف، سلك فيها مسلك البسط والإيضاح وغرضه الذي يرمي إليه في كل ما يكتبه جميع الحقائق وبسطها لتقريبها من أذهان القراء والاقتصار على ما ترتاح النفس إلى مطالعته ويتصفحه المرء من غير ملل.

ومن مذهبه أن العلم للعقل كالطعام للمعدة، فيجب أن يكون صحيحًا خاليًا من كل الشوائب معدًا لدخول العقل والبقاء فيه. وأن يكون أيضا في حد الكفاف غير زائد عليه، وإلا أتخم العقل به ولم ينتفع منه، كما أن الطعام يتخم المعدة ويضرها إذا كان فاسدًا أو مشوبًا بالشوائب أو غير معد للهضم بالطبخ والمضغ أو زائدًا عن الكفاف. ولا يدخر وسعًا ولا يضن بتعب مهما كان شاقًا في تكثير منافع المقتطف وتعميم فوائده.

وكثيرا ما تدعوه كتابة مقالة واحدة إلى تصفح كتاب كبير أو كتب كثيرة كمقالاته في "نوابغ العرب والانكليز". فإنه لما أخذ يقابل بين أبي العلاء المعري الشاعر ملنن الإنكليزي اضطر أن يتصفح ديوان المعري المعروف بسقط الزند وديوان ملثن المعروف بالفردوس المفقود. ثم عاد إلى ديوان المعري وأشار إلى كل الأبيات التي حسب أن لها ما يقابلها في أشعار ملثن وكرر على ديوان ملثن حتى اختار منهما أبياتًا متشابهة اتفق خاطراهما فيها. وفعل مثل ذلك لما قابل بين "مقدمة ابن خلدون" وما كتبه الفيلسوف هربرت سبنسر في "علم الاجتماع الإنساني".وكذلك لما قابل بين سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي والملك ريتشارد قلب الأسد الانكليزي. ومن هذا القبيل تلخيصه لكتاب سلاتين باشا "السيف والنار في السودان" في فصول قليلة ولحرصه على تعميم الفوائد يبحث عن كل الخطب والمقالات التي تنشر في الصحف والكتب الافرنجية وأعمال الجمعيات العلمية. حتى إذا وجد فيها فوائد يرغب أبناء العربية في الاطلاع عليها ترجمها أو لخصها أو اقتطف منها ما منه فائدة كبيرة. ولذلك قلما تتلى خطبة كثيرة الفوائد في نوادي أوروبا وأميركا أو تنشر مقالة تميمة المنافع في صحفها العلمية إلا ترجمها أو لخصها ونشرها في المقتطف أو نشر فيه شيئا من فوائدها، فألف قراؤه أسماء أساطين العلم وأراكين الفلسفة كهكسلي وسبنسر وتندل وكلفن وورخوف وبستور ولنغلي ومركوني وكوخ وغيرهم. أكثر فروع العلم في تقدمها وله طريقة مبتكرة في المقابلة بين أقوال المتقدمين والمتأخرين. فإذا وصف حيوانا أو نباتا ذكر ما قاله فيه المتقدمون من علماء العرب واليونان. وإنشاؤه

سلس بعيد عن التعقيد كما هو بعيد عن أساليب الأعاجم ولو كان المكتوب مترجمًا وهو يكره غريب الألفاظ ويبعد عنها جهده لأنه يحسب اللغة وسيلة لا غاية، فما أدى المراد منها على أسهل السبل وأقربها ولم يخالف قواعد اللغة، فهو الفصيح الجدير بالاتباع.

ونظم الشعر الجديد وهو في الرابعة عشرة من عمره، لكنه سمع أستاذه في اللغة العربية الشيخ ناصف اليازجي يقول إن بضاعة الشر أرت وسوق الأدب كسدت وانحط مقام الشعراء. فرغب عن الشعر وعقد النية على أن لا يقوله في التزلف إلى مخلوق. ولهذا تجد أشعاره كلها في وصف أو رثاء كوصف "مشاهد أوروبا" ولا سيما "وداع باريس" و"وداع لندن" و"وصف رأس البر". وإذا أراد التمثيل ببيت وخانته الذاكرة، نظم بيتا في معناه. وعلى سبيل المثال نورد قصيدته في "وداع باريس"، قال:

ودعـــت بـــاريس مفتونًـــا بمرآهـــا   وأي حســـن تجلـــى مـــن محياهـــا

وجـاه ملـك رفيـع الشـأن جاورهـا   دهـرًا طـويلًا ولـم يبـرح بمغناهـا

رواقـــه مســـطر فـــي معالمهـــا   وبـــدره مشـــرق فـــي أوج علياهـــا

مرسـومة فـي جبـين الـدهر صـولته   تتيـــه عجبًـــا بأولاهـــا وأخرهـــا

وعصـــبة عصـــمتهم فـــي صـــناعتهم   إلـــه الحســـن فاســـتهدوا بســـيماها

وخلـدوا ذكـر أربـاب السـيوف ومـن   فـاق الـورى حجـة أو فـاقهم جاهـا

أو خـاض بحـر المعـانى فـاجتنى دررا   وصـاغ منهـا حلـى حسـن بهـا بـاهى

وآل علـــم وفضـــل طـــار صـــيتهم   فطبـــق الأرض أقصـــاها وأدناهـــا

هم اللآلئ في سماء المجد قد رفعوا لهـــا منــــارا وأعلــــوه فأعلاهــــا
هـذي كليمـات صـدق صـغتها قـدما[1] فـي وصـفها قبـل أن تجلـى خباياهـا
وقبلمــــا تتجلــــى فــــي مرابعهــــا آيـات حسـن يهـيج الشـوق ذكراهـا
وقيلمــــا تتبــــارى فــــي معارضــــها ممالـــك الأرض أقصــــاها وأدناهــــا
نثرا ونظما قصدت الوصف فامتلكت براعتـــي مدهشـــات لســـت أنســـاها
والمـرء يحصـر والأقـلام يـودى بهـا فـي موقـف المجـد روع أن تتولاهـا
فكيـف اسـطعي وصـفًا بعـد مـا نشـرت ببــــارق المجــــد أعلاهــــا وأســــناها
وبعــد مــا ملئــت مــن كــل مفخــرة مــن واســع الأرض أعيانًــا وأشــباهًا

وأقام أربع سنوات يكتب أكثر ما ينشر في مجلة "اللطائف" لمنشئها شاهين مكاريوس من مقالات وفكاهات ونبذ مختلفة وينقح ما ينشر فيها من غير قلمه. وإذا غاب رصيفه الدكتور فارس نمر أو امتنع عن التحرير بسبب ما، تولى تحرير المقطم بدلًا منه وأكب على كتابة المقالات الإنشائية فيه وإلا فما يكتبه فيه قليل جدا. ولما كان في بيروت تولى رئاسة "جمعية شمس البر" بضع سنوات ثم رأس "المجمع العلمي الشرقي" وهو الذي وضع قانونه وله اليد الطولى في تأسيسه. وفي سنة ١٨٩٠ نال لقب دكتور في الفلسفة من المدرسة الجامعة في نيويورك.

[1] الأبيات السابقة نظمها في "وداع باريس" في رحلته الأولى إلية سنة ١٨٩٣ ثم أضاف إلية هذه الأبيات بعد رحلته الثانية عام ١٩٠٠

وزار عواصم أوروبا سنة ١٨٩٣ ولقي كثيرين من علمائها وفضلائها وانتدبته لجنة مجمع المعرض الأمريكى العام مع رصيفه الدكتور للكتابة عن أحوال القطر المصري ومستقبله. فإن شفي ذلك رسالة مسهبة باللغة الانكليزية تليت في إحدى جلسات ذلك المجمع. ثم زار أوروبا مرة أخر عام ١٩٠٠ أثناء معرض باريز العام وفضله في نقل علوم الأوروبيين والأمريكيين إلى ربوع المشرق بواسطة المقتطف لا ينازع فيه أحد وله فضل آخر لا يعلمه أبناء المشرق وهو أن كثيرين من علماء أوروبا وأمريكا يعتمدون عليه في تحقيق المسائل العلمية التي في الكتب العربية، فيكاتبونه في ذلك وهو يبذل الجهد في إجابة طلبهم.

ولاشتغاله الطويل بالعلم والفلسفة اطلع على آراء أكثر علماء العصر وفلاسفته. فشرح كثيرا منها في صفحات المقتطف وتابع أصحابها في ما ظنه صوابا وخطأهم في ما ظنه خطأ. فشرح إن العربية لغات قبائل مختلفة بدليل كثرة مترادفاتها وأن الدخيل فيها أكثر مما يظن كثيرا وأن أصل كلمات كثيرة غمض بخطاء النساخ كما في كلمة "يحيا" فإن أصلها "يحنا". وأن على الحكومة أن تضع حدا لمطامع الأغنياء ومالكي الأرض كما تضع حدا لأقوياء الأبدان والمهرة في استعمال السلاح حتى لا تستعملوا أبدانهم وأسلحتهم للإضرار بالغير وأن يجيز صك النقود الفضية من غير قيد ثم تبدلها كل بضع سنوات بما يساوى قيمتها وتتحمل قيمتها الخسارة كما فعلت انكلترا لما استردت أنصاف الجنيهات الناقصة بطول الاستعمال وأبدلتها بما يساوي قيمتها الأصلية إلى غير ذلك مما تراه مسطورًا في صفحات المقتطف.

واقترن سنة ١٨٧٨ بالسيدة ياقوت بركات وهي من فضليات النساء وأوفرهن علمًا وأبلغهن إنشاء، فرأست بيته وجعلته ناديا لأصدقائه الكثيرين من أهل العلم والفضل ونشرت على صفحات المقتطف كثيرا من المقالات التي تدل على باع طويل في العلم والأدب وهو ينسب نجاحه وتمكنه من مواصلة أشغاله العقلية إلى مشاركتها له في الرأي وإلى الراحة البيتية التي متعته بها. هذا ما علمناه من أخبار صاحب الترجمة استنادا إلى ما ورد في كتاب "مرآة العصر" المطبوع في القاهرة سنة ١٨٩٧ وأضفنا إلى ذلك معلوماتنا الخاصة.

«١٤»

خليل سركيس .. صاحب امتياز جريدة "لسان الحال" ومجلة "المشكاة" ..

هو خليل بن خطار سركيس. ولد في ٢٣ كانون الثاني ١٨٤٢ في "عبيه" من لبنان وفي عام ١٨٥٠ قدم مع عائلته إلى بيروت حيث انتظم في سلك طلبة المدرسة الأميركية التي كان يديرها وقتئذ القس طمس وكانت المدرسة الوحيدة في بيروت، فأخذ من العلم فيها ما تضمنته لائحة دروسها في تلك الأيام ولما كانت المدرسة بجوار المطبعة الأميركية كان يتردد إليها وقد وجد من نفسه نزوعًا طبيعيا إلى الصناعة وما لبث أن حقق رغبته في تعلم صناعة الطباعة، فدخل إلى المطبعة عام ١٨٦٠ ولم يكن إلا القليل من الزمن حتى أتقن هذا الفن، فأنشأ مطبعة عام ١٨٦٨ بشركة سليم البستاني سماها "مطبعة المعارف" وفي عام ١٨٧٣ تزوج السيدة لويزا إحدى كريمات المعلم بطرس البستاني وهي

من خيرة النساء وأفضلهن. وفي عام ١٨٧٥ رغب عن الشركة في استحصال امتياز مطبعة خاصة به سماها "المطبعة الأدبية" وامتياز جريدة دعاها "لسان الحال" وامتياز مجلة دعاها "المشكاة". ولما تم له ذلك وانفرد في العمل لم يدخر الوسع في إعطاء كل من المطبعة والجريدة حقها من الرقي والنماء. ففي المطبعة عدة آلات للطباعة على اختلاف حجمها، فمنها لطبع المؤلفات والجرائد ومنها الأشغال التجارية وكلها وتدار بالبخار.

وقد وجه عنايته إلى سبك الحروف التي اشتهرت بالجودة والإتقان في القارات الخمس. فبعد أن كانت من قبل محصورة بالحروف الاميركية أوجد بمعاونة الشيخ إبراهيم اليازجي الحرفين الأول الذي يمكنه من سبك ١٧٠ ألف حرف في اليوم الواحد لمن شاء. وأكثرها يكون صالحًا للترتيب كما يتوضح ذلك في برنامج المطبعة.

وفي سنة ١٨٩٣ شخص إلى الأستانة وكان موضوع اعتبار وإكرام أولياء الأمر فيها بدليل تقليده الوسامين "المجيدي الثالث" و"العثماني الرابع" بكل استحقاق. وله كتاب في هذه الرحلة يشتمل على ما راق من الحوادث التاريخية والفوائد الجليلة. وفي السنة عينها أعلنت الدولة العثمانية اشتراكها في "معرض شيكاغو"، فنهض كثيرون من أبناء الوطن يريدون الذهاب إليه لاستعراض ما عندهم من الطرف الشرقية من صناعية وغيرها وخطر لبعضهم أن ينتشوا مرمحا في ذلك المعرض فألقوا شركة لذلك. ولما شق عليهم جمع المال المطلوب للقيام بهذا المشروع،

طلبوا إليه أن يتولى إدارة الشركة ومازالوا به حتى أقنعوه على الرئاسة. فتعين رأس مال الشركة عشرين ألف ليرة انكليزية وفي أقل من أربع وعشرين ساعة تغطت القيمة ضعفين. ولكن لم تصادف هذه الشركة نجاحًا لما اعترض في سبيلها من المصاعب التي لا محل لسردها هنا، فانتهت بخسائر فادحة كان حظ صاحب الترجمة منها الأوفر وجمع في كتاب خاص أخبار رحلته إلى الأستانة وأوروبا وأميركا بعد أن نشرها تباعًا في جريدة "لسان الحال" وضمنها من الفوائد الأدبية والأخلاقية والتجارية وغيرها ما يستعين به الإنسان في سفراته إلى البلاد التي ذكرنا.

وفي سنة **١٨٩٥** التهمت النار قسمًا من مطبعته الكاملة المعدات. ولما جاء إليه الخبر بادر مسرعًا إلى السوق وعندما اقترب من محل المطبعة وقد اندلع لسان اللهيب من جهاتها الأربع، قال لمن كان يرافقه: "إن جرائد الثغر لا تعدم في هذا الصباح انشر أهم خبر محلي". ومما اشتهر عنه ثبات الجنان ورباطة الجأش والحزم والعزم في كل ما انتابه من النوائب وألم به من المصائب ثم جلس في غرفة أحرقتها النار وهي الغرفة التي اتخذها مكتبًا له محلًا لاستقبال الزائرين، فاستقبل وفود المسلمين على اختلاف الطبقات. وأما ما أتلفته النار فقوم بخمسة آلاف ليرا ولم تكن هذه القيمة مضمونه. وكتب على إثر ذلك في "لسان الحال" مقاله محبرة حكمية رددت صداها الجهات المختلفة بدليل توارد الرسائل عليه، فلم يدع واحدة منها بدون جواب وقد أفرد لها كتابًا سماه "عنوان الشهامة".

وفي سنة ١٨٩٦ قبل أن ينسى تلك النكبتين، استقبل ثلاثًا أشد منها وقعًا في النفس، بل دونها كل نكبة لا يصبر عليها إلا من أوتي نعمة خارقة من لدن الله، فجع بكبير أولاده المرحوم "فؤاد" في الخامسة عشرة من عمره وفي ثلاثة أيام من بكائه عليه دهمه خطب ثان بفقد شقيقه الوحيد "أمين" الذي بقي له من إخوته الذكور. وفي ثلاثة أشهر فقد "سلمى" إحدى بناته. وفي عشر سنوات نزلت به النكبة الرابعة إذ ابتلاه الله بدعوة ابنه ثانية إليه تدعى "ندي" . وكان في جميع هذه النكبات موضوع حيرة ودهشة في صبره وتجلده وتسليمه؛ حتي صار معارفهُ يضربون بهِ المثل في احتمال النكبات والصبر على الشدائد.

هذا ومع توفر مشاغله لم يتقاعص عن الاشتراك في كل مشروع نافع ينُتدب إليه، فانتخب عضوًا في "مجلس المعارف" في الولاية ورئيسًا "للجمعية الخيرية الإنجيلية" وعضوًا لقومسيون "مكتب الصنائع" وعضوًا مؤسسًا "لجمعية مستشفى السل". وفي سنة ١٩٠٢ كان "لسان الحال" قد استوفى السنة الخامسة والعشرين من ظهوره، فأجمع مريدوه ومقدّرو فضله على أن يقيموا لهُ عيدًا ويقدموا له تذكارًا ناطقًا بخدمته الصادقة للدولة وللوطن، فألفوا لجنة دعت جميع أصدقائه ومعارفه ومنهم العلماء والأدباء والوجهاء إلى داره حيث صرحوا بفضله نظمًا ونثرا. وعلى إثر ذلك انتصب صاحب الترجمة وخطب فيهم الخطاب الآتي:

"نظرتم إلي بعين الرضى وعين الرضى عن كل عيب كليلة، فأرتكم القليل الذي قدر لي الله إن أتيه كثيرا. فإني وإن كنت بعيدًا عن الإعجاب

والتيه، فلا يسعني الآن إلا أن أعجب. كيف لا أعجب وجلة من ذوات الثغر اهتمت لشأني والتفتت إلى أعمالي فأنزلتها منزلة الرضى والقبول. على أنني لست إلا خادمًا للدولة وللوطن المحبوب. سعيت وأسعى ما دامت الروح في الجسد في هذه الخدمة المقدسة. وحسبنا دليل واحد من ألف ما جاء من إحصاء الكتب المطبوعة في المطبعة الأدبية في مدة ثماني عشرة سنة، فقد بلغ عدد الكتب التي طبعت فيها ستمائة وخمسين مؤلفًا ما بين أدبية وعلمية ودينية وزراعية وصناعية وبلغ عدد نسخ المؤلفات مليونا ومائة وتسعين ألف نسخة ما عدا جريدة "لسان الحال"، وغيرها من الجرائد والمجلات.

"شرفتموني يا سادتي بمناسبة بلوغ جريدتكم "لسان الحال" السنة السادسة والعشرين أي ربع قرن مضى من خدمتها، فلا أجازف إذا قلت إنني خدمتها في هذه المدة لتقوم بخدمتكم. فلم أكتب فيها حرفًا إلا كان مظهرًا لفضل الدولة العليا و إصلاح شؤونها ولم أسطر على صفحاتها كلمة إلا قصدت فيها فائدة التاجر والصانع والزارع وتوقعت منها خيرًا للوطن عمومًا.

"ولا يخفى عليكم أن الصحفي مكلف بإرضاء التاجر والصانع والشيخ والشاب والأوانس والعقائل والعازب والمتزوج والذاهب والايب والبائع والشاري مما يقرح القلب. فلا أعرض عليكم ابتياعه واستبداله بقلب ليس بذي قروح شأن ذاك المغرم. فقد اعتدت حمله حتى صرت أقول:

وصــــرت إذا أصـــابتني ســـهام		تكسـرت النصـال علـى النصـال

"وإذا كان قد بدر من "لسان الحال" بعض عبارات لم تجئ في الوضع موافقة لما قصد منها، فلم يعجز عن إصلاحها والتماس العذر فيها والعصمة لله ولئن أفرغت أيام الشباب في هذه الخدمة حتي ضعفت النواظر وأزهر اللوز وبطئت حركة المطاحن وودعت الشبيبة، بقول ابن الوردي:

ودع الـــذكرى لأيـــام الصـــبا		فلأيـــام الصـــبا نجـــم أفـــل

"فقد لقيت من عملكم يا سادتي ما يعيد الشباب ويرد في عروق دمه وعزيمته ونشاطه:

بعثـت محبـتكم بكـل جـوارحي		عـز مـا أعـاد إلـي عـزم شـبابي

"أجل لقد تجددت في عروقي قوة الشباب بما تلقيت من إحسانات ولي النعم وسلطاننا الأعظم وما رأيت من عناية وجهائنا في الثغر وغيره ولا سيما من عناية وإخلاص الصديق الحميم صاحب الوجاهة عين الشبهاء عزتلو جورجي أفندي خياط الذي اقترح هذا المشروع على مواطنيه وأخواته ومن غيره رصفائي الأفاضل في بيروت ولبنان الذين اهتموا لهذا الأمر. فأتوسل إلية تعالى أن يتيح لهم الاحتفال بالأعراس وإن أكن وقتئذ في غير هذا العالم، فإن عظامي تشترك بأفراحهم.

"وفي العام الماضي قبل أن يبلغ "اللسان" نهاية السنة الخامسة والعشرين، سألني كثير من الأصدقاء أن نحتفل بمرور ربع قرن من صدوره، فشكرت لهم العناية وسألتهم الإغضاء عن ذلك، فتكرر هذا الطلب فكررت الرجاء بالغضاء إلي إن ترجح عندي قبول رجائي. ولما كان شهر من دخول "اللسان" في السادسة والعشرين كتب إلي عزتلو خياط أفندي في الموضوع الذي اعتقدت دخوله في خبر كان، فسألته الإضراب عنه شاكرا لحسن ظنه بي مبينا له أن ما فعلتم لم يكن من خوارق العادات لأنني إذا نشرت اللسان فقد أفدت واستفدت في جانب آثار ذوي الفضل المشهورة الذين سبق أبناء الوطن، فاحتفلوا لهم بأعياد فضية كسيادة الحبر العلامة المفاضل يوسف الدبس الذي بنى كنيسة مار جرجس الشهيرة وغيرها من المعابد ورفع عماد" مدرسة الحكمة" التي أهدت للوطن أولاد مثقفين فضلا عن تصنيفه العديد ما بين علمي وأدبي وديني وكذلك السعيد الذكر المرحوم الدكتور فانديك الذي تشهد له كتبه العديدة عند الناطقين بالضاد بعلو الهمة ورفعة المقام بين العلماء الأعلام وخدمته الطويلة للطب خدمة يقر بشكرها ألوف الطلبة في أنحاء المعمورة. وكذلك حضرة الشيخ الجليل العالم الدكتور دانيال بلس الذي شيد بسعيه "المدرسة الكلية" التي يندر مثلها في أوروبا وأميركا والتي انبث المتخرجون فيها في القارات الخمس، فكررت رجائي عند صديقي المذكور بغض الطرف فألح علي بضرورة إتمامه وطال بيننا الجدال في هذا الموضوع حتى استغرق عدة رسائل. وبينما كنت أعتقد الإجابة إلى التماسي والإضراب عن الأمر الذي أطال مراجعتي فيه أضاءت النار من

خلال الرماد. أي أن القول برز إلى حيز العمل ووردني إثر ذلك كتاب من صديقي يقول فيه، إننا باشرنا العمل ورضيت أو أبيت.

"فبأي لسان أشكر الذين أعلنوا رضاهم عني بالاشتراك في هذا المشروع والعبارة تفي بالثناء على الذين قاموا به ولا سيما حضرة الشيخين الفاضلين محمد أفندى بدران والعلامة الدكتور ورتبات اللذين خصصا وقتًا لهذا العمل مع تكاثر أشغالهما؟ فالله أسال أن يتولى مكافأتهم عني وأن يوفق حضرات زملائي إلى مشاهدة أعراسهم الثلاثة واختم كلامي بالدعاء المفروض على كل عثماني ببقاء الحضرة العليا السلطانية وحفظ أنجالها العظام ووزراءها وتأبيد ملكها ما توالت الأيام".

نشرنا خطابه لبيان ما أتاه من الخدمة الوطنية منذ بدء عمله حتى الوقت الحاضر، فمن خدماته الأدبية تنقيح كتابي "عنترة" و"ألف ليلة وليلة" وطبعهما بحيث تسنى للمخدرات الاطلاع عليهما وطبع "مقدمة ابن خلدون" و"مقامات الحريري" وقدمها لطلاب العلم بثمن يسهل لهم اقتناؤهما وخدم المدارس بتأليف كتاب "سلاسل القراءة" وهو ستة أجزاء قد ذاع حتى دخل المدارس في أكثر الجهات المعمورة لأنه لم ينسج على منواله كتاب سهل التناول على الطلاب وخدم السيدات بتأليف "أستاذ الطباخين وتذكرة الجوالتين" وخدم القوم بإهدائهم إلى أشرف العادات في تأليفه كتاب "العادات" وخدم المحامين والأطباء وغيرهم "بالمفكرة" التي يصدرها سنويا من المطبعة الأدبية وخدم محبي التاريخ بتأليف "تاريخ القدس الشريف" وكتاب "معجم اللسان" وهو قاموس

هجائي يحتوي على أسماء القواد والسفن والأماكن التي ورد ذكرها في أخبار الحرب سنة ١٩٠٤ بين روسيا واليابان وخدم التاجر والبائع والشيخ والشاب والعجوز والصبية بالروزنامة السورية التي أصدرها في سنة ١٨٦٨ أي في سنة إنشائه المطبعة، فصادفت إقبال الجميع الناطقين بالضاد وهي ثاني روزنامة عربية ظهرت في المعمورة وخدم الدولة والوطن بجريدته "لسان الحال" ومجلته "المشكاة".

وفي سنة ١٨٩٨ زار إمبراطور ألمانيا أنحاء سوريا وفلسطين قام ركبه بصيغة رسمية وكتب رحلته في رسائل متواصلة برقية وبريدية نشرت تباعًا في جريدة لسان الحال ثم طبعها في كتاب على حدة. وفي سنة ١٩١١ اعتراه مرض تصلب الشرايين، فاضطر أن يعتزل معترك العمل، فاعتمد في إدارته الواسعة الأطراف نجله الوحيد رامز سركيس، فقام بإدارة المطبعة قيام الأب من حيث ضبطها وانتظام أعمالها حتى صح قول القائلين "إن هذا الشبل من ذاك الأسد".

ذكرنا ترجمة حياته على أننا لم نذكر شيئا عن صفاته التي اتفقت الكلمة على الثناء عليه واعتباره، فقد جمع بين اللطف والذكاء والغيرة والنشاط والحزم وله اصطلاح في الكتابة يعرفه عدد كثير من الكتبة والأدباء. ومن محسنات كتاباته إن القارئ لا يمل منها، بل أنه يتبع قراءتها مهما كانت كبيرة حتى النهاية. إذ لابد من إدخال بعض الاستمارات والأمثال التي تزيد كتاباته فكاهة وتحببًا. وكتاباته الإصلاحية والاجتماعية والفكاهة في لسان الحال دليل على سلامة ذوقه في التحبير

والإنشاء واختياره الأمور بدقائقها ومعالجته الداء بدواء ناجح وله في سرعه الخاطر نوادر مستغربة يحوى صدره لكثير من النكات والنوادر والأشعار.

وخليل سركيس كريم الأخلاق واسع الصدر هني في معيشته مع عائلته وأصحابه قدير وجسور على العمل وكثيرا ما شاهدناه في بيته كالولد الصغير وفي إدارة أعماله الواسعة كالقائد عند هجوم العدو على جيشه. قلت له مرة: "لماذا هذه الحدة؟" فأجاب: "الأعمال لا تقوم إلا بالحدة".

زاره صديق يومًا، فصادف ورود طابعة جديدة إليه فرآه يفككها، فسأله صديقه: "ولماذا التعب ولا أرى في الآلة ما يستوجب ذلك؟". فأجاب: "من رئيسياتي أن كل آلة مهما كان نوعها لابد لي من فكها وتركيبها قبل تشغيلها، حتى إذا توقفت يومًا أقدر أن أصلح الخلل في الحال".

ويمكننا أن نقول بكل حرية إن صاحب الترجمة خير من ضبط إدراة العمل وعلم كيف يستفيد منها ويفيد بدليل تقدمه في الأعمال وانتشار حركه أعماله. يذكره المتعاملون معه وأصدقاؤه بكل خير وهم شديدو الاحتفاظ بصداقته لأنه صادق وحر لا يصاحب أحدًا لمأرب خاص. ومن أجمل ما عرف فيه المحافظة على الصداقة في الحاليين لين وشدة والسراء والضراء والميل إلى عمل الخير على يقين لا رغبة في

الشهرة. وهو سليم النية، طيب السريرة، وعلى الجملة فسوريا تبتسم فرحًا بأن يكون من أبنائها وطني فاضل كخليل سركيس خدم الوطن والبلاد خدمة يسطرها له التاريخ جيلًا.

بعد جيل ونجعل مسك الختام هذه الأبيات التي نظمها إلياس حنيكاتي عندما أنعم على صاحب الترجمة بالوسام المجيدي الثالث في سنة ١٨٩٧ واختتمها بتاريخ هجري لسنة ١٣١٧ وهي:

لخليلنـا سـركيس غـر مـآثر   ومكـارم موروثـة عـن وارث
شـهم زهـا خلقًـا ورق شـمائل   وتـراه عنـد الوعـد لـيس بناكـث
إخلاصـه في حـب دولتنـا العليـا   ظـاهر لـم يفتقـر لمباحـث
لمـا رأت منـه الوفـاء تعطفـت   أرخ عليـه بالوسـام الثالـث

«١٥»

الدكتور فارس نمر .. أحد مؤسسي مجلة «المقتطف» في بيروت والقاهرة وجريدة «المقطم» في القاهرة وجريدة «السودان» في الخرطوم .

هو فارس بن نمر بن فارس أبي ناعسة. ولد في بلدة "حاصبيا" من أعمال ولاية سوريا في ٦ كانون الثاني سنة ١٨٥٦. وبعد خمس سنين من ولادته حدثت المذابح الهائلة في سوريا المعرفة بسنة ستين وكانت حاصبيا إحدى النواحي التي عمتها تلك المصائب، فقتل أبو صاحب الترجمة، فحملته أمه مع أخيه نقولا وأخته مريم إلى مدينة بيروت حيث

اتخذتها سكناها. ولما بلغ منتصف السادسة وضعته المرحومة والدته في المدرسة الانكليزية لتعلم مبادئ العلوم اللازمة لمن كان في سنه. وفي نهاية السنة الأولى رفع إلى منبر في الاحتفال السنوي فلفظ خطبة أدهش بها السامعين، وقد تنبأ بعضهم أنه سيكون أول خطيب في الشرق. وفي أواخر سنة ١٨٦٣ ذهبت به والدته إلى القدس الشريف وأدخل هناك إلى "المدرسة الصهيونية الانكليزية"، فبقي فيها خمس سنين تعلم الانكليزية والجرمانية ومبادئ التاريخ والحساب ثم عاد إلى بيروت ودخل في أواخر سنة ١٨٦٨ مدرسة "عبيه" في لبنان وفيها تلقى مبادئ الصرف والنحو ولم يقم في تلك المدرسة أكثر من أربعة أشهر، فتركها وسافر إلى حاصبيا مسقط رأسه حيث مرض مرضًا ثقيلًا بالحمى. وبعد سنة جاء بيروت حيث كانت أمه قد عادت إليه واستخدم في مخزن تجاري مدة ثم تركه طامعًا بتعلم العلوم العالية. فدخل "المدرسة الكلية السورية" وجعل همه التقاط الفوائد واكتساب العلوم السامية فسهر وجد واجتهد. وكان في مقدمة مؤسسي "جمعية شمس البر" الشهيرة في بيروت وله فيها الخطب الرنانة والمباحث الجليلة ولم تمنعه وفرة دروسه عن خدمتها وتوطيد أركانها. وكان أيضًا وهو في حين تعلمه في المدرسة المذكورة يدرس وقتًا في مدرسة البنات الروسية العالية وكان يصرف ما يسرقه من أوقاته المدرسية في ترجمة الكتب الدينية والتاريخية والعلمية وقد طبعت في "النشرة الأسبوعية".

وبعد أن انتهى من دروسه القانونية، نال شهادة البكالورية سنة ١٨٧٤ وعين معاونًا للدكتور فاندي كفي المرصد الفلكي في بيروت

ومعلمًا لعلمي الجبر والهيئة في المدرسة الكلية وكان يعلم أيضًا اللغة الإنكليزية في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك. وفي عام ١٨٧٥ ترجم كتاب "الظواهر الجوية" للأستاذ لومس الآمر الأمريكاني وطبع الكتاب في مطبعة الأمريكان في بيروت ثم أنشأ في عام ١٨٧٦ بالشركة مع يعقوب صروف مجلة "القطيف" التي اكتسبت شهرة عظمى وثبتت على خطة واحدة حتى اليوم ثم عين مدرسًا للعربية وآدابها واللاتينية في نفس المدرسة الكلية، وبعد ذلك مدرسًا للرياضيات العليا والهيئة والظواهر الجوية.

وفي عام ١٨٨٢ أنشأ مع جماعة من أهل الفضل كالدكتور كرنيليوس فنديك والدكتور يعقوب صروف والدكتور بشارة زلزل وجرجي بك زيدان وغيرهم "المجمع العلمي الشرقي" في بيروت وقد افتتحه بخطاب نفيس في "علم الهيئة القديم والحديث" طبع في المقتطف وفي كتاب أعمال المجمع المذكور.

وفي عام ١٨٨٣ عين مديرًا للمرصد الفلكي والمتيورولوجي إذ كان قد عفي الدكتور فانديك وبقي عاملًا على الرصد فيه إلى حين تركه المدرسة الكلية وإتيانه إلى الديار المصرية وذلك في أواخر عام ١٨٨٤. وفي سنة ١٨٨٥ نقلت مجلة المقتطف إلى مصر وصارت تصدر في القاهرة. ولما بلغ كبراء مصر وعلماءها الإعلام خبر التصميم على نقل إدارة المقتطف إلى وادي النيل سروا سرورًا عظيمًا. فكتب كل من الوزيرين الخطيرين شريف باشا ورياض باشا يرحبان به، وهاك ما كتبه رياض باشا بعد الديباجة:

" أخبرت أنكم عزمتم على نقل جريدتكم الغراء إلى الديار المصرية، فسرني ذلك لما تحويه من الفوائد الجليلة والنفع الدائم لكل بلاد رفعت راية علومكم فيها وقد اغتنمت هذه الفرصة لأبدى بها نصيحتي لأبناء هذا القطر بمطالعتها واجتباء فوائدها. فإن للمقتطف عندي منزلة رفيعة وقد ولعت بمطالعته منذ صدوره إلى اليوم، فوجدت فوائده تتزايد وقيمته تعلو في عيون عقلاء القوم وكبرائهم. ولطالما عددته جليسًا أنيسًا أيام الفراغ والاعتزال ونديمًا فريدًا لا تنفد جعبة أخباره ولا تنتهي جدد فرائده، سواء كان في العلم والفلسفة وفي الصناعة والزراعة التي عثرت فيها على فوائد لا تثمن. علاوة على ما فيه من المباحث الآيلة إلى تهذيب العقول وجلاء الأذهان وتفكيه القراء، فلذلك تترحب مصر بالمقتطف الأغر وتحله محل الكرام الذين اشتهر فضلهم وعمت فواضلهم".

وهذا ما كتبه محمد شريف باشا:

" إن الذين خبروا حال العالم واستقصوا سنن الهيئة الاجتماعية واستقروا أسباب ترقية البلدان واتساع نطاق الحضارة في كل مكان أجمعوا على أن العلم أعظم ركن في بناء التمدن والمعارف وأوثق رباط لحفظ الأمم وتعزيز شأنها. ولذلك عظمت قيمة العلماء عند أرباب العقول واعتبرت الوسائط التي من شأنها بث العلوم وتصميم المعارف في البلدان. ولما كان المقتطف خير ذريعة لنشر المعارف بين المتكلمين بالعربية، فلا عجب إذا نال من رفعة المقام في اعتبار الخاصة والعامة معا وقد بلغنى في هذه الأثناء خبر نقله إلى القطر المصري بعد ما خبرته وخبرت معارفكم زمانًا. فاستحسنت أن أبدي مسرتي بذلك لما فيه من

الفوائد التي لا تستغني عنها البلاد ولا ريب عندي أن عقلاء مصر ونبهاءها لا يغفلون عن تعميم فوائده ولا يتقاعدون عن السعي لنشر علومه بينهم. لا سيما وقد علموا أن إنارة الأذهان وتثقيف العقول أقوى واسطة لحفظ الأمة وشد عرى اتحادها".

محمد شريف

وبعد مضي سنتين من وجود صاحب الترجمة في القاهرة، أنشا بمعاضدة بعض أصدقائه "جمعية الاعتدال" في مصر عام ١٨٨٧ ثم انتخب عضوًّا لمجمع بريطانيا الفلسفي. وسنة ١٨٨٩ أنشأ مع زميليه الدكتور يعقوب صروف وشاهين بك مكاريوس جريدة المقطم التي نالت الشهرة العظيمة في الشرق والغرب وأهدى إلى صاحب الترجمة جلالة أوسكار ملك أسوج ونروج بصفة كونه رئيس المؤتمر الشرقي "وسام المعارف الذهبي" مكافأة له على خدماته الجليلة العديدة في تعزيز المعارف ونشر العلوم. وهناك نص ما كتبه إليه معتمد الدولة الأسوجية في مصر:

"حضرة الفاضل الأديب فارس أفندي نمر، حفظه الله":

"معلوم لجنابكم ما نحن عليه من حب أرباب المعارف ومساعدتهم بما تحتمله القدرة رغبة في تنشيط الهم وإعلاء طلبة الأدب وقد رأَينا من آثاركم العلمية عَلَى تنوع مواضيعها ما تقصر عنه عبارات البلغاء لو عمدوا إلى بيانه. فلذلك طلبنا إلى جلالة مولانا الملك أوسكار بلسان الرجاء أن

ينظر إلى جنابكم بعين لا ترى منه غير عضو من جسم الهيئة العلمية، فوقع الطلب موقع القبول إذ أَنعمت الحضرة الملكية عَلَى الجناب بوسام ذهبي (ميداليا) لا يحمله إلا رجال الفنون والصناعات العالية وستقدم إلى مصر بهِ عما قريب، فيزدان بصدر الجناب لا زال في المجالس صدرًا وفي المطالع بدرًا والسلام عليك ورحمة الله»

الكونت مرلردي لندبرج

قنصل دولتي اسوج ونروج

ووكيلها السياسي بمصر

وفي ١٨ تموز عام ١٨٨٨ اقترن بكريمة قنصل الانكليز سابقًا في الإسكندرية، فسافر إلى سوريا لصيف تلك السنة في لبنان. وفي أواخر الصيف عاد إلى مصر. وفي شهر تموز عام ١٨٩٠ نال رتبة دكتور في الفلسفة من مدرسة نيويورك الجامعة ومن ثم زار عواصم أوروبا في السنة نفسها وجاءَ لوندرا واجتمع بكبار السياسيين فيها ونشرت جرائدها الكثير عنهُ وعن آرائهِ ثم زار أوروبا مراراً وذهب سنة ١٩٠٠ لزيارة معرض باريس. وفي سنة ١٩٠٣ أنشأَ جريدة «السودان» باللغتين العربية والانكليزية في مدينة الخرطوم وهي ذات ست صفحات كبيرة تبحث في جميع الشؤُون التي تعود بالنفع عَلَى البلاد السودانية لا سيما الزراعة والتجارة.

ولهُ في خلال السنين الطويلة التي صرفها ما بين التعليم والعمل بالعلوم خطب كثيرة. وبالاختصار أن شهرته تغني عن كثرة الإطناب بهِ

ومعارفهُ عند الخاصة والعامة تشهد لهُ بعلو المنزلة في عالم الفضل والفوائد العميمة التي بذلها للبعيد والقريب حملت جماهير العلماء والفضلاء عَلَى الاعتراف له بالسبق في مضمار العلم والأدب. ولا يقوى السامع لكلامه والقارئ لمقالاته عَلَى النكران. وقد قال اللورد كتشنر باشا، معتمد بريطانيا العظمى في مصر، إذ سمعه ذات مرة يوضح خطابًا انكليزيًا للجنرال «سمث» في إحدى الجلسات في مصر «إن الدكتور نمر كله عقل» .وقال غيرهُ «إن عبارتهُ العربية أفصح من عبارة الخطاب الانكليزية» وهو يحسن الانكليزية عدا لغات متعددة أوروبية.

وكان قبل إعلان الدستور في الدولة العثمانية لا يستطيع الرجوع إلى وطنه، فجاء بيروت سنة ١٩١١ بعد غيابهِ عنها ست وعشرين سنة. فاحتفل العلماء والأصدقاء بقدومه وأقامت المدرسة الكلية السورية حفلة خاصة في ناديها إكرامًا لهذا الزائر الذي تعلم وعلم فيها. وكنا حينئذ في جملة المدعوين وقد سمعناه يخطب بفصاحته المشهورة التي أُعجب بها كل الحاضرين وهو الآن أبلغ كاتب سياسي في الشرق وأفصح خطيب عربي بشهادة الذين عرفوه واختبروه. ومنذ إنشاء جريدة «المقطم» انقطع إلى تحريرها مع مشاركة في تحرير مجلة «المقتطف» عند سنوح الفرص. فنال المقطم مركزًا عاليًا بين الصحف السياسية عمومًا والعربية خصوصًا بقوة برهانه وغزارة مادته وحرية مبادئه وتعدُّ هذه الجريدة ترجمان أفكار صاحب الترجمة ولسان حاله وقد أنفق عمره بين المحابر والأقلام وسعى كثيراً في ترقية أحوال الشعب العثماني وتنبيه أفكاره إلى المطالبة بالحرية وكسر قيود استبداد الحكام الظالمين وترجم مع زميله الدكتور يعقوب

صروف كتاب «سير الأبطال والعظماء» وكتاب «مشاهير العلماء» وغيرهما.

إلى هنا انتهى ما أمكننا الوقوف عليه من أخبار صاحب الترجمة، سواء كان بما نقله إلينا الرواة الموثوق بهم أو بما اقتطفناه من كتاب «مرآة العصر

«١٦»

جراسيموس مسره

مطران بيروت للروم الارثودكس ، وأحد منشىء جريدة «الهدية» لجمعية التعليم المسيحي ..

هو جرجي بن اسبيريدون بن نقولا بن مسرَّة ووالدته حنة بنت ميخائيل بن عطا الله العايق. أبصر نور الوجود في الثامن عشر من شهر آب سنة ١٨٥٨[٤] في مدينة اللاذقية، فتعلم في مطلع حداثته في مكاتبها البيتية مبادىء القراءة العربية. وعندما ترعرع أدخلهُ أبواهُ المدرسة الأرثوذكسية التي أنشأَها في ذاك العهد السيد ملاتيوس دوماني مطران اللاذقية، فتلقى فيها اللغة العربية عَلَى الأستاذين جبران نقولا جبارة (السيد غريغوريوس جبارة مطران حماه الحالي) وشاكر شقير وأَلم باللغتين اليونانية والتركية. وكان منذ نعومة أظفاره مولعًا بمطالعة الكتب الدينية

---

(٤) ورد في كتاب «روض المسرة» أنهُ وُلد في سنة ١٨٥٩ غير أننا بعد التحري رجح لنا أن ولاته كانت في السنة التي ذكرناها

والتراتيل الكنسية؛ مما حمل صاحب المدرسة عَلَى أن ينظمهُ في سلك الكهنوت. فرقاه في ٢٥ كانون الأول ١٨٧٣ إلى درجة الرهبنة وأبدل اسمه الأصلي المتعارف «جرجي» بجراسيموس. فكان في هذه الدرجة مشكاة الفضائل ومثال الاجتهاد الروحي والأدبي. ولما رأَى راعي الأبرشية نشاطهُ وأمانتهُ، أرسلهُ على نفقتهِ إلى كلية «خالكي» اللاهوتية التابعة للبطريركية المسكونية في القسطنطينية. وفي سنة ١٨٧٩ هزَّهُ الشوق إلى مسقط رأسهِ لرؤية أهله وإخوانهِ وترويح النفس من عناء الدرس. فلما وصله عينه معلمهُ شماسًا إنجيليًا وذلك في ٦ آب من السنة المذكورة، فكان هذا الترقي باعثًا لنشاطه وإقدامه. ثم قفل راجعًا إلى مدرسته حيث أتم علومهُ ونال قصب السبق على أقرانه بإحرازه شهادة قانونية موقعة من رئيس المدرسة ومصدقًا عليها من بواكيم الثالث البطريرك المسكوني المنتقل إلى رحمته تعالى من عهد قريب وذلك في سنة ١٨٨٢ وهي أول شهادة حاز عليها أحد أبناء، فخولتهُ لقب «دكتور» في اللاهوت ثم عاد إلى اللاذقية حيث أقام في خدمة كنيستها مدة سنتين يدرس في غصونها اللغة اليونانية والموسيقى فضلًا عن الوعظ والإرشاد.

فاتصل أمرهُ بمسمعي السيد اياروثاوس البطريرك الأنطاكي في دمشق، فاستدعاه إليهِ وأناط بهِ إدارة القلم اليوناني. فخف صاحب الترجمة في ١٥ آب سنة ١٨٨٤ إلى مركزه الجديد الذي لم يتربع فيهِ أحد قبله من السوريين في مدة البطاركة الانطاكيين الذين الذين كانوا في ذلك العهد من اليونان الأصليين. فوفى وظيفته حقها فضلًا عن توليه في

ساعات الفراغ تدريس اللغة اليونانية وموسيقاها في المدرسة الأرثوذكسية الدمشقية. وفي أواسط سنة ١٨٨٧ باشر في دمشق بناء منارة صحن الكنيسة المريمية لتعليق جرس كبير أُهدي إليهِ من عهد بعيد ولم يكن له قبة ليعلق فيها. وقد شارف ذلك البناء بنفسه مدة سنة كاملة. وبعد وفاة البطريرك أباروثاوس، تضاربت الآراء واختلفت الأهواء عَلَى من يخلفه، فأخذ المترجم يبين لجماعة الأكليروس والشعب شدة احتياج الملة إلى حبر من أحبار الكرمي الأنطاكي خبير بحاجاتها ومتفانٍ في تحقيق رغائبها وأَراد بهِ سيادة معلمهِ المطران ملاتيوس دوماني مشيرًا من طرف خفي إلى محاسن صفاتهِ وجليل مناقبه، فكان أن عاكست الظروف، فأصاب الانتخاب السيد جراسيموس أحد مطارنة الكرسي الأورسليمي، فامتعض من هذا الأمر خصوصًا مما كان يسمعه من أغلب الشعب وبعض رجال الكهنوت من أن المطارنة الوطنيين لا يصلحون ولا يجوز لهم أن يكونوا بطاركة. ثم عول عَلَى إزالة تلك الأوهام من عقولهم وكان أول ما نشره على صفحات جريدة «الهدية» وهي في أوائل نشأتها نبذة تاريخية عنوانها: «سلسلة البطاركة الإنطاكيين» وتطرق منها إلى المناظرات الدينية بينه وبين أصحاب جريدة «البشير» حتى حمل «جمعية التعليم المسيحي» صاحبة تلك الجريدة على أن تصدرها أسبوعية بعد أن كانت تصدرها شهرية. وقد أقام له البطريرك الأنطاكي حفلة خاصة في الكنيسة المريمية وسماه فيها «واعظًا للكرسي الأنطاكي».

على أن المترجم لم يكتف بما كان يحرره في «الهدية»، بل أخذ في تعريب وتأليف الكتب الدينية، فترجم أولًا عن اليويانية رسالة السيد

أفجانيوس البلغاري «البينات الجلية» ثم ألف كتاب «الأنوار في الأسرار» وغيرهما. ولما ذاع صيتهُ، دعاهُ الشعب الإسكندراني لرعايته وخدمة كنيسته، فارتاح إلى هذه الدعوة لأن الشعب الإسكندري كان في مقدمة الشعوب التي خطبت ودّهُ وقدرت قدره. وقد رغب البطريرك الأنطاكي أن يكافئه على خدمته المبرورة قبل مبارحته دمشق، فسامه في ٢١ تشرين الثاني ١٨٨٨ كاهنًا فارشمندريتًا وقد شُيع من أهالي الشام كما استقبل من الأيكندرنيين بمجالي الاحتفاء والتكريم وهناك تولى خدمة الشعب والكنيسة بهمة لم يعترها ملل حتى ترطبت الألسن بإطرائه والثناء عليه.

وفي ٢٨ حزيران سنة ١٨٨٩ انتخبهُ المجمع الأنطاكي مطرانًا لأبرشية حلب، غير أنهُ لأسباب صحية لم يستطع الإذعان لدعوته. فلبث في القطر المصري نحو ١٤ سنة مواظبًا على الخدم الدينية والتأليف والوعظ والارشاد. ومن حميد مساعيهِ في القاهرة تأسيسه «الجمعية الخيرية الأرثوذكسية» التي لا تزال إلى يومنا هذا معترفة بجميل مآتيه السابقة.

وفي عام ١٩٠٠ يمم الحمامات المعدنية في أوروبا استشفاء مما أَلم به إثر مرض الحمى (التيفونيد) وهناك زار معرض باريس وتعرَّف إلى كبار رجالها وقصد سويسرا ثم انتقل إلى إيطاليا فتفقد معالمها ومعاهدها ولا سيما قصر الفاتيكان وآثار رومة الشهيرة وحظي بشرف المثول أمام قداسة الحبر الأعظم لأون الثالث عشر، فأكرم وفادتهُ ونال من لدنه

وسامًا فخريًا. وبعد عودته إلى الإسكندرية رأى أن المجمع الأنطاكي أعاد انتخابه مرة ثانية أسقفًا لأبرشية حلب، فلم يجد سيادتهُ بدًّا من إجابة طلبه. غير أن الأطباء لم يرخصوا له لأسباب صحية أيضًا. وبينما هو والمجمع في هذه المفاوضة وإذ رزئت أبرشية بيروت بمطراتها السيد غفرئيل شاتيلا. فحامت أفكار البيروتيين على طلب صاحب الترجمة، غير أن فريقًا منهم ظن أن لأبرشية حلب شأنًا في هذا الانتخاب، فأخذ يعاكس ويحتج على انتخابه وكثر التشيع والتحزب للفريقين ورنَّ صدى مقالاتهما في جريدة «الرقيب» الإسكندري وغيرها، فانقلبت المناظرة إلى المهاترة وكاد الأمر يفضي بهما إلى سوء المغبة.

أما المنتخب فكان لا يبدي ولا يعيد بالنظر لما رآهُ من حراجة الموقف وخطورته. إلا أن العناية الالهية ألهمت المجمع الإنطاكي بعد ردح من الزمن أن يلبي نداء البيروتيين، فقرر انتخابه في يوم الخميس ٢٨ أيار سنة ١٩٠٢، فقطعت إذ ذاك جهيرة قول كل خطيب وترنحت عواطف البيروتيين من خمرة الحبور وباتوا يهنئون تقوميهم بقرب مشاهدة مطرانهم الجديد. وبعد ظهيرة السبت في ٩ آيار سنة ١٩٠٢ احتفلت أهالي الإسكندرية على اختلاف نحلها بوداع سيادته وأهدته أبناء طائفته صليبًا مع سلسلة من الذهب الخالص مرصعاً بالحجارة الكريمة.

وقد جرى له استقبال في بيروت نادر المثال وأنشدهُ كاتب سيادتهِ الحالي إلياس حنيكاتي وهو عَلَى ظهر الباخرة البيتين الآتيين:

يـا قلـبُ وافـاك الـذي قربـهُ مســـرةٌ يزهـــو بهـــا العمـــرُ
فـأُطرب بمـرأَى خيـر حبـرٍ بـدا وأعجـــب ببحـــر فوقـــهُ بحـــرُ

ثم توجه المترجم إلى دمشق ومعه وفد من سراة طائفته. وبعد الاحتفال الشائق بسيامته مطرانًا بوضع يد البطريرك ملاتيوس الثاني الذي عاد إلى بيروت عَلَى قطار خاص وأُقيمت له الزينات الباهرة في كل محطة وكانت بيروت لابسة حلة من الأزهار والأنوار لم تقع العين عَلَى أجمل منها ولو شئنا أن تأتي عَلَى وصف حفلة استقباله وتعد ما أنشد من النشائد وتلي من الخطب والقصائد في تهنئتهِ ومدحه لضاق بنا المقام ومن أراد الوقوف على ذلك، فعليه بكتاب «روض المسرة» المشهور.

أما مساعيه الخيرية في بيروت منذ تبوأ أبرشيتها فهي عديدة، أهمها: ترميم كنيسة القديس جارجيوس الكاندرائية وإنشاء سوق لها مؤلفة من ستة أدوار وثلاثة وأربعين مخزنًا. ثم تجديد دار المطرانية على أبدع طرز مما جعلها في مقدمة جميع الدور المطرانية في الشرق. وإنشاء مستشفى فخيم في محلة «الغابة» بدلًا من المستشفى القديم الكائن عَلَى طريق النهر ومباشرته «مدرسة السلام» التي أتمَّ منها بناء الطابق السفلي وتجديد كنيسة «مار ديمتريوس» وتنظيم مقبرتها وغير ذلك. وفي قرية «سوق الغرب» التابعة لولايتهِ الروحية جدد بناء كنيسة دير القديس جورجيوس وأنشأَ لها أوقافًا مهمة، أشهرها: نزل «نزهة لبنان» على رابية مرتفعة من أجمل المواقع. وترميم بيعة القديس جرجس وإنشاء سوقها في بيروت صار نقش هذا التاريخ فوق باب الكنيسة المذكورة:

لبيعهِ مار جرجس شيدَ سوقٌ وابنيةٌ عَلَى ركن موطَّدْ

فقلّ مع راقم التاريخِ دامت بسعي جراسموس الدهر تشهدْ

سنة ١٩٠٦

وأما ما كان من مآثره الأدبية والعلمية، فإنهُ ترجم رسالة «البينات الجلية» و«منشور المجتمع القسطنطيني» من اليوناني إلى العربي ونقل كتاب «إسحق الكندي» من اللغة العربية إلى اليونانية ونشر كتاب «الأنوار في الأسرار» وكتاب «تاريخ الانشقاق» وكتاب «التيبيكون» و«خدمة القداس» لرئيس الكهنة والكاهن والشماس. ومن مآثره المبرورة أنه عزز شؤون الجمعيات الخيرية في أبرشيته ومدَّ يد المساعدة للمشاريع العمومية في الوطن ورتب أحوال الديوان الأسقفي ونظمه وزاد في ربح الأوقاف. ومما يذكر عنه أنه عندما احتفل المسلمون بإقامة تذكار للذين ذهبوا ضحايا القنابل الإيطالية في ٢٤ شباط سنة ١٩١٢ ذهب بنفسهِ إلى مقبرة «الباشورة» الإسلامية ووزَّع الصدقات السخية عَلَى عائلات القتلى في الحادثة المذكورة. وفي ٢٥ شباط ١٩١٣ وزَّع منشورًا عَلَى عموم أبناء الوطن، فروت عنه مجلة «المشرق» للآباء اليسوعيين ما يأتي:

«هو منشور لسيادة جراسيموس مسرَّة، مطران بيروت عَلَى الروم الأرثوذكس، يدعو فيه المحسنين من كل الطوائف إلى مساعدة عيال الجنود الأبطال الذين قُتلوا في ساحة الحرب البلقانية وهي مرَّة ثانية

استحق سيادته شكر العموم لأريحيته في تخفيف بلايا الأهلين الذين ضحوا بأولادهم في سبيل الوطن».

وقد برهن صاحب الترجمة عن هذا القول بالعمل، فكان في مقدمة الذين قاموا بالواجب الوطني وأدّى لعائلة كل عثماني مات في ساحة الحرب مبلغًا من المال. ولذلك فإنهُ جدير بما ناله من علائم الشرف وهي: وسام «المجيدي الأول» ووسام «اللياقة» الذهبي من الدولة العثمانية ووسام «جمعية فلسطين» الذهبي من روسيا. وهو من أكثر الأحبار الشرقيين لطفًا وأوفرهم إحسانًا وأشدهم تأنقًا في معيشته وأعظمهم إقدامًا على الأعمال الكبيرة. يقرن القول بالفعل ويبذل الدينار في سيبل إعانة البائس ويأخذ يناصر المظلومين لدى الحكام ويعامل الفقير من بني ملته كالغني. وكتاباتهُ كلها التي نشرها إما دينية وإما جدلية. إلاَّ أنهُ بعد عهد أسقفيتهِ انصرف بكليته عن التأليف إلى سياسة الرعية وتوثيق عرى الوئام والوفاق بين جميع العناصر. يخطب على المنابر وفي جميع المجالس بوجوب الألفة وضرورة الاتحاد، فأكتسب محبة الرفيع والوضيع والقريب والبعيد حتى أصبح ناديه من الصباح إلى المساء تؤمه أصحاب المصالح من كل طبقة ورتبة على اختلاف الأديان والطوائف.

«١٧»

سليم عباس الشلفون

المحرر في جرائد «ثمرات الفنون» و«التقدم» و«بيروت» «المحبة» و«المصباح» و«لسان الحال» ببيروت وجرائد «العصر الجديد» و«المحروسة» في الإسكندرية و«البرهان» و«البيان» و«مرآة الشرق» في القاهرة

سليم بن عباس الشلفون وأمهُ وردة حاتم. ولد في نيسان ١٨٥٣ في بيروت، ولما بلغ الثامنة من عمره أدخله أبواه المدرسة اليسوعية حيث أحكم أصول اللغتين العربية والفرنسية وشيئًا من الإيطالية. وفي السنة الرابعة عشر ترك تلك المدرسة ولازم العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي لمدة خمسة أعوام متوالية حتى برع في اللغة العربية نثرًا ونظمًا. وفي أثناء ذلك تردد عَلَى إدارة مجلة «النجاح» لنسيبه يوسف الشلفون فتعلم صف الحروف ومن ذلك الحين نزعت بهِ نفسهُ إلى فن الصحافة التي خدمها إلى آخر أيامه.

ولما أنشئت جريدة "ثمرات الفنون" سنة ١٨٧٥ انتظم في سلك محرريها، فلبث فيها أربع سنوات وكان في الوقت نفسه ينشىء بعض الفصول في جريدة «التقدم» لمساعدتهما في تحرير صحيفتي «العصر الجديد» و«المحروسة»، فباشر معهما سنة ١٨٨٠ بتحرير الجريدة

الأولى التي لم يطل أمد حياتها. وقد خلف فيها المقالات الأدبية والتاريخية والسياسية مما يشهد لهُ بطول الباع وغزارة المادة ثم انتقل منها إلى «المحروسة» فتولاها مدة سنتين حتى احتجبت بظهور الفتنة العرابية المشهورة. وقد تعرف حينئذٍ بكثير من علماء مصر لا سيما السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وإبراهيم بك اللقاني وعبدالله نديم وغيرهم، فأدرك لديهم منزلة رفيعة.

وانخرط في الجمعيات المصرية وكان من أهم أركان الحزب الوطني القائل بأن «مصر للمصريين» وكان رياض باشا يتولى وقتئذ رئاسة الوزارة المصرية، فأدرك ما للفقيد من المنزلة ولكتابته من التأثير الكبير والوقع العظيم في نفوس سامعيه وقارئيه، فحصل بينهما المقيم المقعد وصدرت الأوامر بالقبض عليه. ففر من القطر المصري إلى نابولي ونزل ضيفًا مكرمًا عند إسماعيل باشا الخديوي الأسبق الذي كان يعجب بذكائه ودهائه وغزارة علمه وسعة اطلاعه عَلَى المسائل التاريخية والأحوال السياسية.

وسافر بعد ذلك إلى الأستانة مزودًا بالتوصيات إلى حليم باشا الذي كان مرشحًا للأريكة الخديوية، فنال فيها التفات أولياء الأمور ورجالها العظام. وكان حليم باشا والصدر الأعظم خير الدين باشا التونسي يحبانه حبًا عظيمًا ويقدران فضله وعلمه حق قدرها

وأنشأَ خير الدين باشا في عاصمة السلطنة قصرًا فخيمًا في أرضٍ فسيحة أهداهُ إياها السلطان ونقش على كل من أوله الأربعة تاريخ كلٍّ منها بلغة، فصادف التاريخ الذي نظمهُ صاحب الترجمة باللغة العربية استحسان اللجنة التحكيمية؛ لأنهُ مع إيجازه تضمن حكاية إنشاء القصر والهبة السلطانية وفيه اقتباس بديع من كتاب القرآن، ففضلتهُ اللجنة عَلَى سواه وأمر صاحب القصر بنقشهِ فوق بيته. وبعد سكون الأحوال في القطر المصري عاد إلى الإسكندرية ولكنهُ لم يلبث أن سافر منها إلى القاهرة لأنهُ كان يخشى القبض عليه ثم نال العفو الخديوي، فأخذ يحرر في جرائد «البرهان» و«البيان» و«مرآة الشرق» الفصول المدهشة ببلاغتها إلى أن قضت عليه الظروف بالعودة إلى وطنهِ ومسقط رأسه.

ولما أنشأَ الحاج محمد رشيد الدنا جريدة «بيروت» عام ١٨٨٦ تولى صاحب الترجمة تحريرها مدة ١٨ سنة وانتقل منها إلى تحرير جريدة «المحبة» وصحيفة «المصباح» وجريدة «لسان الحال» التي لبث فيها تسعة أعوام وقضى عليه وهو قائم في خدمتها وحلت وفاته في ٩ كانون الثاني ١٩١٢. وفي اليوم التابع شُيعت جنازتهُ بالاحتفال اللائق بما تستحقهُ منزلته الأدبية وخدمته للصحافة العربية مدة أربعين سنة. ومن لطيف شعره ما نظمهُ في تهنئة خليل سركيس ببلوغ جريدة « لسان الحال» العيد الفضي لتأسيسها، قال:

أحيك الشعر من منسوجِ فكري ... بألفاظ عذابٍ كالزلالِ
وأنسج برده نسجًا قشيبًا ... ونظم عقده نظم اللآلي
وأسبك كل قافية ببيتٍ ... لأمدحَ فيهِ محمودَ الخصالِ
تركت الشعر قبل الآن لكن ... بمدح خليلنا يحلو مقالي
أديبٌ فاضلٌ فطنٌ نجيبٌ ... فريدٌ في الفعال وفي المثالِ
مآثره الكثيرة ليس تحصى ... وأين العدَّ من حصر الرمالِ
لقد انشأ لسان الحال حتى ... افاد بنشره كل الأهالي
ففيهِ كلُّ فائدةٍ ونصحٍ ... وفيهِ كل إنصاف المقالِ
طوى خمساً عَلَى عشرين عاماً ... بنظم العقد منهُ بلا كلالِ
أفاد بهِ وأَحيا كل صادٍ ... بمورده الشهي العذب الوصالِ
ففي يوبيله الفضي فخرٌ ... وان الفخر صعب في المنالِ
عسى الذهبيُّ أن يأتي عليه ... وكل الحاضرين بحسن حالِ

«١٨»

رشيد الشرتوني، المحرر في جريدة «البشير» من سنة ١٨٩١ إلى ١٩٠٦

وبراعةٍ فجعت بفقد وحيدها ... كالأم قد فجعت بفقد وحيدِ
كل المصائب هيناتٌ عندها ... إلاَّ المصيبة بالامامِ رشيدِ

هو شقيق العلامة الكبير والجهبذ الشهير الشيخ سعيد الشرتوني الذي رفع لواء الفصاحة والبيان بتآليفه الكثيرة. وُلد صاحب الترجمة سنة ١٨٦٤ في بلدة «شرتون» من أعمال جبل لبنان وأبوه عبد الله بن

ميخائيل بن إلياس بن الخوري شاهين الرامي، وقد غلبت عليه وعَلَى أخيه النسبة إلى بلدتهما شرتون، فعرفا بها بدلًا من كنيتها «الرامي» الأصلية.

تلقى اللغات العربية والسريانية والفرنسية مع مبادىء العلوم في مدرسة «مار عبدا هرهريا» المنسوبة لعائلة بني آصاف في قضاء كسروان، فكان آية في الذكاء والاجتهاد بين أقرانه.

سعيد الشرتوني

أحد أعلام اللغة العربية ومنشئ المقالات المعتبرة في "البشير" و"المشرق" و"المصباح" في بيروت ومجلة "المقتطف في القاهرة"

يحاول المرء في الدنيا البقاء وما تفوت قدرته تصوير تمثالِ

والرسم يبقى زمانًا بعد صاحبِهِ دليلَ عجزٍ وهاكم شاهدَ الحالِ

ثم درس حينًا في مدرسة "عين تراز" للروم الكاثوليك ومدرسة "عين طورا" للآباء العازريين وبعد ذلك انقطع لخدمة العلم والصحافة عند اليسوعيين في بيروت، فلبث يدرس الآداب العربية في كليتهم **٢٣** سنة ويحرر في جريدتهم "البشير" **١٥** سنة متوالية وقد تخرجت على يده فئة كبرى من الشبيبة التي أخذت عنه ونهجت منهجه في طلاوة الإنشاء وتحدي الذوق في العبارة. وكنا نود ذكر بعض تلامذته الذين نبغوا في المعارف لولا كثرة عددهم، وكان "البشير" في عهده من أرقى الصحف العربية في السلطنة العثمانية ومن أكثرها جرأة وأبلغها كتابةً. وفي أيلول

١٩٠٦ ذهب إلى القاهرة حيث تولى تدريس اللسان العربي في مدرسة اليسوعيين وفي مدرسة القديس يوسف للطائفة المارونية.

وفي صيف السنة التابعة، عاد لرؤية الأهل والوطن وكان متمتعًا بالصحة، ففاجأته المنية في ٢٣ تشرين الأول ١٩٠٧ في بيروت. فجرى له مأتم حافل وابنه يوسف خطار غانم تأبينًا مبتكرًا في بابه، فأظهر جسامة المصاب به على العلم والوطن ثم نقلت جثته إلى مسقط رأسه ودفنت بضريح المرحوم والده.

وقد عُرف هذا الأستاذ بسلامة السريرة ورقة الأخلاق وجزيل الفضل. فإنه صرف حياته بين المحابر والكتب، واقفًا أتعابه على المعارف ومحييًا لياليه في خدمة الأدب كما تشهد بذلك تآليفه العديدة، وهي كالتالي:

- "تمرين الطلاب في التصريف والإعراب" وهو قسم للتلميذ وقسم للمعلم في ٨ أجزاء.

- "نهج المراسلة".

- "مبادئ العربية" في الصرف والنحو على طريقة مستحدثة في ٣ أجزاء.

- "مفتاح القراءة والخط والحساب".

- مقالات لغوية وتاريخية نشرها في مجلة "المشرق".

ثم نشر بالطبع مع تصحيح العبارة:

أولا: "تاريخ الطائفة المارونية" للبطريرك اسطفان الدويهي.

ثانيًا: "منارة الأقداس" في مجلدين للدويهي.

ثالثاً: "شرح الشرطونية" للدويهي.

رابعًا: "سلسلة بطاركة الطائفة المارونية" للدويهي أيضا.

خامسًا: "بعض المجامع المارونية الإقليمية" وغيرها.

ونقل الكتب الآتية من اللغة الفرنسية إلى العربية:

١ـ "التوفيق بين العلم وسفر التكوين".

٢ـ "الزنبقة البهية في سيرة مؤسس الرهبنة اليسوعية"

٣ـ "ريحانة الأذهان" في سيرة مار لويس غنزاغا ومار استنسلاوس كوستكا.

٤ـ "مظهر الصلاح" في سيرة القديس الفونس رودريكس، وهذه الكتب من تأليف الأب ده كوبيه اليسوعي.

٥ـ "تاريخ لبنان" للأب مرتين اليسوعي.

٦ـ "السفر العجب إلى بلاد الذهب" للأب ريغو اليسوعي.

٧ـ "حبيس بحيرة قدس" للأب هنري لامنس اليسوعي.

٨ـ "الرحلة السورية في أميركا المتوسطة والجنوبية" للأب لامنس أيضا.

٩ـ "علم الفلسفة" للأب طونجورجي اليسوعي (لم يطبع).

وعدا ذلك، فإنه تولى تصحيح بعض الكتب في "المطبعة الكاثوليكية" وقد اعتمد عليه يوسف خطار غانم في مراجعة ما نشره على صفحات "برنامج أهوية القديس مارون" من الفصول التاريخية.

(١٩)

الأب أنطون صالحاني اليسوعي، مدير جريدة "البشير" ورئيس تحريرها سابقًا..

هو أنطون بن عبد الله صالحاني وأمه مريم بنت شحادة نعسان، ينتمي إلى أسرة من أقدم عائلات الطائفة السريانية الكاثوليكية في سوريا ومصر. ولد في ٦ آب ١٨٤٧ في دمشق وأخذ مبادئ العلم في مدرسة طائفته ومدرسة الآباء اللعازريين، ولما بلغ السنة الثالثة عشرة من عمره قدحت في ٩ تموز ١٨٦٠ شرارة تلك الفتنة المشهورة التي ذهب فيها العدد الكبير من المسيحيين الدمشقيين ضحايا الظلم والاعتساف وكان في جملتهم والد صاحب الترجمة الذي قتله الثائرون بعد ما أنزلوا به كل أنواع العذاب والإهانة.

إلا أن أنطون نجا من القتل مع رفيقين له في المدرسة بعناية إلهية، فصعدوا إلى السطح وأخذوا يقفزون من بيت إلى بيت حتى بلغوا القلعة. فبقي هناك مع سائر اللاجئين إليها مدة أربعة أسابيع حتى جاء فؤاد باشا من القسطنطينية ووطد أركان الأمن في المدينة واقتص من الثائرين ثم أخد هذا الوزير بالاتفاق مع الرؤساء الروحيين يجمع شمل النصارى ويطيب نفوسهم بكلامه العذب ويوزع عليهم الإحسانات بسخاء وتولى بنفسه ملاحظة أيتامهم الذين جمعهم في أمكنة مخصوصة وشكلهم بألطافه.

أما صاحب الترجمة، فقد أرسله مطرانه السيد يعقوب حلياني إلى مجلة "الميدان" في دمشق ثم إلى بيروت وهو يجهل مصير والده الذي غدرت به يدٌ أثيمة، فدخل مدرسة الآباء اليسوعيين ثم انتقل عنها إلى مدرستهم في غزير حيث تلقى كل العلوم الثانوية وشيئًا من الفلسفة وأحكم معرفة اللغات العربية والفرنسية واللاتينية وبعض المبادئ اليونانية وكان يقضي أكثر أيام العطلة الصيفية في مدرسة الشرفة للسريان الكاثوليك حيث كان لا يضيع ساعة واحدة بلا مطالعة أو عمل مفيد. وفي سنة ١٨٦٧ رافق الأب دي داماس (De Damas) رئيس اليسوعيين عندما افتقد أديرتهم في سوريا ولبنان وزار معه داود باشا متصرف الجبل في "بيت الدين" ومنذ حداثته نزعت به نفسه إلى اتباع السيرة الرهبانية وطلب من اليسوعيين أن ينتظم في سلكهم، فأجابوا إلى رغبته وأرسلوه مع الأب عطا الله قرنيه إلى ديرهم في كلرمون (Clermont) بفرنسا. وكان دخوله في ٣١ آب ١٨٦٨ إلى الدير

المذكور حيث قضى سنتين يتمرن على السيرة الرهبانية وقوانينها. وفي ٨ أيلول ١٨٧٠ أدى النذور الرهبانية الثلاثة وهي العفة والطاعة والفقر ثم أرسله رؤساؤه إلى دير (Sons Le Sonier)، فلبث هناك مدة سنتين (١٨٧٠– ١٨٧٢) يزيد تعمقًا في المعارف البيانية وعلى إثرها قضى ثلاث سنين (١٨٧٣ – ١٨٧٥) في دير فلس (Valse) يدرس الفلسفة ونال شهادتها العالية. وفي سنتي ١٨٧٦– ١٨٧٧ تولى التدريس في مدينة أفينيون (Avignon) بكل نشاط ومنها انتقل إلى دير أكس (Aix) حيث تلقى علم اللاهوت مدة ثلاثة أعوام (١٨٧٨– ١٨٨٠) أحرز في نهايتها شهادة لغان (دكتور) في العلم المذكور. وفي ٢٢ أيار ١٨٨٠ نال الدرجة الكهنوتية بوضع يد السيد فوركاد مطران أكس وعاد إلى الوطن عقب طرد اليسوعيين من فرنسا في السنة المذكورة، فلبث في بيروت عامًا واحدًا (١٨٨١) ثم ذهب إلى مصر فعلم فيها مدة أربع سنين (١٨٨٢ –١٨٨٥) واحدة في الإسكندرية وثلاثًا في القاهرة. وفي أثناء ذلك جرت الثورة العرابية، فتجند صاحب الترجمة لخدمة المنكوبين وتعزية المصابين اكتسابًا للأجر. وفي سنة ١٨٨٥– ١٨٨٦ سافر إلى دير رهبانيته بالقرب من وندسور في انكلترا فقضى هناك سنة درس خلالها اللغة الانكليزية ثم عاد إلى بيروت ولم يزرها إلا مدة عشرة شهور من سنة ١٨٩٤ قضاها في الإرشاد وخدمة النفوس في مدينة حمص. وفي شهر أيار ١٨٩٣ حجَّ إلى الأماكن المقدسة وشهد المجمع القرباني الذي التأم في أورشليم برئاسة الكردينال لنجينو رئيس أساقفة رِمس وحضور عدد كبير من بطاركة

الطوائف الشرقية وأحبارها ومن أخباره في بيروت أنه تولى فيها أولا تدريس صفَّ الخطابة وإدارة المدارس العربية في كلية القديس يوسف ثم عهد إليه بإدارة المدارس المجانية التي أنشأها اليسوعيون في بيروت وضواحيها للذكور والإناث وتعين مرشدًا لرهبانية "أخوات القلبين الأقدسين" مدة طويلة.

وتولى مرتين إدارة جريدة "البشير" ورئاسة تحريرها (١٨٩١–١٨٩٣) و(١٨٩٥–١٨٩٩)، فأظهر من الجرأة والإقدام والثبات في خدمة الصحافة ما لم يقدم عليه سواه من الصحافيين العثمانيين في عهد الاستبداد وكانت المراقبة على المطبوعات حينئذ في إبان اشتدادها إذ كان يدير شؤونها حسن فائز الجابي وعبد الله أفندي اللذان تركا في قلوب حملة الأقلام تذكارًا سيئًا. فإنهما حملا على "البشير" وأصحابه حملةً شديدة لا يصبر على احتمالها إلا من كان كصاحب الترجمة جسورًا مقدامًا مشهودًا له بالحزم وصدق المبادئ. فكان المراقبان المذكوران مع شدة ضغطهما على الصحف المحلية عمومًا يتساهلان أحيانا مع بعض في نشر مقالات لا يسمحان للبشير بنشرها في الوقت نفسه. وقد اتصل بهما التحيز إلى غض النظر عن تلك الصحف أن تطعن في البشير بلا حق وإلى منع البشير من الدفاع عن نفسه ولو كان الحق بجانبه، فكان صاحب الترجمة يحتمل كل ذلك ويلجأ إلى نفوذ قنصلية فرنسا وإنصاف الولاة كإسماعيل كمال بك (الزعيم الألباني المشهور) وعزيز باشا وخالد بك ونصوحي بك الذين كانوا يعلمون فضله ويساعدونه على تخفيف وطأة المراقبين عن الجريدة.

وحدث مرة أن حسن فائز الجابي مع "البشير" منع من نشر رسالة حبرية أذاعها البابا لاون الثالث عشر وهي تحتوي على نصائح مفيدة ليس فيها شيء من السياسة كسائر الرسائل البابوية. فأبان له الأب انطون صالحاني خطأه ومعاملته المخالفة للقانون وحرية الأديان في السلطنة. ولما لم تنجح مساعيه بالوسائل المعقولة، نشر الرسالة البابوية في الجريدة ووزعها غير مبالٍ بالمنع المذكور. فأصدر المراقب أمرًا بتعطيل الجريدة أوجب استياء كل عاقلٍ من تلك المعاملة الظالمة. وفي الحال سافر الأب كليره رئيس اليسوعيين مع صاحب الترجمة إلى القسطنطينيةوهناك قدما تقريرًا بواقع الحال إلى المسيو كمبون سفير فرنسا ورضا باشا وزير العدلية ويوسف بهجت بك مدير مطبوعات السلطنة. وفي الوقت نفسه أرسل البابا على يد وزيره الكردينال رمبلا يحتج لدى "الباب العالي" على تلك المعاملة التي تمس حرية الأديان، فما كان من السلطان إلا أن أصدر أمرًا بإعادة نشر "البشير" وعدم التعرض لكتاباته.

والأب انطون صالحاني رجل نشيط لا يأخذه الملل في جميع ما يعهد إليه من الأشغال مهما كانت شاقة، وهو عصبي المزاج، نحيف الجسم، قليل الطعام، كثير الاجتهاد يصبر على التعب ولو كان مصابًا بأعظم الأوجاع. وقد خدم المعارف العربية خدمة كبيرة بما نشره من التأليف القديمة التي علق عليها الشروح الوافية وهي: (١) كتاب "تاريخ مختصر الدول" لابن العبري. (٢) كتاب "ألف ليلة وليلة" في خمسة أجزاء. (٣) كتاب "طرائف وفكاهات في أربع حكايات". (٤) كتاب "رنات المثالث والمثاني في روايات الأغاني" في جزئيين. (٥) ديوان "شعر الأخطل" في خمسة أجزاء وقد أعاد طبعه وألف كتبًا ومقالات في مواضيع مختلفة نذكر منها: (١) نبذة عنوانها "التوفيق بين

السنين المسيحية والهجرية" وجعلها جدولًا في مقابلة السنين الهجرية بما يوافقها من السنين المسيحية منذ ابتداء تاريخ الهجرة سنة ٦٢٢ إلى سنة ١٩٠٢ لتاريخ المسيح. (٢) نبذة عنوانها: "رد على منشور بطريرك الروم القسطنطيني فيما يتعلق بعقيدة الحبل بلا دنس". (٣) رسالة سماها "الطلاق عند المسيحيين". (٤) رسالة "إيضاح مسألة في العماد". (٥) مقالة "قبل الولادة وبعد الموت" ردًّ فيها على مجلة المقتطف. (٦) رسالة في "الخمير والفطير". (٧) مقالة سماها "نقائض جرير والفرزدق" وغير ذلك مما نشره على صفحات مجلة "المشرق" أو لم يزل باقيًا بلا طبع.

(٢٠)

سليمان البستاني

أحد المحررين في مجلة "الجنان" وجريدتي "الجنة" و"الجنينة" في بيروت ومنشئ مجلة "شيكاغو" التركية في شيكاغو بأمريكا الشمالية

نشأته

هو سليمان بن خطار بن سلوم شقيق المطران بطرس بن نادر شقيق المطران عبد الله البستاني. ولد في ٢٢ أيار سنة ١٨٥٦ في "بكشتين" إحدى قرى إقليم الحروب التابع قضاء الشوف في لبنان. وتلقى مبادئ العربية والسريانية من عم جده المطران عبد الله إذ كان مقيمًا مع عائلة خطار حفيد أخيه نادر. وفي السابعة من عمره دخل المدرسة الوطنية في

بيروت لنسيبه المعلم بطرس وبقي ثماني سنوات مجدًّا في التحصيل ممتازًا بحسن الصفات. وقد مثل مرة دور "منتور" في رواية "تليماك" بمهارة يندر أن يأتي بمثلها من كان في سنه. وهذه الرواية لأحد معلمي المدرسة الوطنية الشاعر سعد الله البستاني مؤلف بعض الروايات والمحرر في "الجنان" و"الجنة" و"الجنينية" وقد ورد رسمه في الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة **١٣٦**.

وكانت ذاكرة سليمان قوية، فساعدته على التوسع بالمعارف والتمكن من حفظ المعاني حتى إذا احتاج إلى شيء منها تذكرها دون أن يبحث عنها. وقد سرد مرةً "على الغيب" كأنه يقرأ في كتاب نشيدًا ونصف نشيد من نشائد ملتن الشاعر الانكليزي في "فردوسه المفقود" مع قسم وافر من قصيدة "سيدة البحار" لولتر سكوت كاتب الانكليز الروائي واستظهر ألفية ابن مالك وأنشد بناء على طلب رئيس المدرسة في حفلة عمومية مئتي بيت منها ولم يتلعثم.

ومكث يتعاطى التعليم حيث تعلم ويحرر في "الجنة" و"الجنان" وتولى تحرير "الجنينة" وساعد في تأليف "دائرة المعارف" وانتظم في جمعية "زهرة الآداب" وترأسها مرتين.

وجاهد في سبيل النهضة الأدبية وعد من مؤسسيها في سوريا يوم لم يكن يهتم بهذا الأمر إلا القليل النادر من بني البلاد. وفي السن الذي ينصرف فيه المرء إلى اللهو و التمتع بالملذات الجسدية، كان سليمان

البستاني منصرفًا إلى ترقية نفسه وتهذيبها، بل إلى زيادة معارفه وتوفير آدابه ولم يكتف بشهادة المدرسة النهائية ولا بمهنة محرر ولقب أديب، بل عكف على الدرس والاستفادة مدركًا أن العمر مهما طال أقصر من استيعاب مطامع الإنسان وشاعرًا بأن الشباب حري بهذا الجهاد.

في العراق

امتدت شهرته إلى العراق، فدعاه وجهاء البصرة بزعامة قام باشا زهير لإنشاء مدرسة ونشر جريدة، فذهب إليها وهو لم يتجاوز العشرين من عمره، فأنشأ مدرسة أدارها سنة ثم تركها لغيره واشتغل في التجارة وقد دعاه إليها ما رآه فيها من بواعث الأسفار مما ينيله بغية استطلاع أحوال بلاد يرغب في درسها واتخذ بغداد مقرًّا له وتعين عضوًّا في محكمتها التجارية ومديرًا لبواخر عمان بينها وبين البصرة.

وهذه البواخر تخص الحكومة وقد أصلح إدارتها مدحت باشا، مؤسس أول مطبعة وأول جريدة في العراق، وأنشأ معملًا للحديد كبيرًا ألحقه بها إذ كان واليًا لبغداد. ولكنها ما برحت أن ساءت أحوالها وتقهقرت وانحطت بعد ذهاب مدحت وتمادى فيها الخلل وعمها التشويش. فانتهت ورزحت عاجزة تحت أثقال الديون إلى أن تولى البصرة ثابت باشا، ففاوض العاصمة بأمرها ففوضوه بإصلاحها وبالاتفاق مع مجلس إدارة الولاية بعد البحث الطويل، عينوا البستاني مديرًا لها وسلموه زمامها وعهدوا إليه أيضًا بإدارة المعمل وأطلقوا يده في التصرف

الداخلي والعزل والتنصيب. فاشتغل ثلاثة أشهر فقط، فرتب الأشغال وأحسن اختيار العمال واقتصد بالنفقات وأخلص بالعمل، فأصلحها ووفى الديون وجمع ألوف الليرات أرباحًا.

وأقام في العراق ثمانية أعوام ساح في خلالها مرات في بلاد العرب والعجم والهند سياحات علمية مكنته من تثبت أحوال تلك البلاد وسار أيامًا في البادية ممتطي الإبل حيث لا بشر ولا ظل.

وزار "الرقميتين" وجميع الأماكن المشهورة ودرس القبائل وعاداتها وفهم أخلاقها وأساليب حياتها وأحصاها بسبعة ملايين بدويًا إحصاء دقيقًا لم يسبق إليه ولآفاقه أحد فيه مبتدئا به من سوريا والعراق وأطراف الأناضول ونجد والحجاز واليمن وعمان وحضر موت وغيرها وألف من أخبارها كتابًا كبيرًا يثبت أن المؤلف من أدق الباحثين ومن أصدقهم رواية وأقواهم حجة وجمع من مرويات أهلها قصائد شتى في ديوان كبير وعد بتمثيل منتخباته للطبع منذ أصدر الإلياذة وحالت إشغاله دون طبعه وإليه ينسب اكتشاف قبيلة عربية ما دون اسمها في كتاب بعد ولم يعلم بها عالم قبله.

في الأستانة

وجاء بيروت فاشتغل في "دائرة المعارف" وكان نسيبه سليم أحد مؤلفيها قد شرع في ترجمتها إلى اللغة التركية وعهد بذلك إلى لجنة من خيرة كتاب الترك برئاسة خلقي أفتدي رئيس المكتب السلطاني، فأنجزت

منها نحو مجلدين وتوفي سليم قبل مباشرة الطبع. فعزم سليمان وإخوة الفقيد على إتمام العمل، فسافر إلى الأستانة يستأذن وزارة المعارف بذلك. واتصل بكامل باشا وكان يومئذ وزير الأوقاف وبسعيد باشا الصدر الأعظم وغيرهما من الوزراء كجودت وصبحي وظل يتردد على الوزارة ثلاثة أشهر وهي تماطله إلى إن علم الصدر الأعظم بذلك وفي اليوم التالي فاز بالإذن وصارت الرخصة بيده، فزار سعيد باشا في اليوم الثالث ليشكره لا ليشكو إليه. غير أن اشتداد المراقبة والضغط على المطبوعات وأسبابًا غيرها معها آلت إلى إهمال المشروع فبقي طي الخفاء وما طال غياب البستاني كثيرًا عن بغداد، بل عاد إليها وتزوج كالدانية غنية هي ابنة المثري انطون البغدادي. ولكنه لم يبق في الزوراء أكثر من عامين إذ رجع إلى الأستانة وصرف فيها سبعة أعوام غادرها في أثنائها إلى أميركا لتولي إدارة القسم العثماني في معرض شيكاغو سنة ١٨٩٣ . وأنشأ مجلة تركية مدة المعرض باسم "شيكاغو" هي أول وآخر صحيفة تركية أميركية، بل هي الوحيدة التي لن يماثلها غيرها أبد الدهر بالإرادة سنية. حتى أحرفها نالت نصيبًا من سوء السياسة وسخافة الأوهام، إذ اشترتها سفارة تركيا بعد توقف المجلة لئلا يستخدمها حر في نقد سياسة الدولة وكان نصيب منشئها الخسارة؛ لأنه لم يملق الباب العالي ولا أطرأ المابين الهمابوني. كما أشير عليه وبعد رجوعه سأله جواد باشا الصدر الأعظم بعض نسخ منها، فأرسلها إليه وكتب في صدرها هذه الأبيات:

هـذي صـحيفتي التـي سـودتها بـدم الفـؤاد وقـد شـططت مـزارًا
أعظمـت قـدر كولمبـوس فتبعثـه بمشـــقة فيهـــا شـــققت بحـــارًا
ولقيـت مـا لاقـاه مـن أهـل النهـي فكفـى بـذا أهـل النهـي تـذكارًا

ومن أشغاله في الأستانة سعيه لدى وزارة النافعة لإصلاح الري في العراق وعمله تقريرًا مسهبًا بذلك ضمنه معلوماته الواسعة عن تلك الأرجاء الخصبة، فكان أول من كتب رسميًّا بهذا الشأن وقد طلب الترخيص بإرواء بغداد وضواحيها بالرافعات البخارية، فصمت مفاسد الدولة آذان الوزارة ومما شاهده فيها من فظائع الاستبداد مذبحة الأرمن عام ١٨٩٦ شهدها من أولها إلى آخرها بما فيها من الهول المرعب، وكان مقيمًا في "فنار باغجه" مجاورًا لفؤاد باشا منفي الشام المعروف بلقب "الدلي فؤاد"، فرآه صاحب الترجمة بعينه يطوف الشوارع بين الرعاع، مسلحًا جريئًا، ناهيًا عن سفك الدم، واعظًا منذرًا متلطفًا متهددًا يؤمن الخاف ويرعب الخائن.

في مصر

وقام البستاني بعد ذلك في مصر إلى سنة ١٩٠٨ يضارب بالأسهم والأطيان ويشتغل بالمعارف والآداب، فأصدر فيها سنة ١٩٠٤ "الإلياذة" الشهيرة وسيأتي وصفها في الصفحات التالية، ونشر بالاشتراك مع نسيبه نجيب ونسيب البستاني، الجزئين العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف، وألف كتابه "عبرة وذكرى" على إثر الانقلاب العثماني وأصدره بسرعة أعجب الناس بها وترأس "جمعية الكتاب" وانتخب عضوًا

في عمدة "الجامعة المصرية" ونال من حفاوة العظماء ما هو جدير به. ولما صدرت إلياذته احتفى به أعاظم المصريين والسوريين احتفاء شائقًا في نزل "شبرد" في القاهرة في ١٤ حزيران من تلك السنة، فحطب في الاحتفال أعلم علمائهم وكان لذلك تأثير جميل رأي كاتب هذه السطور أن يردد صداه عامئذٍ في بيروت باحتفال مثله عندما جاءها سليمان. فما استطاع لضغط المراقبة واستبداد الحكومة وعبثًا كان اقتراحه ذلك في جريدة لبنان، وقد جمع نجيب متري صاحب "مطبعة المعارف" في مصر كل ما قالته الجرائد في الإلياذة وما قيل في ذاك الاحتفال بكتاب على حدة نشره بيانًا لما نالته من الأهمية عند العلماء وكان يأتي لبنان في الصيف وقد شيد للصيف منزلًا كبيرًا في مسقط رأسه "بكشتين"، وكثيرًا ما جال في أوروبا وأمريكا باحثًا منقبًا يدرس التمدن الحديث مباشرة ويقتبس معارف الإفرنج وآدابهم حسًّا ومعنى، وما زال متمصرًا إلى حين إعلان الدستور، إذ غادر مصر عائدًا إلينا فانتخبناه نائبًا عنا في مجلس المبعوثان، وقد كتبت حينئذ مقالة كبيرة بهذا الشأن في جريدة لسان الحال في ١٣ تشرين الأول سنة ١٩٠٨. ولما تم انتخابه نظمت فيه نسيبتي السيدة وردة اليازجي نزيلة الإسكندرية هذين البيتين وقالتهما في وداعه:

اخلق ببيروت دار العلم من قدمٍ	أن تصطفيك على الأيام معوانًا
فالله لما ارتأى إعلان حكمته	ما اختار من شعبه إلا سليمانًا

سليمان البستاني

في المبعوثان والأعيان

ومذ تعين مبعوثًا سكن الأستانة ولا يزال ساكنًا فيها وقد انتخبه المبعوثان رئيسًا ثانيًا للمجلس سنة ١٩١٠ وأوفدته الدولة إلى أوروبا مرات بصفة رسمية ورامته بعض الوفود، فزار العواصم الكبرى توثيقًا لعُرى الولاء بين الدولة والدول وحلًا للمشاكل المهمة. وقابل ملك الإنكليز ورئيس جمهورية فرنسا وغيرهما من أعاظم السياسيين وكان خطيب الوفد وقد خطب في حضرة الملك إدوار وفي الحفلة السنوية لجامعة أكسفورد إذ انتدبته عمدتها ليكون خطيبًا لها. وإذ أعجب الأوروبيون به تناقلوا رسمه بجرائدهم ونشروا سيرته. وعندما هم عبد الحميد بالفتك بالأتحاييم بفتنة نيسان المشهورة عام ١٩٠٩، بقي البستاني في العاصمة إلى حين التئام الجمعية العمومية في "سان ستيفانو"، فحضر الاجتماع وقرر مع المجتمعين خلع السلطان. ولما جاء وفد مسلمي الهند لاستطلاع أسباب الخلع أقنعهم بصحته ولزومه. وحالما ارتقى إلى عرش آل عثمان السلطان محمد رشاد سار سليمان في طليعة معلنًا ذلك إلى دول أوروبا كما سار قبلًا في مقدمة الوفد النيابي لرد زيارة النواب الأوروبيين. ومن مآثره في المبعوثان تأليفه اللجنة النيابية الدولية للتعارف وتأييد علائق الوداد بين المجلس وبقية مجالس النواب في العالم ولجنة التحكيم الدولي العثمانية لإزالة سوء التفاهم في المشاكل التي تحصل بين الدولة والدول وفضها بالتي هي أحسن. ودعمها بجمعية مرتبطة بها

لتمد فروعًا لها في الولايات تحكيمًا لعرى الإخاء بين العثمانيين على اختلاف عناصرهم. وهذه قد صدق عليها مجلسا المبعوثان والأعيان وتلك عززها البستاني يترأسه لها كما أيد لجنة الأعمال الخارجية في المجلس. وقد عضد اللغة العربية وأيدها في المحاكم ومدارس الحكومة وبقية الدوائر في بلاد العرب واستصدر الأوامر الرسمية بمنع توظيف جاهليها في هذه البلاد ومنع غير أبنائها من تدريسها في المدارس التعدادية والرشيدية والسلطانية وأرجع من عزلوا من وظائفهم إليها لجهلهم لغة الأتراك. ونقض الأمر بمنع الأطباء والصيادلة المتخرجين في المدارس الأجنبية من الاستخدام في البلديات ومستشفياتها واهتم بمواطنيه مهاجري سوريا، فألف لجنة رسمية للنظر في أمورهم وسعى، فأنشأت الدولة بسعيه قنصليات لها حيث يكثرون. وبهمته قرر المبعوثان النفقات اللازمة لذلك وجاهد لصيانة حقوقنا نحن البروتين في "مكتب الصنائع" فمنع الحكومة من الاستيلاء عليه. وبما أن هذا المكتب قد أنشئ بمالنا فحفظه سالمًا لنا وحمل وزارة النافعة على تقرير إصلاح طريق المركبات من هنا إلى الشام واعتنى بالتوفيق بين الأكليروس والعلمانيين الأرثوذكسيين في فلسطين عندما تنازعوا على إدارة الأوقاف وتأليف المجلس الملي المختلط وساعد على منع الضرائب غير المشروعة من العراق واليمن وأوضح أحوال بعض العشائر البدوية لتتحسن معاملتها الرسمية. ونفى التهم الموجهة إلى جرائد السوريين في المهجر أو في الوطن وحاول إزالة سوء التفاهم بين الترك والعرب والتقريب بين قلوب العنصرين ورغب في وفاقهما حبًا بمصلحة الدولة.

كما أنه كان صلة خير بين جميع العناصر ودافع عن سمعة الأمة دفاعًا مجيدًا في صحف الفرنسيس والإنكليز وأقنع الأوروبيين وغيرهم بموافقة الدستور لشرع الإسلام وأن هذا لا ينافي ذاك إن فهمت أصوله.

ولم يطل أجل النيابة على سليمان، إذ انتخبه جلالة السلطان عضوًا في مجلس الأعيان وكان ولا يزال لجلالته نظر عليه يستحق فضله وقد قابله مرارًا وأناله منه التفاتًا سنيًا. والصدور العظام قد عرضوا عليه تولي بعض الوزارات أكثر من مرة فلم يرضَ بها. وله في هذا المجلس مآثر عظيمة وهو ما فتئ يشتغل لخير البلاد وفي كل يوم له مآثره.

علومه وآدابه

إن شهرة البستاني السياسية لم تكن شيئًا بجانب شهرته العلمية ومجده الأدبي فاق مجده السياسي وهو متحف اللغة العربية بإلياذة هوميروس وكفاه بهذه ذكرًا خالدًا. وقد عربها عن اليونانية شعرًا ونظمها بأحد عشر ألف بيت في خلال سبعة عشر عامًا وصدرها بمقدمة فضلها بعضهم عليها وشرحها ونظم بعضها بأسلوب جديد بعد أن طالع ترجماتها إلى اللغات الفرنسية والانكليزية والإيطالية ودرس لأجلها لغة اليونان القديمة وتمكن منها تمكنه من سبع لغات غيرها عدا إلمامه بخمس، فجاءت تحفة مبتكرة أصح منها في جميع اللغات المترجمة إليها وبلغ عدد صفحاتها ألفًا ومئتين وستين صفحة والإلياذة أربعة وعشرون نشيدًا، تتألف من ستة عشر ألف بيت نظمها هوميرس الشاعر اليوناني منذ ثلاثة آلاف سنة في وصف حادثة مفادها: أنه كان في جملة السبايا التي غنمها

اليونانيون من الترواديين في حرب تراودا الشهيرة، فتاة جميلة وقعت في سهم "أخيل" بطل اليونان، فانتزعها منه اغاممنون زعيمهم الأكبر، فعظم الأمر على الأول وكاد يبطش بالثاني، لولا نزول أثينا آلهة الحكمة من السماء ومنعها له قسرًا. فانكفأ عنه واعتزل القتال هو ورجاله، فاشتد لاعتزاله التروادیون ونكلوا بأعدائهم منتصرين عليهم في مواقع عديدة. ولما ضايقوهم استعانوا بأخيل وهو في عزلته يتلهب غيظًا فرد وفودهم خائبين. وإذ تواصلت انكسارات قومه وأشرفوا على الاندحار التام، أجاز لصديقه فترقل بناء على إلحاحه الشديد بأن ينجدهم برجاله، ففعل وكاد يغلب الأعداء لو لم يقتل ولما علم أخيل بمصرعه، التاع فؤاده وأسرع ليثأر له فصالح اغاممنون وخاض المعامع، فانتصر وقتل هكتور زعيم الترواد وشتت شملهم. وكان سبب هذه الحرب أن فاريس بن فريام ملك تراودا أوفد برسالة إلى إسبرطة ونزل ضيفًا في بيت ملكها منيلاوس. وكان هذا غائبًا عن عاصمتهم وله زوجة جميلة تسمى هيلانة فأحبها فاريس وأغراها على الذهاب معه إلى بلاده، فثار الإسبرطيون واليونان يحاولون استرجاعها بالسلم، فجابوا فحاربوا الطرواديين حربًا هائلة وحاصروا عاصمتهم "اليون" عشر سنين إلى أن فتحوها ودمروها وعادوا بمن كانت السبب إلى زوجها

وقد تخلل موضوع "الإلياذة" حوادث علمية دينية وصفها الشاعر مع جغرافية محلاتها وجميع العلوم التي كان لها اتصال بها كالسياسة والدين والطب والفلك والصنائع وسائر الفنون الجميلة؛ مما جعلها دائرة معارف عصرها وأنالها من الأهمية ما جعل اليونان يتناقلونها من القرن

العاشر قبل المسيح ويتناشدونها في كل مكان. وحسب هوميرس منها أن عدوه لأجلها في مصاف الآلهة وسكوا النقود باسمه ورسمه وشيدوا له الهياكل كإله وعبدوه فيها. أما تعريب "الإلياذة"، فقد صدره البستاني بمقدمة نفسية أورد فيها سيرة ناظمها وبيان منظوماته ومنزلته عند القدماء ورأي المتأخرين فيه وأقوال العرب في شعره وبحث في إلياذته وموضوعها وطرف تناقلها قبل الكتابة ثم في جمعها وكتابتها وسلامتها من التحريف مع ما فيها من قليل الدخيل والساقط والمكرر والمغلق. وأتى على تحليلها وتشريحها وبسط فوائدها للأدب والتاريخ وسائر العلوم والفنون والصنائع وأوضح الأسباب الداعية إلى إغفال العرب نقلها إلى لغتهم في صدر الإسلام وروى كيف عربها وذكر مناهج العرب في نقل الكتب الأعجمية وما يجب أن يعوَّل عليه من أساليبها وقارن بين الإلياذة والشعر العربي وأسهب في ذلك إسهابا كليًا مع المقابلة بين اليونان والعرب ووصف آدابهم وأشعارهم. وكلما تعلق بهذا الموضوع وشرحها بإسهاب شرحًا مفكهًا مفيدًا، رصعه بزهاء ألف بيت عربي في مثل معاني الإلياذة وحوادثها لنحو مئتي شاعر. ومثل المتن الشعري بالشكل الكامل وزين الشرح بالرسوم وأضاف فهرسًا مستوفيًا لكل محتويات الكتاب ومعجمًا لغويًّا تاريخيًّا وسلك في النظم مسالك جديدة، منها: "المثنى" تبنى قصيدته على قافية يرجع إليها في كل بيتين مرة وعروض البيت الثاني فيه مطلقة من القافية على نحو ما اصطلح عليه المتأخرون في "الرباعي" والمربع ومثاله:

لو تربصت والعجاج استطارا   ونجيع الدماء سال وفارا
وتبصرت بابن تبذبس لم   تدر أي الجيشين منه أغارا
مستشيطًا ينقد فوق الأعادي   ينهب السهل بين عاد وغاد
كخليج يضيق بالسيل مجرًا   فيستأصل الجسور الكبارا

والمربع ومثاله:

كسا الفجر وجه الأرض ثوبًا مزعفرًا   وزفس أبو الأهوال في أرفع الذرى
على قمة الا ولمب تصغى مهابة   لمنطقه الأرباب ألف محضرا
فقال: ليعلم كل ربٍ وربه   بما اليوم في صدري فؤادي أضمرا
فلا ينبذن الأمر عاصٍ بل أذعنوا   لا نفذ ما أبرمت أمرًا مقدرًا
لنصرة أي القوم من يجر منكم   يأوبن منكوبًا يخضبه الدم
وإلا فمن شم الاولمب براحتي   إلى ظلمات الدهم يلقى ويرجم
إلى حيث أبواب الحديد قد استوت   على عتب الفولاذ والقعر مظلم
إلى هوةٍ بين الجحيم وبينها   مجال كأقصى الجو عن أسفل الثرى

والمثمن أو المربع المسمط ومثاله:

قصيص الجيش مذ ذعرًا   هزيمًا كالظبا نفرا
إلى اليوم حيث هناك   خلف حصاره انحصرا
يجفف في ظلال قلا   عه عرقًا به سبحته

كتائبـــــه ويــــــروي غـــــ　　　لمـــــةً فيهـــا قـــد اســـتعرا

وراءهـــم الإخـــاءة والجـــوا　　　ئـــــن فـــــي عـــــواتقهم

جـــــرو لكــــن هكتـــــوراً　　　تـــــربص يرقـــــب القـــــدرا

لـــــدى أبـــــواب اســـــكيا　　　قضـــــاء الشـــــوءم مشبطـــــه

وبـــــابن إيـــــاك آفلـــــون　　　أحـــــدث يصـــــدق الخبـــــرا

والموشح المثمن ومثاله:

ســـار هكتـــور حثيثًـــا وأتـــى　　　بـــاب اســكية والــزان ظليــل

...

فتلقتـــــه نســـــاء وبنـــــات　　　منــه علمًــا تتقصــى ســائلات

عن بنيهن وأخوات ثقات

وبعـــــول وأخـــــلا فـــــأمر　　　إن يبـــادرن علـــى ذاك الأثـــر

ويصلين لأرباب البشر

علهـــا ترفـــع عـــنهم الاذى　　　ولزاهـــي قصـــر فريـــام مضـــى

هو صرح شي بالنحت الجميل　　　فـــوق أبـــواب رواق مســـتطيل

...

ضـــمنه صـــف بـــديع المنظـــر　　　غـــرف قـــد بنيـــت بـــالمرمر

كلها خمسون ملس الحجر

لبنـى قريـام شـيدت مضـجما وثـوت أزواجهـم فيهـا معـاً

ويجاذبهن صف رفعا

فيـه بالإينـاس والرغـد ثـوى مـع كـل ابنـةٍ الصـهر الحليـل

وتصريع المتقارب ومثاله:

خلت ساحة الحرب من كل ربِ فعـج العجـاج بطعـنٍ وضـرب

فمـن سـمويس إلـى زنـشس قـراع السـيوف ومـد القسـي

هذه أمثلة وجيزة مما أحدثه البستاني في نظم الإلياذة، نكتفي بها للدلالة على شيء منها عدا وصفها وشرح مقدمتها بيانًا لما حوته من الفوائد والمستحدثات. ولذلك لا غرو إذا حسبنا إلياذته تحفة يحق للغة العربية أن تفاخر فيها.

وقد نظم أيضًا نحو خمسة آلاف بيت شعر لم يحفظ عنده منها إلا ما اقتصر على وصف الحوادث وفلسفة الأخلاق ومن نظمه هذان البيتان عربهما عن الفارسية:

قضـيت إلهـي بالعـذاب ويـأتي بـأي مكـان بالعـذاب تـدين

فليس عذاب حيثما أنت كائن وأي مكـان لسـت فيـه تكـون

وبيتان أيضًا عربهما عنها في المعنى الآتي:

وحقـك أدركـت شـفتي روحـي ومـن شـفتيك تنتظـر الإفـادة

فـديتك عجلـي بـالأمر وأقضـي بمـوت اليـأس أو عـيش السـعادة

ومن نظمه أيضًا:

أنـا مـا أنـا أمسـي ويمـي وفـي غـدي سـواء تـوالي الخيـر أو عظـم الشـر
أحـب محبـي نابـذًا حاسـدي الـذي قلانـي كمـا لـو كـان قـد ضـمه القبـر

ومن تواريخه الشعرية ما قاله في تهنئة صديقه يورغاكي أفندي إليان، أحد وجهاء حلب الأماثل

عندما نال الرتبة المتمايزة:

لا زالـت الشـهباء أكـرم مـوطن فيهـا المناقـب بالمناصـب فـائزة
وبـآل آليـان تعـز شـؤونها فلكـم بهـم غـرُّ المـآثر بـارزه
ولكم ليورغاكي بها فضل سمي فحباه مولى الملك أفخر جائزة
واحتـل منصـل عـزةٍ تاريخـه قـد نـال أصـدق رتبـةٍ متمـايزة

سنة ١٨٨٥

ومنها تاريخ لأحد جوامع البصرة نظمه باقتراح قاسم باشا زهير ونال عليه جائزة، فنقشوه على باب الجامع أثرًا خالدًا. ومن مؤلفاته تاريخ مطول للعرب في ألفي صفحة لم يطبعه بعد. وقد كتب سياحاته لحين إعلان الدستور في نحو ألف صفحة وله مقالات عديدة في الجرائد والمجلات الإفرنجية أخصها الفرنسية والانكليزية. ومع تعمقه بالعلوم والآداب أتقن درس لغات العرب والترك واليونان والفرس والسريان والفرنسيس والإنكليز والإيطاليين

وألم باللاتينية والعبرية والهندية والألمانية والروسية. وعد أعرف سوري بعادات وأخلاق الشرقيين والغربيين.

ومع كل ما فعله من عظيم الأعمال لم يتخذ رتبة ولا لقبًا حتى ولا وسامًا. بل كثيرًا ما كان يرفض ما يعرض عليه منها ومع تباعده عن أمجاد العالم وتجنبه التظاهر والمباهاة ما بلغ مكانًا يعرف فيه قدر العلم وقيمة الفضل إلا فاح طيبة كالعنبر فاحتفى به واحترم ولا شبهة عندي بأن أخلاقه مبعث الاحترام له فضلًا عن معارفه الغزيرة التي ندران يستجمعها رأس واحد وأخلاق البستاني من أشرف أخلاق الناس وأسماها (جرجي نقولا باز).

(٢١)

نجيب البستاني

صاحب الامتياز الثالث لمجلة "الجنان" وجريدة "الجنة"

هو ثالث أنجال المعلم بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد ابن أبي شديد بن محفوظ ابن أبي محفوظ البستاني. ولد في ٧ كانون الأول ١٨٦٣ في بيروت، فدخل أولًا المدرسة الوطنية التي أسسها والده ثم الكلية الأمريكية، فأتقن العلوم العقلية والنقلية ودرس اللغات العربية والتركية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية وسنة ١٨٧٨ عينه أبوه مساعدًا له في تأليف كتاب "دائرة المعارف" وكان العمل جاريًا حينئذ في المجلد السادس منها، فكان في جملة ما أنشأه مقالة ضافية عن روسيا أجازه عليها القيصر بعد ذلك بوسام القديس أستانسلاس من

الطبقة الثالثة. ولما أدركت الوفاة المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٨٣ ثم سليم البستاني سنة ١٨٨٤ خلفهما في امتياز جريدتي الجنان والجنة. وحررهما مدة سنتين وأودعهما المقالات السياسية والأدبية والتاريخية والروايات وبعد احتجابهما تفرغ لتأليف "دائرة المعارف" بمساعدة أخويه أمين ونسيب وابن عمهم سليمان، فأصدروا المجلد التاسع ثم اتفق ورثة أبيه على أن ينيطوا به إتمام هذا المشروع العظيم، فكتبوا له العقود الرسمية وحولوا إلى اسمه حقوق اشتراك الحكومة المصرية في الكتاب المذكور. وفي السنة ١٨٨٦ استقدمه رياض باشا إلى مصر للنظر في بعض شؤون دائرة المعارف، فحظي مرارًا بمقابلة توفيق الأول خديوي مصر الذي شمله بالتفاته ووعده بالعطف على مشروع "دائرة المعارف" شدا لأزره في تأليفه ونشره.

وسنة ١٨٩٣ اشترك مع بعض أبناء سوريا في تأليف شركة لتمثيل العادات الشرقية في "معرض شيكاغو" العام. وفي السنة التابعة سافر إلى مصر فنال شرف المثول لدى خديويها عباس الثاني. وبعد عودته إلى سوريا تعين عضوًا فخريًّا في دائرتي الحقوق والجزاء في بيروت وعضوًّا عاملًا في مجلس المعارف، فأقام في هذه الوظيفة سنة كاملة.

وسنة ١٨٩٥ انتدبه قعوم باشا حاكم جبل لبنان لرئاسة محكمة المتن فخدمها ست سنين بالنزاهة المشهورة عن آل بستاني. وفي تلك الأثناء اتفق صاحب الترجمة وأخوه نسيب مع ابن عمها سليمان على نشر كتاب دائرة المعارف في مصر لما كان يحول دون ذلك من العثرات

في الدولة العثمانية، فسافر نسيب مصحوبًا بمكتبة الدائرة إلى مدينة القاهرة حيث جرى فيها إتمام وطبع الجزأين العاشر والحادي عشر.

وسنة ١٩٠٠ تولى نجيب وظيفة المدعي العمومي الاستئنافي في مركز مصرفية لبنان، فقضي فيها خمس سنين ونالت لعهده شأنًا كبيرًا في القضاء بحكومة الجبل المذكور. وسنة ١٩٠٥ استقال منها وسافر إلى وادي النيل لمزاولة المحاماة، فتولى رئاسة قلم القضايا في عدة شركات بلجيكية وقيدته محكمة الاستئناف المختلطة في عداد المحامين لديها.

ولما ارتقى السلطان محمد الخامس إلى عرش الخلافة سنة ١٩٠٩ ألف المسيحيون العثمانيون المقيمون في مصر وفدًا من الأعيان ينوب عنهم في تهنئة جلالته، فكان صاحب الترجمة في جملة أعضائه ونال معهم شرف المثول والرعاية لدى الخليفة الأعظم وعدا وسام "القديس استانسلاس" المار ذكره، فقد أحرز المترجم وسام "القديس غريغوريوس الكبير" من البابا لاون الثالث عشر وحاز على "الرتبة المتمايزة" والوسامين "العثماني الثالث" و"المجيدي الرابع" من الحضرة السلطانية وعين عضوًا في "الجمعية الأسيوية الإيطالية" وقد دعي مرتين إلى مؤتمر المستشرقين في استوكهولم وروما، فأعد خطبة عن تاريخ النور وحكاية أحوالهم وعاداتهم وأخلاقهم. ولما كانت أشغاله الكثيرة قد منعته من الحضور بالذات في مؤتمر روما فجرت تلاوة خطبته في جملة محاضرات المؤتمر المذكور. على أنه قدم لملك أسوج ولرئيس الجمهورية الفرنساوية مجموعة مؤلفات والده مشفوعة بأجزاء الجنة

والجنان ودائرة المعارف فورد إليه جوابان يتضمنان الاعتراف بالفضل الأدبي والعلمي.

ولنجيب البستاني منظومات شعرية مختلفة المواضيع لم تنشر بالطبع. وله خطبتان ألقاهما في "جمعية شمس البر" في بيروت إحداهما عن "فينيقيا والفينيقيين" والأخرى في "غرائب العلم" طبعتا في مجلة المقتطف. وله أيضًا مقالات شتى فرنسية نشرت في جريدة " Journal du caire" سنة ١٩٠٩ أتى فيها على وصف مدينة القسطنطينية وآثارها وجمالها الطبيعي وسياسة الدولة العثمانية قبل إعلان الدستور وبعده. وسنة ١٩١٢ سافر إلى إيطاليا وسويسرا وفرنسا وحظي في باريس بمقابلة حضرة وزير المعارف وعدد من كبراء السياسة والمؤلفين والصحافيين. وهو أبي النفس، لطيف المحاضرة، حسن المبادئ، ورث عن أبيه محبة نشر العلوم. غير أن شدة المراقبة على المطبوعات في السلطنة العثمانية سابقًا حملته على كسر القلم في سبيل خدمة الصحافة والعلم، فاضطر إلى ترك هذه المهنة الشريفة التي رفع البستانيون شأنها في الأقطار العربية شرقًا وغربًا ولا يزال الأدباء يعلقون عليه الآمال في إكمال طبع كتاب "دائرة المعارف" الذي لا تخفى فوائده العظيمة عن كل ناطق بالضاد.

(٢٢)

سليم دي نوفل

أقدم محرر في جريدة "حديقة الأخبار" وأحد مؤسسي "الجمعية العلمية السورية" ومجلتها.

لما نشرنا تاريخ جريدة "حديقة الأخبار" في الجزء الأول من هذا الكتاب، فاتنا ذكر صاحب الترجمة الذي حرر في تلك الصحيفة لأول عهدها. ولما كان سليم دي نوفل من ذوي الوجاهة والفضل والعلم الذين خدموا النهضة الأدبية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، رأينا أن نثبت ترجمته في هذا الجزء وقد استندنا في ما رويناه عنه إلى ما نشرته مجلة "الجامعة" في الإسكندرية[٥] لمنشئها فرح أنطون والي ما أمكننا الوقوف عليه بعد البحث الطويل من مصادر شتى يوثق بها: هو سليم بن عبد الله بك بن جرجس نوفل. ولد في ١٨٢٨ في طرابلس الشام وربى فيها تربية كريمة؛ لأن عائلته المشهورة في الفيحاء كان معظم رجالها من موظفي الحكومة العثمانية وقد استدل الجميع منذ صغره على حسن مستقبله بما كان يلوح على وجهه من لوائح النباهة والذكاء. ولكنه لم يدر في خلد أحد منهم أنه سيكون يومًا من الأيام من الرجال الذين يفتخر بهم الشرق ويدل الغرب على استعداد الشرقي لكل تقدم وارتقاء.

---

(٥)عدد ١٢: سنة ٣: كانون الاول ١٩٠٢

ولما كانت مدارس طرابلس مقصورة على تدريس المبادئ العربية، ذهب سليم إلى بيروت لداعٍ عائلي وتلقى في إحدى مدارسها من اللغة الفرنساوية ما يمكنه من الفهم والتفهيم بها. وبعد خروجه من المدرسة بقي في بيروت فلازم علماءها الإعلام كالشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني وهو الذي أنشأ معهما ومع بعض الفضلاء سنة ١٨٥٢ "الجمعية العلمية السورية ومجلتها المشهورةثم عاد إلى وطنه طرابلس وانكب على الدرس والمطالعة بغير أستاذ. وفي سنة ١٨٥٨ عهدت إليه وكالة البواخر الروسية ولكنه لم يقم فيها سنة واحدة حتى خرج يطوف في أنحاء أوروبا لاسيما فرنسا وانكلترا واكتسب كثيراً من آثار التمدن العصري. وبعد رجوعه اتخذه خليل الخوري مساعدًا له في تحرير صحيفة "حديقة الأخبار" وترجمة ما يلزم لها من الصحف الإفرنجية. وفي سنة ١٨٦١ طلبته حكومة روسيا إلى بطرسبرج بواسطة البطريرك الأنطاكي والبطريرك الأورشليمي للروم الأروثوذكس ليكون أستاذًا للغة العربية في كلية بطرسبرج. فسار على نفقة حكومة روسيا ولم تكن السكة الحديدية قد اتصلت يومئذٍ بعاصمة القياصرة، فاضطر إلى أن يبتاع مركبة بخيلها لتنقله إليها هو وعائلته. وكان ذلك في فصل الشتاء القارص وما أدراك ما هو الشتاء في روسيا والذي زاد مشقة السفر جهله اللغة الروسية ومحاولة الفلاجين الروس تعطيل مركبته ليضطروه إلى أن يشتري منهم غيرها.

ولما استقر في بطرسبرج دخل في الجنسية الروسية ودرس لغة سكانها والتأليف والخطابة باللغة الفرنساوية والتدريس باللغة العربية للشبان الروسيين الذين يتهيأون للمناصب السياسية في الشرق الأدنى.

ولما اطلع القيصر إسكندر الثاني على بعض خطبهِ ومقالاته أعجبته رشاقة أسلوبها واتفق أن الشيخ شامل الشركسي المشهور الذي حارب روسيا مدة ٣٢سنة خضع وسلم لها في ذلك الزمن وكان لا يحسن اللغة الروسية بل العربية. فكان سليم ترجمانًا بينه وبين القيصر ومنذ هذا الحين بدأ تقدمه الحقيقي، فإن القيصر أحبه لذكائه ونشاطه ودقة نظره فقربه منه ووهبه دارًا ومنحه لقب شرف وهو (دي)، فصار يسمى "سليم دي نوفل" أو "إيرنه دي نوفل".

وفي سنة ١٨٧٦ عهد إليه القيصر رئاسة قلم في وزارة الداخلية. وفي سنة ١٨٧٧ مُنح رتبة "مستشار للبلاط الإمبراطوري" وفي سنة ١٨٧٩ مُنح رتبة "مستشار الدولة". وأرسلته الحكومة الروسية في مأموريات سرية إلى بعض البلاد الأوروبية منها سفارة إلى رومه لمخابرة الحضرة البابوية في مسألة متعلقة بأهالي فنلندة الكاثوليك التابعين لروسيا وانتدبته عدة مرات للنيابة عنها في المؤتمرات الشرقية وكان يقوم وبواجباته خير قيام، فمنحته حكومته عدة وسامات منها "وسام القديسة حنة" من الدرجة الأولى وقد جاء في براءة الوسام أن القيصر منحة إياه "مكافأة له على خدماته السارة وتآليفه الممتازة" ومنها "الوسام الروسي" وقد منحته فرنسا رتبة غران كوردون من وسام "جوقة الشرف".

معارفه ومؤلفاته

كان المترجم يعرف اللغة الفرنسية والعربية والروسية والإنكليزية والتركية ويكتب فيها بفصاحة وقد تلقى اللغة الحبشية أيضًا وطريقة درسه هذه اللغة لا تخلو من فكاهة. ذلك أنه ورد في ذات يوم على القيصر كتاب سري من النجاشي باللغة الحبشية، فعهد القيصر إلى سليم بأن يترجمه له، فأخذه ثم التمس إنجيلا وأخذ على ما يقال يتصفحه ويقابل كلماته بكلمات الكتاب وأقام على ذلك حتى فهم معنى الكتاب ولعله استعان على ذلك بعارف باللغة الحبشية وإنما كان يعرض عليه كلمات الإنجيل بلا انتساق ويطلب منه تفسيرها دون أن يوقفه على الكلمات الشبيهة بها في الكتاب.

أما مؤلفاته فكلها باللغة الفرنسية وكان في هذه اللغة كاتبًا تحريريًا. وكفى دليلًا على ذلك أن الخطبة التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في باريز في نواحي سنة ١٨٩٥ كتبها في أقل من ساعة قبل انعقاد الجلسة ولكن الذي سهل له هذا الأمر الصعب أن ذهنه كان مفعمًا بموضوعها "مطابقة الدين الإسلامي الحقيقي للمدنية". ذلك أن جميع مؤلفات هذا الجهد كانت في المواضيع الشرقية الإسلامية، منها كتاب في ترجمة "صاحب الشريعة الإسلامية" وقد حذا فيه حذو الفيلسوف رنان في ترجمة السيد المسيح. ومنها كتاب عنوانه "الزواج في الإسلام" وآخر عنوانه "الملكية في الإسلام" وآخر عنوانه "النسل والطلاق". ونقل من اللغة الفرنسية إلى العربية رواية "المركيز دي

فونتانج" وطبعها سنة ١٨٦٠ في بيروت. وله شعر رقيق نذكر منه أبياتًا من قصيدةٍ رثى بها صديقه سليم دي بسترس وهي:

العيد وافي يا سليم إلى ما هذا التنائي عن الديار إلى ما
ما حظنا فيه التهاني وإنما أهدى إليك من الدموع سلاماً
هاجت شجوني بعد موتك كلها واسود عمري حاضرًا وإمامًا
أقفرت قلبي والديار كلاهما أضحى ببعدك يا سليم ظلامًا
أبكيك لا أسف الحياة فأنها حلم تبطن جوفه أحلامًا
أبكيك لا أسفا لفقد شبيبةٍ مرت كما خرق الشعاع غمامًا
أجد الزهور موقت بصباحها وكذا الملائكة لا تطيل مقامًا
لكنني أبكي السماحة والنهى أبكي العفاة إذا أتوك زحامًا
أبكي الفقير على ضريحك واقفًا يذري الدموع على الخدود سجامًا
أبكي اليتيم وقوله أين الذي كما نقبل كفه إكرامًا

وختمها بقوله:

أعجزت شعري يا سليم فلا تلم هذي دموعي فلا تسلني كلامًا

أخلاقه وآراؤه

كان رحمه الله ربعة الجسم كساء المشيب وقورًا وكان في لوائح وجهه أنفة العالم واتضاع الفيلسوف، ومما يروي عن فرط اتضاعه وكراهته للفخفخة الباطلة أنه لما كان في باريزايام اجتماع مؤتمر المستشرقين فيها

أراد الذهاب مع أعضاء المؤتمر لزيارة رئيس الجمهورية بصفته نائبًا عن روسيا فيه. ولكنه لم يلبس لباسه الرسمي ولم يضع عليه وسام "جوقة الشرق" من درجة غران كوردون، فألح عليه صديقه ورفيقه في المؤتمر حضرة الأيرامين أرسلان في وضع ذلك الوسام لأن رئيس الجمهورية يبالغ في إكرامه متى رآه حائزًا عليه، فرضي أخيرًا بذلك إكرامًا لنائب روسيا إن لم يكن إكراما لنفسهِ. ولكنه لما كان على الطريق في مركبة مع الأمير أمين غطى الوسام بملابسه لكي لا يظهر إلا في حين الحاجة إليه. أما آراؤه في الشرق والعرب والفلسفة فيقتضي بسطها مقالًا على حدة. إنما نكتفي هنا بذكر رأي له في ارتقاء الآداب الكتابية في اللغة العربية، فإنه يرى أن السجع والشعر على الطريقة القديمة من أشد العوامل الحائلة دون ارتقاء الكتابة في هذه اللغة. الكاتب العربي لا يكون ذهنه إلى درر المعاني واعتبار الألفاظ لباسًا لها. أي أن اهتمامه يكون بالقشر لا باللباب وهذا من أعظم مصائب بعض الكتاب. على أننا نظن أنه رأى هذا الرأي قبل هذا العصر بعشر سنين أو عشرين سنة لأن أسلوب الكتابة العربية قد تغير الآن تغيرًا عظيمًا. وذلك الأسلوب القديم لم يبق منه إلا الأثر وهو آخذ في الزوال شيئًا فشيئًا، فلا يبقى إلا الأسلوب الطبيعي الذي مقتضاه كتابة الكتائب كما يتكلم لأن المقصود إبلا غ المعاني لا وصف الألفاظ.

مقامه في روسيا

وقد ذكرنا فيما تقدم منزلة المترجم في البلاط الروسي ونزيد على ذلك أنه كان الصلة بين روسيا وجميع العناصر الشرقية. فإن أمراء الشرق المسلمين الذين يفدون على بطرسبرج كانوا يتعرفون به وكان مقصدًا لكل شرقي مسلم

أو مسيحي يفد إلى بطرسبرج لحاجة سواء كان من القوقاز وبخارى وغيرها من البلاد الروسية التي يتكلم أهلها اللغة العربية أو من الولايات العثمانية وكانت له مراسلات مع السيد جمال الدين الأفغاني وأكثر بطاركة الشرق الذين كانوا يحتاجون شيئًا في روسيا فكانت علائقهم معها على يده وحلت وفاته في أوائل شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٠٢ في مدينة بطرسبرج.

(٢٣)

نجيب حبيقة

مدير جريدة "المصباح" وأحد المحررين فيها

ولد في "الشوير" بلبنان سنة ١٨٦٩ وتلقى دروسه في كلية القديس يوسف للآباء اليسوعيين في بيروت، فنبغ بين أترابه حتى أن ذكاءه كان ينبئ بما سيصير إليه وما لبث أن دعا رؤساء الكلية المذكورة إلى التدريس عندهم، فظل مدة طويلة يدرس صفي البيان العربي والفرنسي ثم انتدب للتعليم في "مدرسة الحكمة" المارونية و"المدرسة العثمانية" للشيخ أحمد عباس الأزهري، فقام بمهمته خير قيام.

وفي شهر شباط ١٩٠٣ تولى مع أشغاله الكثيرة تحرير جريدة "المصباح" فكان يتحف عالم الصحافة بكتاباته الأنيقة ومقالاته الشائقة وأفكاره المبتكرة ونشر على صفحات الجرائد، لاسيما مجلة "المشرق" وجريدة "المحبة"، فصولًا شتى تدل على طول باعه في صناعة الإنشاء وكان ولعًا بفن التمثيل لأنه رأى فيه وسيلة لتهذيب الأخلاق وترقية

الآداب، فكتب فيه الفصول الطويلة ونشر روايات تمثيلية منها مؤلفة ومنها معربة نالت كلها صيتًا بعيدًا وله عدة تأليف مدرسية وأدبية طبع بعضها في المطبعة الكاثوليكية نذكر منها:

(١)كتاب "درجات الإنشاء" في ستة أجزاء ثلاثة للمعلم وثلاثة للتلميذ.

(٢) رواية "الفارس الأسود".

(٣) رواية "شهيد الوفاء".

(٤) مقالة في "فن التمثيل".

(٥) مقالة في "الانتقاد".

(٦) عرب روايتي "جريدة لبنان" و"الشقيقتين".

وله غير ذلك مما يبلغ الخمس عشرة رواية تأليفًا أو تعريبًا. وكان شعره لا يقل عن نثره في سلاسة التعبير وبلاغة المعاني لاسيما في رواياته التمثيلية وما عدا ذلك فإنه كان قليل الا كتراث لفن القريض الذي لم يمارسه إلا ما ندر ومن نظمه قصيدة سماها "السفينة البطرسية"تبريكًا للبابا لاون الثالث عشر سنة ١٨٨٧ في يوبيله الكهنوتي الذهبي، وهي من أوائل نظمه:

عصفت على بحر الأنام رياح	حجب النهار من الظلام وشاح
وهوت صواعق مصعقات أزعجت	بشرًا فكادت تزهق الأرواح
والبحر عاد عرمريًا مصخبًا	والموج ثار فساء منه جماح

والناس في غمر الخصم جميعهم خاضوا فليس من الغمار براح
ورأوا المياه تلاطمت أمواجها وعلت عليهم كالجبال وصاحوا
طمتِ المصيبة فالمنية قد دنت آهًا أليس من الهلاك مراح
لكن على سطح الخضم سفينة وعلى مقدمها يرى مصباح
قد أقبلت وتطايرت لخلاصهم شكراً لجدك أيها الملاح
فيك النجاة وليس غيرك يرتجى وإليك كل قلبه ملتاح
ها قد تقدمت السفينة نحوهم فنجا بها قوم وفيها راحو
لم ينأ عنها غير من قد آثروا شرب الحتوف فذي الفعال قباح
شاموا البروق فاملوا منها الهدى خابت ظنونهم فليس نجاح
لا نور في غير السفينة فاعلموا من ينأ عنها ضاع منه صلاح
جدوا أيا غرقي وأموها يقودكم إليها نورها الوضاح
جدوا فليس لكم خلاص دونها ولجمعكم فيها الدخول مباح
أعداؤها سخروا بها قبحاً لهم قالوا بأن ستحطم الألواح
فالموج يصدمها فيدفعها فلا أمل لنفسٍ بالنجاة متاحُ
وإذا بصوت صارخ: كن آمنًا بين السفينة والخضم كفاح
فسفينة الصياد تقهمر خصبهما أبدا لأن لها الصفا ملاح
للحين عاد النوء صفواً رائقاً وعن البلايا زالت الأتراح

ومع ما كانت تقتضي أشغاله العقلية من الوقت، كان يكرس الساعات الطوال لخدمة الجمعيات الخيرية وتخفيف وطأة الشقاء عن ذوي الفاقة، فخدم بغيرة يذكرها الجميع شركة القديس منصور دي بول وأخوية القديس مارون ونشأ مع بعض أهل الفضل جمعية "أخواء الفقراء" المارونية وكان يدير مدرستها المجانية بنفسه وقد خصه الله مع الذماء والغيرة بدماثة الأخلاق ولين الطباع والذوق السليم والرزانة وأنشبت المنية أظفارها فيه عند الساعة التاسعة من مساء يوم الثلاثاء الواقع في ٢٥ كانون الأول ١٩٠٦ إثر علةٍ بلت زهرة شبابه الضر دون أن يتوصل طبيب إلى استئصال جراثيمها القتالة. وبعد أربعين يومًا لوفاته أقام له أصدقاؤه في نادي "أخوية القديس مارون" حفلة تذكارية جمعت كل عارفٍ بفضله، فكانت الحفلة الأولى التي أقيمت في بيروت من هذا النوع وتوالت فيها الشعراء والخطباء فضفروا إكليلًا من المجد خالدًا لمن قضى حياته في خدمة العلم الشريف وقد ألقى حينئذ إلياس حنيكاتي خطبةً بليغة اختتمها بهذه الأبيات:

على ابن حبيقة الشهم النجيب   جديد تلهف ملء القلوب
ثوى في لحده غصنًا رطيبًا   فجف الدمع من فرط النجيب
أرانا خطبه خطبًا جديدًا   بيوم الأربعين بلا ضريب
فلبت يعاد مرآ قليلًا   لنشفى غلة القلب الكئيب
وليت لنا صدى ما كان يلقى   على الأسماع من درٍ رطيب
مضت تلك الحقيقة والأماني   ولم يبق سوى ذكر النجيب

ثم خطر لبعض أحبائه وتلامذته أن يسعوا في إقامة أثر يخلدون به ذكره إقرارًا بفضله على الشبيبة البيروتية وخدماته العديدة في سبيل الصحافة والتعليم والأعمال الخيرية، فقيض الله لهم أن يجمعوا مبلغًا من المال ونصبوا له ضريحًا في المقبرة المارونية الواقعة في محلة "رأس النبع". وهو أول عمل وطني من هذا النوع أقيم أيضا في بيروت. وبعد ظهر الأحد ١٥ أيار ١٩١٠، اجتمع فريق من أهل الفضل واحتفلوا بنقل رفات صاحب الترجمة إلى القبر ولمعت الدمعة في كل عين وقد تكلم باسم لجنة الاكتتاب يوسف بن نخله ثابت ثم بشارة بن عبد الله الخوري منشئ جريدة "البرق" ونجيب مصور وجرجي بن نقولا باز منشئ مجلة "الحسناء" ويوسف كامل والدكتور سليم جلخ. وكانت الحفلة ظاهرة عليها أدلة التأثر لأنها أعادت ذكرى الفقيد إلى كل قلب وقد شيد الضريح بكل ذوق ونقشت على صدره هذه الأبيات:

حياك يا قبر منا غيث أدمعنا	وجلاك الله من أسنى عطاياه
ضممت كنزًا ثمينًا دونه مهج	تسيل حزنًا وتدمي القلب ذكراه
قد قدر الله أن نبكي عليه فتى	غضًا فصبرًا على ما قدر الله
يا ساهر العين في التاريخ دامعها	حيي النجيب فهذا القبر مثواه

سنة ١٩٠٦

(٢٤)

نجيب إبراهيم طراد

محرر "التقدم" و "الصفا" في بيروت ومنشئ "الرقيب" ومحرر "الأهرام" و"البصير" في الإسكندرية

ينوب عني رسمي حين يحجبني ... عن العيون ستار اللحد والفسق

فإن عمري وإن طالت مسافته ... في الأرض أقصر من عمري على الورق

أسرته

أسرة طراد قديمة العهد في بيروت رفيعة المقام غنية بالرجال وبالمال. جاء جدها يونس بن طراد من حوران وسكن "كفر حزير" في الكورة شمالي لبنان. ثم قدم بيروت سنة ١٦٤٣ على ما روى المؤرخ عيسى المعلوف في كتابه "دواني القطوف" واتصل بالأمير فخر الدين المعني وحظي عنده، فتوارثت سلالته الوجاهة جيلًا بعد جيل واشتهر منها أفراد عديدون كالمطران جراسيموس أسقف حاصبيا وراشيا المتوفي سنة ١٨٦٧ وكان حبرًا فاضلًا ومنهم إسبريدون باور السلطان عبد العزيز الذي كابه الجواد عام ١٨٧٠ فمات ورثاه كثير من الشعراء كخليل الخوري مؤسس "حديقة الأخبار"، ومن قوله فيه:

ويلاه كيف كبا الجواد ملاعباً ... أيدي الردى بابن الطراد إلا منع

أو آه من أيدي المنية أنها ... قنصت غريب الدار قبل المرجع

يــا أيهــا الغصــن الموســد فــي ثــرى دار الســعادة بعــد خصــب المرتــع
قـم لـم يـأن وقـت انقصـافك يـا فتـى قـم لـم يحـن يـا صـاح يـوم المصـرع
قـم واجـل لطفـك للصـحاب ترفقـاً فعســاك تــنعش مهجــة المتفجــع
قـم واشـف غلـة مـن دعـاك بلفظـةٍ مــن لــي برقتهــا تــرن بمســمعي

ومن أدباء آل طراد المتوفين المقدسي عبد الله بن مخايل، مؤلف تاريخ "أبرشية بيروت"، من أوائل القرن السادس عشر إلى ربع التاسع عشر. وقد اعتمد على هذا الكتاب أيضا غطاس قندلفت أحد أساتذة مدرسة البلمند في تأليفه "تاريخ البطاركة الأنطاكيين" المنشور في السنة الأولى لجريدة "المنار" البيروتية وبطرس بن شاهين طراد ألف بطلب من أحد الأمراء سنة ١٨١٧ وهو في جزيرة مدللي تاريخًا لحروب فرنسا وأوروبا في مدة أربع وعشرين سنة على عهد نابليون الأول ولا يزال تاريخه غير مطبوع وقد رأيت نسخة منه عند جرجي بن اسحق طراد (١٨٥١-١٨٧٧) كاتب المقالات المفيدة في جريدة "الجوائب" ومجلة "النحلة" وناظم ديوان شعر عندي نسخة منه بخط يده سأمثلها للطبع وله أيضًا أرجوزة في الصرف ورواية شعرية، ومن نظمه قوله في الحكم:

مـا كـل مـن رام نظـم الشـعر يدركـه ولا الــذي رام ينــدي النــاس يفــديها
لـيس الـذي عـاش أيامًــا مطـولــة بــل الــذي عــرك الأيــام يــدريها
بـين الحيـاة وكـل النــاس معــركة بــالحظ والبــؤس تفنينــا وتفنيهــا

وجبرائيل بن حبيب طراد (١٨٥٤ -١٨٩٢) نظم الشعر وهو صبي. وفي السادسة عشرة من عمره، رثى نسيبه اسبيريدون بقصيدة. ومن رثائه لسليم دي بسترس ما يأتي:

على أنه قد كان أحرى بنا بأن نغبط من مثل السليم نما سعدا
حصيف قضى دنياه في خوف ربه فحدث ولا تطلب لأفضاله حدا
فكم غاث محتاجًا وأطعم جائعًا وعاد أخا سقمٍ فأوسعه رفدا
وكم من أيدا جاءها ومكارم فكانت يجيد الدهر من فضله عقدا
جدير بان الفخر يشكو فراقه ومنه رواق الفخر قد كان ممتداً

وموسى بن نسيم طراد (١٨٨٣-١٩١١) كتب عدة مقالات في بعض الجرائد منها "المحبة" وترجم بضع روايات وله خطب وقصائد في مواضيع مختلفة وكبير أدبائهم أسعد طراد الشاعر المشهور (١٨٣٥-١٨٩١) تلميذ مدرسة "عبية" والموظف سنوات عديدة في الحكومة والمتاجر في القطر المصري حيث توفي وهو الذي قال فيه أستاذه الشيخ ناصيف اليازجي:

لقد سبق القوم الطرادي أسعد إلى قصب السبق الذي ناله غصبًا

ووصفته جريدة الأهرام بأنه "كان يتدفق الشعر من فيه كالماء"، ووصفه سليم دي بسترس بما يأتي:

ذاك الفريد ومن بلطف صفاته لا يلتقي بين الأنام مماثلًا

شهم بنظم الشعر أبدع إذ أتى　　في سحره الفتان يسحر بابلًا
لما بعقد النظم حلى عصرنا　　ما عدت أنظر قط جيدًا عاطلًا
يا أسعدًا في الناس إني أسعد　　بك إذ رأيتك نحو ودي مائلًا

وجاوبه سليم دي بسترس من مصر مرة على قصيدة أرسلها إليه بقصيدة نورد من أبياتها:

ويا شوقي لأرض أنت فيها　　فيا بيروت غيرك ما حلا لي
رسالة أسعدٍ حملت إلينا　　سلامًا من شذى زهر الجبال
سكرت بكأسها المملوء لطفًا　　فسكري ليس من خمر الدوالي
وجدت بنظمها درًا مصاغًا　　عجبت لكاتب صاغ اللآلي

فإن له قصائد وأبيات من أحسن ما نظم الشعراء في مواضيعها جمع بعضًا منها فضل الله ابن شقيقه خليل في كتاب نشره سنة ١٨٩٩ ومما ورد فيه قوله:

قل للذي قد رد صبًا سائلًا　　ما رد طرفي قط دمًا سائلًا
لو كنت تنظر جودطر في مرةً　　ما كنت تبقى بالتداني باخلًا
يا عاذلي في حبه مهلا فما　　من عاشق قبلي أطاع العاذلا
إني قتيل في الغرام على رضى　　وبمهجتي أخفيت ذاك القاتلا

ومن قصيدة رفعها لتوفيق باشا خديوي مصر:

دع يوم دارة جلجلٍ والغيدا　　وظباء وجرة والعيون السودا

وحمى تكاد تعد من إطلاله — مما وقفت به تعد عميدًا
إطلال خولة لا تخولك الوفا — وبكاك فيها لا يرد فقيدًا
أفتسمع الصم الدعاء وأنت لم — تسمع هداية من أتاك رشيدا
سميت أشفق ناصحٍ لك عاذلاً — ودعوت أصدق من هداك حسودا
وتفقت تفتقد الأحبة في الحمى — ونسيت تنشد قلبك المفقودا
وغدرت ذاتك عند ذات غوائر — قد قيدتك عقاصها تقييدا
تجري الدموع سدي فلا تطفي بها — ناراً جعلت لها حشاك وقودا

ومن قوله في وصف الاختراعات العصرية متنبئًا عن الفوتغراف والغراموفون والسينماتغراف:

وجه لحاظك للبخار وقل به — أني أرى ماءً يجر حديدا
وانظر لسلك البرق والتلفون كم — قد قربا ما كان منك بعيدًا
غنت سليمي في الحجاز فاطر بت — مع بعدها أهل العراق نشيدا
ولسوف أن رقصت بباريز ترى — في أصفهان لقدها تأويدا
إله الفؤاد بذكر ذاك وذا — عجبًا وهاك الطائر الغريدا
يهدي إليك مع البريد بوصفه — فكأنما حمل البريد بريدا
يصف البريد ببره وبيحره — وبجوه متنوعاً معدودا
ذاك الصديق الصادق الخل الذي — لا يعرف التأجيل والتعريدا
ويريك منه بوصفه خلا يرى — حفظ الأمانة سنةً وعهودا

حمل السفاتج والنضار لأهلها … وسرى بحول الله يطوي البيدا
يطوي القفار فكم عليه حلة … منها وكم منه بها أخدودا
متفرع في ارض مصر كنيلها … يسقي التجارة سقي ذاك صعيدا
أبدا يطوف بها كصاحب كرمةٍ … يهدي لكل محطة عنقودا
جلب الثمين لنا بوفدته وقد … نظر العظيم من العفاف زهيداً
يمسي ويصبح زائراً بهديةٍ … ومودعاً بنظيرها تزويدا
ولكم وقفنا منه من سباء على … مباء يقين إذ أتى وأعيدا
وهو الذي قد عاد بالغصن الذي … عن كون غيض الماء كان مفيدا
فلاجل ذلك ذا تتوج رأسه … اجر الأمين وذا تتوق جيدا

وقوله في رثاء نسيبه اسبيريدون:

واهًا لقلب جواده فكأنه … قد كان ذاك اليوم مثل نعاله
والمرء ما حفظ الوداد فما الذي … ترجو من الحيوان في أفعاله

ومن مرثاته لسليم دي بسترس:

فالميت حل برمسه والحي قد … صبت مضابه على عتباته
يبكي الفقيد ولو تأمل نفسه … لبكى من استتباعه خطواته
ابني أبينا ليس يجمع شملنا … يوم المعاد بحسب قول ثقاته
وغدًا يعزي بعضنا بعضًا به … أبدا جزي الرحمن فضل رواته

والمـــرء لـــولا موتـــه لحياتـــه بـــالله كـــان تعـــيس مخلوقاتـــه
دنيـــاه ذات مصـــائبٍ ونوائـــب لا تعتـــري الحيـــوان فـــي فلواتـــه
فالويـــل للإنســـان إن ســـاورهما عـــدم يضـــيع العقـــل فـــي ظلماتـــه
أمر بـه حـار اللبيـب وخـاض فـي بحـــر البيـــان فتـــاه فـــي لجاتـــه
والـنفس ثابتـة الوجـود تحجبـت عـــن أن تـــرى بحجـــاب مكوناتـــه

ومن رثائه لانطون لاذقاني:

ســـلبت بـــه يـــا أيهـــا البـــين درةً لهـــا قيمـــة عنـــد المحبـــين غاليـــة
كأن به الحمى التي قد قضى بها رماهـــا علـــى قلبـــي لا عـــرف ماهيـــة
فيا نيل مصر هل أرى منك جرعةً لقلـــب كـــواه البـــبن يانيـــل شـــافيه
أغنـي علـى مـا أنـت فيـه مـن ألوفـا بكـاس وخـذ مـن دمـع عينـي سـاقيه
ولكـن علـى مـا قيـل للنـاس جنـة لمـن سـار فـي مرضـاة مـولاه باقيـه
فسـبحان مـن لا يعلـم الأمـر غيـره إله الروى من عنه لم تخف خافيه

ومن وجائهم إسحق طراد الشهم الوديع محب الإنسانية المحسن إليها ذو المآثر الطيبة خصوصًا في حوادث عام ١٨٦٠ وبولس طراد عين أرثوذكسي بيروت في عصره وخادم طائفته في عضوية مجلس الإدارة وولداه إسكندر ترجمان قنصلية العجم ومعزز مدارس الطائفة وسليم ترجمان قنصلاتو روسيا ومنشئ مجلة "ديوان الفكاهة" ومدير مطبعة القديس جاورجيوس، وجرجس بن نقولا عضو محكمة التجارة وأول من أبن ميتًا في بلادنا على ما نعلم بتأبينه المطران بنيامين سنة

١٨٤٨. ومما يذكر من غرائب الاتفاق أن وفاة اسكندر سنة ١٨٨٨ كانت في مثل اليوم الذي توفي فيه والده بولس وبذات الساعة أيضًا بعد سبعة عشر عامًا، فقالت في ذلك مجلة "الصفاء":

فكلاهمـــا بـــين البريـــة نـــادر   ولـــذاك خطبهمـــا غريـــب نـــادر

وقد أبنه الشماس غريغوريوس حداد بطريرط أنطاكية الحالي ضيف قيصر الروس اليوم ومن أحبائهم المعاصرين الفقيه الياس بن جرجس أحد أعضاء محاكم الاستئناف ونائب رئيس "الجمعية الخيرية الأرثوذكسية" ومدرس الفقه في مدرستي "الحكمة" المارونية و"الأرثوذكسية الإكليريكية" ومؤلف كتاب "الترجمان الانكليزي" باللفظ العربي ومصحح قاموس انكليزي وعربي وله شرح مختصر لأهم مواد أصول المحاكمات الحقوقية نشره في جريدة "لبنان" التي حرر فيها وفي "الصفا" و"المنار". والمحامي اسكندر بن فرج الله مدير جريدة "المؤيد" في مصر والمحرر في جريدة "ثمرات الفنون" ومراسل جرائد "التقدم" و"لسان الحال" و"الأهرام" من الأستانة حيث اشتغل في المحاماة مدة طويلة، والكاتب نجيب بن نسيم رئيس تحرير جرائد "المحبة" البيروتية و"باريس" و"نهضة العرب" الباريزيتين و"الجديد" البرازيلي ومساعد الدكتور نقولا فياض بتعريب رواية "الخداع والحب" لشلر الألماني والمحامي بترو بن اسكندر أحد مؤسسي "جمعية الإصلاح العمومية" ونجيب بن نعمه عضو مجلسي الإدارة والملة وشقيقه ميخايل عضو محكمة وغرفة التجارة. ونقولا بن يعقوب عضو المجلس العمومي وحنا بن شكور مضيف الأمراء والحكام،

ومتري مدير البنك العثماني في حلب وقونية وبيروت وشقيقه سليم الموظف في عدة مأموريات حتى عضوية الاستئناف وهما شقيقا "نجيب" صاحب هذه السيرة.

ومن فاضلاتهم وأديباتهم السيدة فريدة بنت اسحق طراد، مديرة مدرسة "زهرة الإحسان"، ورفيقة حياة رئيستها الأخت مريم جهشان في الجهاد لتعليم البنات وتهذيبهم والسيدة أدما ابنة جرجي بن حبيب طراد وشقيقة أنيس بك المالي المدقق وزوجة اليأس بك سرسق ورئيسة جمعية السيدات لمساعدة مستشفى القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس ونصيرة الجمعيات الخيرية، والسيدة ميليا ابنة فارس بك رئيسة المدرسة الوطنية في الشويفات ذات العناية بتهذيب الأحداث، ومنهن شقيقتا نجيب بن نسيم المأسوف على صباهما "حنينة وسلمى" وقد كانتا من خيرة الذكيات المستعدات. كتبت سلمى في بعض الجرائد كالنصير وغيرها وخطبت في الدفاع عن حق المرأة وهيأت نفسها بالدرس والاستطلاع إلى مستقبل مجيد. ولكن المنية عاجلتها في ضواحي باريز قبل أن تبلغ العشرين، فأقامت لها إدارة مجلة "الحسناء" حفلة تذكارية في شباط سنة ١٩١٠ في "النادي العائلي البيروتي" حضرها مائتان وخمسون نفسًا، فافتتح الحفلة واختتمها كاتب هذه السطور وتكلم فيها: فكتور شميل سكرتير النادي وفليكس فارس منشئ "لسان الاتحاد" وجرجي عطية صاحب "المراقب". وشبلي بك ملاط منشئ "الوطن" والدكتور إلياس عبيد عضو المجلس العمومي وإلياس حنيكاتي كاتب مطرخانة الروم. والأوانس جوليا طعمة وروز ناصيف والأميرة نجلا أبي

اللمع، وناب بالتكلم عن داود مجاعص صاحب جريدة "الحرية" أمين بك خضر وعن قسطنطين بنى رئيس تحرير "حمص" بترو باولي مدير "الوطن والمراقب" وما خلت جمعية خيرية أرثوذكسية من عضو أو عضوين من آل.

نشأته

ولد نجيب بن إبراهيم بن متري طراد في بيروت في منتصف شهر كانون الأول سنة ١٨٥٩ وطلائع الاضطراب الأهلي في سوريا على وشك الظهور، تغذى جنينًا دم الارتياع. وفي عام الاستعداد للشر أبصر نور الوجود فرضع الحليب يكاد يحمر ونشق النسيم ممزوجًا برائحة الدم وما بدأ يميز بين الأصوات حتى بلغ أذنيه صليل السيوف ودوي الرصاص وأول كلمات فهمها عويل الثكالى وصياح الأيتام إذ تموج الهواء بهذه الأنغام من لبنان وحاصبيا والشام، ورأى في طفولته المنكوبين يتوافدون إلى المدينة فرارًا من المذابح وهم بحالة يرثى لها رعبًا وجوعًا، فبقي في نفسه أثر من فظائع البشر رافقه في حياته إلى الممات، فكانت عبارته الأخيرة في نزعه الأخير "الإنسانية معناها السلام ليعش الإنسان بسلام ليكون إنسانًا".

ونشأ في بيت فضل أراد ربه تنشئة بنيه على الحرية والاستقلال، فشب نجيب حرًا مستقلًا وارثًا أطيب الخلال وكان ذكيًا، قوي الذاكرة،

سريع الخاطر، تلقى مبادئ العربية في مدرسة القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس.

وفي التاسعة من عمره، دخل مدرسة الآباء اليسوعيين ومكث فيها سنة واحدة ثم انتقل إلى مدرسة كنيسة اسكوتلاندا المعروفة باسم رئيسها "ستيكر" فمدرسة الانكليز على عهد مستر "موط". وقبل أن يتجاوز عمر البدر، غادر المدارس إلى التجارة فاشتغل في محلين في الثغر وفي الشام ولم يطل عليه الأجل تاجرًا، بل عاد إلى العلم وانصب على الدرس والمطالعة وشرع يزاول الإنشاء بمقالات مختلفة. ودعي إلى حمص فعلم في إحدى مدارسها ثم دعاه زعيم البابيين "عباس بن بهاء الله" إلى عكا لتعليم أولاده فأقام في منزله مدة تعلمهم. وإذ رأى مجال التقدم ضيقًا على مواهبه في هذه البلاد غادرها إلى الإسكندرية حيث حرر في جريدة الأهرام تحت إدارة منشئيها سليم بك وبشارة باشا تقلا وتعين كاتبًا في إدارة سكة الجديد المصرية وبعد ذلك توظف في وزارة الحرية في مصر. ومن أعماله المأثورة فيها تعيينه ترجمانًا لعرابي باشا في محاكمته بعد الفتنة المشهورة التي احتل الانكليز بسببها وادي النيل وتعليمه ونجت باشا الانكليزي لغة العرب وقد حضر الحوادث العرابية واستطلع جميع أحوالها ولم يخش منها بادرة الاغتيال. كما أنه لم يرهب الهواء الأصفر إذ فتك بالمصريين ولا جنح إلى الهرب، بل ثبت في مواقفه على أشدها خطرًا عليه ولم يترك مركزه أملا بالترقي، ولكنه إذ رأى حقه مبخوسًا وترقيه بسلك الوظائف غير عادل إثر الاستقالة على البقاء وعاد إلى بيروت بعد أن رفضت الوزارة استقالته وولاها ثلاث مرات.

رجوعه إلى بيروت

وشرع هنا يدرس الطب في الكلية الفرنسوية ولكنه لم يكمل درسه وقد أبدى من الذماء والاجتهاد ما دعى عمدة الكلية للإعجاب به والاهتمام بأمره حتى أنها قررت تعليمه مجانًا فيها وحرضته على إكمال الدرس بلا بدل. ومع كل هذا التنشيط والموآزرة أبى إلا أن يتركهم واقتصر على تعلم الحقوق وإتقان اللغات، فباشر بالألمانية وأتقنها مع الفرنسية والانكليزية والعربية وألم بالايطالية والتركية وكان أستاذه بلغة الألمان خليل الشماس مترجم "تاريخ حرب الانكليز والحبش" تأليف ثيوفيل ولدمير مؤسس بيمارستان العصفورية قرب بيروت. ولكنه لم يدرس عليه إلا شهرًا واحدًا إذ اكتفى بأن يحصل بنفسه دون أستاذ جميع ما حصل وكان اجتهاده موافقًا لذكائه وتدقيقه ملائمًا لمطامعه وكانت رغبته في الاستفادة واسعة المدى والأهم له إلا الدرس والاطلاع ومع تعمقه في اللغات تعلم "الفرائض" جيدًا ودرس الحقوق على نفسه أيضًا وغير في ستة أشهر كود (مجموعة قوانين) نابليون الأول.

وألف تاريخ مقدونيا والممالك التي انفصلت عنها ونشره مطبوعًا سنة ١٨٨٦ بنحو مئتي صفحة وتاريخ الرومانيين من بناء رومية إلى تلاشي الحكومة الجمهورية نشره بزهاء مائتين وثلاثين صفحة في السنة ذاتها وخص الجزء الثاني منه بتاريخ سلاطين رومية ولم يطبعه. وكتب رسالة انتقادية في عادات معاصريه وناظر جريدة "ثمرات الفنون" مناظرة قوية الحجة سديدة البرهان وحرر في مجلة "الصفا" عام ١٨٨٧ على

عهد مديرها جرجي غرزوزي ونشر فيها قسمًا من تأليفه تاريخ الدولة الرومانية الشرقية وهو الجزء الثالث من تاريخ الرومانيين وتعريبه لمختصر تاريخ الفلسفة عدا النبذ والمقالات العديدة وتولى بعدها تحرير جريدة "التقدم" إذ كان يديرها اسكندر طاسو فقرظتها مجلة الصفا بقولها "رأينا فيها ما يحلها محلًا رفيعًا ويشف عن غزارة فضل المحرر وسعة اطلاعه".

وعرب عن الفرنسية رواية "اليهودي التائه" تأليف "أوجان سو" ونشرها مطبوعة بأكثر من ألف وأربعمائة صفحة بمجلدين وهذه الرواية مشهورة في العالم لكثرة اللغات التي ترجمت إليها عربها بسرعة زائدة وهو محاط بأشغال مهمة، ومع ذلك أحسن تعريبها ووافق فيه الأصل ومثلها رواية "عثليا" عربها حرفيًا عن الشاعر راسين ونظمها شعرًا واحد وعشرين يومًا. ولسبب مجهول أحرقها دون أن تطبع أو تمثل وعرّب عن الانكليزية رواية "العبر" و"حداثة هنري الرابع". ولعل هذه رابع رواية طالعها في حداثته كاتب هذه السطور

وتعين عضوًا في محكمة بداية الولاية وكان شأنه في سكة الحديد ووزارة الحربية في مصر مثال الأمانة والنزاهة، وإذ رأى الفساد متمكنًا من الحكومة ويستحيل عليه الثبات في منصبه دون تزلف ومداجاة ووجد مبادئه تكاد ترزح تحت أثقال الظلم واستقلال وجدانه معرضًا للضرر، هجر الوظيفة مستقيلًا بعد أن عانى عداء المستبدين وفضل الانزواء في البيت على الظهور في السراي.

ولم يمكث بعد استقالته طويلًا حتى سافر إلى الإسكندرية فحرر في جريدة "البصير" وانشأ جريدة "الرقيب" سنة ١٨٩٨ وأصدرها بضع

سنوات بأسلوب حسن ومبدءا حر. ثم تركها لعهدة شريكه جرجي الغرزوزي مدير "الصفا" سابقاً وذهب إلى الأستانة فمرسيليا ورجع إلى بيروت واستقر فيها بقية حياته وفي أثناء وجوده في الإسكندرية دعاه تلميذه ونجت باشا حاكم السودان ليوظفه في حكومته وظيفة تليق به. فلم يرضَ بسبب الحر السوداني المشهور. وبعد ان عزم على طبع كتاب ألفه في "الحضارة والقانون" عدل عن عزمه. وقد عرب روايات "المتمولة الحسناء" و "خليلة هنري دي نافار" و "وقائع رنيه" و "الملكة كاترين" و "حصار باريز" و "ملكة النور" و "حبائل الشيطان" و "العاشق الروسي" ونشرها إلا الأخيرتين في "الرقيب" وطبعها كلها كتباً على حدة. ولاحظ طبع النبذة من ديوان اسعد طراد وذيلها بكلمة فيه.

الرجوع الأخير

ولازم بعد رجوعه بيته واعتزل فيه عن الناس تفرغاً للدرس والاطلاع إلى إن توعكت صحته واستولى عليه الضعف. فانتقل من دنياه في ٢٢ نيسان سنة ١٩١١ ودفن في مقبرة القديس ديمتريوس بمأتم حافل شيعه فيه عارفو فضله. وقد رثاه الياس خنيكاتي كاتب مطرانخانة الروم بهذه الأبيات:

جزعت من سكوتك الكتاب ... قبل هذا السكون والآداب
وبكاك الوفا بدمع سخين ... ورثاك الخلان والأصحاب
لم يشأ بعدك (الرقيب) ظهوراً ... إذ تولاه مثلك الاحتجاب

وعـرى ذلـك (التقـدم) صـمت　　حـين لـم يبـق فيـه منـك خطـاب
وجـرى مـدمع الصـحافة حزنًـا　　وشـكت فـرط شـجوها الأعـراب
يـا لهـا سـاعة رأينـاك فيهـا　　فاقـد الحـس لانـدا لا جـواب
لا خطـاب يعيـه سـمعك منـا　　لا يـراع تهـزه لا كتـاب
أن خطبًـا دهـاك فـي يـوم عيـد　　هو خطب قد ضاع فيـه الصـواب
وغشـت شمسـه غيـوم غمـوم　　وعـرا النـاس وحشـة واكتئـاب
أي فقيـد الآداب كـم لـك فيهـا　　مـن أيـاد تجلهـا الكتـاب
وتـأليف سـائغات المعـاني　　ثملـت مـن رحيقهـا الألبـاب
في طراد العلـوم كنـت المجلـي　　لـيس تثنيـك يـا نجيـب صـعاب
كنـت قبـل الدسـتور حـرًا أبيًـا　　ناشـرًا رايـة السـواد لا تهـاب
جاهـدًا فـي نفـع الـبلاد بـنفس　　حـرة ملوءهـا غنـي وشـباب
فـإذا لـم تنـل ثوابـك فيهـا　　فلـك الأجـر فـي السـما والثـواب
الهـم الله آلـك الغـرّ صـبراً　　وسـقى رمسـك الكـريم السـحاب

وكان نجيب أبيَّ النفس حر الشمائل صادقًا مستقيمًا لا يخلو مجلسه من نكتة أو مباحثه ولا يمل عشيرة أنسه ولطفه، وعى رأسه معارف واسعة وآداب غزيرة. ومع وفرة اشتغاله باللغات الأعجمية ظل إنشاؤه محضًا عربيًا ولديه في كل حين براهين تؤيد رأيه وهو أول صحافي عربي تعمق في اللغة الألمانية وعرب عنها. ولعله الوحيد بذلك بين صحافيي لغة العرب وله قصائد ومقاطيع عديدة من الشعر مع عدم رغبته

فيه نكتفي بذكر بعض منها للدلالة على شعره، فمن ذلك تقريظ لرواية "ألم الفراق" تأليف سليم جدي أحد كتاب بيروت وشعرائها المجيدين عندما تمثلت سنة ١٨٨٨:

سـحرتنا روايـة أذكرتنـا　　بهجة العلم في العصور الشهيرة
نسـجتها يراعـه ابـن جـدي　　حـدث طـاب سـيرة وسـريره
أودع اللفـظ كـل معنـى لطيـف　　شـفَّ عـن جـودة ونفـسٍ كبيـره
فهـي مـرآة قلبـه عكـس العلـم　　عليهـا نـور الـذكا والبصـيرة

ومن قوله في رثاء سليم المشار إليه:

أنـت بـالطبع شـاعر عربـي　　نظـم الشـعر منـذ كـان صـبيًّا

وقوله في خزان مصر سنة ١٨٩٨:

نيـل مصـر يجـري معينًـا فيجـري　　منـه خصـب تحيـا بـه السـكان
إنمـا النيـل للـبلاد نضـار　　ولحفـظ النضـار ذا الخـزان

ومن شعره تاريخ لضريح إسحق طراد المشار إليه:

بنـو طـراد بكـوا شـيخا تـلألأ فـي　　معـالم المجـد بالإحسـان والجـاه
قاسـى البلايـا كأيـوب وهمتـه　　مـالا يقـاس بأمثـال وأشـباه
قد انحلت جسمه التقوى وديدنه　　إلا يعزيـه فـي بلـواه إلا هـي
والله قـال لـه أرخ علـى عجـل　　ضـحيت نفسـك يـا إسـحاق لله

(جرجي نقولا باز)١٨٨٧

(٢٥)

شاكر شقير

مترجم روايات مجلة "ديوان الفكاهة" في بيروت ومنشئ مجلة "الكنانة" في القاهرة وأحد أعضاء "الجمعية العلمية السورية"

هو شاكر بن مغامس بن محفوظ بن صالح شقير. ولد سنة ١٨٥٠ في "الشويفات" بلبنان ودرس فيها مبادئ العلم على يوسف أبي ناصيف ثم انتقل إلى مدرسة الروم الأرثوذكس في "سوق الغرب" وكانت بإدارة الدكتور يوسف عربيلي، فأحكم معرفة اللغتين العربية والفرنسية وشيئًا من اليونانية على الأساتذة إسبر شقير قنشليار قنصلية انكلترا حاليًا في بيروت وإلياس مالك الخوري أحد أعضاء مجلس إدارة لبنان هذا وشاهين عطية الذي انتقل في ٨ شباط ١٩١٣ إلى رحمته تعالى. وبعد خروجه منها جاء بيروت وصار يتردد على الشيخ ناصيف اليازجي فأخذ عنه فن القريض حتى برع فيه كما سيأتي الكلام.

وفي عام ١٨٦٧، انتدبه السيد ملاتيوس دوماني، مطران اللاذقية، وعهد إليه بإدارة المدرسة الأرثوذكسية فأقام هناك سنة واحدة ثم عاد إلى بيروت فتعين أستاذًا في مدرسة "ثلاثة الأقمار" و"المدرسة الوطنية"، فتخرج على يده كثير من التلامذة النابغين. وفي سنة ١٨٦٨ انتظم في سلك أعضاء "الجمعية العلمية السورية" فكان من أهم أركانها. ولما باشر بطرس البستاني وأنجاله سنة ١٨٧٥ تأليف "دائرة المعارف" اشتغل فيها

شاكر شقير مدة عشر سنين متوالية، فأنشأ لها الفصول المفيدة ونشر على صفحاتها كثيرًا من المواد التي كان يترجمها من الانسكلوبيذيات الإفرنجية وكان في الوقت نفسه يحرر في مجلة "الجنان" مقالات بعضها موقع باسمه وأكثرها خالٍ من توقيعه وله مثل ذلك في صحف أخرى.

وفي سنة ١٨٨٦ انتدبته إدارة مجلة "ديوان الفكاهة" لترجمة ما كان ينشر على صفحاتها من الروايات الفرنجية، فلبث على هذه الحال ثلاث سنين وبقى في بيروت يخدم المعارف بالتعليم والتأليف والصحافة حتى ضاق في وجهه سبيل الارتزاق بسبب شدة التضييق على حرية المطبوعات في السلطنة العثمانية، فسافر سنة ١٨٩٥ إلى عاصمة وادي النيل حيث أنشأ مجلة نصف شهرية سماها "الكنانة" التي أودعها كثيرًا من المقالات العلمية والروايات التمثيلية والقصص الأدبية والانتقادات اللغوية وفنون الشعر وغير ذلك من المباحث الجليلة. وبعد صدور عشرة أعداد منها عطلها لأن هواء مصر أضر بصحته التي كان قليل العناية بها، فذهب إلى مسقط رأسه حيث اشتدت عليه العلة ومات في شهر تشرين الأول سنة ١٨٩٦.

ويحسب شاكر شقير من نوابغ حملة الأقلام السوريين في أواخر القرن التاسع عشر؛ فقد كان حجة في معرفة لغة العرب وأحوالهم وتواريخهم وعلومهم وترك مؤلفات كثيرة تشهد بطول باعه في المعارف وتفننه بالكتابة نذكر منها: كتاب "لسان غصن لبنان" في انتقاد العربية العصرية وكتاب "أساليب العرب في صناعة الإنشاء" وكتاب "مصباح

الأفكار في نظم الأشعار" وكتاب "منتخبات الأشعار"، وباشر تأليف معجم في اللغة العربية لم يفسح له الأجل بإتمامه وله "أطوار الإنسان في أدوار الزمان" وهي مقالات هزلية جدية فكاهية أدبية تنطوي على مقاصد حكمية وترجم "آثار الأمم" للكاتب الفرنسي فولني وعني بطبع "ديوان أبي العلاء المعري" وكرر طبعه وألف وعرَّب روايات كثيرة منها تمثيلية ومنها قصصية لا ينقص عددها عن الثلاثين، وأشهرها: "أسرار الظلام" وهي تاريخية أدبية ورواية "العيلة المهتدية" وهي تمثيلية لتهذيب البنات مثلت عام ١٨٧٢ في مدرسة الثلاثة الأقمار ومنها "الشجاعة الحقيقية" و"كنيسة الحرش" و"اللحام وابنه" و"الورد والنسرين" و"الصبية الخرساء" و"الابن الوفي" و"الولد الصياد" و"الزوجة المضطهدة" و"أنيسة الصغيرة" و"البيضة الثمينة" و"الكنار" و"اليتيمية المسكوبية" و"الغلام الحبيس" و"جزاء الخلوص" و"الولد الشريد" و"الأمير الصغير" و"فضل إكرام الوالدين" و"فريد ورشيد" ثم "الفتاة التقية والفتاة الشقية" و"اليتيم المظلوم" ورواية "ذي الضرتين"، وغيرها.

وتعاطى فن الشعر في أول صباه، فنظم سنة ١٨٧٠ أرجوزة في المعاني والبيان وسنة ١٨٧٢ نظم بديعية وشرحها شرحًا موجزًا وألحقها بالأرجوزة المذكورة ومن شعره النفيس قصيدة "الهلال" التي نظمها وهو ابن عشرين سنة تبريكًا لإسماعيل باشا خديوي مصر بوسام مرصع أهداه إليه إمبراطور النمسا وقد التزم في كل صدر من أبياتها تاريخًا هجريًا لسنة ١٢٨٧ وفي كل عجز تاريخًا مسيحيًا لسنة ١٨٧٠ ووزع على أوائل الأبيات حروفًا إذا جمعت يتركب منها بيتان يتضمنان عشرة تواريخ: أربعة

هجرية وذلك من الحروف المهملة من كل بيت منهما ومن الصدرين ثم من العجزين وستة مسيحية وذلك من الحروف المعجمة من كل بيت ومن الصدرين ثم من العجزين ثم من صدر لعجزتم من عجز لصدر وقد جعل الأبيات المصدرة بحروف البيت الأول نسيبًا والأبيات المصدرة بحروف البيت الثاني مديحًا. أما البيتان فهما:

أدركت بالله مجدًا أنت رافعه   الباني ذراه ففي إدراكه رهج

فدمت تعلو بأوج السعد أكرم   نسل رفده منه أكد مصر تبتهج

وبعد هذه القصيدة نظم "المحبوكات" أي من الشعر المحبوك الطرفين جاريًا فيها على طريقة الصفي الحلي في ارتقياته وهي تسع وعشرون قصيدة كل قصيدة منها تسعة وعشرون بيتًا على عدد حروف الهجاء. يبتدئ البيت منها بالحرف الذي ينتهي به على ترتيب الحروف من الهمزة إلى الياء وسماها "الذهب الإبريز في مدح السلطان عبد العزيز" وقد صدر هذه القصائد بهذين البيتين المبتكرين في صناعة التاريخ إذ لم يسبق أحد إلى مثلهما:

بشر السنا. في جلا شكر. جنى شرفًا   في عصر صدق. بنشر النجح. عد مثل

قد قمت مرجاة. مرتدٍ. لنشر ندى   تسعى لأجمل. أجرٍ تم. ثم عدل

وهما مركبان من خمسة وثمانين حرفًا ويتضمنان خمسة وثمانين تاريخًا هجريًا لسنة ١٢٨٨ تستخرج بالطريقة الآتية: ترى أن البيتين مقسومان بالنقط إلى ثلاثة عشر قسمًا، فكل قسم منهما مع آخر مما

سواه تاريخ، فيحصل من الأول إذا جمع مع كل واحد مما بعده اثنا عشر تاريخًا.

ومن الثاني مع كل واحد مما بعده أحد عشر تاريخًا ومن الثالث مع كل واحد مما بعده عشرة تواريخ وهكذا حتى تنتهي إلى الثاني عشر فتجمعه مع الأخير فيحصل من كل ذلك ثمانية وسبعون تاريخًا ثم تجمع كل ثاء في البيتين وكل ألف وكل عين فيحصل تاريخ. وتجمع كل جيم وكل باء (بالصورة) والكاف الوحيدة وكل نون فيهما مع كل شين في أول شطر فيحصل تاريخ وتجمع كل راء فيهما والشينين الباقيتين وميمات العجزين ودالات البيت الأخير فيحصل مجموع تاريخين وتجمع كل تاء في الشطر الثالث وميمين منه وكل دالٍ في الشطر الثاني فيحصل تاريخ وتجمع كل لام فيهما والميم الباقية في الشطر الثالث وكل قاف فيه وكل تاء وجيم وألف في الشطر الرابع فيحصل تاريخ. وتجمع كل فاء وكل سين وكل ياء فيهما وكل صاد وقاف وحاء وياء في البيت الأول مع راء وجيم في صدره فيحصل تاريخ. ويكون مجموع تواريخ جمع الأحرف على النسق المذكور بدون إهمال حرف واحد ولا تكرار حرف سبعة تواريخ. ومجموع الجميع خمسة وثمانين تاريخاً وهذا من الاتفاقات الغريبة. ولشاكر شقير رواية صنفها سنة **١٨٦٩** عنوانها: "سيرة مبارك بن ريحان مع محبوبته بنت الحان" وهي رواية غرامية أدبية علمية وضمنها أبياتًا معجمة[٦]وأبياتا خيفاء[٧]وأبياتا رقطاء[٨] وأبياتا ثلاثة من عاطل

---

(٦) كل حروفها منقطة

(٧) التي منها كلمة مهملة وكلمة معجمه

العاطل[٩] عارض بها أبيات الشيخ ناصيف اليازجي الذي ابتكر هذا النوع في فن الشعر وهي:

حلو وصلٍ هل له للصد حد ولحر حوله هل حل طرد
صدره للصد حر دهره وصدود هل له وطد ود
ولوصل لحصور طل در ما له هول وهل للهول ردُّ

وله من الجناس المربع هذه الأبيات التي تقرأ طردًا ثم تقرأ بنفس الألفاظ من أول كلمة من كل بيت فيتألف الأول وهكذا الثاني وهكذا ما يليها كما ترى أمامك:

رأيت	حبيبي	فزاد	هيامي
حبيبي	جفاني	اشتياقي	أمامي
فزاد	اشتياقي	وهاج	غرامي
هيامي	أمامي	غرامي	مرامي

وله غير ذلك من الفنون الشعرية والأساليب الكتابية التي برَّز فيها ففاق على كثيرين من نوابغ المنشئين والمؤلفين. وقد نظم الأشعار التالية عندما عرب مختارات من حكايات لافتين:

---

(٨) التي حرف منها مهمل وحرف معجم

(٩) عاطل العاطل هو الذي لا نقطة في اسمه ولا مسماه كالدال والصاد دون العين والسين وما شاكل ذلك. وليس من ذلك إلا ثمانية حروف وهي: الحاء والدال والراء والصاد والطاء واللام والهاء والواو. فلا يسع التكلم إن يركب منها كلاماً كثيراً

أتحفتم الشرق يا إفرنج من زمن ... بكل فن كثير النفع والطلب
ما بين علمٍ وآداب ومخبرةٍ ... مما بقي غامضاً في سالف الحقب
من بعد آثارنا في المشرق اشتهرت ... آثاركم فاستدناها بلا تعب
من ذاك ما جاء لافنتين من حكم ... بشف برقعها الهزلي عن الأدب
إن كان أبدع في ذا الفن شاعركم ... فلا يقصر عنه الشاعر العربي

وكان مولعًا ببعض الفنون الجميلة أيضًا، فإنه أحكم أصول فن الموسيقى، فأحرز منه نصيبًا وافرًا وكان شديد الذكاء سريع الخاطر ينظم الشعر ارتجالًا بلا تكلف ولو جمعت أشعاره في ديوان مخصوص لبلغت نحوًا من مجلدين ضخمين، على أن بعضها منشور في المجلات والكتب ولم يزل أكثرها غير مطبوع وقد رثاه أخوه فارس شقير بقصيدةٍ عصماء نورد منها بعض أبيات:

لهفي عليه أخا جرحت به ... جرحاً بليغاً غير مندملٍ
فالشمس كاسفةٌ عليه أسى ... والأرض كاسيةٌ دجى حللِ
والعين عين الفضل داميةٌ ... والزند زند النبل في شللِ
أسفا على نبراس ليلها ... حزناً على ابن العلم والعملِ
عبثت به الأقدار غادرة ... واستحكمت منه على عجل
ولو أنه استوفى مقاصده ... وأمهلته فسحة الأجل
لأتي بما لما لم يأته بشر ... في علمه من جلة الأول

كم خاض ميدان الهدى ظفرًا ... ببراعــةٍ أمضــى مــن الأســلِ

وضـع التـأليف التـي خلصـت ... مـن غلطـةٍ نـدرت ومـن خلـلِ

ولــه رســائل كلهــا غــرر ... يحكـى ترسـلها هـدى الرسـل

ولـه المقـالات التـي ذهبـت ... فـي كـل نـادٍ مـذهب المثـل

فالشـعر مثـل النثـر يرسـله ... سـهلاً بـديعاً غيـر منتحـل

فيصـيب فيـه وهـو مرتجـل ... وسـواه يخطـئ غيـر مرتجـل

والنثـر مثـل الشـعر يرصـفه ... جمـلا مرصـعة علـى جمـلِ

يـا شـكرا لله منـتقلا ... عنـا إليـه خيـر منتقـل

أعنـاك ربـك بالأمـان وقـد ... غـادرتني فـي ظلمـة الوجـل

الباب الثالث

أخبار الصحف في سائر البلدان العثمانية خارجًا عن مدينة بيروت

(١٨٧٠- ١٨٩٢)

الفصل الأول

جرائد القسطنطينية ومجلاتها

السلام

اسم لجريدة أسبوعية سياسية أدبية. ظهرت في ٢٣ تموز ١٨٧٩ لصاحبها جبرائيل بن عبد الله دلال الحلبي، فأطلق فيها العنان لنفثات قلمه السيال وألبسها حلة قشيبة من نسيج يراعه العسال وقد أنشأها بإيعاز من الصدر الأعظم خير الدين باشا التونسي الذي كان ينشر بها آراءه السياسية ويذيع على صفحاتها أفكاره في طرق الإصلاح، فاشتهر أمرها وعرفت أنها لسان حال الصدر الأعظم المشار إليه. وبعد ظهور العدد الثامن منها تركها الدلال لرجل يسمى عبد الله خالص فانصرفت عنها الأفكار لركاكة عباراتها وقطع خير الدين باشا عنها المدد فانقرضت. وعلى سبيل المثال نورد الفقرة الآتية التي نشرت في العدد ١١ للسنة الأولى عن الخديوي إسماعيل باشا وهي بالحرف الواحد:

"لحد الآن ما تحقق إن كان إسماعيل باشا يبقى في هذا الشتاء مقيمًا في نابولي أو يأتي إلى دار السعادة أو لمكان آخر. وإذا جاء إلى دار السعادة لا يسكن داره التي في (أمريكا) لأنها منذ مدة صارت مختصة بالحكومة المصرية، حتى أنها عينت للذين مقيمين فيها من الخدمة والمأمورين معاشًا مع ما يلزم لأجل مصاريف تعميرات لها ثمان

آلاف ليرة. فبناء عليه يقتضي له أن يشتري دار رفعت باشا التي هي في الخليج لأنها كبيرة أو دار سعيد باشا الكائنية في (البك) ويعمرها ولقد سمعنا أنه أرسل له من مصر بابورًا مشحونًا أشياء وما بني رأسًا من الخيل وأن حريمه الثالثة لم تزل مريضة"

مدرسة الفنون

عنوان مجلة علمية فنية ظهرت في ٢٥ كانون الأول ١٨٨٢ (١٥ صفر ١٣٠٠) لمنشئها حميد وهبي، فكانت تصدر في الشهر مرتين وتنشر مقالات مفيدة تنشيط المعارف وتريج الفنون على اختلاف أنواعها وقد لاقت نصيرًا كبيرًا في وزارة المعارف العثمانية التي اشتركت فيها بنسخ شتى تعزيزًا لشأن العلم بين الرعية واحتجبت هذه المجلة في السنة الثانية من عمرها.

الاعتدال

جريدة أسبوعية سياسية برزت في ٢٩ آب ١٨٨٣ (٢٦ شوال ١٣٠٠) لصاحب امتيازها ومحررها أحمد قدري ترجمان اللغة العربية في الباب العالي والكاتب الثاني للسلطان عبد الحميد، فقرظها أحد أدباء العرب نزيل الأستانة حينئذ بهذين البيتين مؤرخًا:

سـرنا نشـر الاعتـدال الجديـد إذ أتانـا بكـل قـول سـديد
قـال عنوانـه لراجيـه أرخ يشـكر الاعتـدال سـعي الحميـد

سنة ١٣٠٠ هجرية

وقد وافق ظهور هذه الجريدة لدى أفول نجم "الجوائب" التي قضت أثقال الشيخوخة على صاحبها بإهمال صحيفته والسفر إلى القطر المصري، فأراد أحمد قدري أن يقتدي بأحمد فارس الشدياق الذي نال القدح المعلي بين الصحافيين بالعلم والجاه والسياسة والمال وأحرزت جريدته حينئذ السيادة المطلقة على سائر السيادة المطلقة على سائر الصحف العربية في العالم بأسره ولكن التوفيق لم يخدم منشئ "الاعتدال" كما خدم صاحب "الجوائب" في جميع أدوار حياته وعاشت جريدة "الاعتدال" خمس سنين وتعطلت بسبب مرض صاحبها ووفاته. وفي الإجمال كانت عبارتها صحيحة ولهجتها معتدلة تذيع الأنباء الداخلية والخارجية بكل صدق وكانت ميدانًا تتبارى فيه أقلام الكتاب بالمباحث الشعرية والعلمية والأدبية والاجتماعية مثل أحمد عزت باشا العمري الفاروقي والشيخ إبراهيم الأحدب وأبي النصر يحيى السلاوي والشيخ عبد الحميد الرافعي وغيرهم من أعلام الجهابذة وقد حرر فيها حسن حسني باشا الطويراني مددًا كثيرة لا سيما في أول عهد نشأتها.

الإنسان

مجلة وجريدة

الإنسان هي مجلة دينية علمية فنية صناعية زراعية أدبية أخلاقية. ظهرت بتاريخ ٢٨ أيار ١٨٨٤ (غرة شعبان ١٣٠١) لصاحب امتيازها حسن حسني باشا الطويراني، فكانت تصدر في الأسبوعين مرة في ٢٤

صفحة مكتوبة بعبارة بليغة وطافحة بالمقالات الطويلة لاسيما الدينية منها ونشرت على صفحاتها كتاب "النسر الدهري" بقلم منشئها الفاضل. وقد عاشت إلى ١٥ جماد الآخر بعد ما صدر منها ١٩ عددًا واحتجبت لأسباب استدعتها الأيام. وفي ٥ جماد الثاني ١٣٠٣، عادت إلى الظهور أسبوعية بشكل جريدة مؤلفة من ثماني صفحات متوسطة الحجم ناصحة لأبناء العصر بما أوتيه صاحبها من الحكمة وروح العرفان. ومن أهم منشوراتها "مقامات الحسن" ثم "التهذيب الإلهامي في خدمة الدين الإسلامي" بقلم منشئ الجريدة وغير ذلك وقد عطلها صاحبها في سنة ١٨٩٠ عندما سافر إلى القطر المصري ليسكن فيه وهناك أصدر صحفًا كثيرة سنأتي على ذكرها في أماكنها وفي ترجمة حاله.

كوكب العلم

مجلة أسبوعية صغيرة الحجم ذات ٣٢ صفحة. صدرت في ١٣ كانون الثاني ١٨٨٥ (٢٣ صفر ١٣٠٢) لصاحب امتيازها ومحررها نجيب بن نادر صوايا اللبناني وقد رسمت اللفظة الأولى من اسمها بشكل "كوكب" داخلة فيه اللفظة الثانية أي "العلم" وهو فكر مستمد من جريدة "كوكب الصبح المنير" البيروتية للمرسلين الأمريكيين وكانت تبحث في العلوم والفنون والصنائع وكافة المعارف بعبارة قريبة المنال خالية من التعقيد. وتعميمًا للفائدة قد جعل لها منشئها قسمًا تركيًا مستقلًا لا يقل عن القسم العربي بعدد صفحاته وجودة مباحثه.

ومن مميزات هذه المجلة أنها كانت تدافع عن النساء وتحافظ على حقوقهن في كل جزء من أجزائها تحت عنوان: "أبكار الأفكار في أفكار الإبكار" ونظن أنها المجلة العربية الأولى التي تصدت قبل سواها للمباحث النسائية وخصصت لها بابًا مستقلًا. وقد اطلعنا في جزئها الثالث على البيتين المشهورين اللذين نظمتهما "الولادة بنت المستكفي بالله العباسي"، فشطرتهما حفيدتها الشاعرة البليغة "م . هـ"التي لم نتوفق إلى معرفة اسمها قالت:

لحاظكم تجرحنا في الحشا	من بعد ما صالت رماح القدود
فقلبنا يخشاكمو رهيبةً	ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا	واستعملوا الرفق وراعوا الحدود
جميعنا يطلب ثأر الهوى	فما الذي أوجب جرح الصدود

السلام

صحيفة سياسية أسبوعية أنشأها الحاج صالح الصائغي سنة ١٣٠٢ هجرية (١٨٨٥ مسيحية)، فعاشت وقتًا قصيرًا لأسباب مالية قضت على صاحبها بتعطيلها وقد تولى تحريرها في المدة المذكورة حسن حسني باشا الطويراني منشئ جريدة "الإنسان" السابقة الذكر. وقد أرخ ظهورها إبراهيم بك كرامة نجل الشاعر المعلم بطرس كرامة الحمصي بهذين البيتين:

نشـرت صـحيفتنا السـلام ونشـرها قـد طـاب يـا اهـل الوفـاء لـديكم
إن ضـن بـالخبر الصـحيح ومـؤرخ يتلــو حوادثــه الســلام علكــم

وقد أخطأ قسطاكي بك حمصي بنسبته هذه الجريدة لخاله جبرائيل دلال بدلًا من جريدة "السلام" الأولى التي ذكرها. يتضح ذلك من تاريخ البيت المنشور أعلاه إذا جمعت أرقام حروفه الأبجدية فاقتضى التنويه والتنبيه. (راجع كتاب "السحر الحلال في شعر الدلال" صفحة ٢٢)

الحقائق

مجلة أسبوعية ظهرت في ٨ كانون الأول ١٨٨٥ (غرة ربيع الأول ١٣٠٢) لأبي النصر يحيى السلاوي ، وكانت تشتمل على المباحث العلمية والأدبية والمطالب الدينية والدنيوية لاسيما العقليات وما جرى مجراها كالحكمة وأقسامها والحكم وأحكامها والتمدن وملحقاته والآداب العمومية والمنتخبات الصناعية والمواعظ العامة والنصائح الخاصة والفنون المفيدة، وأضاف إليها منشئها ما يتعلق بجميع ذلك من الحدود والتعريفات بحسب الموضوعات والمصطلحات على اختلاف المذاهب والمشارب والمعتقدات قديمة كانت أو حديثة وطنية أو أجنبية وكان الغرض الأول من نشرها تبادل الأفكار مع أرباب الصحف العثمانية فيما يؤول إلى تعميم المعارف وتنشيط الصنائع بين أفراد الأمة ويحسب أبو النصر يحيى السلاوي من أكبر شعراء عصره وأبلغ كتاب زمانه. فإنه خلف آثارًا نفيسة تشهد له بطول الباع لاسيما في التاريخ والشعر. منها مقصورة غراء تحت عنوان: "عقد الجمان في تاريخ سلاطين آل عثمان"

اشتملت على خلاصة تاريخية شعرية من السلطان عثمان خان إلى محمود الثاني وقد وقفنا له على تشطير بديع للقصيدة التي نظمها أبو المظفر منصور بن مبارك الواسطي في مدح السيد أحمد الرفاعي الكبير ومطلعها:

سرت ناقتي ليلًا فسبحان من أسرى إلى الساحة القعساء والحضرة الكبرى
وحطت حمول السير مثقلة على أريكة باب دونه جبهة الخضرا

وهي تبلغ ٢١ بيتًا شطرها السلاوي المشار إليه قائلاً:

سرت ناقتي ليلاً فسبحان من اسرى بمن نال سرَّ القرب في ليلة الاسرا
ومدَّ خطاً عنها المطابا تقاعست إلى الساحة القعساء والحضرة الكبرى
وحطت حمول السير مثقلة على محط رحال القوم تلتمس العذرا
تقلصت من وادي الأراكِ بها إلى أريكة باب دونه جبهة الخضرا

الحقائق

جريدة سياسية أسبوعية تبحث في السياسة والعلوم. ظهرت في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٨٨ لصاحب امتيازها ومحررها إبراهيم بك أدهم، وغرضها خدمة الدولة والملة والسعي في جمع الوحدة الإسلامية وحسن الدفاع عن مصالح المسلمين في أنحاء العالم ثم صارت تنشر باللغتين العربية والتركية مناصفةً وعاشت نيفًا وخمس سنين وقد كتبت عنها جريدة الأهرام بالإسكندرية ما نصهُ بالحرف الواحد: "جريدة طلية العبارة كبيرة

الحجم جميلة الحرف، حوت كل أنواع السياسة وأفانين الأخبار والحوادث من كل شيء أحسنه ومن كل معنى أرضه بعبارة فصيحة وأسلوب بديع". وإليك أيضًا ما وصفتها به جريدة "البشير" البيروتية للآباء اليسوعيين في عددها ٩٨٤ الصادر بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٨٨٩ قالت:

"الحقائق هي الجريدة السياسية العربية الوحيدة المطبوعة في الأستانة لصاحب امتيازها ومحررها البارع إبراهيم أفندي أدهم الذي اتخذ فيها خطة محمودة حظيت بالقبول. وتمتاز هذه الجريدة الإسلامية بمنهاجها السلمي واعتدال مشربها ..."

الحقوق

مجلة شهرية صدرت في ١٣ تموز ١٨٩٠ باللغتين العربية والتركية لصاحب امتيازها الدكتور إلياس بك مطر الحائز على شهادتي الحقوق والطب ومديرها إلياس بك رسام من مشاهير وكلاء الدعاوي في القسطنطينية.

وهي تبحث عن الحقوق العادية والتجارية وتشكيلات المحاكم وأصول المحاكمات المدنية والجزائية وحقوق الدول وعن حكمة الحقوق وتاريخ الحقوق والحقوق الطبيعية والمحاكمات والقرارات المهمة إلخ.. فكانت منزهة عن كل غرض تتحرى حل ما غمض من المشاكل وإذاعة ما راق من المسائل والفوائد وعطلتها الحكومة ثلاث

مرات؛ لأنها كانت تنتقد أعمال المحاكم ومقرراتها وتبين لها وجوه الإصلاح. وأخيرا تهدد رؤساء الدوائر العدلية صاحبيها الفاضلين بالسوء إذا استمرا على خطتهما الانتقادية ولما كانت مصالحهما تقضي عليهما بمراعاة جانب الحكام في عهد السلطان عبد الحميد اضطرا مكرهين على هجر الصحافة وتوقيف نشر المجلة بعد تعطيلها للمرة الثالثة حذرًا من شر العاقبة ومحررها إلياس بك رسام ينتمي إلى أسرة كريمة من أقدم عائلات الموصل في بلاد بين النهرين. هاجر أبواه المدينة المذكورة إلى حلب وهناك أبصر نور الوجود ثم رحلت عائلته إلى أورفا ولم يزل بعضهم فيها إلى الزمان الحاضر وبعد حين جاء إلياس بك رسام مدينة القسطنطينية، فسكن فيها وتعاطى الأشغال وقد اشتهر لدى الخاص والعام بصدق معاملاته ومحاسن صفاته واستقامة مبادئه وهو حائز على بعض الرتب وأوسمة الشرف التي نالها بكل استحقاق وقد طلبنا منه أن يتحفنا بسيرة حياته ورسمه حتى نثبتهما في هذا الكتاب، فلم نفلح لشدة اتضاعه وكراهته لحب الشهرة. أما زميله إلياس مطر فقد أفرزنا له ترجمة مخصوصة في الباب الرابع من الجزء الثاني.

الفصل الثاني

أخبار جرائد دمشق ومجلاتها

دمشق

جريدة أسبوعية سياسية ظهرت عام ١٨٧٨ باللغتين العربية والتركية لصاحب امتيازها أحمد عزت باشا العابد الذي ترقى بعد ذلك إلى أعظم مناصب الدولة حتى صار كاتبًا ثانيًا للسلطان عبد الحميد. وكان لدى تأسيس جريدة "دمشق" رئيسًا لقلم المخابرات التركية والعربية في حكومة سوريا على عهد واليها جودت باشا المؤرخ الشهير الذي حرضه على إنشائها وقد نشر على صفحاتها فصولًا كثيرة أشار فيها إلى مآثر العرب ومفاخرهم وفضائلهم، وبعد انتشارها بخمسة شهور احتجبت زمانًا قصيرًا. ولما أسند منصب الولاية إلى مدحت باشا سنة ١٨٧٩ رافقه أسعد أفندي أحد أبطال تركيا واشتهر أسعد أفندي بهجومه مع علي سعاوي على قصر "جراغان" لإنقاذ السلطان مراد الخامس من الحبس وتقليده سيف الخلافة بدلاً من عمه السلطان عبد العزيز المخلوع، فأوعز مدحت باشا إلى أحمد عزت باستئناف نشر الجريدة التي أعيد ظهورها في ٩ آب للسنة المذكورة. وعهد إلى أسعد أفندي بكتابة قسمها التركي لرسوخ قدمه في قواعد اللغة العثمانية. وبعد سفر مدحت باشا من سوريا، اشترك أسعد أفندي مع جبران لويس في تعاطي فن

المحاماة ثم صار مديرًا لرؤي التبغ في دمشق. وقد نفى في آخر أيامه إلى فزان بطرابلس الغرب ومات هناك. أما القسم العربي من الجريدة، فتولى كتابته سليم بك عنحوري الذي كان محرر مقالات مركز الولاية فنشر فيها المقالات السياسية والعمرانية تعزيزًا لأركان الدستور. وفي أثناء ذلك انضم أحمد عارف بك ابن الملا نور الله قاضي دمشق إلى صاحب الامتياز، فاشتركا معًا في إدارة هذه الصحيفة ثم انتقل تحريرها بعد سنة إلى يد أديب نظمي ومصطفى واصف اللذين أنشآها نحو السنتين. ولما أخذ أحمد عزت باشا ينقلب في مأموريات السلطنة خارجًا عن مسقط رأسه، اضطر إلى إهمال مصلحة الجريدة التي صارت تصدر بلا انتظام إلى آخر عهدها في سنة ١٨٨٧.

سليم بك عنحوري

منشئ مجلة "مرآة الأخلاق" ومحرر صحف "صحف "دمشق" و"الشام" و"المشكاة" في دمشق ومؤسس جريدة "مرآة الشرق" ومجلة "الشتاء" في القاهرة وكاتب المقالات العديدة في أشهر الجرائد العربية.

مرآة الأخلاق

مجلة نصف شهرية. ظهرت في غرة كانون الثاني ١٨٨٦ لصاحبيها سليم وحنا عنحوري، فكانت تنشر بشكل كتاب يتألف منه في آخر السنة ٢٤ جزء وكل جزء في ٢٤ صفحة صغيرة بدون امتياز من طرف الحكومة وقد استهلاها بهذين البيتين:

ألا أســرع صــاح للمــرآة وانظــر بهــا صــور المشــارق والمغــارب
ففــي المــرآة يظهــر كــل شــئ إذن قــل تلــك مــرآة العجائــب

وكانت هذه المجلة على قسمين كما صرح صاحباها في فاتحة المقال: "أحدهما روايات تتجاذب طرفي الغرام والأدب وتأخذ بناصيتي الفكاهة والعلم والثاني يخوض كل عباب ويبحث في كل ركاز وتراب، فحيثما فاز بدرة كنزها وأينما ظفر بشذرة أحرزها خلا السياسة والدين". وعلى إثر صدور العدد الأول منها حجزت عليها الحكومة استبدادًا لوشاية قدمت على أحد صاحبيها سليم بك بحجة أنه يتحدى القرآن في المقالات التي ينشرها في القسم الأول منها وهو المختص به تحريره. وبعد المرافعة التي انجلت عن التبرئة أضربا عن اطراد نشرها حذرًا من مظالم الحكام ثم نال سليم بك امتيازًا بتأسيس مطبعة باسم "الاتحاد" ومجلة باسم "مرآة الأخلاق" على يد ناشد باشا والي سوريا. ولكن شدة التضييق والمراقبة على المطبوعات في ذلك الوقت حالت دون استئناف إصدار المجلة فبقيت مطوية إلى الآن.

وكان شريكه حنا بن روفائيل بن حنا عنحوري من نوابغ الشبان السوريين. فإنه ولد سنة ١٨٦٤ وتخرج في المدرسة البطريركية في بيروت واشتغل بفن التمثيل في دمشق مع جورج مرزا مدة من الزمان ثم سافر مع خاله المطران ملانيوس فكاك سنة ١٨٨٧ إلى روما وباريس وهناك أخذ يدرس الطب ويعلم الآداب العربية في مدرسة القديس يوحنا فم الذهب إلى أن مات فجأة في ١٣ أيار ١٨٩٠ عن ست وعشرين

سنة. وكان بارعًا في اللغة العربية ومن بلغاء كتابها وقد انتخبه "المجمع العلمي الأسيوي" عضوًّا له في باريس وله من المطبوعات رواية "الهوى شرك الهوان" ورواية "شقاء المحبين"، وغير ذلك من الآثار الأدبية وكان يتردد كثيرًا على المكتبة الكبرى في باريس للمطالعة ونسخ بعض المخطوطات القديمة. وبعد وفاته نشر كراس مصدرًا برسمه وحاو لترجمته ومآثره.

الفصل الثالث

جرائد حلب

الشهباء

صحيفة أسبوعية عامة المباحث. ظهرت في ١٠ أيار ١٨٧٧ لصاحب امتيازها هاشم عطار وطبعت في المطبعة العزيزية ثم انضم إليه عبد الرحمن الكواكبي وميخائيل بن انطون صقال واشتركوا معًا في إصدارها. وصادف ظهورها على إثر إعلان الحرب الشهيرة بين الدولتين العثمانية والروسية، فكانت تنشر أنباء هذه الحرب مع سائر الحوادث الداخلية والخارجية. وبعد ظهور العدد الثاني منها، تعطلت بأمر كامل باشا والي حلب ثم أعيد نشرها وقد ورد شيء من أخبارها في مقدمة جريدة "الاعتدال" الحلبية التي صدرت في ٢٥ تموز ١٨٧٩ لمنشئها عبد الرحمن الكواكبي وهاك نصه:

"وبناء على ذلك، كان إصدار جريدة الشهباء التي وقفت خدمتها بأمانة وجعلتها تحوز حسن القبول من العموم. غير أنها أصيبت اضطهاد الوالي السابق دولتلو كامل باشا فعطلها ثلاث مرات ولا نرى حاجة لبسط أسباب وقوعها تحت هذا التعدي لشهرة أمره. على أننا نكتفي بالقول إن حضرة الوالي المشار إليه ماذا يجيب إذا سئل في محكمة الإنسانية عن سبب مقاومته جهده في صد هذا المشروع الخيري ومعارضة القائمين به

وإضرارهم ماديًا وأدبيًا. هل له من جواب يدفع عنه الحكم الحق بأن السبب ليس إلا ما في فطرته من عداوة الحرية؟... لأن كامل باشا في التعطيل الثالث أمر أولًا بالحجز على المطبعة ووضعها تحت مراقبة الضابطة ثم لم يشأ اعتراف إعلام المحكمة الابتدائية في براءتها كما أنه لم يعمل بعد بتصديق المحكمة الاستئنافية على البراءة. بل استبد في تعطيلها بصورة غريبة. أما حضرة دولتلو مظهر باشا، فإنه منذ تشريفه لا زال يبذل لها عواطف التنشيط والتشويق والوعد بالمساعدة والحماية وامتلاك الحرية مصرحًا بأنها إن وجدت في أعمال وإجراءات دولته نفسه ما يقتضي التنبيه أو التنديد يسره أن يراها غير متحاشية من ذكره. لكن قد ساءنا أخيرا كون "الشهباء" عاقها بعض الموانع عن أن تغتنم هذه الفرصة، فقامت مقامها في ذلك "الاعتدال"

الاعتدال

صحيفة أسبوعية سياسية. ظهرت في ٣٥ تموز ١٨٧٩ لمنشئها السيد عبد الرحمن، ابن الشيخ أحمد الكواكبي بدلًا من جريدة "الشهباء" المار ذكرها. وكان نصفها مطبوعًا باللسان العربي ونصفها الآخر باللغة التركية تعميمًا لفوائدها بين سكان ولاية حلب الذين يغلب فيهم العنصر التركي على سواه. أما خطتها وعبارتها وغرضها ومباحثها، فيتضح كله مما ورد في المقالة الافتتاحية وهذا نصه:

"على أن الاعتدال هي الشهباء من كل حيثية وقد أخذت على نفسها القيام بكامل وظائف الجرائد الأهلية من نشر حسنات الإجراءات

وإعلان سيئات المأموين وعرض احتياجات البلاد إلى مساعي أولي الأمر ونشر كل ما يقتضيه تهذيب الأخلاق وتوسيع دائرة المعارف من أبحاث علمية وسياسية وغيرها. وبناء على كون الاعتدال مصممة بإخلاص على أن يكون مسلكها معتدلًا في جميع مقاصدها، تعلن أنه إذا وقع تقصير ما ونبهت عليه تبادر لاصطلاحه متشكرة أفضال المنبهين؛ لأن أشرف ما يكون للجرائد أن تحوز على حسن القبول والولاء من العموم".

وانطفأ سراج حياة هذه الجريدة في مطلع حياتها لأن صاحبها المشهور بحرية الضمير وحب الوطن كان ينبه الحكومة على مواضع الخلل بكتاباته الشائقة وإرشاداته الصائبة. فلما ضايقته الحكومة اضطر إلى توقيف "الاعتدال" وهكذا حرمت الدولة من نشرياته الإصلاحية. وكان الكواكبي الممثل الحي بلا نزاع للجامعة الإسلامية التي سمي في إيجادها جمال الدين الأفغاني وإليك ما كتبته جريدة "الرأي العام" البيروتية بتاريخ ١١ كانون الثاني ١٩١٢ قالت:

"أما الكواكبي فقد كان في الخطابة صاحب نظر دقيق ونير وأخذ فكرة الأفغاني في عقد المؤتمر الإسلامي، فشرحها شرحها مطولًا في كتابه الذي صدر باسم: "سجيل جمعية أم القرى" وضمن هذا الكتاب أعمال المؤتمر الذي لم يمكن عقده ووصف بأسلوبه الحسن حالة العالم الإسلامي وشخص أمراضه بكل انتباه مع ذكر الدواء اللازم لها. الكواكبي هو العالم النظري الذي دعا للجمعية الإسلامية وهو المفكر الذي لم يؤثر فيه الوعيد والتهديد. وإذا كان الأفغاني قد أظهر الميل إلى عبد الحميد بمجيئه إلى الأستانة حتى مات فيها، فإن الكواكبي ظل دائمًا العدو الألد لعبد الحميد حتى ألف كتابه– طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد– تشنيعًا على حكومته.

الفصل الرابع

جرائد جبل لبنان

الجعبة

اسم لجريدة أسبوعية هزلية صغيرة الحجم مطبوعة على الهلام (الجلاتين). أصدرها في سنة ١٨٧٣ الشيخ نوفل الخازن في قرية "درعون" بلبنان وهي تتضمن شيئًا كثيرًا من النوادر والحكم واللطائف التي اشتهر هو بها خصوصًا والمشايخ الخازنيون عمومًا. كما كانت تحتوي على حوادث يوسف بك كرم أشهر أبطال لبنان في القرن التاسع عشر مع أخبار الحروب التي جرت بينه وبين داوود باشا أول متصرف على الجبل المذكور، فكان أهل الذوق يتهافتون إلى مطالعتها وقد عطلها منشئها بعد صدور أعداد قليلة منها.

ولد الشيخ نوفل من أبيه قانصوه بن حصن بن حصن بن نوفل بن حصن بن نوفل بن حصن بن فياض بن نادر بن خازن بن إبراهيم بن سركيس الخازن وكان جده الشيخ نوفل بن حصن قنصل فرنسا في بيروت وكاتب المجمع اللبناني في دير اللويزة، وقد تلقى صاحب "الجعبة" مبادئ العلوم دير الشرفة للسريان الكاثوليك ثم أخذ علم الفقه عن المطران يوحنا الحبيب منشئ جمعية المرسلين اللبنانيين وتولى القضاء مدة في محاكم لبنان، فكان مثال النزاهة والاستقامة. وبعد أن ترك القضاء زاول

فن المحاماة إلى آخر أيامه وحلت وفاته في أواخر تشرين الثاني ١٩٠٥ في بيروت على إثر مرض السرطان، فنقل إلى مسقط رأسه في درعون حيث دفن باكرام وتولى.

يوسف بك كرم

صاحب السيف والقلم وأشهر أبطال جبل لبنان في القرن التاسع عشر وأقام صلاة الجنازة عن روحه بطريرك الطائفة المارونية وأحبارها ومطارنة سائر الطوائف، وكان مشكور الأعمال، طيب السريرة، ينظم الشعر بلا تكلف وتوجد له آثار تذكر فتشكر في سبيل نصارى جبل لبنان كما يتضح ذلك من الفرمانات السلطانية والبابوية وامتيازات الشرف الممنوحة لهم من ملوك فرنسا وهي محفوظة بأسرها لدى الكونت حصن دي خازن شقيق الشيخ نوفل في منزله بدرعون وشاهدناها مرارًا ومن منظوماته الأنيقة قصيدة رثى بها الكونت انطون دي طرازي الذي مات غريقًا بتاريخ ٢١ نيسان ١٩٠٠ في مينا بيروت وهي:

المـوت حكـم لـيس منـه مهـرب ... ولـــدن إصـــابته التصـــبر أصـــوب
هـــذا كـــلام صـــادق فـــي حـــده ... حكمًـا وأبلـغ مـا يقـال ويكتـب
لكـــن فـــي خطـــب تفـــاقم رزؤه ... عـذرًا لمـن يبكـي الفقيـد وينـدب
يـا مـن تقـول الصـبر أولـى بـالفتي ... فالصـــبر صـــبر صـــابة لا يعـــذب
كيـف اصـطباري بعـد مـن لا ارتجـى ... فـي ذي الحيـاة لقـا بـه وتقـرب

فاعذر إذا سكب العيون ابن العلى ديما تهل على الصدور فتهلب
إن أبك النطون بن طرازي فلا حرج وفيه الشرق يبكي المغرب
من كان غوث المستغيث وملجاء لم يطو كفًا عن فقير يطلب
أسفي على غصن رطيب قد ذوى لم تجده نفعًا دموع تسكب
فرماه سهام بسهم منونه والموج أمسى فوقه يتقلب
قد كان في برج الثريا كوكبًا واليوم أمسى في التراب الكوكب
ابكيه بل تبكيه والدة له واشقة وابن وحيد ينحب
وإذا طلبت من الجماد بكاءه جزعاً عليه فلا يعز المطلب
كم خلت ان الشمس في رأد الضحى غابت لغيبته فطال الغيهب
يا ساعة ما كان أثقل ظلها فوق الا ضالع والترائب تضرب
هي نكبة جلى إذا نزلت على صرف القضا لم يحتملها المنكب
يا من تفرد بالشهامة والتقى وبنجدة الملهوف وهو معذب
يا من حوى درر المكارم صدره فالبحر رحب وهو منه أرحب
يا من تساوي والنسيم لطافة والند عرفاً وهو منه أطيب
غادرتنا فسلبت كل قلوبنا بلا حياة بعد ذلك تسلب
فالعيش أمسى بالمصاب مرارة هيهات تحلو بعد ذاك وتعذب
قد كان صحبك في حياتك باسماً والآن صحبك في مماتك يندب
لا غرو خطبك ليس خطب واحد فيه خطوب لا تعد وتحسب

تبــاً لــدهر جــار فــي أحكامــه	قــد جــاء يفتــك بــالقلوب ويعطــب
وســطًا علــى خيــر امــرء فأذاقــه	كـاس الـردي صـرفًا فبئس المشـرب
ضــاق التأســي فــي أيــم مصــابه	يــا رب يــرد نــار قلــب تلهــب
فثــوى غريقًــا فــي البحــار وكلنــا	غرقــى الــدموع لموتــه نتعــذب
يــا راحــلا منــي إليــك تحيــة	وعلى ضـريحك دمـع عينـي يسـكب

لبنان

صحيفة أسبوعية سياسية علمية تجارية أدبية، أنشئت في «بعبدا» بتاريخ غرة تشرين الأول ١٨٩١ لصاحبها إبراهيم بك الأسود أحد أعضاء مجلس إدارة جبل لبنان لذاك العهد، فكانت مشمولة بعناية واصا باشا وصهره كوبليان أفندي اللذين فرضا على كل الأعيان وأصحاب المصالح ومأموري الحكومة أن يشتركوا في الجريدة، فراجت بمساعيهما رواجًا كبيرًا وجلبت لمنشئها أرباحًا كثيرة. وفي سنتها عطلها نعوم باشا المتصرف الخامس على الجبل وكان قد صدر منها ٨٦ عددًا ثم أعيد نشرها وكانت لسان حال الحكومة اللبنانية تنشر الإعلانات القضائية والأوامر الرسمية وقامت بكثير من الاكتتابات الخيرية منها اكتتاب أثناء الحرب العثمانية اليونانية، فنال صاحبها لأجله المدالية المخصوصة ومنها اكتتاب السكة الحجازية. وقد أحرز إبراهيم بك لأجلها ميدالية السكة المذكورة، وفوق ذلك منحته الدولة «الرتبة الثانية» مع الرسامين «المجيدي الثالث» و«العثماني الرابع».

وهي تعد أول جريدة سياسية في الجبل، بحيث كانت فيه كمدرسة نقالة ولذلك كانت فائدتها عظيمة للناشئة المحلية. ومن المعلوم أنها كانت في بعض الأحيان تنشر ما يكلم ويؤلم دفاعًا عن صاحب امتيازها الذي لا يخلو من الأخصام المختلفين معه في المبدأ والمشرب، وقد خدمت بصورة خصوصية الدين ورجاله لعلمها أن الدين غريزة من الغرائز المؤثرة في صلاح النفوس[1]. وبعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ نقلت إدارتها إلى بيروت وصارت تطبع فيها وكان صاحب الامتياز يكتبها بقلمه ويساعده في ذلك بعض جملة الأقلام الذين نذكر منهم: المعلم جرجس زوين وسعيد البستاني والياس جرجس طراد والياس حنيكاتي وعيسي ميخائيل الخوري واسكندر عيسي المعلوف ونجيب المشعلاني ومحبوب الخوري الشرتوني والياس نقولا الضاهر. أما مدراؤها فكانوا: قيصر الأسود وإبراهيم بك سليمان وميشال بك الشامي.

وفي ٩ كانون الثاني ١٩١٣ استقل الشيخ شاهين الخازن بإدارتها وتحريرها ومخابرة وكلائها والمشتركين فيها. وذلك بموجب شركة عقدها مع صاحب الامتياز انصرافًا من الثاني إلى أشغاله الخاصة والقيام بوظيفته كعضو في دائرة الحقوق الاستئنافية في الجبل، فأخذ الشيخ شاهين يعمل على تعزيز شأن الجريدة ويزين أعمدتها بنشر الفصول الجديرة بأن يقرأها كل لبناني، ولا غرو فهو الصحافي الذي تجسمت الشهامة الوطنية في كتاباته وأعد قلمه لخدمة الحياة القومية والمبادئ الحرة. تشهد ذلك مقالاته البليغة في أشهر الصحف السورية والمصرية، وسنأتي على تفصيل كل ذلك في حينه إن شاء الله تعالى.

---

[1] جريدة «لبنان» عدد ١٠٨٠: سنة ٢٢

الفصل الخامس

أخبار الصحف العثمانية في شمال أفريقيا وشبه جزيرة العرب

طرابلس الغرب

هي جريدة أسبوعية رسمية ذات أربع صفحات. أصدرتها الحكومة العثمانية عام ١٨٧١ في مدينة طرابلس الغرب بأمر السلطان عبد العزيز، فنشرتها في اللغتين العربية والتركية وخصصتها بالولاية المعروفة بهذا الاسم في شمال إفريقيا. وكانت هذه الصحيفة ركيكة العبارة، سقيمة الحروف، تطبع في مطبعة الولاية وتقتصر على نشر الأوامر والوقائع والإعلانات والتوجيهات كسائر الصحف الرسمية في السلطنة العثمانية. ولما اغتصب الإيطاليون هذا القطر في ٢٩ أيلول ١٩١١ وأعلنوا ضمه إلى أملاكهم أطلقوا قنابل مدافعهم على مدينة طرابلس الغرب ودمروها، فنالت المطبعة نصيبها من الخراب. ومن ذلك الحين تعطلت الجريدة بعد ما عاشت إحدى وأربعين سنة وكان القائمون بإنشاء فصولها بعض مأموري الحكومة المحلية الذين لم يتيسر لنا الوقوف على أسمائهم.

صنعا

جريدة أسبوعية رسمية. ظهرت عام ١٨٧٧ في مدينة «صنعا» قاعدة ولاية اليمن في شبه جزيرة لعرب وقد أمر بإنشائها السلطان عبد

الحميد الثاني لنشر أفكاره وخدمة مصالح حكومته في تلك الأصقاع النائية، فكانت تطبع في مطبعة الولاية باللغتين العربية والتركية في أربع صفحات كبيرة ثم صارت تصدر في ثماني صفحات صغيرة بحرف جلي وأكثر إتقانًا. أما عبارتها، فكانت ركيكة تدل على قصر باع كتابها في صناعة الإنشاء ثم تحسنت في السنين الأخيرة. ولم تزل هذه الصحيفة تصدر حتى اليوم في أوقاتها المعلومة كما سبق الكلام وهي الأولى والوحيدة التي ظهرت في تلك الولاية الواسعة لأن سكانها ليسوا على شيء من العلم والحضارة والاستعداد لقبول التمدن العصري ويرجع أكثر اللوم في ذلك على الحكومة العثمانية التي كانت ترسل إلى اليمن عمالًا ينصرفون إلى منافعهم الذاتية ويهملون مصالح الشعب ويجهلون لغة السكان ويختلفون معهم مشربًا. ولذلك كثرت الفتن بين الحكومة وزعماء تلك البلاد كالشيخ الإدريسي والإمام يحيى.

الباب الرابع

تراجم مشاهير الصحافيين العثمانيين خارجًا عن بيروت في الحقبة الثانية

«١»

غريغوريوس الرابع

بطريرك إنطاكية وسائر المشرق على الروم الأرثوذكس ، ومدير جريدة «الهدية» ومحررها سابقًا في بيروت ومؤسس مجلة «النعمة» في دمشق

هو غنطوس بن جرجس بن غنطوس حداد. ولد بتاريخ غرة تموز ١٨٥٩ في «عبيه» إحدى قرى الشوف بجبل لبنان، فتلقى مبادئ العلوم في مدرستها البروتسشنتية التي كانت بإدارة المرسلين الأميركيين ثم نزعت نفسه إلى العيشة الرهبانية، فقصد السيد غفرئيل مطران بيروت ولبنان على الروك الأرثودكس طالبًا منه الانتظام في سلك تلامذة مدرسته الكهنوتية. فدخلها في ١٠ أيار سنة ١٨٧٢ وكان أستاذه فيها المعلم شاهين عطية، فحاز قصب السبق على أقرانه وكان آية في الذكاء وقدرة في السيرة الصالحة وغير ذلك من الصفات الجسنة، فأحبه مطرانه المشار إليه وجعله كاتبه الخاص في ٢٤ كانون الأول سنة ١٨٧٥ وهو في السادسة عشرة من عمره. وفي ١٩ كانون الأول ١٨٧٧ أصبح الإسكيم الرهباني في دير سيدة النورية. وفي ٢٩ آب سنة ١٨٧٩ رقاه إلى درجة الشماس الإنجيلي وسماه غريغوريوس وأناط به طبع كتاب

«البوق الإنجيلي» وإدارة «جمعية بولس الرسول» التي غايتها مساعدة الكنائس والمدارس الأرثوذكسية في جبل لبنان. وقد ألغيت هذه الجمعية بعد قسمة الأبرشية إلى أبرشيتين وهما بيروت ولبنان، ولما أنشأت «جمعية التعليم المسيحي الأرثوذكسي» عام ١٨٨٣ جريدة «الهدية» تولى صاحب الترجمة إدارتها وتحريرها مدة طويلة من الزمان وسنة ١٨٩٠ وقع الانتخاب عليه لكرسي مطرانية طرابلس الشام، فاقتبل في ٦ أيار الدرجة الكهنوتية ثم نال رتبة رئاسة الكهنوت من يد البطريرك الأنطاكي جراسيموس الذي انتقل بعد ذلك إلى السدة الأورشليمية البطريركية ومات فيها. فساس صاحب الترجمة هذا الكرسي الأسقفي بكمال الغيرة والنشاط حتى أجمعت قلوب الرعية على محبته وإجلاله لأنه أزال بحكمته ما كان قد طرأ من الشقاق في عهد سلفه المطران صفرونيوس نجار وألقى الألفة في قلوب الجميع، فانقادت له الرعية انقياد القطيع وانقلب العداء محبة والخصام سلامًا وقد خلد له في هذه الابرشية آثارًا جليلة بما أنشأه فيها من المدارس والكنائس والجمعيات الخيرية التي تنطق بفضله وأشهرها مدرسة «كفتين» التي عاشت من سنة ١٨٩٣ إلى ١٨٩٧ وأتحفت الوطن بكثير من رجال العلم في العصر الحاضر. وبعد عشرة أعوام من جهاد مستمر في خدمة منصبه المذكور، انتدبه أحبار الكرسي الانطاكي بطريركا عليهم بكل استحقاق خلفًا للسيد ملانيوس الثاني. وصباح يوم الأحد في ٣٦ آب ١٩٠٦ جرى تنصيبه باحتفال عظيم في الكنيسة المريمية الكبرى بدمشق وهو البطريرك الوطني الثاني الذي تولي هذا المنصب بعد استيلاء اليونان عليه مدة

١٧٥ سنة (١٧٣٤- ١٨٩٩) أي من عهد جلوس ساوسترس القبرصي إلى خلع سبيريدون وجلوس ملاتيوس الثاني. وقد أوجب ذلك استياء بطاركة اليونان في القسطنطينية والإسكندرية وأورشليم، فأبوا الاعتراف بانتخابه الشرعي. كما رفضوا الاعتراف بسلفه المشار إليه لأنهما من أصل غير يوناني ولكنهم لم يلبثوا أن بعثوا له برسائل الشركة معهم وأثنوا على مناقبه الشريفة وفضائله السامية، فأرسل له البطريرك القسطنطيني بهذا المعنى كتابًا مؤرخًا في ١٤ آب ١٩٠٩ وجرى مجراه البطريرك الأورشليمي بتاريخ ٢٩ أيلول من السنة ذاتها. وهكذا انفض الخلاف بحكمة صاحب الترجمة الذي زين السدة الإنطاكية الأرثوكسية بما أوتيه من جزيل الفضل وسمو المدارك.

ميخائيل رومانوف

مؤسس الأسرة القيصرية المالكة في روسيا

وما كادت تلقى إليه الرئاسة حتى شمر عن ساعد الجد وباشر أعمال وظيفته بهمة لاتعرف الكلال وقد وجه عنايته الخاصة إلى تعزيز شأن المدارس وترقية المعارف لاسيما مدرسة «دير البلمند» الشهيرة وأنشأ مجلة «النعمة» التي جعلها لسان حال الملة الأرثوذكسية وسلم إدارتها لجماعة من أفاضل الكتبة الذين ينشرون على صفحاتها آثارًا أدبية وتاريخية وعلمية ودينية وطائفية وهو يزينها من حين إلى حين بالمناشير الراعوية والمباحث المفيدة. ومن مآثره أيضًا أنه جدد الدار البطريركية في

دمشق على أحسن طرز وحسن حال الأوقاف ورسم على الكراسي الفارغة أحبارًا من ذوي الفضل والعلم. وفي أواسط سنة ١٩١١ خرج لافتقاد الأبرشيات التابعة لسلطته الروحية ولا يزال مباشرًا تتميم هذه الزيارة الرعوية.

وفي أثناء ذلك دعاه قيصر روسيا نقولا الثاني دعوة رسمية ليترأس الحفلات الدينية التي تقام بتاريخ ٦ أذار (٢١ شباط على الحساب اليولي) ١٩١٣ في بطرسبرج عاصمة المملكة تذكاراً لمرور ثلاثمائة سنة من نشأة أسرة «رومانوف» وجلوسها على العرش القيصري وأصدر حقولا الثاني حينئذ منشورًا جاء فيه:

«إنه بالنظر للعلاقات التاريخية القديمة بين أسلافنا العظام قياصرة الروس وبين بطاركة إنطاكية الشرفيين، قد أصدرنا أمرنا القيصري بدعوة غبطة بطريرك انطاكية السيد غريعوريوس ليترأس الحفلات الدينية بمناسبة مرور ثلاثمائة سنة على أسرتنا رومانوف المالكة التي ستبتدئ في ٢١ شباط ١٩١٣».

ولما صدر هذا الأمر الإمبراطوري، اجتمع أعضاء المجمع الروسي الروحاني مع ممثل جلالة القيصر وقرروا ما يأتي:

(١) أن العادة الجارية حتى اليوم في الاحتفالات بخدمة الأسرار الإلهية أن المطارنة ورؤساء الأساقفة والأرشمندريتية يلبسون جميعهم التيجان إذا اشتركوا في الخدمة، ولكن إكرامًا لغبطة البطريرك

الإنطاكي سنتبع العادة الشرقية مدة وجوده فلا يلبس التاج غير غبطته.

(٢) يذهب وفد خاص من قبل المجمع المقدس إلى أودسا لاستقبال غبطته رسميًا بالحلل الكهنونية والبتراتيل الدينية ومرافقته حتى بطرسبرج. وكذلك في كل محطة يخرج الأساقفة والكهنة لاستقباله حسب الطقوس الدينية.

(٣) يجري استقباله في بطرسبرج باحتفال عظيم ويركب أمام عربة غبطته أرخدياكون الكرسي البطريركي حاملًا عكاز البطريركية.

(٤) تجري مقابلة غبطته لجلالة القيصر على مثال ما كانت تجري المقابلة بين القياصرة البيزنطيين وبطاركة القسطنطينية. أي أن غبطته البطريرك يلبس المنتية (الوشاح الملكي) وجلالة القيصر في بزته الرسمية.

(٥) ينزل غبطته في دير «القديس نفسكي» العظيم ويجلس وقت الاحتفالات الدينية على عرش ذهبي. وقد أرسلت إلى موسكو بدلة بطريركية ذهبية ثمينة تخصصت لغبطته.

(٦) عند المقابلة القيصرية يعلق على صدر غبطته وسام القديس إسكندر نفسكي من الدرجة الأولى.

فلبى البطريرك غريغوريوس الرابع دعوة القيصر. وعند مروره بالقسطنطينية، قابل السلطان محمد الخامس الذي أهداه الوسام العثماني المرصع. ثم استأنف السفر إلى أودسا على سفينة مخصوصة كانت أعدتها له الحكومة الروسية لنقله وحاشيته إلى أودسا. وفي ٥ أيار انتهى إلى عاصمة الروس حيث غص المونف بالوف من الخلق وفي مقدمتهم ممثلو علية الأكليروس ورؤساء مفوضات المجمع ونائب القيصر ومحافظ المدينة وسيادة المطران ثلاديمبر. وعندما ترجل انشد الشعب– وقد حسر جمعية عن رأيه– ترنمة «إلى اعوام عديدة»، ثم توجه بموكب حافل إلى كنيسة القديس إسكندر نفسكي تتقدم عربته عربة عليها المطران فلاديمير ونائب القيصر ويتلوها قطار من العربات عليها الأكلبروس والأرخدياكون وبيده عكاز غبطته والأرشمندريت حامل الصليب ثم عربة غبطته الفاخرة التي أرسلت خاصة من القصر الإمبراطوري لركوبه يجرها أربعة من جياد الخيل وفي إثرها ياوران من لدن القيصر وبعدها عربات رجال حاشيته. وكانت أجراس الكنائس تقرع احتفالًا بقدومه وقد استقبله عند باب الدير الكهنة والرهبان بالحلل الكنسية مرتلين وحاملين الشموع والصلبان.

وهناك رحب بغبطته رئيس الأساقفة وقدم له الصليب ليقبله ثم دخل إلى كاتدرائية الدير وإلى جانبه مطران بطرسبرج ونائب القيصر. وبعد الدعاء لجلالة القيصر وأسرته وشكر رؤساء الأساقفة والأساقفة والرؤساء دخل إلى الهيكل حيث اجتمع بأعضاء المجمع وبعد ذلك ذهب إلى مقر مطران بطرسبرج وأمامه رهبان الدير تتقدمهم الشمعة

والصليب الذهبي الذي أهداه الاسكندر الثالث إلى مطران بطرسبرج وهو مرصع بالألماس والياقوت.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، ذهب إلى كنيسة القديسين بطرس وبولص حيث مدافن أسرة «رومانوف» وترأس حفلة الصلاة بحضور القيصر وبناته ووالدته وكثير من الأمراء والأميرات. وبعد نهاية الصلاة توجه إلى منزل نائب القيصر حيث وفد للسلام على غبطته ممثلًا البطريركين القسطنطيني والأورشليمي ورؤساء لأساقفة وأعضاء مجلس الأعيان وكبار أعيان الروس.

وفي صباح اليوم التالي، جرت في كنيسة «سيدة قزان» الكبرى[1] حفلة العيد التي رن صداها إلى أقاصي المعمور. وفي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، ركب غبطته عربة فخيمة من عربات القصر الإمبراطوري وإلى جانبه سيادة المطران الكسندروس والأرشمندريت أنطونيوس والأرشمندريت غفرئيل. وقد ركب الأرخديا كون توما على عربة

[1]يقال لهذه الكنيسة «سيدة فزان» تيمناً بصورة العذراء مريم التي نقلها القيصر الرابع من مدينة فزان إلى موسكو عاصمة روسيا قديمًا. وكانت هذه الصورة محترمة من جميع الشعب حتى أن العساكر الروسيين كانوا يحملونها في طلائهن في محاربتهم مع التتره ولما أنشأ بطرس الاكبر عاصمة الروس الجديدة باسمه قل إليها صورة «سيدة فزا» فابتني لها كنيسة فخيمة تشبه كنيسة القديس بطرس في رومة. ومن ذلك الحين صار تاريخها مقروناً بامجاد عرش القياصرة ومفاخر المملكة الروسية. لأن (القياصرة يزورنها قبل أسفارهم من العاصمة وبعد رجوعهم إليها. وجميع أعضاء العائلة الإمبراطورية يقضون فيها أكثر فروضهم الدينية. ومما يؤثر أن ساحتها الخارجية غاصة دائمًا بجماهير الشعب وأبناء المدارس، وهي مركز الاجتماعات الشهيرة والحوادث العظيمة التي جرت عام ١٩٠٥ وكانت حينئذ مرشحًا للثورة الأهلية. فارتفعت فوق مبانيها الرايات الحمراء وجرت فيها الدماء سيولًا. وفي السنين الأخيرة انشأت فيها فيها بلدية بطريبرج حدائق فناء وغرستها بالأشجار الباسقة سكان العاصمة أن يتنزهوا فيها

ثانية وبيده الصليب ومعه المنتيات؛ لأن من العادة الجارية في روسيا أن يلبس علية الاكليروس المنتيات عند مقابلة القيصر بالصفة الرسمية وقد توجهوا إلى القصر الإمبراطوري واستووا نحو بضع عشر دقائق في بهو فسيح كان يقبل في أثنائها الأمراء والأميرات من الأسرة المالكة للسلام عليهم وأخيرًا قبل رئيس الباوران ودعا غبطه وسيادة المطران الكسندروس والأرشمندريتين نقولا الثاني قيصر روسيا للمقابلة، فلبسوا المنتيات وتقدموا نحو الردهة التي استوى فيها القيصر. ومن العادة أن لا يدخل عليه أكثر من اثنين فدخل غبطته والسيد الكسندروس وكان في الردهة جلالة القيصر والقيصرة وولي العهد ووالدة القيصر وبناته الأربع وبعض أفراد الأسرة الإمبراطورية. وكان القيصر جالسًا إلى عرشه وفي أعلاه صورة العذراء، فرفع البطريرك نظره إليها وانحنى أمامها وتلا ترتيلتها «بواجب الاستيهال» ثم التفت إلى القيصر وسلم عليه بإكرام، فنزل القيصر عن عرشه واستقبله كاشف الرأس وانحني أمامه، فباركه البطريرك وقبله حسب العادة الروسية في كتفه.

وأما القيصر، فقبل رأس البطريرك أولًا ثم يده اليمنى وبقي الاثنان واقفين. وبعد أن هنأه بسلامة الوصول وسمع جوابه كلفه أن يجلس على مقعد إلى جانب العرش، ثم صعد القيصر إلى عرشه وتابع الحديث معه في مواضيع مختلفة إلى أن قال له: «سمعت منذ زمان عن عزمك إلى المجئ إلي وتمنيت كثيرًا أن أراك. وإني أعرف بركتك وطهارتك، فأرجوك أن نتوسل لله العلي وتصلي لأجلي».

فقال البطريرك: «إنني رجل خاطئ يا مولاي، ولكن فليعطك الرب مثل قلبك وحسب إيمانك ويتمم كل آمالك ويؤيد عرشك إلى الأبد». فلما سمع القيصر هذا الجواب المتضمن كلام داود النبي، سر وتخشع وقبل يمين البطريرك مرة أخرى ثم قدم البطريرك له الهدايا وهي من خشبة الصليب المكرم والميرون المقدس وإنجيل ثمين وأيقونة مع ذخيرة من بقايا يوحنا المعمدان وبلسم وبخور ومن وأقمشة حريرية الخ، فشكر له القيصر هديته ثم ودعه البطريرك باحترام وانصرف من لدنه شاكرًا هذه المقابلة.

وفي أثناء المقابلة تلا البطريرك خطابًا باللغة العربية وجيز العبارة ترجمه السيد الكسندروس إلى الروسية وكان الخطاب مطبوعًا على درج من رق غزال وفي صدره صورة القديسين بطرس وبولس حتى إذا انتهى من تلاوته قدمه إلى القيصر. ثم سلم كل من غبطته وسيادته على القيصرة وولي العهد وعلى سائر الحضور، فكان الجميع يقبلون أيديهما وقد علق القيصر على صدر البطريرك وسام «القديس إسكندر نفسكي» طبقته الأولى وأهداه صليبًا ذهبيًا مرصعًا بالألماس ليوضع على اللاطية.

وفي ٩ أيار وهو آخر أيام الاحتفالات اليوبيلية، قام البطريرك في الكنيسة الكاتدرائية بخدمة القداس الإلهي. ومما يذكر أنه قرأ الإنجيل الشريف باللغة العربية كما أنه دعا للقيصر باللغة نفسها. وفي ذلك النهار دعي مع حاشيته إلى مأدبة كبرى في القصر الملكي حضرها ٢٥٠٠ شخص جلسوا إلى ١٨ مائدة. أما الأواني فكانت من الذهب والفضة

والصيني الثمين وقد جلس القيصر إلى رأس المائدة والقيصرة عن يمينه ووالدته عن يساره ثم أفراد الأسرة المالكة والوزراء وجلس البطريرك في المركز الأول إزاء القيصر تحيط به حاشيته وسائر أرباب الكهنوت وكانت لائحة الطعام مكتوبة على رقعة مرسوم عليها نسر وقائدان من الجيل السادس عشر وقد شرب على المائدة ثلاثة أنخاب: الأول نخب القيصر وقرينته ووالدته والثاني نخب ولي العهد والأسرة المالكة والثالث نخب البطريرك ورجال الدين. وكانت المدافع تطلق من القلعة بعد كل نخب والموسيقى الإمبراطورية تشنف الآذان بأطيب الألحان.

وفي أثناء تواجده في روسيا زار أكثر معاهدها الشهيرة، فلقي حفاوة لم يسبق لها مثيل عند جميع الطبقات من العرش القيصري حتى أفراد الشعب وقد ألهمه الله أن يزور تلك البلاد في أمجد أيامها التاريخية وأعظم أعيادها الوطنية. وعندما حضر جلسة من جلسات المجمع المقدس، أهدي إليه الصليب المرصع الذي أخرجه المجمع لاستقباله وليحمل أمامه في الحفلات الدينية وهو تقدمة من والد القيصر إلى المجمع المذكور. هذه خلاصة ما جرى للبطريرك الإنطاكي الأرثوذكسي في عاصمة الروس من الاحتفالات العظيمة التي يخلد التاريخ ذكرها جيلًا بعد جيل، وعند كتابة هذه الترجمة لا يزال صاحبها مظهرًا للتكريمات السامية التي لم يسبق مثلها لأحد البطاركة أسلافه في القرون الغابرة.

وصاحب الترجمة، جميل الصورة، رخيم الصوت، طاهر الذيل محب للسلام، يتقد غيرة على صالح رعيته. وهو ضليع في اللغة العربية

التي يكتب فيها نثرًا ونظمًا ببلاغة وقد أحكم بنوع خاص علم الفقه والمنطق والجبر والرياضيات والتاريخ، لاسيما علم الفرائض الذي تلقاه على الشيخ يوسف الأسير في بيروت، وله معرفة باللسان اليوناني وبعض الإلمام باللغتين التركية والروسية وقال الشعر منذ حداثته. ومن نظمه بيتان أرسلهما من طرابلس إلى الشيخ رشيد نفاع تهنئة بعيد الميلاد وبفاتحة عام ١٨٩٥ وهما:

لمولى قد تسمى بالرشيد هنا بالعيد والعام الجديد
فدم بالخير ما وافاك عام وبالاسعار عيد بعد عيد

ومن ذلك بيتان قالهما في خلال التأبين بمناسبة وفاة إسكندر الثالث قيصر الروس:

سقى قبره الدمع السخي وكله سخين فكاد الترب يحرق
وبرد مثواه دعاء خلائق له بينهم طول المدى أجمل

ومن نظمه أبيات قرظ بها كتاب «آفات المدنية الحاضرة» لمؤلفة جرجي نقولا باز:

ورد الكتاب مبينًا آفاتنا وملافياً ما فاتنا بمجاز
فاسلم طبيبًا شارحًا ومشرحًا ومعالجًا جرجي نقولا باز
لازلت بالتوفيق في الدنيا وفي أخرى تنال رضى الذي سيجازي

وفي غرة عام ١٩١٣، وافق وجوده في بيروت زائرًا عند المطران جراسيموس مسرة فأهداه المطران قلمًا ذهبيًا، فتناوله البطريرك وكتب به أبياتًا ارتجالية جاء في مطلعها:

كثبت بالقلم المهدى بلطفكم إلى حقارتنا تذكار شكراني
الله يحفظكم يا رافعًا علمًا للفضل والنبل بل يا خير مطران

«٢»

أحمد عزت باشا العابد

الكاتب الثاني للسلطان عبد الحميد ومنشئ جريدة «دمشق» وأحد المحررين في جريدة «سورية» الرسمية سابقًا

نشأته

هو ابن محيي الدين أبي الهول (المشهور باسم هولو باشا) ابن عمر آغا بن عبد القادر آغا بن محمد آغا بن الأمير قانص العابد من أمراء المشارفة. ينتمي إلى عشيرة عربية تعرف بقبيلة «الموالي» وتسكن الخيام في بادية الشام بين الزور وتدمر وهي تنتسب إلى قبيلة «بكر بن وائل» الحجازية.

القرشية كما ذكر الشيخ أبو الهدى الصيادي في كتابه المسمى: «الروض البسام في أشهر البطون القرشية في الشام».

ولد أحمد عزت ١٨٧٢ هجرية (١٨٥٥ ميلادية) في دمشق وقرأ مبادئ العلوم في حداثته على أشهر جهابذة ذلك العصر كالشيخ عبد الرحمن الإسنوي والشيخ أحمد الشطي والشيخ أحمد عابدين، فأخذ عنهم الصرف والنحو والفقه الحنفي وأصول الحديث وقسمًا من الرياضيات وتعلم مبادئ اللغات التركية والفرنسية والانكليزية في مدرسة الآباء اللعازريين وعلى أساتذة مخصوصين في بيت أبيه، ثم انتقل إلى المدرسة البطريركية في بيروت، فأتقن بها اللغة الفرنسية وأخذ العلوم العربية العالية على الشيخ ناصيف اليازجي مثل المنطق والبديع والمعاني والبيان.

وكان والده هولو باشا من المتقدمين في وظائف الحكومة العثمانية لذلك العهد، فقد أحرز رتبة «بيار بك» وتوصل إلى أن يكون متصرفًا على بعض الألوية مع أنه عربي الأصل، فسعى لبكر أنجاله صاحب الترجمة في وظيفة بمركز ولاية سوريا لما كان يتوسمه فيه من الذكاء والاستعداد لأرفع المناصب. وما كاد أحمد عزت يزايل المدرسة حتى تعين كويتيًا في قلم المخابرات التركية حيث أخذ يترقى حتى صار في سنة ١٨٧٣ رئيسًا لذلك القلم ولقلم المخابرات العربية أيضًا وقد

عهدت إليه الحكومة وقتئذ تحرير القسمين العربي والتركي في جريدة «سورية» الرسمية لبراعته في فنون الإنشاء، فنزعت به نفسه إلى خدمة المعارف بطريق الصحافة وأصدر باسمه عام ١٨٧٨ جريدة «دمشق» التي دافع بها عن الدولة والوطن وقد نشر على صفحاتها فصولًا كثيرة أشار فيها إلى مآثر العرب ومفاخرهم وعلومهم وفضائلهم لا يبغي من ذلك كله ربحًا عاديًا. ولبث على ذلك أعوامًا شتى حتى تكاثرت أشغاله وتعين لبعض الوظائف خارجًا عن مدينة دمشق فترك الجريدة.

وفي سنة ١٨٧٦ تعين كاتبًا لمجلس إدارة ولاية سوريا وبعد ثلاثة أعوام من التاريخ المذكور صار رئيسًا لمحكمة الحقوق ثم مسيطرًا عامًا على جميع المحاكم في ولايتي سوريا وبيروت ولواء القدس. ومما يثبت اقتداره في ضبط المحاكم ومعرفة القوانين؛ أن رستم باشا وواصا باشا كانا يعتمدان عليه ويستدعيانه لإصلاح شؤون محاكم جبل لبنان، فذاعت شهرته في البلاد وقام لفيف من العلماء والأشراف والتجار والشعراء، فقدموا مجموعة تتضمن ما خطه كل منهم نظمًا ونثرًا من آيات الثناء عليه وجعلوا ضفتي المجموعة من الذهب الإبريز ونقشوا اسمه على ظاهرها مرصعًا بالحجارة الكريمة. وفي سنة ١٨٨٤ تعين لمثل وظيفته في ولاية قونية، فاعتذر عن قبولها وحينئذ أرسلته الحكومة مفتشًا عامًا لمحاكم ولاية سلانيك.

وبعد سنة صار رئيسًا لمحكمة الجزاء البدائية في العاصمة ثم رئيسًا لمحكمتها الاستئنائية. غير أنه لم يمض شهران على ذلك حتى أقيم

رئيسًا عامًا على محاكم التجارة الأهلية والمختلطة مدة ستة أعوام. وفي خلال ذلك أظهر اقتدارًا في كثير من معضلات الدعاوى مع الأجانب بكشف الباطل ونصب ميزان العدالة. وفي سنة ١٨٩١ صار عضوًا لدائرة التنظيمات في مجلس شورى الدولة. وفي عام ١٨٩٥ انتدب السلطان عبد الحميد الثاني فجعله كاتبًا وقرينًا له ثم عهد إليه عضويات جميع اللجان المالية ورئيسًا على لجنة المهاجرين إلى الدولة العثمانية، فكان أحمد عزت مشمولًا بعناية السلطان الخاصة وأحرز من المجد وعلو المنزلة ما لم يحرزه أحد أبناء العرب المسلمين وغيرهم قبل هذا العهد في دولة الأتراك منذ تأسيسها.

ولبث في وظيفته الأخيرة ثلاث عشرة سنة يخدم دولته وسلطاته حتى طرأ الانقلاب العثماني في ٢٣ تموز ١٩٠٨ وجرى ما جرى مما هو مشهور ومعلوم، فحرج حينئذ من العاصمة على سفينة أجنبية مودعًا وطنه الذي أخذت تتلاعب به عواصف السياسة وتنتابه المصائب الجسيمة من كل جهة. فذهب إلى لندن أولًا ولم يتخذ مركزًا مخصوصًا للإقامة فيه، بل يتنقل من بلد إلى آخر كمصر وسويسرا وفرنسا وانكلترا بحسب اختلاف فصول السنة؛ لأن الأطباء أشاروا عليه باعتزال الأشغال مراعاة لأحوال صحته التي أثرت عليها العوامل السياسية.

آثاره العلمية

سبق القول إن المترجم تعلم اللغات العربية والتركية والفرنسية والانكليزية وأحكم أصولها تكلمًا وكتابة. وله أيضًا إلمام بغيرها من

الألسنة القديمة والحديثة التي لم يتمكن من درسها درسًا كافيًا لانصرافه إلى خدمة الدولة بطريق السياسة. ومع ذلك فإنه نقل من اللغة التركية إلى العربية كتاب «حقوق الدول» لمؤلفه حسن فهمي باشا والمجلد الأول من «تاريخ جودت باشا» لاحتوائه على فلسفة التاريخ وترجم كتاب «الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية» من اللسان العربي إلى التركي وأنشأ جريدة «دمشق» المار ذكرها وحرر جريدة «سورية» في قسميها التركي والعربي مدة من الزمان وشيد في المدينة المنورة مدرسة لمائتين من الأطفال وأنشأ لها أوقافًا تضمن بقاءها ونجاحها في المستقبل.

آثاره الوطنية

للمترجم أعمال جديرة بالذكر في الوطن والأمة العربية، فإنه لزم طريق الاقتصاد حتى كادت السلطنة العثمانية تستغني عن استقراض الأموال الأجنبية. ولما كان المقام يضيق دون نشر كل مساعيه النافعة نجتزئ منها بالقليل ونبسطه للقراء، فمن ذلك أن نظارة التلغراف كانت طلبت ١٣٠ ألف ليرا عثمانية لتنشئ خطًا برقيًا بين فزان وطرابلس الغرب ولدى مراجعته استكثر هذا المبلغ، فأخذ على عاتقه إنشاء الخط المذكور مع خط آخر يمتد من بنغازي إلى طرابلس الغرب بأقل من نصف المبلغ المشار إليه ثم أحدث بين «كله مش» من أعمال ولاية أزمير وبين «بنغازي» في طرابلس الغرب خطًا برقيًا بلا سلك. فسهل للدولة العثمانية حرية المخابرة بينهما وبين أملاكها في شمال أفريقيا ولم يكلف الخزينة أكثر من عشرة آلاف ليرة مرة واحدة، وبهذا العمل أنقذها

من استبداد شركة «استرن» التي كانت تقبض من الدولة في كل سنة ثمانين ألف ليرة ما عدا أجور المخابرات غير الرسمية، فعادت هذه الأرباح لخزينة السلطنة ثم مد خطًا تلغرافيًا بين دمشق والمدينة المنورة ولم يكلف الدولة أكثر من خمسة آلاف ليرة؛ لأنه تبرع بأكثر أعمدة الخط من أخشاب أحراشه الخاصة واستعان بالبعض الآخر مما تبرع به أهل الخير في دمشق.

وفي ذلك الحين طلبت الشركة التلغرافية الهندية رخصة بمد خط مستقل للمخابرات التلغرافية بين أوروبا والشرق الأقصى مع حق السيطرة عليه، فأبت أريحية صاحب الترجمة إجابة هذا الطلب وعهد إلى نفسه مد الخط المذكور على نفقة الخزينة تخلصًا من سيطرة أجنبية، فأنجز العمل في أقل من شهر ولم يكلف الخزينة بأكثر من ستة آلاف ليرة. مع أن نظارة التلغراف قدرت احتياج عمل هذا الخط بمائة وثلاثين ألف ليرا. وعند إتمامه تمثل أوقونور سفير بريطانيا العظمي في القسطنطينية لدى السلطان عبد الحميد شاكرًا ومستغربًا قصر مدة العمل وقلة تكلفته.

ولما كانت المياه الواردة إلى المدينة المنورة تأتيها بمجرى تتخلله جراثيم الأوبئة القتالة، أراد أن يضع حدًّا لهذا الخلل الذي طالما ذهب بأرواح الكثيرين من السكان والحجاج، فافتتح اكتتابًا حبيًا جمع فيه خمسة آلاف ليرا وابتاع بها قساطل حديدية وآلات بخارية رافعة وأنابيب على الطراز الصحي ثم بعث بها لحصر مياه الينابيع في القساطل وجرها إلى المدينة المنورة سالمة من الأقذار التي تلقى في مجاريها ليستقيها

الناس ماء قراحًا خاليًا من تلك السموم. وما كاد يشرع بالعمل حتى اضطر أن يفارق الوطن، فتوقف الشغل ولم تزل القساطل والآلات البخارية وفروعها ملقاة في محطة حيفا وسائر محطات السكة الحجازية.

ومن مآثره الوطنية أنه تولى رئاسة لجنة المهاجرين مدة لا تتجاوز ثمانية عشر شهرًا، فأنشأ في خلالها نيفًا وأربعين قرية وأسكن فيها حوالي خمسين ألف مهاجر أكثرهم في ولايتي سوريا وحلب ثم شيد من ماله الخاص في المدينة المنورة مستشفى لخمسين مريضًا ورباطًا لخمسين عائلة ومدرسة للأطفال وجعل لهذه المباني أوقافًا مسجلة في المحكمة الشرعية بالقاهرة. وعلى ما اتصل بنا الآن أن المباني المذكورة استعملتها الحكومة لغير ما وضعت له.

السكة الحديدة الحجازية

وكان المترجم منذ حداثة سنه يستعظم الأتعاب التي تلم بالمسلمين في ذهابهم إلى الحج وإيابهم منه وكان يستهجن الأموال الطائلة التي تبذلها السلطنة في هذا السبيل وفي نقل الجنود ومهماتها، فأخذ يتتبع ما فعلته حكومة روسيا بإنشاء السكة الحديدة لسيبريا. وبعد أن أتم أبحاثه عرض على السلطان وجوب إنشاء السكة الحديدة الحجازية بأيدي العساكر ثم أوضح له الأخطار التي تتولد عن بقاء الحالة على ما هي عليه وما يلحق بالدولة من الأضرار السياسية والاقتصادية وأخذ على عاتقه القيام بهذا المشروع الخطير الذي لم يقم في الدولة العثمانية

مشروع آخر يضاهيه أهمية ونفعًا حتى الآن، فاستحسن السلطان رأي كاتبه وأذن له بمباشرة العمل بينما لم يكن في يده دالق واحد ولا آلة ولا مورد يستند إليه، فافتتح أحمد عزت باشا لوائح الاكتتاب مقترحًا على الشعوب الإسلامية وملوكها وأمرائها وعلمائها أن يشتركوا في المساعدة، فلبى جميعهم النداء من مشارق الأرض ومغاربها وتبرعوا بالأموال الوافرة التي بلغ مجموعها نحوًا من ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه، فأنشأ بهذا المبلغ خطًا طوله ألف وخمسمائة كيلو متر يمتد من حيفا إلى دمشق فالمدينة المنورة بمدة وجيزة لا يتصور العقل الإتيان بمثلها وقد تحدث الاختصاصيون بذلك وقد روى صاحب الترجمة حق قدره لما أتى به من المدهش بهمته الشماء حتى أدرك البغية المنشودة. ولا ريب في أنه خدم المسلمين بهذا المشروع الجليل خدمة عظيمة؛ بحيث سهل لهم وسائل الاقتصاد والراحة بتقريب المسافات وتقليل النفقات وتوفير الأتعاب. وكان يؤمل أن يمد خطين من المدينة المنورة، أحدهما: إلى مكة وجدة وصنعاء اليمن والآخر إلى البصرة وأن تكون أكلاف إتمامهما من ريع خط الحجاز ومن الرسوم الطفيفة التي أحدثتها السلطنة لهذه الغاية ولكن أبت الظروف إلا أن يضطر للخروج من وطنه، فذهبت تلك الآمال إدراج الرياح. ولما تم خط «المدينة المنورة» أدخل إليها النور الكهربائي ولم يكن حينذاك له أثر في البلاد العثمانية وقد عهد بإنشائه إلى ضباط الجيش البحري ولم يصرف في سبيله دافقًا واحدًا من خزينة السلطنة.

الرُّتب وأوسمة الشرف

أخذ صاحب الترجمة يترقى في مدارج المراتب منذ كان في السنة الخامسة عشرة من عمره، فأحرز أولًا الرتبة الرابعة في عهد راشد باشا، والي سوريا، الذي توسم فيه الذكاء والنجابة ثم صارت تتوالى عليه الإنعامات مرة بعد المرة حتى منحه السلطان عام ١٨٩٤ رتبة «بالا» مع «الوسام المجيدي الأول» عندما كان بين المتمثلين لديه للتبريك في عيد الأضحى ثم نال «الوسام العثماني المرصع» مكافأة له على إنشاء الخطوط البرقية في طرابلس الغرب وحاز على «الوسام المجيدي المرصع» عند إتمامه خطوط الكويت وأوروبا ودمشق والمدينة المنورة وأنعم عليه بوسام «الافتخار المرصع» لما أبرز من السرعة بإعمار القرى لإسكان المهاجرين. وفي سنة ١٩٠٠ طلب بعض وزراء الدولة عقد قرض لأداء جانب من الديون، فاعترضهم أحمد عزت باشا واتخذ وسائل أوجد بها ما يفي تلك الديون بغير قرض. فرقاه السلطان إلى رتبة الوزارة تقديرًا لمساعيه في هذا العمل الجليل، ولما انتهت السكة الحديدة الحجازية إلى معان أنعم عليه بوسام «الامتياز المرصع» مع الميداليتين الذهبية والفضية وهو حائز أيضًا على جميع الميداليات الافتخارية العثمانية بلا استثناء. أما سائر الوسامات التي أهدتها إليه الدول الأجنبية، فعديدة وجميعها من أعلى طبقة كما هو ظاهر من رسمه وكثير منها مرصع بالحجارة الكريمة وقد خلا رسمه من بعضها لوفرة عددها.

صفاته

هو رجل مقدام، لطيف المعاشرة، معتدل القامة، حسن الأخلاق شديد الإكرام للضيف، محب لبني جنسه. وعندما كان في أوج مجده لدى السلطان عبد الحميد الثاني نفع كثيرًا من أبناء العرب طلاب الوظائف في الحكومة وما رد أحدًا منهم خائبًا، فسعى لكل من لجأ إليه في تعيينه بوظيفة أو ترقيته إلى منصب أعلى بحسب كفاءته ولياقته، فاكتسب بذلك ثناء الخاص والعام وفاز بمحبة مواطنيه على اختلاف النحل والملل وتواردت عليه مدائح الشعراء والبلغاء من داني البلاد وقاصيها.

وبعد اعتزاله الحياة السياسية، صار يقضي جانبًا كبيرًا من أوقاته في مطالعة الصحف ودرس أحوال الأمم والعناية بأملاكه الواسعة في سوريا ومصر. وكان للسلطان ثقة فيه يعول عليه في الأمور العظيمة لأنه رأى فيه وزيرًا عالي الهمة قوي الحافظة واسع الاطلاع في أهم مناهج الحكومة قضائيًا وسياسيًا وماليًا. وكنا نود بسط الكلام في سائر ما يتعلق بشؤون هذا الوزير العربي الذي أحرز شهرة في صحائف التاريخ الحديث قبل الانقلاب المشهور سنة ١٩٠٨ في السلطنة العثمانية. ولكن نترك للمستقبل الحكم له أو عليه بعد خروج هذه الدولة من المأزق الحرج الذي أوصلتها إليه السياسة الحاضرة فتقتطع جهينة قول كل خطيب.

«٣»

عبد الرحمن الكواكبي ،

محرر جريدة «فرات» ومنشئ جريدتي «الشهباء» و«اعتدال» ..

في حسب العظمة والشهرة صديقتان يغلب أن تتصاحبا فلا تكون إحداهما بدون الأخرى. ولكنهما كثيرًا ما تفترقان فتكون العظمة بلا شهرة والشهرة بلا عظمة، فترى بين أهل الشهرة الواسعة من إذا لقيتهم وسيرت غورهم رأيتهم كالطبل يدوي صوته إلى بعيد وجوفه فارغ. وإنهم إنما نالوا تلك الشهرة بما طبعوا عليه من الميل إلى نشر محامدهم في الصحف ليقرأها الناس ويتحدثوا بها وقد ينفقون المال ويتحدون أوعر أسباب السعي في هذا السبيل وترى بينهم من لا محمدة له فينتحل محامد غيره أو تكون له حبة منها فيجعلها قبة. فإذا نشر ذلك عنه في صحيفة أو نشرة أو كتاب حمله وطاف به في الأهل والأصدقاء يترنم بقراءته عليهم ويتلذذ بما يلقي من آيات الإعجاب وخصوصًا في هذه البلاد– بلاد المجاملة التي يزداد فيها المغرور غرورًا إذ لا يسمع من الناس إلا إطراء وإعجابًا ولو كانت حالي تدعو إلى التقريع والتعنيف– ويعدون ذلك من آداب الحديث.

فما كل شهير عظيم ولا كل عظيم شهير، فكم بين ظهرانينا من رجال توفرت فيهم شروط العظمة ولو رافقتها الأسباب لأتوا بالأمور العظام وقد تظهر مواهبهم من خلال أعمالهم وإن ضاقت دائرة العمل

ولكنهم لرغبتهم عن الشهرة لا يعرف أسماءهم إلا القليلون. فإذا أصابهم سوء، أذاع مريدوهم أخبارهم وتحدثوا بأفضالهم.

ومن هذا القبيل عبد الرحمن الكواكبي الحلبي، فقد جاء مصر سنة ١٣١٦هـ وأقام في قلب العاصمة ومع سعة علمه وغزارة مادته لم يسمع بذكر أحد ولا عرفه إلا الأصدقاء وهناك أناس يقصرون عن إدراك بعض منزلته علمًا وفضلًا ولكنهم لا تطأ أقدامهم مصر حتى تتناقل الصحف أخبارهم بما ينشرونه فيها من نفثات أقلامهم أو ثمار قرائحهم– وقد لا تكون تلك الثمار شهية– وإنما يعمدون إلى نشرها رغبة في الشهرة. فالكواكبي لم يكن من أولئك ولكن همه كان منصرفًا إلى خدمة الوطن ونشر المبادئ الصحفية فيه بالتأليف والتلقين والصحافة بعد أن قضى معظم العمر في خدمة الحكومة العثمانية في حلب وقام بأمور صعاب من وشايات ذوي الأغراض، فلم يلق تربة تصلح لغرس مبادئه، فجاء مصر ونشر بعض كتبه، فعاجله الأجل فمضى ومضت معه أمانيه وهي شبيهة بأماني جمال الدين الأفغاني وقد استهلك في سبيلها كما استهلك ذاك من قبله.

ترجمته

آل الكواكبي أسرة قديمة في حلب هاجر إليها أجدادهم منذ أربعة قرون ولهم شهرة واسعة ومقام رفيع في حلب والأستانة. يرجعون بأنسابهم إلى إبراهيم الصفوي أحد أمراء أردبيل العظام ولهم آثار مشهورة

منها «المدرسة الكواكبية» في حلب ونبغ منهم جماعة كبيرة من العلماء ورجال الإدارة، ومنهم عبد الرحمن الذي ولد في حلب سنة ١٢٦٥ هجرية (١٨٤٩ ميلادية) وأبوه الشيخ أحمد الكواكبي أحد مدرسي الجامع الأموي الكبير.

تلقى عبد الرحمن مبادئ العلم في بعض المدارس الأهلية ودرس العلوم الشرعية في المدرسة الكواكبية وأتقن العربية والتركية وبعض الفارسية ووقف على العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحديثة. وكان ميالًا من حداثته إلى صناعة القلم، فاشتغل في تحرير جريدة «فرات» التي كانت تصدر في حلب باسم الحكومة وهو في السابعة والعشرين من عمره. حررها خمس سنوات وأنشأ في ١٠ أيار ١٨٧٧ بالشركة مع هاشم عطار جريدة سماها «الشهباء» ثم أصدر لنفسه في ٢٥ تموز ١٨٧٩ جريدة سماها «الاعتدال» باللغتين العربية والتركية واشتغل بخدمة الحكومة فتقلب في عدة مناصب علمية وإدارية وحقوقية وأهل النقد يذكرون فضله في كل واحدة منها كبيرها وصغيرها؛ لأن اقتدار الرجل يظهر في الصغائر كما يظهر في الكبائر. وكان حب الإصلاح وحرية القول والفكر باديين في كل عمل من أعماله، فلم يرق ذلك لبعض أرباب المناصب العليا فوشوا به، فتعمدت الحكومة حبسه ثم جردوه من أملاكه. فلم يقلل ذلك شيئًا من علو همته فغادر الوطن في أوائل شهر محرم سنة ١٣١٦ هجرية وطلب بلاد الله، فجاء مصر ثم خرج منها سائحًا فطاف زنجبار والحبشة وأكثر شطوط شرق آسيا وغربيها ثم رجع إلى مصر. ومما يذكر له ونأسف لضياع ثماره أنه رحل رحلة لم يسبقه

أحد إليها ويندر أن يستطيعها أحد غيره. وذلك أنه أوغل في أواسط جزيرة العرب فأقام على متون الجمال نيفًا وثلاثين يومًا فقطع صحراء الدهناء في اليمن ولا ندري ما استطلعه من الآثار التاريخية أو الفوائد الاجتماعية فعسى أن يكون ذلك محفوظًا في جملة متخلفاته وتحول من هذه الرحلة إلى الهند ثم شرقي أفريقيا أيضًا وعاد إلى مصر وكان أجله ينتظره فيها فمات سنة ١٩٠٣.

كان الكواكبي واسع الصدر، طويل الأناة، فصيح اللسان، معتدلًا في كل شيء وكان عطوفًا على الضعفاء حتى سماه الحلبيون «أبا الضعفاء». وجاء في جريدة «الرائد المصري» أنه كان له في بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس ويبعث إلى المحاكم من يأمنهم من أصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين.

وكان واسع الاطلاع في تاريخ المشرق على العموم وتاريخ الممالك العثمانية على الخصوص وله ولع في علم العمران وألف كتبًا لم ينشر منها إلا كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» وهو فريد في بابه وكتاب «أم القري» الذي راجعه منه الشيخ محمد عبده. ومع تمسكه بالعقيدة الإسلامية والمطالبة بحقوقها والاستهلاك في سبيل نصرتها، فقد كان بعيدًا عن التعصب يستأنس بالمسيحي والمسلم واليهودي على السواء لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة. ومن يقرأ ترجمة الكواكبي والأفغاني وغيرهما من رجال هذه النهضة ويدرس أعمالهم والأحوال المحيطة بهم؛ يعترف بفضلهم في نصرة الحقيقة

وتأييد الحق والحرية. وقد نقلنا هذه الترجمة عن الجزء الأول من كتاب «تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر» لجرجي بك زيدان وتصرفنا فيها قليلًا.

حسن حسني باشا الطويراني

مؤسس مجلة «الإنسان» ومحرر جرائد «السلام» و«الاعتدال» و«ارتقا» و«زمان» في القسطنطينية ومحرر مجلة «المهندس» ومنشئ جريدة «النيل» ومجلات «الشمس» و«الزراعة» و«المعارف» في القاهرة.

هو ابن حسين عارف بك بن حسن مهراب بك بن محمود بك بن مسيح بك بن علي باشا الكبير، أحد أمراء الأتراك في مقدونيا منذ عهد بعيد. كان مولده بتاريخ ٦ ذي القعدة من سنة ١٢٦٦ هجرية (١٨٥٠ ميلادية) في مدينة القاهرة ومنذ حداثته نزعت به نفسه إلى تحصيل العلوم فنال منها نصيبًا وافرًا. وأحكم أصول اللغتين العربية والتركية، فبرز فيهما شعرًا ونثرًا حتى صار من أعظم الكتبة المعدودين في عصره وطاف مرات كثيرة في آسيا وإفريقيا وشرق أوروبا وقد أعرب عن نفسه بقوله:

شـــــرق النســـــر وغـــــرب وتتـــــــــــرك وتعـــــــــــرب
فتحـــــــــــري وتـــــــــدرب وتســـــــــاءت وتقـــــــرب
ولـــــئن أطـــــري وأطـــــرب فهـــــو نصـــــاح مجـــــرب
وهـــــو إن أعـــــرب أغـــــرب وهـــــو إن أعجـــــم أعـــــرب

وفي عام ١٨٨٠، سكن القسطنطينية وأخذ يحرر في صحفها الشهيرة من عربية وتركية وهي: «السلام» و«الاعتدال» و«ارتقا» و«زمان» وغيرها وأنشأ في ٢٨ أيار ١٨٨٤ مجلة «الإنسان» التي حولها بعد ذلك إلى جريدة فعاشت خمسة أعوام ثم سافر إلى القطر المصري حيث أصدر جريدة «النيل» ومجلة «الشمس» ومجلة «الزراعة» ومجلة «المعارف» وكتب في مجلة «المهندس» وغيرها من الصحف التي سيأتي ذكرها في جزء آخر من هذا الكتاب وحلت وفاته في أواخر شهر حزيران ١٨٩٧ (١٣١٥ هجرية) في القسطنطينية، فرثاه الشاعر الكبير ولي الدين بك يكن بقصيدة نورد منها هذه الأبيات:

أفروق شأنك في الورى عجب — دأب لأرضك تأكل الحرا

قل النعاة طوى الردى حسنًا — قلت اندبوه فقد طوى الدهرا

وطوى الطبيعة بعده وطوى ما — بعدها حتى طوى النشرا

وفي أثناء دفنه، ارتجل أحد أصدقائه تاريخًا لوفاته فقال (غفر له)، فجاء مطابقًا للسنة نفسها (١٣١٥) بحساب الجمل وكان صاحب الترجمة حر الطباع، حاد المزاج، قضى عمره بخدمة الدين الإسلامي وإعلاء شأن المعارف لا يتزلف لكبير متمول ولا يرضخ لعدو وقد كافأه السلطان على ذلك بأن منحه رتبة «مير ميران» وبعض أوسمة الافتخار. أما هيئته فقد وصفها عبد الغني العريسي صاحب جريدة «المفيد» البروتية بما يأتي: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، كان ذميم الخلق، قبيح المنظر، غائر العينين، مستطيل الوجه نحيف الجسم متراخي

الأطراف. قيل في حنكه عوج وفي رجله عرج تبدو على أسارير وجهه سيماء الوفاة وبين تضاعيف قلبه طيب الحياة..» وألف كتبًا كثيرة طبع بعضها وبقي البعض الآخر غير مطبوع، وهي: «حجة الكرام في محجة أهل الإسلام» و«خلاصة الكلام في وجوب الإمام» و«حجة الإسلام في علم الكلام» و«إرشاد الخليل في فن الخليل» و«النصيح في لوازم عالم الإسلام» و«والخلافة في الإسلام» و«أحكام التصوير» و«أحكام الدخان» و«إجابة السائل لحل بعض المسائل» و«الإنصاف في حقوق الأشراف» و«ارتياح الجنان بأرواح الجنان» و«التوحيد». و«حسن المساعي» و«التهذيب الإلهامي في خدمة الدين الإسلامي» و«تحفة الأعيان في آثار الإخوان» و«الحق روح الفضيلة» و«خط الإشارات» يشتمل على موضوع الإشارات الكتابية التي تستخدم في بيان المفاهيم الزائدة على الحروف والأحوال الصوتية و«شرح المبادئ الحسنية في أصول الحكمة الدينية» و«الروضة الندية في الطريقة الأحمدية» و«دليل أهل الإيمان على صحة القرآن» و«الرحلة الحسنية» و«الرحلة السودانية» و«زهرة الحياة الدنيا في شعر الأموات والرؤيا» و«ودلالة الشعر في مستقبل الأمر» و«عصمة الجماعة في وجوب الطاعة» و«الحديث» و«سر القدر» و«السيار الشرقي» و«سوط العذاب» و«شمس المشرق في سماء المنطق» و«درس الحكم» و«السيف القاطع في إثبات النبوة» و«صبابة الرحيق في كؤوس الشقيق» و«مطية الحقيقة في ترتيب الخليقة» و«صولة القلم في دولة الحكم» في ستة مجلدات و«الصدع في أسباب انحطاط وارتقاء الإسلام» و«فاسقة

الأخلاق ومنظومة الأخلاق» و«النشر الزهري في رسائل النسر الدهري» يشتمل على مواضيع خيالية تحتها أفكار فلسفية وسياسية وسواها و«الوطن» و«الإخاء العام بين شعوب أهل الإسلام» ورسالة «ضلال المهدي» و«ظهير الشرق» و«رسائل اليانوس» وهي أدبية فلسفية وقصة «الوارث ابن تارك مع حبيبه الباكي ابن ضاحك» فيها مضامين سياسية ورسالة «هدية الأتقياء في نسب الأنبياء» و«مصابيح الفكر في السير والنظر» و«أحكام السياسة وحكمها» و«منارة الأحباب في جنات الآداب» و«مقامات الحسن» و«منشآت الحسن» وهي مقالات سياسية نشرها في جريدة «النيل» تباعًا ثم استبدلها بعنوان «المستوجزات» و«الشكل في سر الرمل» ورسالة في «الزجل» و«مدهشات القدر» و«فهرست الانقلاب» و«يوم الدهر في انقلاب مصر» و«أدوار مصر والمصريين». وباشر تأليف بعض الكتب ولم يتممها وهي: «التاريخ العثماني» و«التفسير القرآني» و«عوامل المستقبل في أوروبا» و«التوفيق الخيري»، وترك جملة دواوين شعرية وهي: «ثمرات الحياة» في جزئين و«شطحات القلم» و«طوالع الأماني» و«ندوة الراح» و«لواحق الثمرات» و«منظومة البديع» و«منظومة جواهر العقائد». أما تآليفه في اللغة التركية، فهي: «حجة الأبرار على محجة الأشرار» و«جان كوكل صحبتي» و«خلاصة تاريخ بيغميري» و«رازدرون» و«اولمش برشئ» و«سيار أفكار» و«قاموس خيال» و«يادكار» و«خلاصة مدنية إسلام». وله أيضًا ديوانان في الشعر التركي: أولهما «كلشن شباب» وثانيهما «ديوان حسني».

ونختم سيرة هذا الصحافي بسرد شيء من نفثات شعره، فمن ذلك ما قاله ردًّا على القصيدة التي مطلعها «دع مجلس الغيد الأوانس» بقلم إبراهيم اليازجي، وهذا أول الرد:

دع عنـــــك خائنــــــة الوســـــــاوس ... فالـذل عــاقبــة الدسـائـس
واخـــــش الكـــــلام فكـــــم جنــــت ... حرب البسوس وسبق داحس
مــــــاذا تريـــــــد بشـأنهـــــــــا ... دهيـــــاء تــوحش كل آنـس

ومن أطيب ما نظمه قوله:

إن الحيـــاة وطيبهـــا ونعيمهـــا ... ممـــا يؤمـــل فـــي الزمــــان
غـاياتنــــا فيــــه بدايـــة غيرنــا ... كالشمس مغربها لغيرك مشرق

وقال في الحماس:

خلقـــت للســـيف والقرطـــاس ... فالدهر عبدي وأهل الدهر من
لا تنثني هممي عن نبل محمدة ... ولا تـرد على رغـم العدا كلمـي
تنزهـت شـيمي عـن كـل شـائبة ... وبـذخت فاعتلـت هـام العـلا
حفظت ماء المحيا إذ ضننت به ... وقلت هنئت يا يوم الفخار دمي
لـو أنـن عقـد الثريـا كـان لؤلـؤه ... نثار خطى لما هشت به هممي
أو أن بدر السما يسعى بشمس ... لمـا اسـتمال فـوآدي او سـبي
دعني أخا الشوق لا تذكر لدي ... مـا ابعـد العهـد بـي مـن جيـرة

وقال في الحكم:

لا تقــــــل إنــــــي صــــــديق ... أو فــــلان لــــي صــــديق

إنمـــــا أنـــــت وهـــــذا كرفيـــق فـــي طريـــق
فاجتمـــاع فـــي اتســـاع وافتـــراق وقـــت ضـــيق

وقال أيضاً:

أما والدي فوق السموات عرشهُ وتتحت الثرى من غامض الأمر فرشهُ
ومن عمم الجاني والبر فضله من أدرك الجبار ذا الجأش بطشهُ

منشيء مجلة «الحقوق» في القسطنطينية

جاء منكوبو حاصبيا إلى بيروت سنة ١٨٦٠ وهم بحالة يرثى لها ثكلًا ويتمًا عدا الرعب والتعبْ وقد بعثرتهم المذبحة وشتت شملهم بعد أن نهبهم الثوار وصادروهم، فلجأوا إلى بيروت عائلات مفردة وجماهير ولكن العناية عوضت عيلهم أضعاف ما خسروا، فتعلم بعضهم وامتاز بالعلم وأثرى البعض الآخر واشتهر بالثروة وجمع غيرهم بين الأمرين معًا. وكان بمقدمة المستفيدين علمًا ومالًا الدكتور فارس نمر أحد أصحاب «المقتطف» و«المقطم» في مصر والدكتور إلياس بك مطر منشيء مجلة «الحقوق» التركية العربية في القسطنطينية.

وُلد إلياس في حاصبيا سنة ١٨٥٧ وكان أبوه ديب بن إلياس مطر تاجرًا فيها وأسرته أكثر أسرها عددًا ومن أهمها مكانةً وكانت أمهُ خاتون بنت يوحنا دوماني أبنانية من دير القمر وعائلتها معروفة بالوجاهة والفضل. فلما حدثت مذبحة حاصبيا سنة ١٨٦٠ هجر ديب مطر وعائلته تلك الربوع وجاءوا بيروت عن طريق «المختارة» بحماية سعيد

بك جنبلاط أحد زعماؤء الدروز واستقروا هنا ونشأ منهم الطبيبان الدكتور إلياس والدكتور إبراهيم والصيدليان ملحم وفيليب، فتلقى إلياس مبادىء اللغتين العربية والفرنسية في مدرسة طائفة الروم الأرثوذكس الكبرى «ثلاثة الأقمار» على عهد مديرها إلياس بك حبالين محرر جريدة «لبنان» الرسمية. ثم دخل «المدرسة البطريركية» للروم الكاثوليك وأتقن فيها لغة العرب على سليم بك تقلا مؤسس جريدة «الأهرام» والشيخ ناصيف اليازجي العلامة الشهير وبرع بلغة الفرنسيس وألم بالتركية. وبعد أن لازمها خمس سنوات، انتقل منها إلى «الكلية السورية الإنجيلية» للأميركان حيث درس الكيمياء والنبات والصيدلة. وكان يمارس هذا الفن عند أخيه ملحم في صيدلية «النحلة» الباقية إلى اليوم بعهدة أخيهما فيليب وكان يأخذ منه أجرة شغله ويدفعها راتبًا للدكتور فارس نمر ليعلمه الكيمياء علاوةً على الدروس المفروضة وألف أثناء ذلك تاريخًا لسوريا وكان شديد الرغبة في المطالعة والدرس، فلم يصرف ساعة من فتوته باللهو إلا ما استوجبته الرياضة. وكثيرًا ما اختلى في غرفة وارتقى الفرش في الخرانة كمنبر وواقف المساند وخطب فيها كأنها بشر وأشبعها نصحًا وإرشادًا وانتقادًا. منذ أبصر نور الشمس سافر إلى القسطنطينية ليؤدي امتحانًا بالصيدلة وينال شهادة رسمية. وبعد ما أدى الامتحان ونال الشهادة طلب من وزارة المعارف رخصةً بطبع كتابه «تاريخ سوريا» فأجازت له بطبعه وقابل وزيرها جودت باشا العالم المشهور والد الكاتبة التركية فاطمة علية وقد تم له قصيدة فسر الوزير بجرأة الفتى وأعجب باستعداده فدعاه إلى تعليم ابنه علي سداد بك ومعاشرته والمعيشة معه

في ببيته، فأقام عنده معززًا مكرمًا زهاء عشر سنوات درس جيدًا خلالها لغة الأتراك وأتقنها على يد ممدوح بك أحد علمائها الذي صار بعد ذلك وزيرًا للداخلية وبقي فيها إلى إعلان الدستور. وقد اختار جودت باشا هذا الأستاذ ليعلم ابنه احترامًا منهُ لأهليته ثم أشار عليه بدرس الطب في المكتب السلطاني، فدرسهُ ونال الشهادة الطبية رسميًّا وعينه ملازمًا في وزارة المعارف وأبقاهُ عشيرًا لولده ونزيل قصره.

وإذ تعين جودت واليًا للشام، جاء معه إلياس وتعين طبيبًا لبلدية دمشق. ولما ترك الولاية عاد وإياه إلى العاصمة فوظفته وزارة المعارف مفتشًا للمدارس العالية وعينتهُ نظارة المكتب الطبي طبيبًا لهذه المدارس. وعندما أنشيء مكتب الحقوق دخل يدرس فيه حقوق الناس وشرائعهم ونظاماتهم مع بقائه في الوظيفتين. وهو من أول صف نال شهادة هذا المكتب إلا أنه بعد نيله هذه الشهادة ترك طبابة المدارس واشتغل بالمحاماة مدة وانتظم عضوًا في محكمة التجارة في لك أوغلي (بيرا) وانتقل منها إلى عضوية محكمتي الحقوق والجزاء. واتفق حينئذ أن تلاميذ المكتب الطبي نفروا من أستاذ حفظ الصحة واستبدل بغيره وهذا لم يوافقهم، فتعين الدكتور مطر أستاذًا لهم وبقي عضوًّا في محكمة الجزاء، فسروا به كثيرًا وصفقوا لأول درس منه تصفيقًا حادًا. وإذ بدت مقدرته بهذا العلم عينوه أستاذًا له أيضًا في المكتب الملكي الشاهاني كما عينوه لتدريس المواد الجزائية في مكتب الحقوق. وهكذا كان أستاذ ثلاثة مكاتب عالية رسمية في وقت واحد وظل يأخذ رواتب أربع وظائف معًا نحو عشرين سنة إلى أن أحيل على التقاعد سنة ١٩٠٩ لداء اعتراه

مع حفظ الحق له بالرجوع إليها حالما يشفى. ومع وفرة اشتغاله وتعدد وظائفه اعتنى كثيرًا بالعلم والأدب وألف اثنين وثلاثين كتابًا طبعها كلها في العربية والتركية ومنها بلغتنا «تاريخ سوريا»«شرح مجلة الاحكام» وأنشأ مجلة «الحقوق» في اللغتين العربية والتركية بالاشتراك مع المحامي إلياس بك وسام وأصدرها خمس سنوات وله كتاب في «علم حفظ الصحة» قررت وزارة المعارف تدريسه في المكاتب المالية. وقد تدرج بالرتب الرسمية إلى أن بلغ الأولى صنف أول ونال وسامين العثماني والمجيدي واكتفى بلقب بك وكان عضوًا في «الجمعية الطبية العثمانية» و«دائرة التأليف والترجمة» في نظارة المعارف وكانت الدولة تعتمد عليه في درس بعض المسائل وفض بعض المشاكل؛ مما زاد من واجباته. وبحكمته جمع ثروة وافرة وقد ربح من تدريسه الطب وتآليف فقط نحو خمسة آلاف ليرة وتزوج آنسة يونانية وأنجبا ابنتين وصبيين وكان ضليعًا في العربية والتركية والفرنسية يحسنها كلها تكلمًا وملمًا بالانكليزية ومتقن التكلم بلغة اليونان.

عاد إلى بيروت في أواخر عام ١٩٠٩ يشكو الزلال داء به وهو في الثانية والخمسين، فما أفاده تغيير الهواء ولا مهارة الأطباء. وفي الرابع والعشرين من أيار سنة ١٩١٠ توفي فجرى له مأتم حافل اشتركت فيه الحكومة رسميًّا وعززته بفرقة من الجند تكريمًا للفقيد. وقد أقيمت الصلاة عليه في كنيسة القديس ديمتريوس وابنه المطران جراسيمون مسرة ودُفن في مقبرة النبي إلياس بطيئًا منضمًا إلى رفات والديه وكان

قصير القامة ممتلىء الجسم أبيض اللون أسود العينين (جرجي نقولا باز).

منشيء جريدة «الصدى» في باريس و«السلام» في القسطنطينية ومراسل صحف «الجوائب» و«الجنان» و«الأهرام» و«مرآة الأحوال»

(أحبائي قد شطت دياري عنكمُ ودهـــري فيمـــا ابتغيـــه يعانـــدُ)
(فـؤادي قريـب مـنكم فـى بعـاده ومـن غيـركم فـى قربـه متباعـدُ)

نشر قسطاكي بك حمصي سنة ١٩٠٣ ترجمة هذا الصحافي الجليل في كتيب عنوانه: «السحر الحلال في شعر الدلال»، فاقتطفنا منها ما يأتي وأضفنا بعض زيادات تناسب المقام:

وُلد في ٢ نيسان ١٨٣٦ وهو سليل بيت كريم من أعرق بيوتات حلب في العز والجاه، فنشأ في بيت أبيه عبد الله دلال ومجلسه إذ ذاك منتدى الفضلاء ومثابة النبلاء يقصده أدباء الوقت وشعراؤه مثل فتح الله مراش ونصر الله الطرابلسي وسواهما. وفقد صاحب الترجمة أباه صغيرًا، فاعتنت شقيقته مادلينا بتربيته وهي من فاضلات النساء وقد نظم المعلم بطرس كرامة تاريخًا لضريح عبد الله دلال بقوله:

لحـد ثـواه ابـن دلال التقـي فغـدا برحمـــة الملـــك القـــدوس مغمـــورا
قضى الحياة على نهج الصلاح وقد لاقـــى المنيـــة مبـــرورا ومشـــكورا
نـــاداه رب غفـــور إذ نؤرخـــهُ نـل جنـة الخلـد عبـدالله مسـرورا

سنة ١٨٤٧

ولما أكمل درس مبادىء القواعد العربية، أرسلته أخته إلى مدرسة عين طورا بلبنان، فلم يلبث فيها إلا ستة شهور ثم عاد إلى حلب وكأنه درس الفرنسية والإيطالية سنين طوالًا؛ وذلك لما أوتيه من توقد الذهن وملكة الحفظ، فأقام فيها يطالع العلوم بنفسه ويدرس أصول اللسان التركي. ومال إلى اقتناء الكتب فلم يقع كتاب نفيس في يده إلا اشتراه، فأصاب حظًّا وافرًا من علوم العرب وكان يحفظ جل ما كان يقرأه، كما حفظ ديوان المتنبي وأكثر شعر الصفي ومقامات الحريري وكثيرًا من مقدمة بن خلدون والمعلقات السبع وطائفة من أشعار العرب وقسمًا كبيرًا من القرآن وكانت له مشاركة في أكثر العلوم ودرس فن الرسم فأصاب شيئًا منه. وكان شديد الولع بالغناء، عارفًا بفن الموسيقى، متمكنًا من علمي الجغرافية والتاريخ وله رسالة في التاريخ العام غير كاملة، وكان يحرز حصة حسنة من العلوم الرياضية والفلسفة والطب ويتتبع العلوم والفنون المصرية والاكتشافات والاختراعات. فكان صدره أشبه بخزانة علوم وفنون؛ فلا يسأل عن علم أو اختراع أو مسألة فلكية أو سياسية إلا ويجيب أحسن جواب، بل كثيرًا ما كان يأخذ في الشرح والتعليل كأنه من أئمة ذلك الفن فيجيده غاية الإجادة. وكان طيب الحديث، لسانًا فصيحًا وشاعرًا متفننًا من الطراز الأول، سريع التصور، لطيف الشمائل، خفيف الروح صحيح الانتقاد يميل إلى المزاح أحيانًا وكان الغالب على طباعه سلامة السريرة وكثرة الوفاء وحرية الفكر. ولماكان في نحو العشرين من عمره مات له عم في القسطنطينية بلا عقب وترك ثروة كبيرة، فسافر إليها ليستولي على حصته من التركة المذكورة ثم عاد إلى وطنه بعد خمسة شهور.

وإثر رجوعه بمده قصيرة، تزوج فتاة من أجمل بنات الشهباء، بل بنات الشرق جامعة بين الذكاء والصيانة. وفي سنة ١٨٦٨ عاد إلى القسطنطينية، فلبث فيها إلى السنة التالية وفي تلك الأثناء نظم من القصائد والمقطعات شيئًا كثيرًا، كقوله من قصيدة يمدح بها جودت باشا:

العلـم بعـض صـفاته والفضـل بعـ ـض خلالـه والعلـم بعـض خصـالهِ
والجـود مـن أسـمائه والسـعد مـن قرنائـــه والـــيمن مـــن إقبالـــهِ

ثم استصحب قرينته معه إلى أوروبا وزارا أكثر مدنها الشهيرة. وبعد مدة قصد صاحب الترجمة بلاد البرتغال لقضاء حاجة كانت في نفس أحد أصحابه من الأشراف توسل إليه في التمامها من ملك تلك الدولة. فلما تشرف بمقابلة الملك، أجاب الملك سؤله وبلغه مأموله وربح جبرائيل من ذلك مالًا جزيلًا. ومر في طريقه بأسبانيا وأحب أن يتفقد آثار العرب في الأندلس وما كان لهم هناك من ضخامة الملك واتساع الحضارة ثم عاد إلى مرسيليا، حيث أصيبت قرينته بمرض عضال فماتت مأسوفًا على شبابها، فرثاها رثاءً مؤثرًا بقوله:

لـــي حالـــة يكتمهـــا تجلـــدي إظهارهـــا يصـــدع قلـــب الجلمـــد
قـــد شـــرد الغـــم جنـــاني بالأســـى وقيـــد الهـــم لســـاني ويـــدي
فبـــاطن تبكـــي لـــه أحبتـــي وظـــاهر تضـــحك منـــهُ حســـدي
وما جرى نقى الكرى وفي الورى بعـد الـذرى عـدت أرى فـي الوبـد
مـــن محنتـــي وفكرتـــي ولـــوعتي تجلـــدي تســـهدي تنهـــدي
وهمتـي تـأبى الخمـول فتـرى الـ جـــد مقيمـــي القضـــاء مقعـــدي
علـــى شـــبابي والـــبلاد والغنـــى واحســـرتي وأحزانـــي وأكمـــدي

ولما لم يطق الإقامة في المدينة المذكورة بعد وفاة زوجته، سار إلى باريس ومنها إلى بلاد الجزائر في المغرب والأوسط ومنها إلى بلجيكا ثم رجع فألقى عصا التسيار في باريس وهناك انتدبه سنة ١٨٧٧ وزير المعارف بتحرير جريدة «الصدى» العربية التي كانت تصدر فيها بأمر الحكومة الفرنسية. وكان يترجم بين سفراء الحكومات العربية الذين كانوا يقصدون باريس كوزراء مراكش وتونس وزنجبار وبين وزراء فرنسا وغيرهم من أشراف العاصمة، وبين أولئك الوزراء نذكر خير الدين باشا وزير باي تونس، فإنه اتخذ صاحب الترجمة نديمًا له وجعله أمين سره وكلفه ترجمة رسالات عديدة سياسية من اللسان العربي إلى الفرنسي وتهذيب بعض الرسائل التي كان يكتبها الوزير بالعربية.بوقد توثقت عرى المودة بينهما فلم يكن يستغني عنه يومًا حتى أنهُ استصحبه معه إلى حمامات فيشي حيثما كان يذهب في صيف كل عام أكثر رجال السياسة من سائر الممالك للمذاكرة في المهمات متسترين ببراقع الاستحمام. ومن غرر أشعاره الموشح الذي مدح به خير الدين باشا ومطلعهُ:

ساعد الحظ بذا اليوم السعيدْ — طالعٌ ميمونْ

فغدا عود اللقا أبهج عيدْ — صفوهُ مضمونْ

جرد البرق على عنق الغمامْ — صارمًا بتارْ

فانبرى يفتك في جيش الظلامْ — آخذًا بالثأرْ

وهفا خفقا كقلب المستهامْ — إثرَ ركبٍ ثارْ

ولما انتدب خير الدين باشا سنة ١٨٧٩ لمنصب الصدارة العظمى، كتب إلى جبرائيل يستدعيه إلى القسطنطينية، فلبى هذا أمر الصدر الأعظم وكان يأكل على مائدته ويملي على سمعه درر مفاكهته وكلفه الصدر المشار إليه إنشاء جريدة «السلام» وكان خير الدين باشا ينشر بها آراءه السياسية وأفكاره في طرق إصلاح السلطنة ثم ألغيت الجريدة وكان صاحب الترجمة قد نال شهرة بعيدة لدى أعاظم رجال الدولة العثمانية.

وبعد استقالة خير الدين باشا من منصب الصدارة وردت الرسائل على الدلال من رئيس المكتب الملكي في فيينا عاصمة النمسا، يطلب بها إليه أن يكون أستاذًا أول في المكتب المذكور، فرحل إليها سنة ١٨٨٢ حيثما لبث سنتين وألف لتلامذته رسالة في الهمزة وأحكامها ورسالة ثانية في قواعد اللغة العربية تقرب منالها على الطالبين من الفرنج. وكان يراسل في أسفاره أهم جرائد ذلك العصر كصحيفة «الجوائب» في الأستانة و«الجنان» في بيروت و«الأهرام» في الإسكندرية و«مرآة الأحوال» في لندن. وفي تلك الأثناء اقترح عليه السيد موسى المفضل، وزير مراكش، أن يمدح سلطانها مولاي حسن، فنظم قصيدة من غرر القصائد حازت حسن القبول. ولما وافى باريس ناصر الدين شاه إيران، طلب سفيره حينذاك يعقوب خان إلى جبرائيل دلال أن يمدح جلالته، فنظم قصيدة شائقة مطلعها:

يـــا لهـــا الملـــك المظفـــرْ ذو الـــــبطش والليـــــث الغضـــــنفرْ
يـــا ناصـــــر الـــدين الـــذي فـــي الملـــك قـــام مقـــام حيـــدرْ

وفي صيف سنة ١٨٨٤ عاد إلى حلب بعد أن طال رحيله عنها نحو سبعة عشر عامًا وقد طبقت شهرتهُ الآفاق واشرأبت لرؤيته الأعناق، فأقام في منزله مجلسًا للآداب جمع فيه شتيت ذوي الألباب لم نر مثله الشهباء منذ قديم الزمان. غير أن بعض الحساد افتروا عليه قولًا زورًا وفعلًا يعلو هذا الصحافي عنه علوًا كبيرًا، فعكروا صفاء أيامه وسئمت نفسه الإقامة في وطنه مع شدة تعلقه به، فرحل عنه ولسان حاله ينشد مع الشاعر:

سـيذكرني قـومي إذا جـد جـدهم وفـي ا الليلـة الظلمـاء بتفقـد البـدرُ

وقصد مدينة بيروت، فلقي من حفاوة علمائها به ما أنساه شيئًا من الأكدار التي صادفها في آخر أيام إقامته بحلب ثم قصد القسطنطينية وحل ضيفًا على صديقه منيف باشا وزير المعارف الذي أعاده إلى الشهباء وعينهُ بوظيفة أمين خزانة مجلس المعارف في مركز ولايتها وأضاف إليه منصب أستاذ أول للغة الفرنسية في المكتب الإعدادي في المدينة المذكورة. وقال له حينئذ هذا الوزير: «إن هذا دون ما يليق بفضلك ووجاهتك، ولكن قدر الله، فستنال بعده ما يشرح صدور أهل الفضل».

فقام الدلال بخدمة ذلك المنصب بكل أمانة إلى أن اتهم بتأليف وطبع قصيدة «العرش والهيكل» المشهورة التي لم ترق في عيون الحكام

المستبدين في العهد الحميدي، فعزل من منصبه وألقي في السجن مدة سنتين حتى فاجأته المنية في صبح الرابع والعشرين من كانون الأول ١٨٩٩ عن ستة وخمسين عاما قضاها في الأسفار وخدمة العلم، فتقاطر آله وأصحابه ونقلوه إلى منزله ثم دفن بين ذرف العبرات وتردد الحسرات. وقد نظم قسطاكي بك حمصي هذه الأبيات لتنقش على ضريحه:

هـا هنـا اليـوم تـوى بـدر النهـى	بعــد مــا كــان ينيــر الخــافقينْ
ها هنا قد الحدوا بحر الحجى	فيلســوف القطــر نظــام اللجــينْ
ذاك جبرائيــــل دلال الـــــذي	فضــله قــد شــاء مثــل الفرقــدينْ
يا أولي الفضل الثموا هذا الثرى	وانـــدبوه أثـــرًا مـــن بعـــد عـــينْ

مؤسس مجلة «الآثار» ومؤسس جريدة «الشرقية» وصحيفة «المهذب» في زحله ومحرر جريدة «لبنان» في بعبدا ومجلة «النعمة» وصحيفة «العصر الجديد» في دمشق وناشر المقالات المختلفة المواضيع في أكثر من ثلاثين جريدة ومجلة عربية في سوريا ومصر وأمريكا

هو عيسى بن إسكندر بن الخوري إبراهيم بن عيسى بن شبلي أبي هاشم المعلوف. ولد في قرية «كفر عقاب» اللبنانية في ٢٢ نيسان سنة ١٨٦٩، فتلقى مبادىء العلوم في مدرسة قريته الإنجيلية. وفي أواخر سنة ١٨٨٤ مسيحية دخل مدرسة الشوير العالمية الإنجيلية في لبنان ودروس الانكليزية والعلوم على رئيسها الدكتور وليم كرسلو الاسكتلندي

وتخرج بالعربية ثم ترك المدرسة لداع في أسرته ودرس على نفسه ثم درس في مدرسة الآباء اليسوعيين في قريته وولع بالمطالعة واقتناء الكتب. وفي ٥ كانون الأول سنة ١٨٩٠ عين محررًا لجريدة «لبنان» التي أنشأَها نسيبه إبراهيم الأسود وكاتبًا لإدارتها أيضًا في بعبدا ومصححًا لمطبوعاتها وكتب فيها مقالات عمرانية وأدبية، لاسيما في الزراعة والصناعة والتجارة والاقتصاد والأوضاع العربية، وتولى تصحيح كتاب «البصائر النصيرية» في المنطق بمشاركة جرجس صفا بالمقابلة عَلَى نسخة قديمة ولم يتم من هذا الكتاب إلا نصفه بقفل المطبعة والجريدة في أوَّل عهد نعوم باشا متصرف لبنان بعد أن ظهر في من الجريدة ٨٦ عددًا، فعاد إلى مسقط رأسِهِ واشتغل في التصنيف، فوضع كتاب «لطائف السمو في لبنان والقرن التاسع عشر» وهو يبحث في شؤون لبنان وحكوماته وعادات سكانهِ وخرافاتهم وآدابهم ولا يزال مخطوطاً. وكذلك بدأَ بوضع كتابه «دواني القطوف» في تاريخ أسرة المعلوف والأسر الشرقية وهو الذي طبعهُ بعد ذلك ووضع كتاب «الأغراب في الإعراب» ولا يزال مخطوطًا. وسنة ١٨٩٣ طُلب لتدريس آداب العربية والعلوم العالية والانكليزية في «مدرسة كفتين» الأرثوذكسية في لبنان قرب مدينة طرابلس الشام، فدرَّس فيها بضع سنوات وتخرج عليه كثير من الآباء والكتبة والشعراء ونظم فيها ثلاث روايات تمثيلية مثل «جزاء المعروف» و«ذبح إبراهيم لولده إسحق» وهي مخطوطة. كما وضع في تلك المدرسة بعض مؤلفات مثل: «الكتابة» التي طبع منها الجزء الأول ورسالة «الشعر والعصر» المطبوعة أيضًا و«شحذ القريحة في المقطعات

البليغة الفصيحة» وهو في الشعر والشاعر والفنون الشعرية ومنتخبات الأشعار مرتبة عَلَى أسلوب جديد يقع في ١٦٠٠ صفحة و«تحفة المكاتب للمعرب والكاتب» وهي في الأوضاع اللغوية والإعراب و«المشجرات» وهي تقسيم العلوم العربية لتسهيل تعلمها عَلَى طريقة «السينوبتيك» الفرنجية وهذه الكتب الثلاثة لم تطبع. ثم عاد إلى تحرير جريدة «لبنان» بعد استئناف نشرها وإذ ذاك تزوج السيدة عفيفة كريمة إبراهيم باشا معلوف من زحلة وجاءَ زحلة مستقدمًا لتدريس الحلقات العليا في «الكلية الشرقية» المنشأة عام ١٨٩٨، فدرس فيها آداب العربية والرياضية والانكليزية بضع عشرة سنة. إلا أنهُ غادرها سنة واحدة انتدب فيها سنة ١٩٠٨ لإدارة المدارس الأرثودكسية في دمشق، فاستقدمتهُ «الكلية الشرقية» إليها في السنة التالية ولا يزال فيها مدرسًا إلى الآن. ولما كان في دمشق، حرَّر جريدة «العصر الجديد» ثم مجلة «النعمة» البطريركية التي رتبها وأنشأ مقالاتها التاريخية والعلمية منها «تاريخ الصحافة» الذي أشرنا إليهِ في المجلد الأَّول من هذا الكتاب صفحة ٢٥.

ولما كان في «الكلية الشرقية» أَنشأَ في أول تشرين الأول سنة ١٩٠١ جريدة «المهذب» لطلبة البيان، فطبعها على الهلام (الجلاتين) ثم نيل امتيازها وتولى تحريرها مدة وهي الآن بيد الخوري بولس كفورشي وأنشأَ في تلك المدرسة «جمعية النهضة العلمية» وترأسها وهي الآن للتمرين على الخطابة والمباحث الأدبية.

ولقد تخرج على يده معظم ناشئة زحلة ولبنان الجديدة وهم من الآدباء والصحافيين في الوطن والمهجر. وفي شهر تموز سنة ١٩١١، أسس مجلة «الآثار» الشهيرة وهي متحف لأقلام كبار الكتاب في سوريا والعراق ومصر وأول ما نشر فيها صورة الأمير فخر الدين الثاني المعني وترجمته المطولة عن مخطوطات نادرة أهمها تاريخ «الخالدي» و«ذيل الكواكب» للنجم الغزي ونحوهما ونُشرت له مقالات كثيرة وقصائد في أهم المجلات والجرائد في سورية ومصر والمهجر كالبيان والمقطتف والهلال والمشرق والشمس والرئيس والمقتبس وغيرها الكثير وبعضها يدفع له راتبًا خاصًا لقاء مقالاتهِ.

ومما نشره مؤخرًا من مؤلفاته «تاريخ زحلة» و«خطاب الأخلاق مجموع عادات» و«الأم والمدرسة». ومما لا يزال مخطوطًا، منها: «أسرار البيان» و«مغاوص الدرر في أُدباء القرن التاسع عشر» و«الأخبار المروية في الأسر الشرقية» في بضعة مجلدات و«قطوف الفوائد من رياض الجرائد» في بضعة عشر مجلدًا و«الطرف الأدبية في تاريخ اللغة العربية» و«العصريات» وديوانه الذي سماهُ «بنات الأفكار» وفيه أكثر من عشرة آلاف بيت في المواضيع الحديثة، مثل قوله في الجرائد:

إذا فاحَ طيبٌ من رياض الفوائدِ فناشر رباهُ نسيم الجرائدِ
هي العلة الأُولى لرفع مواطنٍ هي الغاية الجلى لشهمٍ مجاهدِ
تهذب أخلاقًا ترقي مواطنًا تعزز آداباً بأفضل عائدِ
فتاريخنا اليومي فيها مطرٌ سيبقى بقاء النقش فوق الجلامدِ
رعى الله آثار الصحافة أنها منار الهدى يبدو كقطبٍ لراصدِ
وشقيًا لكتابٍ تجارى يراعهم بميدان طرسٍ كالجواد المطاردِ
أَسألوا على القرطاس ماء دماغهم بذهن زكي زذنده غير صالدِ
إذا صنُعَ اليوبيل يومًا لفاضلٍ فللكاتب التحرير من دون جاحدِ
وان نُصبَ التمثال تدكار همةٍ فللقلم السيال قيد الأوابدِ

ومن شعره العلمي قوله:

ماذا أُؤمل في حياتي مرتجي من صاحبٍ مهما استقمتُ تعرجا
عجبي لما في طبعهِ فكأنهُ ملا وليس يسير إلاَّ أعوجا

ومن حكمهَ قولهُ:

كلُّ شيء تقتنيهِ في الورى عندما تعطيه بعض العممِ
إنما العلم إذا أعطيتهُ الـ كلَّ يعطي البعض فأبذل تغنمِ

وقوله:

دع عنكَ ما قد جنت الكبرياء من ثمر الشر الذميم الوخيمْ
فالكبرياء زهرةٌ قد نمتْ في حقل شيطان الشرور الرجيم

ومن تعريبه قوله عاقدًا حكمة شكسبير كبير شعراء الإنكليز:

كـــــم نـــــرى الخمـــــرة داءً | يـــــــــورد المـــــــــرَ رداهُ
إنهـــــا فـــــي فيـــــه لـــــص | ســـــــارقٌ منـــــــهُ نهـــــــاهُ

وقال معربًا لشاعرٍ فرنسي:

إنَّ بيتًـــــــا لـــــــيس فيـــــــهِ | ولـــــــدُ يـــــــولي المســـــــرَّه
قفـــــــصٌ لا طيـــــــرَ فيـــــــهِ | وجنـــــــــانٌ دون زهـــــــــره

ومن تواريخه الشعرية قوله يؤرخ مجلة «البيان» اليازجية سنة ١٨٩٧ مضمنًا شطر التاريخ من قول أبي القاسم الخلوف:

هـــذي مجلـــة مـــن بـــوافر علمـــه | ضـــرب البيـــان مـــوارد الأمثـــالِ
علامـــة العصـــر الرفيـــع مقامـــه أيـــ | ـــنُ اليـــازجي محطـــة الآمـــال
فـــي عهـــد عبـــاس الأميـــر يمصـــرهِ | قـــد نـــال إبـــراهيم أوج معـــالي
والعصـــر بالتـــاريخ جـــلَّ وقـــد محـــا | فلـــق البيـــان غياهـــب الأشـــكالِ

إلى غير ذلك من القصائد العصرية والعربات الكثيرة من أشهر قصائد شعراء الفرنج عَلَى اختلافهم ولا سيما الشعر التاريخي، فإنه أكثر منه كما قال نسيبه قيصر بك المعلوف من قصيدة في مدحه:

جعلـــتَ منـــه ســـنا التـــاريخ منبثقًـــا | وكـــان قـــدمًا ســـناهُ غيـــر منبثـــقِ

أما أخلاقه ومزاياه، فإنه حاد المزاج والذهن كثير الجلد على الكتابة والمطالعة، لا يكاد يملُّ، وقد صرف نحو ثلاثين سنة في العمل العقلي الدائم وهو متمتع بصحتهِ كأنهُ في مقتبل الشباب وهو طيب القلب لا تنحني ضلوعه

عَلَى ضغينة ولا يدخل قلبه حب انتقام، متساهلٌ في آرائه، شاعر خطيب يرتجل الكلام متى أراد بلا لكنة ولا تحبس. اقتنى مكتبة مهمة قلما توجد عند الأفراد بينها كثير من المخطوطات القديمة والرسائل والأوراق التاريخية والأدبية ولديه كثير من مخطوطات يده وتعاليقه لا يكاد يصدق من يراها أنها نسج قلمه وهو يدرّس في «الكلية الشرقية» خمس ساعات كل يوم لحلقاتها العليا وينشىء مجلة «الآثار» ويديرها بيده ويكتب في مجلة «النعمة» وغيرها. ويستنسخ الكتب ويعرب المقالات توسعًا في مباحثه، فضلًا عن اشتغاله بكتاب تاريخ «الأسر الشرقية» المتواصل؛ مما يدل على اجتهاده وجلده.

مراسل جريدة «البشير» البيروتية من حلب مدة ٢٥ سنة، هو باسيل بن توما بن جرجس أيوب. وُلد في أوائل شهر أيار سنة ١٨٦١ في مدينة حلب، ولما ترعرع اختاره السيد أغناطيوس جرجس الخامس بطريرك السريان الأنطاكي من بين الرفاق وأرسلهُ إلى مدرسة الشرفة بلبنان فقرأَ فيها اللغات السريانية والعربية والإيطالية ثم رحل عنها إلى مدرسة الآباء اليسوعيين ببيروت وهناك كان يدرس اللغة العربية والفرنسية واللاتينية واليونانية والبيان والخطابة والمنطق والفلسفة. ثم عاد إلى مدرسة الشرفة، فقرأَ فيها اللاهوت النظري والأدبي وتخرج في الطقوس البيعية إلى أن جاء حلب، فرقاه فيها البطريرك المشار إليه إلى الدرجة الديانية ثم إلى درجة الكهنوت وذلك في ٢ شباط سنة ١٨٨٥ وجلاهُ باسم توما عَلَى اسم أبيه.

ومنذ أول نشأته الكهنوتية، صرف معظم همه واجتهاده إلى تهذيب الشبيبة وتربيتها وإيقاظ الآداب فيها من غفلتها. وقد أنفق ٢٧ سنة في خدمة العلم والتعليم في أهم معاهد الشهباء العلمية وكانت المدارس تتنافس في

الحصول عليه والسعيدة من كان فيها أستاذًا؛ لأنه كان لغويًّا واقفًا عَلَى أسرار البلاغة ضامنًا لشتات آداب العرب. وقد عُرف بتسهيل وعورة مسالك الدروس وإدنائها من أفهام الطلبة مهما استعصت ولا يكاد يرى بين أدباء الشهباء من ابن خمس وأربعين سنة دون من لم يقرأ شيئًا عليه ويلتقط من جواهر فيه. وكأنك ببيتهِ سوق عكاظ يختلف إليه أبناء الأدب ليعرضوا عليه مقالات نثرهم وقصائد شعرهم وكان يستقبلهم بما عهد بهِ من طلاقة المحيا والبشاشة والإيناس.

وقد أسس ناديًا سماهُ «نادي الأدب» ضم فيه من شبان الشهباء من يميل إلى البحث عن بلاغة العرب وأسرارها، وكان يشغلهم بإلقاء الخطب ودرس العلوم عن الملاهي المحرمة والملاعب الشائنة للآداب. وقد كان همه الأكبر في جمع الكتب المفيدة حتى أصبح عنده مكتبة عامرة جمعت من كل صنف وكانت مفتوحة الأبواب لكل مطالع ومستعير. وبذلك كان يقي آداب الشبيبة من الفساد بقراءَتهم سواها من كتب العهر والكفر.

ولما بلغ السنة الخامسة والعشرين للكهنوت وهي سنة ١٩٠٩ استفزت الحمية والمحبة ومعرفة الجميل تلامذته الشبان، فأقاموا يوبيلًا شائقًا كان كعيد وطني لجميع سكان الشهباء. أقبل عليه فيهِ المهنئون بخطبهم وقصائدهم ودعواتهم الخيرية وبرهنوا بذلك عن تعلقهم به وتقديرهم قدر فضله.

هكذا قضى حياتهُ بين الطروس والحابر والدروس والمنابر حتى اعتراه مرض طويل المدة قاسى منه مرَّ العذاب صابرًا متجلدًا واستأثرت به رحمة الله عصر يوم الخميس الواقع في ٥ تشرين الأوَّل ١٩١١ وسير بجنازته صباح

يوم الجمعة في غاية التهيب والاحترام. وقد تقدَّم نعشه مطران السريان ولفيف كهنة الطوائف وتلامذة مدارسها للذكور والإناث. وكانت موسيقى مدرسة الروم الكاثوليك تعزف بأنغامها الشجية قيامًا بجميل الفقيد؛ لأنه تولى التدريس فيها سنين طويلة وكان الأسف عليه شديدًا لأن الشهباء فقدت بموته إمامًا وحجةً في اللغة العربية يُرجع في حل معضلات المشاكل إلى رأيه وخدم الصحافة مدة ربع قرن كامل بصفة مراسل من حلب لجريدة «البشير» البيروتية، فكان بتحفها بالأخبار الصادقة والمقالات ونشر عَلَى صفحات نجلة «المشرق» وغيرها من الصحف نُبذًا مفيدة.

كما خلف آثارًا علمية كثيرة نقتصر منها على ما يأتي: كتاب «شبكة بطرس» يتضمن نحو مائة وخمسين موعظًا زاخرة لا تزال قيد خطهِ ولهُ ديوان شعر رقيق عنوانه: «عرف الصبا» في نحو مائة صفحة وكتاب «موارد السلون لمتناولي القربان» وكتاب «تحقق الأُمنية في عيادة الوردية» وكان له الباع الطويل في الترجمة والتصرُّف في العبارات الفرنجية، فيفرغها في قوالب عربية لا يشتمُ منها القارئ شيئًا من رائحة الأصل. من ذلك رواية «فابيولا» أو «بيعة الدياميس» المطبوعة في مطبعة الآباء الفرنسيين في أورشليم وهي بقلم الكردينال نقولا وسمن. وقد راجعها بعد ذلك عَلَى الأصل الإنكليزي وأضاف إلى حسنها رونقًا وطلاوة. ومن الروايات المترجمة بقلمه أيضًا: «خالدة» أو بيعة قرطجنة و«شهبج الجلجلة» أو مجموع تقاليد شرقية عن حياة السيد المسيح وموته ومنها «قرة العين في رواية إلى أين» ورواية «الكفارة» أو ماجريات أوائل القرن الرابع ورواية «غدُ الطوفان» يحوي حكاية أحوال الأَعصر الأولى في بابل ومصر وله نحو ستين رواية تمثيلية بعضها من تأليفه وبعضها مترجم بقلمه. وقد جرى تمثيل أكثرها في المدارس أو الجمعيات

الخيرية وأنفق ريعها في سبيل البر، فكان في حين واحد يهذْب أخلاق الجمهور بالحكم السنية ويجبر كسر البؤساء بأرباحها المادية ثم جمع الأمثال الجارية على ألسنة القوم في وطنهِ وطبعها بعنوان: «المنتخب في أمثال حلب» وله غير ذلك من الرسائل والفكاهات والمطارحات الأدبية والآثار الجليلة التي تخلد ذكره الحسن بين علماء عصره.

أول سيدة كتبت في الصحف السيارة

نختتم هذا الباب بترجمة أول سيدة سورية أَنشأَت مقالة في مجلة أو جريدة. مريانا مراش هي الكاتبة الأولى التي نشرت أفكارها في الصحف العربية على ما نعلم، فجدير بتاريخ الصحافة أن يدون سيرتها وأن يسبق سير الصحافيات بها لأنها إحدى شهيرات الشعر ومن بواكيرهن في القرن التاسع عشر. وكلما تذكرنا وردة الترك ووردة اليازجي نتذكر مريانا مرَّاش.

وُلدت مريانا في شهر آب سنة ١٨٤٨ في حلب وترعرعت في أحضان والدين كريمين ترضع لبان الأدب وتتغذى ثمار العلم، فنشأَت أديبة عالمة تجيد الإنشاء وتحسن الشعر وكان أبوها فتح الله بن نصر الله بن بطرس مراش رجلًا فاضلًا عني بالمطالعة واقتناء الكتب وجمع مكتبة نفيسة ورغب في الكتابة وتمرن عليها وله كتابات عديدة مختلفة المواضيع لم تُطب. وكانت أمها ذكية عاقلة بنت آل انطاكي نسيبة مطران حلب يومئذٍ ديمشريوس إنطاكي وكلا الأسرتين معروفتين بالوجاهة وجليل الصفات وأخواها فرنسيس وعبد الله مشهوران في عالم الأدب:

كان الأول شاعرًا مثقفًا ومنشئًا مجيدًا. درس الطب في وطنهِ عَلَى طبيب إنكليزي وقصد باريز لينهي دروسهُ فيها. ومن آثاره الأدبية المطبوعة نثرًا ونظمًا: «غابة الحق» و«مشهد الأحوال و«مرآةالحسناء» و«رحلة باريز» و«شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة» و«تعزية الكروب وراحة المتعوب» و«المرآة الصفية في المبادىء الطبيعية» و«الكنوز الفنية في الرموز الميمونية». وكان الثاني كاتبًا عاش في انكلترا وفرنسا يتعاطى التجارة ومن مؤلفاته: رسالة في التربية بالغة حدها من التدقيق نشرها في مجلة «البيان» للشيخ إبراهيم اليازجي وغير ذلك من الآثار الصحافية والعلمية.

فتربت مريانا في هذا البيت الكريم عَلَى مهاد الذكاء والمعرفة. وإذ اقتضت أشغال والدها أن يكثر في أثناء حداثتها التغيب عن بيته والسفر إلى أوروبا، قامت والدتها بتربيتها قيامًا حسنًا لم يكن يرجى من كثيرات من أمهات تلك الأيام وكان من الفتاة أن دخلت المدرسة المارونية في الخامسة من عمرها وانتقلت بعد ذلك إلى المدرسة الإنجيلية، فدرست فيهما مبادىء اللغة العربية والحساب وبعض العلوم. وفي الخامسة عشرة أخذ أبوها يعلمها الصرف والنحو ثم العروض وعلمها بعض لغة الفرنسيس التي أحسنتها فيما بعد عَلَى بعض المعلمين ودرست فن الموسيقى وأتقنتهُ جيدًا دون أستاذ.

فتفردت في حلب وامتازت على أترابها، فنظر الناس إليها بغير العين التي ينظرون بها إلى غيرها وتهافت الشبان عَلَى طلب يدها،

فرضيت منهم زوجًا حبيب غضبان ورزقا ولدًا وابنتين: جبرائيل وليا واميما. بدأت بالكتابة والشعر في صباها وأول مقالة رأَيناها لها «شامة الجنان» نشرتها في مجلة «الجنان» في الجزء الخامس عشر لعامها الأول سنة ١٨٧٠، وصدرتها بهذين البيتين لشاعر قديم:

بنفسي الخيال الزائري بعد هجعةٍ ولتهس لي بعدنا الغمض تطعمُ
سلامٌ فلولا البخل والجبن عنده لقلت أبا حفصٍ علينا المسلمُ

وعارضتهُ باستحسان قومه صفتي الجبن والبخل بالنساء ودعت قومها إلى إبدالهما بالحرص والشجاعة مميزة بين الاقتحام والجرأَة وانتقدت بمقالاتها عادات معاصراتها وحضتهن على التزين بالعلم والتحلي بالأدب ثم كتبت في العام التالي للجنان مقالة «جنون القلم» تشكو من حال انحطاط الكتاب وتحرض على تحسين الإنشاء وترقية المواضيع والتفنن بها وتدعو بنات جنسها إلى الشروع في الكتابة وترغبهمّن فيها. ومن مقالاتها في هذه المجلة «الربيع» وموضوعها التربية نشرتها في المجلد السابع سنة ١٨٧٦ وكلها فوائد غرر ونشرت بعض مقالات عَلَى صفحات الجرائد كلسان الحال وغيره ونظمت قصائد عديدة في الغزل والمدح والرثاء وعدة أغاني على أنغام مختلفة جمعت منها ديوانًا صغيرًا نشرته برخصة رسمية من نظارة المعرفة بعنوان «بنت فكر» مطبوعًا سنة ١٨٩٣ في المطبعة الأدبية هنا. وقد هنأت بشعرها السلطان عبد الحميد عندما صار سلطانًا وعايدته في أحد أعياد جلوسه وهنأت أمهُ بقصيدة ومدحت توفيق الأوَّل خديوي مصر وجليل باشا

وأمين باشا والي حلب وأيوانوف، قنصل روسيا، فيها ورثت أخاها فرنسيس وكثيرًا من صديقاتها، من ذلك قولها لأم السلطان:

كما رعيتِ صباهُ خوفَ نائبةٍ ... قد صار يرعى زمام الملك

ومن منظوماتها ما يأتي في مدح خديوي مصر:

زهور الروض تبسم عن ثغورٍ ... هت فحكت عقودًا من جمانِ
نداها ببهج الأرواح رشفًا ... بهِ ماءُ الحياةِ لكل دانِ
إذا هب النسيم عَلَى رباها ... تمطرت المعاهد والمغاني
رعاه الله من روض أرانا ... من الأغصان قاماتِ الحسانِ
وحورا أن سفرنَ وملنَ عجباً ... يأبنَ عقول أرباب المعاني
وقد قامت طيور الأنس تشدو ... بألحانٍ أرقَ من المثاني
هنا جنات بشرٍ قد ترآت ... لدى الأبصار في شبه الجنانِ

ومنها في مدح جميل باشا والي حلب:

أفديه لا أفدي سواه جميلا ... أولى المحبَ تعطفاً وجميلا
بدرٌ عنت دول الجمال لحسنهِ ... فأبى لذا تمثاله التمثيلا
فإذا تجلى فوقَ عرش كمالهِ ... تجنو لهُ زهر النجوم مثولا
وإذا توارى في حجاب سنائه ... لا تبلغُ الجوزا إليهِ وصولا
كملت محاسنهُ فبالإشراقِ والـ ... أَنوارِ صارَ عن الشموس بديلا

ومنها في مدح أيوانوف قنصل روسيا:

بزغت شموس السعد الشهباء ... فجلت لياليها من الظلماء
قشعت غيوم الضيم عنها فانجلت ... كعروسةٍ تزري ببدر سماء
وغدت بها السكان تمرح بالهنا ... وتجرُّ ذيل مسرَّةٍ وصفاء
تتمايل الغادات مائسةً بها ... كتمايل النشوان بالصهباء
من كل غانيةٍ زهت بجمالها ... ودلالها كالروضة الغناء
ماست كغصنٍ فوقهُ بدرٌ لهُ ... مرأى الثريا في بديع بهاء
بحواجب مقرونة قد أوترت ... قوساً ترنُّ بها سهام فنائي
أن كلمت صبا بنبل لحاظها ... كان الشفاء لهُ بعذب المآء
حتى تردَ إليه ذاهب روحهِ ... فيعود معدوداً من الأحياء

وقالت أيضًا مشطرةً بعض أبيات من نظمها:

للعاشقين بأحكامِ الغرام رضا ... يمسون صرعى بهِ لم يؤنفوا المرضا
لا يسمعون لعذل العاذلين بهم ... فلا تكن بافنى للجهل معترضا
روحي الفداءُ لأحبابي وإن نقضوا ... ذاك الذمام وقد ظنوا الهوى عرضا
جاروا وما عدلوا في الحب إذ تركوا ... عهد الوفى الذي للعهد ما تقضا
قف واستمع سيرة الصب الذي قتلوا ... وكان يزعمُ أن الموت قد فرضا
إصابة سهمُ لحظٍ لم يبال بهِ ... فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا
رأى فحبَّ فرام الوصل فامتنعوا ... فما ابتغى بدلاً منهم ولا عوض
تقطع القلب منهُ بانتظار عسى ... فسام صبرًا فأعيا نيله فقض

وقالت ترثي صبية توفيت محترقة بالبترول:

عفافـهُ نفـس مـع بـديع محاسـنِ ورقـهُ اعطـافِ فللـه كـم تسـبي
لقـد جمعـت ضـدين فـي حـد ذاتهـا ففي اللحظ ايجاب يشبرُ إلى السلبِ

وقالت وقد اقترح عيلها ذلك:

بـذكر المعـاني هـام قلبـي صـبابةً فيا نـور عينـي هـل أكـون عَلَـى القـربِ
عسى الشمس من مرآك للعين يتجلي فتنقـل للأبصـار مـا حـل بالقلـب

ولها أيضًا:

شـرفُ الفتـى عقـلٌ لـه يسـمو عَلَـى كـل الـورى فينـال غايـات المنـي
وكـذاك حسـن الخلـق فخـر متسـربل بـاللطف نعـم المقتنـى
مسـودِوالمرءُ أن شـهدت لـه أفعالـه بالفضـل والآداب يكتسـب الثنـا
مـا كـل مـن طلـب الكرامـة نالهـا من رام صيد الظبي حل به العتا
ذو المـال يـذهب ذكـره مـع مالـهِ لكـن ذكـر الفاضـلين بـلا فنـا

وقالت ترثي أخاها فرنسيس:

ما لي أرى أعين الأزهار قد ذبلت والغصـن صـباها مـن ذوي الشـجرِ
مـا لـي أرى الـروض مكمـوداً وفـي والمـاءُ فـي انـةٍ والجـو فـي كـدرِ
ما لي أرى الورق تنعي وهي نادبة فـراق خـل وتشـكو لوعـة الغيـرِ
نعـم لقـد سـابق الأحيـاء أجمعهـا ونـاب ذا اليـوم مطروحًـا عَلَـى العفـر

مـن فقـهَ النـاس فـي علـم وفـي أدبٍ ونـور الكـل فـي شـمس مـن الفكـر
أبـدى مـن الفضـل ضـوءا لا خبـو لـهُ والشمس شمس وإن غابت عن النظر
وأنـــه بحـــر علـــم لا قـــرار لـــهُ وقـد حـوى كـل منـوم مـن الـدررِ
هـذا الـذي جابـت الأقطـار شـهرتهُ قـد صـار مطرحًـا فـي أضـيق الحفـر
خنسـاء صـخر بكتـه حينمـا نظـرت إليـــه ملقـــى بـــلا ســـمع ولا بصـــرِ
أقـلامُ أهـل النهـى ترثيـهِ وا أَسـفي هـل عـاد مـن عـودة يـا مفـرد البشـرِ
مـذ غـاب شخصـك هـذا اليـوم عـن جـادت عيـوني بـدمع سـال المطـر
فيـــا لـــدهرٍ خـــؤون لا ذمـــام لـــهُ نـــدبًا تفـــردَ بالأجيـــال والعصـــرِ
فحـزن يعقـوب لا يكفـي لنـدبك يـا مذ و أحل القلب في غم غم مدى العمرِ
وبلاء من حزن قلب قال غايتهُ سنها مـن ذا يسـلي فـؤادي قـل مصـطبري

واشتهرت مريانا بلطفها وخفة روحها وبحسن صوتها وجمال مغناها وقد جعلت بيتها ناديًا لأهل الفضل تجول معهم في مضامير العلم والأدب. سافرت مرَّة إلى أوروبا واطلعت على أخلاق الأوروبيين وعاداتهم عن قرب، فاستفادت منهم كثيرًا ثمَّ عادت إلى وطنها تبث بين بنات جنسها روح التمدن الحديث والأخلاق الصحيحة وهي اليوم مريضة في حلب تلازم بيتها وحالتها يرثى لها وقد وصفها مرة جبرائيل دلال بقصيدة جاوب بها من بيروت ابن أخته قسطاكي بك حمصي على قصيدة أرسلها إليه من بيت مريانا في حلب، قال منها:

ولا أشـــــتهي ســـــواكم ولا أر غـب فيهـا مـن بعـد تلـك الوقـائعْ
غيـر قـرب الفريـدة اللطـف ذات الـ ـصوت والحسـن والـذكا والبـدائع
ربــة الفضـــل والفضـــائل مريـــا نـا التـي ذكرهـا يسـر المسـامعْ
والتــــي زانهـــا الكمـــال إذا زا نَ سـواها الحلـى وسـدل البراقـعْ

صحافة أوروبا

كان للصحافة العربية في أوروبا شأن عظيم في هذه الحقبة، لاسيما بعد ارتقاء عبد الحميد الثاني إلى عرش الدولة العثمانية. فإنَّ هذا السلطان المشهور بمظالمهِ بثّ العيون عَلَى الصحافيين الأحرار وأراد أن يجعلها آلة صماء لتنفيذ ما أمر بهِ، فلاذوا بأوروبا حيث الدولة رافعة لواءها ليكونوا آمنين عَلَى حياتهم من شر هذا الطاغية الكبير، فعاشوا هناك ونشروا جرائدهم ليجاربوا دولة الظلم ويخدموا وطنهم المحبوب ويمدوا قلمهم للبلاد الشرقية سبيل الارتقاء إلى أَوج الحضارة. وإثباتًا لذلك نورد فقرةً نشرها الأخ انستاس ماري الكرملي صاحب مجلة «لغة العرب» البغدادية عَلَى صفحات مجلة «المشرَّة» اللبنانية في مقالة عنوانها: «الصحافة في بغداد» ومنها تتضح حالة الصحافة العثمانية في عهد الاستبداد وهي:

«كانت الصحافة في بلاد الدولة العثمانية في عهد الاستبداد منحطة غاية الانحطاط، هاويةَ إلى أَبعد دركة من التسفل، بل كان الصحافي عبارة عن رجل قد كم فمه وعصبت عيناه وغُلت يداه وقيدت رجلاه ونزغ قلبهُ وفُلج دماغهُ لا حراك له حتى لم يبق له من البشرية إلا

الصورة الظاهرة؛ لأنهُ ما كان يصدر منهُ أو من قلمهُ ما يدل على أنهُ رجل حر مفكر عامل لمنفعة أبناء جنسه، بل كل ما يدل على أنه آلة عجماء بيد قوم من الظلمة الفجار وبقيت هذه الحالة ما ينيف على ثلاثة عقود من السنين حتى قيض الله لهذه الأمة المهضومة حقوقها أناسًا ذوي همةٍ علياء ضربوا على أيدي أبناء الجور والاستبداد، فافتر من ورائهم للحال ثغر صباح الدستور، فأعلنت حرية المطبوعات وتفتقت الألسنة بآلاء الحمد والشكر وأضاء جبينُ الحق بنور الإخاء وانقلبت الأمور إلى ما بهَ خير العموم».

إن الأمـــور لهـــا رب يـــدبرها	فـي الخلـق مـا بـين تجميـع ومفتـرقِ
قـد يفرج الضيق يومًا بعد أزفته	ويكسـي الغصـنُ بعـد اليـبس بـالورقِ

وكان معظم صحافي العرب في أوروبا زهرة الأدباء العثمانيين أو المصريين لذاك العهد وأكثرهم من المسيحيين المتخرجين في المدارس العليا أو المبرزين في حلبة المعارف كالدكتور لويس صابونجي وخليل غانم ورزق الله حسون وعبد الله مراش وجبرائيل دلال ويوسف باخوس وأديب اسحق وميخائيل عورا ونعمان بك الخوري ومنصور جاماتي وسواهم. أما المسلمون، فأشهرهم السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده المصري وإبراهيم المويلحي، ونذكر من الإسرائيليين الشيخ يعقوب صنوع المعروف بأبي نظارة، فأخذوا ينشرون الجرائد العديدة التي جابت مشارق الأرض ومغاربها، بل لعبت دورًا مهمًا في سياسة الشرق عمومًا وكانت تلك الصحف تتكلم عن الأحوال السياسية بلا محاباة

وترسل إلى القراء والمشتركين في تركيا بطريقة خفية حذرًا من جور المأمورين وجواسيس عبد الحميد وقد انحصر ظهورها في انكلترا وفرنسا وإيطاليا. ومنها صحيفتان في جزيرة قبرص وصحيفة صدرت في جزيرة مالطا وكانت تُنشر بلغة سكان هذه الجزيرة وهي مزيج من اللغة العربية العامية واللغة الإيطالية وغيرهما. وكانت تلك الصحف تُطبع غالبًا على الحجر لقلة العمال العارفين هناك بترتيب الحروف العربية في ذاك العهد وفي الفصول التابعة نتكلم عن هذه الجرائد لبيان مقصدها وكشف النقاب عن غايتها وغرض أصحابها وبلغ مجموعها اثنتين وثلاثين صحيفة منها ثماني في لندن وثماني عشرة في باريز وواحدة في «انجه» بفرنسا وواحدة في نابولي وواحدة في «غلياري» من أعمال جزيرة سردينيا وواحدة في جزيرة مالطا واثنتان في قبرص.

اسمٌ لجريدة أسبوعية سياسية برزت عام ١٨٧٢ لصاحبها رزق الله حسون الذي كان يرتب حروفها بنفسهِ ويطبعها عَلَى المكبس في بيته في قرية «وندسورث» بالقرب من لندن. وقد اخترع تلك الحروف وحفرها بأنواع الخطوط المختلفة التي تفوق بها وجهز بها مطبعته المعروفة «آل سام» وكان قصده في إصدار هذه الجريدة مبنيًا على أمرين كانا عنده من أهمْ الأمور وهما، أولاً: الاقتصاد المالي وثانيًا: التقبيح في دولة الأتراك التي كانت تتلاعب بها أيدي السياسة الخرقاء ولذلك أخذ يشوق الشرقيين إلى محبة روسيا التي كان يتمنى لها الاستيلاءَ عَلَى القسطنطينية ولم يصدر من نشرة «آل سام» سوى أعداد قليلة لأنَّ مؤسسها كان يقلد الفرزدق في الهجاء ويقدح قدحًا مريعًا بالأتراك ودولتهم.

جريدة أسبوعية سياسية أخلاقية ظهرت في ١٩ تشرين الأول ١٨٧٦ لصاحبها رزق الله حسون الذي نشرها لإظهار الخلل السائد في تركيا، فكانت آيةً في الظرف وبلاغة الإنشاء وجودة الكتابة وطُبعت عَلَى الحجر بخط صاحبها المشار إليهِ. «وكان رزق الله حسون من رجال السياسة يسعى مع الأحرار في إصلاح تركيا وذلك ما ألجأه إلى مسكن لندن إلى آخر حياته[١٠]» .وقد جرى الاتفاق بينه وبين الدكتور لويس صابونجي على أن ينشىء الأول مقالاتها الأدبية ويترجم لها أهم الأخبار عن الصحف الانكليزية ويحرر الثاني فصولها السياسية. لكنَّ الصابونجي افترق عن زميله بعد ظهور أعداد منها لوفرة أشغاله، فاستعان حينئذ مؤَسس الجريدة برجل أديب من وطنه يسمى عبد الله بن فتح الله مراش كان كاتبًا في محل «فتح الله طرَّازي» التجاري بمانشستر.

فتولى إنشاء المقالات السياسية فقط في صدر الجريدة وكان رزق الله حسون يكتب سائر موادها وينسخ بخطه الجميل كل فصولها عَلَى ورق مستحضر لينقل إلى الطبع عَلَى الحجر ثم تركها عبد الله مراش في عامها الثاني عقب خلاف طرأَ بينه وبين حسون الذي كان يغير بعض كتابات المراش عند نسخ الجريدة. واشتهرت «مرآة الأحوال» في كل الأقطار حتى أن عدد النسخ التي كانت تباع منها في لندن وحدها بلغ ٤٥٠ عَلَى قلة الناطقين بالضاد. أما سبب تعطيلها، فقد ذكره حسون في مقدمة مجلته «حل المسألتين الشرقية والمصرية» وهذا نصهُ:

---

(١٠) كتاب "الآداب العربية في القرن التاسع عشر" بقلم الأب لويس شيخو اليسوعي

«ضاعف الله أيام السادة المشتركين في مرآة الأحوال وزاد بهجتهم ونضرتهم بكرمه ومنه إنهُ ولي كل إحسان. صدني وقاكم الله ضعف عن القيام بكتابة مرآة الأحوال وامتنع تصديرها بحروف الطباعة لما تقتضيه علاوة أضعاف النفقة الليثغرافية ولم يوازِ دخل المرآة ربع نفقتها».

مجلة مصورة كبيرة الحجم متقنة الطبع ظهرت بتاريخ ٢ من شهر نيسان ١٨٧٧

الدكتور لويس صابونجي

صاحب «النحلة» وجريدتي «الاتحاد العربي» و«الخلافة» في انكلترا ، الأسبوعيتن لمنشئها الدكتور الفاضل لويس صابونجي الذي صدرها بهذه الأبيات:

يا بني الأوطان هبوا ما لكم … في رقادٍ عن نجاحٍ واجتهادْ
قد غرسنا جنة في أرضكم … وانتخبنا نخلةً تجني المـوادْ
شهدها فيهِ شفاه للورى … من أتاها نالَ منها ما أرادْ
وازدهرت آدابنا في روضها … من قفير النخلِ شهدٌ يستفادْ
أضاءَ نورُ العلم فيها بعد ما … مالَ جهلٌ واستوى فيها السدادْ
رنَّ في الآفاق عالي صوتها … من صاه قد دوي حتى الجمادْ
يجتني اليسعوبُ ما يحلو لكم … من موادٍ شأنها وصف البلادْ
أكرمَ اليسعوبَ حتى مصحفٌ … خصهُ الرحمنُ رشدًا للعبادْ
أطلبوا منها رشاداً للنهى … من جناني تجتني زهرَ الرشادْ
حكمةٌ في نزهة في لذةٍ … يستقي من وِرْدها صادِ وغادْ

أنشأ المجلة التي أسسها على أنقاض مجلتهِ البيروتية المعروفة بهذا الاسم ونقش على غلافها هذه العبارة: «النحلة الأدبية رأت التصاوير البهية تهدي العقل شهد العلم وهو يتصر في حقائقه بالنور الطبيعي». وقد نشرها أولًا باللغة العربية ثم بالعربية والانكليزية معًا حتى بلغت عامها الرابع وعطلها لأسباب، وتعدُّ «النحلة» من أرقى المجلات وأحسنها بتعدد مواضيعها وإتقان رسومها وسهولة عباراتها، لاسيما في ذلك العهد الذي كانت فيه مجلاتنا العلمية في عهد الطفولة، وكل من طالع أجزاءها يقر بفضل صاحبها العلاَّمة الذي أحاط بجميع أنواعها إِحاطة السوار بالمعصم. وزين الصحافة العربية بنفثات قلمه التي جابت الخافقين واشتهرت في العالمين. وحسبنا برهانًا على سمو منزلة هذه المجلة؛ أنها لم تترك بابًا من أبواب العلوم القديمة والحديثة إلا طرقتهُ وجالت في مضماره وهي الآثار العتيقة والتاريخ والجغرافية والأدب واللغة والنبات والمعادن والفلسفة والفلك والرياضيات والطب والطبيعيات والكيمياء والآلات والزراعة والصناعة والتجارة والاكتشافات العصرية والاختراعات العقلية وغيرها وأضاف إليها كل ما جدَّ من أخبار الدنيا وحوادثها مما يتشوق إلى معرفته الناطقون بالضاد. وعانى الدكتور لويس صابونجي تعبًا جزيلًا في سبيل مجلتهِ التي أنشأها في ظلّ الدولة الإنكليزية لعلمهِ «بأن زهر المعارف لا يجنى إلا في رياض الحرية وربيع السلام وربوع الأمان» كما قال في فاتحة العدد الأول.

وبين الذين عضدوا الدكتور صابونجي لنشر مجلته نذكر منهم: إسماعيل باشا خديوي مصر، مواليد برغش سلطان زنجبار وأحمد علي

خان نواب ومبور والمسيو «يالر جنك» و« النظام » حاكم حيدر آباد ووزيرهُ الأعظم وقاسم باشا الزُهير البغدادي والدكتور جرجس باجر والدوق «أُف وِستمنستر» واللورد «شافتسبري» والسير «موسب منتيفيوري» ومستر «داود ساسون» والسير «ويليام ماكينن» وغيرهم من أعاظم الرجال. وقد قرَّظت أمهات الجرائد الإنكليزية الكبرى مجلة النحلة بما تستحقه من الثناء كما هو مسطر عَلَى صفحات كتاب «حر عثمانلو» والعدد الأول من جريدة «النحلة» المطبوعة عام ١٨٩٥ في القاهرة، وممن قرَّظها قيصر إبيلا بقوله:

ألاَّ حبذا القومُ الكرامُ الأولى لهم ... على وطنٍ من خير أفضالهم فضلُ
عليهم ثناء لا يزال ذيزال مؤَيدًا ... يطيب كما طاب الذي جنتالنحلُ
فأكرم بمن من روض أفكارهم لنا ... جنى نحلةٍ يخلو واثمانهُ تغلو
تطيبُ لنا مما حوته فوائدٌ ... وأعذبُ شيء ما يلذَّ به العقلُ

وقد قرَّظها أيضًا جرجس بن إسحاق طراد بهذه الأبيات:

هي نحلةٌ من كل فنٍ قد جنت ... وجلت عن التاريخ ما هومظلمُ
هبوا بني الأوطانِ واجنوا شهدها ... قد حان آنُ قطافهِ والموسمُ
وشى صحائفها جليلٌ ماجدٌ ... فيوصفه الأوطانُ تزهو وتبتسمُ

حل المسألتين الشرقية والمصرية

هي أول مجلة شعرية ظهرت باللسان العربي بعناية مؤسسها رزق الله حسون الذي نشرها عام ١٨٧٩ مرتين في الشهر. وكانت تتضمن

البحث في سياسة مصر خصوصًا والشرق الأدنى عمومًا وقد عاشت نحو السنة، فبلغ مجموع صفحات أجزائها أكثر من ثلاث مائة صفحة وكانت تطبع على قرطاس رقيق جدًا حتى يسهل إرسالها إلى المشتركين في ظروف مختومة كرسائل البريد ولا يتم مصادرتها من الدولة العثمانية لأن المجلة كانت تحتوي على قصائد مشحونة بالهجو الفظيع في حق رجال الحكومة العثمانية، لاسيما مختار باشا الغازي الذي انكسر من الجيوش الروسية في القرص وكانت مكتوبة بيد منشئها ومطبوعة على الحجر كسائر الصحف التي نشرها حسون في عاصمة الإنكليز. وتعطلت عام ١٨٨٠ بوفاته، إذ فاجأته المنية ليلًا في قطار السكة الحديدية بينما كان سائرًا من بيت أحد أصحابه السوريين المقيمين في لندن إلى داره التي كانت بشارع «أَلفاترس» Alpha Terrace.

في قرية وندسورث شق الأطباء صدره ليعلموا سبب موته، فوجدوا قلبه محفوفًا بموادٍ كثيفةٍ شحيمة، فحكموا على موته بسكتة القلب من شدة الاضراب الذي استولى عليه في تلك الليلة لأنه بقى إلى نصف الليل مع أصحابهِ من أبناء العرب يرغو ويزيد ويشتدُّ غيظاً على الأتراك ويطعن فيهم. وقد أنشدهم فصيدتهُ التي هجا بها الغازي مختار باشا ومطلعها:

هل أتاكم بأن مختار غازي ... أصبح اليوم وهو مختار باشا
باتت مثل البرغوث أو قملةٍ ... كـةٍ قصعت بلحية باشا

صحيفة سياسية أُنشئت في كانون الثاني ١٨٨١ في أربع صفحات مخطوطة بيد صاحبها الدكتور لويس صابونجي ومطبوعة على الحجر أيضًا، فجعل شعارها «حرية واستقلال ونجاح وإقبال» ثم افتتحها بهذه الآية «لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب». وقد تبرَع بعض الممولين في إنكلترا برأس مال قدره عشرة آلاف جنيه لنشر هذه الجريدة التي لم نشاهد قط أكثر منها جرأةً وأنطق لسانًا وأشدَّ لهجةً في تشخيص أمراض الدولة العثمانية ونشر الحقائق الجارحة عن السلطان ووزرائه، وكانت في الوقت ذاته تترجمَ إلى اللغات التركية والفارسية والهندية تعميمًا لفوائدها في جميع الأقطار الإسلامية. ومن أهم مقالاتها التي تستحق الذكر هي: «مسألة الخلافة والمسلمون» ثم «الخلافة في آل عثمان» وكذلك «حيَّ على الاستقلال أيها الأبطال» و«الخلافة والقانون الأساسي» إلخ. فلما اطلع عليها موزوروس باشا سفير تركيا في لندن بعث ببعض نسخ منها إلى السلطان عبد الحميد الثاني ليقف عليها، فاضطرب السلطان لذلك وارتعش فؤاده خوفًا من سوء العاقبة ثم أرسل أمرًا إلى السفير بأن يقنع مؤسس الجريدة ويلاطفه ويطعمه بالمال لإبطالها. فاستدعاه موزوروس باشا إليهِ وكلمه مليًّا بهذا الشأن، فأبى الدكتور صابونجي أن يذعن لإرادة السفير مُصرًّا عَلَى إِصدار الجريدة لأنَّ أمراء المسلمين كانوا يعضدونهُ في هذا السبيل وقد احتجبت «الخلافة» عندما أَبدلها منشئها بجريدة «الاتحاد العربي» التي سيأتي وصفها.

نشرة سياسية نصف شهرية ذات صفحتين أصدرها في ١٠ شباط ١٨٨١ رجل هندي يسمى عبد الرسول كان يتردد عَلَى السفارة العثمانية

للاستعطاء، فأوعز إليه موزوروس باشا بإنشائها وأمده بالمال لدحض مقالات جريدة «الخلافة» المشار إليه. وكان عبد الرسول قليل المعارف قاصر البصر والبصيرة ذا عين واحدة نحيف الجسم قد أكل الجدري وجههُ وكان عمر جريدته قصيرًا بحيث لم يصدر منها سوى تسعة أعداد مكتوبة بعبارة ركيكة ومطبوعة بحرف دقيق. فلما شاهد السفير العثماني أن «الغيرة» لا تفي بالقصد الذي أنشئت لأجله، قطع المدد النقدي عن عبد الرسول وتوقفت النشرة عن الظهور.

صحيفة سياسية أسبوعية أصدرها في عام ١٨٨١ الدكتور لويس صابونجي عندما كان مرتبطًا ومشتغلًا بسياسة مصر في عهد عرابي باشا. وكان القصد من نشرها اتحاد الناطقين بالضاد وتأليفهم عصبة واحدة على الأتراك في جميع البلاد العربية ولكن لما شاهد أنَّ الفساد قد دق عظم العرب ولا أمل باتحاد كلمتهم، أهمل إصدار الجريدة بعد ظهور العدد الثالث منها وكانت هيئتها شبيهة بهيئة جريدة «الخلافة» المار ذكرها من جهة الحجم والطبع وبلاغة الإنشاء وشدة الانتقاد واختيار المواضيع المختلفة.

جريدة أسبوعية صدرت بتاريخ ٢٦ نيسان ١٨٨٤ لصاحبها الدكتور لويس صابونجي، غرضها البحث في سياسة بريطانيا العظمى بالقطر المصري والسودان والهند الشرقية وشعارها هي الآية الواردة في سفر أرميا النبي (٤٦ :٥) القائل: «مصر عجلة سمينة يأتيها الخراب من الشمال». وفي الأعداد الأولى من هذه الجريدة ورد مطبوعًا تحت

عنوانها قول الخليفة عمر بن الخطاب وهذا نصه: «مصر تربة غبراء وشجرة خضراء، طولها شهر وعرضها عشر، يكنفها جبل أَغبر ورمل أَعفر، يخط وسطها نهرٌ ميمون الغدوات مبارك الروحات».

ولما كانت المطابع العربية في انكلترا نادرة الوجود ومرتبو الحروف بطيئ الشغل لجهلهم هذه اللغة، اقتضى إصدار النحلة مكتوبة بخط يد منشئها ومطبوعة عَلَى المطبعة الحجرية حتى يتيسر تتبع الحوادث أسبوعيا. وقد لزم الدكتور لويس أكثر مباحثهِ حدود النقل عن الجرائد الإنكليزية وتعريب خطب رجال المجلس النيابي البريطاني بدون تعرض أو تنديد بأعمال الرجال، بل ترك الأمرَ للقارىء أن يبرم فيه الكم كما شاء. وكان في كل كتاباته لا يكترث لحث الناس عَلى التعصب لدين من الأديان أو التشيع لحزب من الأحزاب، لكنه اقتصر عَلَى ذكر جوهر الحوادث السياسية التي تهم المصريين خاصة الشرقيين قاطبةً. ولصاحب «النحلة» مقالات جليلة دافعَ فيها عن حقوق أبناء وادي النيل مقبحًا سياسة الإنكليز وأخصها رسالتان عَلَى جانب عظيم من الأهمية بعث فيها في ١١ آب ١٨٨٤ إلى غلادستون رئيس وزراء إنكلترا واللورد غرنفيل وزير خارجيتها. وإذ رأَى غلادستون أهمية الرسالة المرفوعة إليهِ، أوعز إلى كاتم سرْه بإرسالها إلى اللورد نورثبروك المعتمد الإنكليزي الخارق العادة في مصر للتدقيق في مضمونها. وبالجملة فإنَّ هذه الجريدة المعتبرة لعبت دورًا كبيرًا في سياسة الشرق لذاك العهد ونالت إقبالًا وشهرة عظيمة.

هو عنوان لصحيفة سياسية أسبوعية أُنشئت عام ١٨٧٧ بأمر حكومة فرنسا وجعلتها الجمهورية الفرنسية لسان حالها ترويجًا لمصالحها السياسية والتجارية والاقتصادية في البلاد التي ينطق سكانها بالضاد لاسيما في الشرق الأدنى وعهدت بتحرير فصولها إلى الكاتب الشهير جبرائيل بن عبد الله دلاَّل الحلبي ترجمان وزارة المعارف في باريس، فقام بهذه المهمة خير قيام لكنه لم يكن يكتب فيها ما يريد، بل ما يراد بإيعاز الوزارة المشار إليها وقد تعطلت في العام الثاني من عمرها؛ لأنَّ مؤسسها سافر إلى القسطنطينية بدعوة من الصدر الأعظم خير الدين باشا التونسي لإنشاء جريدة «السلام» في عاصمة آل عثمان.

للشيخ يعقوب صنوع (جمس سانوا) المعروف بأبي نظارة جريدة هزلية أسبوعية عنوانها: «أبو نظارة زرقاء» نشرها عام ١٨٧٧ في وادي النيل، فكانت سببًا لنفيه من مصر بأمر الخديوي إسماعيل باشا؛ لأن سياسته كانت شديدة اللهجة. غير أنَّ النفي لم يؤثر فيهِ ولم يغير شيئًا من مبادئه، بل ضاعف همته لخدمة مصالح بلاده، فلجأَ إلى باريس حيث أصدر جريدة «رحلة أبي نظارة زرقاء» التي أعاد فيها الكرة عَلَى إسماعيل باشا منتقدًا أعماله بجرأة عظيمة ظاهرها هزل وباطنها جد. صدر منها ثلاثون عددًا أولها ٧ آب ١٨٧٨ وآخرها في ٣ أيار للسنة التابعة، فكان يتلقاها أنصارها بما تستحقه من الاعتبار ويتهافتون عَلَى مطالعتها بما لا يوصف من اللذة والإقبال في المدن والأرياف شرقًا وغربًا، وكانت مباحثها تتناول المحاورات الظريفة والنوادر اللطيفة والمواعظ المفيدة والمقالات السديدة مكتوبة باللغة العامية المصرية. وكان يطبع منها في

كل أسبوع ستة آلاف نسخة بل أكثر من ذلك حتى بلغ في بعض الأوقات ١٥ ألف نسخة وهذا العدد نادرٌ جدا في الصحف العربية التي ظهرت إلى الزمان الحاضر.

ثم أعاد في ٢١ أيار ١٨٧٩ للجريدة اسمها الأول الذي عرفت به في مصر وهو «أبو نظارة زرقاء» ونشرها مزينة بالرسوم في اللغتين العربية والفرنسية. وغير أنه اضطر إلى استبدالها مرارًا بأسماء جديدة لأن الحكومة المصرية اشتدت في إنعات من تصل إليهم الجريدة في وادي النيل. ولذلك أنشأَ في مدة أربع سنين ست صحف أخرى مختلفة الأسماء، وهي: «النظارات المصرية» ١٦ أيلول ١٨٧٩ ثم «أبو صفارة» في ٤ حزيران ١٨٨٠ و«أبو زمارة» في ١٧ تموز ١٨٨٠ ثم «الحاوي» في ٥ شباط ١٨٨١ ثم «أبو نظارة» في ٨ نيسان ١٨٨١ ثم «الوطني المصري» في ٢٩ أيلول ١٨٨٣ وغيرها من الصحف التي سيرد ذكرها في الحقبة الثالثة من تاريخ الصحافة. وفي سنة ١٨٨٦ أَنشأَ جريدة «الثرثارة المصرية» أو «البافار إجبسيان» بثماني لغات شرقية وغربية.

وكان يعقوب صنوع يطعن على صفحات جرائده في الاحتلال الإنكليزي بوادي النيل ولا يخشى من المناداة بأعلى صوته «مصر للمصريين».

فتح الله بك خياط

شيخ شعراء حلب وناشر المقالات الإصلاحية والقصائد في جريدتي «ابي نظارة» و«تركيا» وغيرهما من الصحف السيارة

ولما أخذت الحكومة في تشديدها على جرائده، فأستأنف إصدار جريدة «أبي نظارة» جاعلًا شعارها «سعادة الشعوب في صفاء القلوب» حتى بلغت عامها الرابع والثلاثين وتعطلت بداعي مرض منشئها وضعف بصره، فودع الصحافة في ٣١ كانون الأول ١٩١٠ بعد ما خدم الحرية في مصر وكان أول من رفع لواءها في عصر الاستبداد. وكانت جرائد أبي نظارة تنشر كثيرًا من المقالات السياسية والفصول الفكاهية والقصائد الرنانة بقلم مشاهير الكتبة كالسيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده وفتح الله بك خياط والسيد عبد الله نديم وأحمد سمير وإبراهيم اللقاني وسواهم. ونختم أخبارها بقصيدتين نفيستين نظمهما فتح الله بك خياط شيخ شعراء حلب في هذا العصر تبريكًا ليعقوب صنوع ببلوغه اليوبيل الخمسيني في عام ١٩٠٥ لحياته الصحافية وهما:

تهاليل اليوبيل

باريس يا جنة النعمى لمطلب ... يا بهجة الكون بل يا آية
بك العواصم قد باهت مفاخرة ... فتيهي فخرًا على السيارة
واستبشري بسنى يوبيل شاعرنا ... سنوا الذي به عزت دولة الأدب
هذا هو السيد الميمون طالعة ... يتيمة الدهر صنو العز والحسب

تالله ما سمعت أذني ولا نظرت   عيني نظيرًا له في السادة
تيم حماه تجد بحرًا لمغترف   زهرًا لمقتطف ذخرًا لمصطحب
نعم الصديق الذي بشقي العدو   فمن يعاديه في الدنيا ولم يخب
كم كربة نفست للصحب همته   فحقه أن يمسى كاشف الكرب
وكم خطوب عن الأوطان   لا بالصفائح بل بالصحف
ذو همة مثل وري الزند لو   موج الخضم لامسى الموج في
أثيل مجد تسامى في الورى كرما   مورثا بالتوالي عن أب فأب
فلا نقسه بمن رام اللحاق به   كلا وكيف يقاس الرأس بالذنب
عمت فواضله فاحت فضائله   حاكت شمائله ضرباً من الضرب
فالعلم زينته والحزم شيمته   والحلم حليته لا حلية الذهب
يا من يحاول جهلاً أن يماثله   دع عنك هذا ولا تغتر بالكذب
ليس العصى كحد السيف   شتان بين صقيل العضب
ان الصحافة قد عزت به وغدت   تميل عجبًا كميل الشارب
وسل إذا شئت عن آثاره فلقد   ضاقت بذاك بطون الصحف
له اشارت فرنسا وهي قائلة   يا بو سوى العصر يا علامة
فذاك لو سمعت أذناه منطقه   أقر طوعًا لهذا الحهبذ العذبي
أكرم بمملكة بالعلم عامرة   حازت بسنوا الفتي ما عز من
إذ زانها من سنى تاريخه درر   والعز نالته في يوبيله الذهبي

تفاؤل المادح الصادح

حجت علاك عرائس الأطراس   وتلت ثناك نفايس الأنفاس
ورأي الكرام مروءة وفريضة   تخليد ذكر الفضل بين
جعلوا لك العيد المذهب موسمًا   يزري بخير مواسم الأعراس

سموك شاعر ملكهم لو انصفوا ... سموك ملك الشعر
أنفقت نصف القرن في فن ال ... فة لا تبالي فيه صعب مراس
ما اعتل بين الخلق خلق مفسد ... إلا غدوت له الطيب الآسي
ورد الوري من عذب علمك مشرعاً ... طهرت مجاريه من الأدناس
وسفيتهم ماء طهوراً صافيًا ... أنساهم معني حميا الكاس
شهدت لك الأعراب والأعجام بال ... آداب والحلم الرسيس
لك في القلوب منازل مرفوعة ... وبصدر اندية العلوم راسي
مولاي إني عن مديحك قاصر ... لكنني للفضل لست بناس
أدعو بحفظك في الليالي هاجدًا ... وأكرر الدعوات في
يهنأك عيدًا أنت بهجة أنسه ... وببرد مجدك ورتقائك كاس
وحييت أرغد عيشة متزملًا ... من نسج عافية بخير لباس
وبقيت تحرز رفعة ارخ سمت ... حتى تشاهد عيدك الألماسي

مصر القاهرة (مجلة وجريدة)

هو عنوان لمجلة سياسية شهرية شعارها «حرية– مساواة– إخاء». ظهرت بتاريخ ٢٤ كانون الأول ١٨٧٩ في ١٦ صفحة لمؤسسها أديب بك إسحاق، وقد أسسها على أنقاض جريدة «مصر» التي كانت تصدر في وادي النيل ما يعود بالنفع على البلاد العربية وصدرها بهذه العبارة: «ما تغيرت الحقيقة بتغير الرسم ولا تغيرت الاسم، بل هي مصر خادمة مصر». أما خطتها فقد صرح بها أديب إسحاق في أول عدد برز من الصحيفة قال:

«على أني لا أقصد الانتقام وإنما أروم مقاومة ونصرة الحق والمدافعة عن الشرق وعن الفضل ورجاله؛ فمسلكي أن أكتشف حقائق الأمور ملتزمًا جانب متجافيًا عن التعرض والتلميح، وأن أجلو مبادئ الحرية وآراء ذوي النقد وأن أبين ما يظهره البحث من عواقب الحوادث ومقاصد أهل الحل والعقد وأن أوضح مسايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحًا «أولي الأمر» ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهمًا «أمن الأمة» ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلًا «ولاة النظام» وأن أعين واجبات الإنسان الشرقي بالنسبة إلى نفسه وقومه وبلاده وما يقابل تلك الواجبات من الحقوق. ومقصدي أن أثير بقية الحمية الشرقية وأهيج فضالة الدم العربي وأحي الغيرة في قلوب العارفين؛ ليعلم قومي أن لهم حقًا مسلوبًا فيلتمسوه ومالًا منهوبًا فيطلبوه وليخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل من يشتري بحقوقهم ثمنًا قليلًا ويذيقوا الخائنين عذابًا وبيلًا وليستصغروا الأنفس والنفائس في جنب حقوقهم. وليستميتوا في مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم من الأجانب بما يطمعون فيه من رفعة المقام. فمن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن عاش بعد أولئك الشهداء فهو سعيد».

وقد كتب فيها فصولًا متناهية في البلاغة وحاوية من آثار حدة المزاج ما دفعه إليها مزق الشباب وكثيرًا ما ندد بسياسة رياض باشا رئيس الوزارة المصرية، فحمل عليه وعلى سياسة الدول الأوروبية في وادي النيل حملات شديدة. ثم حول المجلة إلى جريدة أسبوعية ولكنها قبل

بلوغها الحول الأول من العمر، أصيب أديب بعلة الصدر فزايل باريس عائدًا إلى وطنه. وكانت هذه الصحيفة تصدر مطبوعة على الحجر ومكتوبة بخط يد منشئها أو بخط عبد الله مراش الحلبي المشهور بالأدب وجودة الكتابة. وإليك ما كتبه عنها الدكتور لويس صابونجي في مجلة النحلة في لندن (عدد ١٠ سنة ٣) قال:

«ورد إلينا العدد العاشر من جريدة سياسية تسمى (مصر القاهرة) قد أنشأها صديقنا الفاضل اللبيب أديب أفندي إسحاق بحاضرة باريس الزاهرة، وهي نشرة بديعة المعاني فسيحة المباني قد هوت مقالات غراء يستفاض فيها. وقد عمل الفكرة منشئها أعزه الله في تزيين أعمدتها بنبذات بارعة يستفز بها همة الشرقيين إلى النهوض من سقطة الخمول والانتباه من سنة الغفول والاعتصام بحبال النخوة العربية والاعتياض عن التقاعد وصرف الزمان الثمين سدى بتجريح قلوبهم وإجماع كلمتهم المتفرقة والذود عن مصالح أوطانهم. وقد تحرينا لإثبات شذرة من مقالاته البديعة في عمد النحلة على سبيل الأنموذج ليتفكه بها أبناء المشرق ويتفقه بها من يود أن يفرق».

الحقوق

اسم لجريدة حرة أسبوعية شعارها «الجريدة الحرة مقدمة حامية الوطن». أسسها في ١٦ نيسان سنة ١٨٨٠ ميخائيل بن جرجس عورا للدفاع عن حقوق الشرق وقد سلكت نهج الاعتدال في كل كتاباتها التي

تدل على وجدان طاهر وإخلاص تام في خدمة مصالح البلاد العربية، وكانت هذه الصحيفة قويمة المبدأ، بليغة العبارة، كثيرة المباحث، مرتبة المواد، يكتبها منشئها بخطه الجميل ثم يطبعها على الحجر وكان يرسلها ضمن غلافات مختومة إلى المشتركين في السلطنة العثمانية حتى تصل إليهم بطريقة مأمونة، فكان القراء يتهافتون على مطالعة أنبائها لما هو معهود بصاحبها من المقدرة الصحافية وذكاء القريحة وغزارة المعارف لاسيما في الشؤون القضائية. وبعدما عاشت نحو السنة، احتجبت عن الظهور لسفر ميخائيل عورا إلى وادي النيل حيث خدم الصحافة في بعض الجرائد والمجلات التي سيأتي ذكرها في الجزء من هذا الكتاب.

الاتحاد- الأنباء- الرجاء

الاتحاد هي جريدة أسبوعية سياسية أنشأها إبراهيم بك المويلحي سنة ١٨٨٠ انتقامًا من الدولة العثمانية وبيانًا لمساوئ رجالها، فما كادت تظهر لعالم الوجود حتى تعطلت وأبدلها صاحبها بنشرة عنوانها «الأنباء[١]» ثم بصحيفة ثالثة تسمى «الرجاء» وكانت تضرب قاطبة على وتر واحد. وقد توقفت هذه الجرائد بعد صدورها بزمن قليل؛ لأن منشئها كان ينشرها لغرض في النفس فإذا ناله عطلها. ولهذا سعى سفير تركيا لدى حكومة فرنسا في طرده من بلادها ففعلت وقد كتب أحمد فؤاد صاحب جريدة «الصاعقة» في القاهرة يصف إبراهيم المويلحي وجرائده

---

[١]ورد في جريدة «الكوكب» لصاحبها محمود زكي (عدد ١١٨: سنة ٥) في القاهرة أن جريدة «الانباء» ظهرت في ابولي. اما جرجي زيدان وعيسى اسكندر الطوف فقد رويا انها صدرت في باريس

قائلا: «وكل جريدة بينها من اختلاف الرأي ما بين الروافض ومن البعد في الفكر ما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى[٢]».

البصر

جريدة أسبوعية حرة تشتمل على وقائع الشرق والغرب أنشئت في ٢١ نيسان ١٨٨١ لصاحبها خليل غانم. كانت مباحثها تتناول شؤون السياسة والأدب والاقتصاد والحكمة بأسلوب حسن لمنفعة الناطقين بالضاد وقد استهلها منشئها مستغيثًا بالعزة الصمدانية بقوله:

عليــك كــل اعتمــادي أيهــا   قـد فـاز عبـد على مـولاه

وكان غمبتا رئيس وزارة فرنسا لذاك العهد أكبر عضد لها؛ لأنه عين راتبًا شهريًا قدره ٢٠٠٠ فرنك من خزينة دولته لأجل القيام بنفقات الجريدة المذكورة وقد صدر عددها الأولان بقلم

فضل الله دباس

أحد مؤسسي جريدة «البصير» في باريس

مؤسسها وشريكه فضل الله بن خليل دباس البيروتي الذي انتقل إلى رحمة مولاه في ١٢ تشرين الأول سنة ١٩١٢ في الإسكندرية. وكان فضل الله دباس من أذكياء بيروت وقد نال وسام «الافتخار» من محمد

---

[٢]نقلاً عن جريدة «الكوكب» المذكورة في الحاشية السابقة

الصادق باشا باي تونس ثم دعي لتحرير «البصير» يوسف باخوس اللبناني صاحب جريدة «المستقل» في غلياري، فكتب فيها سنة كاملة حتى عاد إلى وطنه انتجاعًا للعافية من داء أصيب به ثم خلفه في التحرير نعمان الخوري اللبناني الذي توفي بتاريخ ١٥ آب. ١٩١ في طنجه بعد ما عهدت إليه فرنسا وظائف مهمة كان آخرها قنصلية مراكش. وقصدت فرنسا بإنشاء «البصير» تأييدًا نفوذها والدفاع عن مصالحها في الإمارة التونسية وتمهيد السب لإعلان حمايتها على تلك البلاد. وكان عبد الحميد الثاني مستاء من خطة هذه الجريدة الحرة لأنها كانت تضرب بعصا من حديد على أيدي الخائنين من رجال تركيا وتبين لهم وجوه الإصلاح لخير السلطنة. ولذلك طلب السلطان المشار إليه من فرنسا إلغاء جريدة «البصير» للنجاة من انتقاداتها المتوالية، لكن مساعيه ذهبت أدراج الرياح حتى حل القضاء المحتوم بالوزير غمبتا، فقطع الراتب عن الجريدة التي عاشت على أواخر سنتها الثانية.

كوكب المشرق

صحيفة سياسية أنشأها رجل فرنسي عام ١٨٨٣ بعد احتجاب جريدة «البصير» المار ذكرها. وكانت تنشر في مطبعة « Charles Blot» ويحررها عبد الله بن فتح الله مراش الحلبي وقد تولى ترتيب حروفها جرجي مكر الدمشقي، صاحب المطبعة التجارية حاليًا في بيروت، فسعى منشئها مرارًا في أن ينال لجريدته راتبًا على مثال جريدة «البصير» من الحكومة الفرنسية فلم يفلح. ولذلك اضطر إلى تعطيلها

في السنة التابعة لأن وارداتها كانت غير كافية لسد نفقاتها وكانت مباحث «كوكب المشرق» تتناول حوادث الكون عمومًا ولاسيما الشرق الأدنى وشمال أفريقيا.

العروة الوثقى لا انفصام لها Le Lien Indissoluble

أحمد باشا المنشاوي

صاحب اليد البيضاء على جريدة «العروة الوثقى» وأحد مؤسسيها

جريدة سياسية أدبية أسبوعية. أنشئت في ١٣ أيار ١٨٨٤ (١٥ جمادي الأول ١٣٠٣) لمدير سياستها السيد محمد جمال الدين الحسيني الأفغاني ومحررها الشيخ محمد عبده المصري، وهي بليغة العبارة كثيرة المباحث، تعد الحجر الأول لأساس النهضة الإسلامية الحديثة بما كانت تنشره من المقالات الرنانة تعزيزًا للإسلام وتنديدًا بالسيطرة الإنكليزية في الهند ومصر. وقد صدر من هذه الجريدة ثمانية عشر عددًا آخرها في ١٦ تشرين الأول ١٨٨٤، فحالت الموانع دون الاستمرار في نشرها حيث صادرتها حكومة انكلترا ومنعت دخولها إلى الهند وسائر البلاد التي لها فيها نفوذ. وكانت لسان حال جمعية بهذا الاسم تأسست في مدينة الإسكندرية في أوائل عهد الخديوي توفيق الأول للدعوة إلى الجامعة الإسلامية ويقال إن إبراهيم المويلحي نشر على صفحاتها شيئًا من نفثات قلمه.

راعت في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الشعوب الإسلامية وتمكين الألفة في أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين. فكانت تطبع بنفقة إسماعيل باشا، خديوي مصر سابقًا، وغيره من أمراء العرب والهند وأغنيائهم وأعيانهم. وفي مقدمة الذين ساعدوا على انتشارها وأمدوها بالمال أحمد باشا المنشاوي صاحب المبرات الشهيرة والمثري الكبير في وادي النيل وكانت ترسل إلى جميع الجهات ولكل من يطلبها مجانًا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير والغني والفقير وقد عينت أجرة للبريد خمسة فرنكات في السنة لمن تسمح به نفسه وإليك ما ورد عنها في كتاب «العروة الوثقى» المطبوع في بيروت بالحرف الواحد:

«تلك الجريدة التي لم أم الحرية «انكلترا» على احتمالها واتساع صدرها لها في حين أنها وسعت أكثر الجرائد حرية وأكثرها تطرفًا، فمنعتها من الهند ومصر والسودان واستصدرت الأوامر بمنعها عن سائر البلاد التي لها فيها نفوذ أو تطمح إلى أن يكون لها ذاك النفوذ. تلك الجريدة التي لم يكف انكلترا منعها من تلك البلاد؛ لأن أشعة نورها كانت وهاجة تخرق الحجب وتنفذ الأغشية وتدخل إلى أعماق القلوب، فاستعملت الوسائل لمحوها من عالم الوجود وإطفاء نورها الذي كان يبدد ظلمات الاعتساف. تلك الجريدة التي تعد أم الجرائد الحاضرة على الإطلاق والتي لم يزل الناهضون من بني الشرق يسيرون في دعوتهم إلى النهوض على إثرها».

الشمس

جريدة أسبوعية سياسية أدبية ظهرت في ٢٢ شباط ١٨٨٥ لمديرها سليم قويطة ومحررها الياهو ساسون وهما من أبناء تونس الإسرائيليين. وهذه الجريدة مؤلفة من أربع صفحات كان يطبع نصفها بحرف عربي. أما النصف الآخر فكان يطبع بحرف عبراني وعبارة عربية لا تختلف عن عبارة النصف الأول سوى بصورة الحروف، وهي أول جريدة من نوعها برزت في لسان الناطقين بالضاد وغرضها نشر حوادث المملكة التونسية والدفاع عن مصالح شعبها الوطني بعد إعلان الحماية الفرنسية عليها. فكان طبعها متقنًا لكن عبارتها ركيكة وخالية من مسحة البلاغة في الإنشاء. وإليك على سبيل المثال فقرة وردت بعنوان: «الروسيا والأفغان» في عددها التاسع الصادر في ٢٦ نيسان ١٨٨٥ وهي:

«إن المسألة الأفغانية قد عظمت الآن وصارت في أصعب حال وكل من الطرفين متعصب لجهة الأخرى والحرب قريبة للظهور وقد أقلقت الناس هذه الخبرية وكدرت سامعيها. إنما قيل أيضًا في هذا الأسبوع إن دولة ألمانيا مستعدة للتوسط بين الدولتين ومن الأمل أن تصلح الأحوال بينهما ولكن قولًا فقط ولم يظهر شيء بالعملية».

الفصل الأول

أخبار الصحف العربية في فرنسا خارجًا عن باريس

الشهرة

جريدة سياسية أدبية علمية تجارية مصورة صدرت بتاريخ غرة آب سنة ١٨٨٨ بهيئة مجلة كبيرة الحجم لمنشئها المسيو بوردين صاحب «مطبعة اللغات الشرقية» ومحررها جاماتي، فكانت تصدر نصف شهرية بمدينة انجه (Angers) في فرنسا مزينة برسوم بديعة وهي حسنة الأسلوب، متقنة الطبع على ورق صقيل بالحرف القسطنطيني وطافحة بالمباحث الجليلة والروايات المفيدة والأخبار الصحيحة. ومن أهم فصولها التي تستحق الذكر «فن الاقتصاد السياسي» بقلم خليل غانم. ومن أحسن رواياتها رواية «ذات الخدر» تأليف سعيد بن راشد البستاني اللبناني وغير ذلك، ومن الرسوم التي نشرت فيها صورة السلطان عبد الحميد الثاني وكرنو رئيس جمهورية فرنسا وتوفيق الأول خديوي مصر. ومنها منظر مدينة الجزائر وتونس وبيرسه القديمة وبرج إيفل وقفصه وموانئ قرطاجنة. وخلاصة القول إن «الشهرة» كانت من أرقى جرائد ذاك العهد واحتجت في نهاية الحول الأول من عمرها بعد صدور أربعة وعشرين عدد منها.

ولد منصور بن حبيب جامائي سنة ١٨٤٦ في قرية «عين طورا» بلبنان وتلقى العلوم في مدرستها الشهيرة بإدارة المرسلين للعازريين، فنال شهادتها العالية إذ أحكم معرفة لغات شتى وفنون كثيرة جعلته في مقدمة النابغين من تلامذة المدرسة المذكورة. وبعد ذلك تولى التدريس مدة من الزمان في «مدرسة المحبة» في قرية عرامون ثم سافر إلى وادي النيل حيث دخل مع يوسف أخيه البكر إلى مدرسة «قصر العيني» الطبية في عهد الخديوي إسماعيل، فخرج منها قبل إتمام دروسه وتعين أستاذًا للترجمة في «مدرسة المهند سخانة» في القاهرة في عام ١٨٨٧ سافر إلى فرنسا وأصدر جريدة «الشهرة» في مدينة أنجه فعاشت عامًا واحدًا ثم انتقل إلى باريس واقترن فيها بفتاة فرنسية وأخذ يتعاطى مهنة بيع الكتب وتعليم اللغة العربية.

الفصل الثاني

أخبار الجرائد العربية في إيطاليا

الخلافة

صحيفة أسبوعية سياسية دينية صدرت عام ١٨٧٩ باللغتين العربية والتركية في مدينة نابولي. وقد نشرها إبراهيم بك المويلحي لما سافر بصفة كاتب لإسماعيل باشا بعد خلعه من سرير الخديوية المصرية، فأراد بذلك إظهار إخلاصة لمولاه المخلوع والتنديد بالسلطان عبد الحميد الثاني الذي وافق الدول الأوروبية على تنزيل الخديوي المشار إليه. وكان المويلحي يذيع على صفحات جريدته أن مقام الخلافة عند المسلمين يتسلسل من أصل عربي وأنه انتقل بلا حق إلى آل عثمان سلاطين الأتراك. وكان يقول إن خديوي مصر هو أولى من سواه بهذه الكرامة الدينية لأن مصر كانت مقرًا للخلفاء في سالف الزمان، فاضطرب السلطان عبد الحميد الثاني لذلك وخاف من امتداد هذا الفكر بين الأمة العربية الإسلامية التي يتألف منها القسم الأكبر من سكان السلطنة العثمانية، فأوعز إلى سفيره في باريس أن يسعى في تعطيل الجريدة المذكورة بكل الوسائل الفعالة قبل أن ينتشر خبرها بين المسلمين. واتفق أن الدكتور لويس صابونجي كان موجودًا في عاصمة الفرنسيس، فأشار

على السفير العثماني بأن أفضل وسيلة لبلوغ الغاية المقصودة هي إغراء المويلحي بالمال، فتتبع السفير نصيحته وهكذا توقف إبراهيم المويلحي عن استئناف نشر جريدته بعد صدور العددين الأول والثاني منها.

المستقل

بعد ما أمنت إيطاليا على كيان وحدتها بضم جميع البلاد الخاضعة الآن لصولجان أسرة «سافوا» المالكة، طمحت أنظارها إلى التوسع خارجًا عن شبه جزيرتها بطريق الاستعمار وأحبت أن تعزز نفوذها في تونس وتنشر حمايتها عليها. غير أن فرنسا أخذت تزاحمها على امتلاك هذه البقعة الثمينة حرصًا على مركزها في جزائر الغرب فضلًا عما لها من الديون الحكومة التونسية.

ولما كانت الصحافة سلاحًا قويًا لرجال السياسة في العصر الحاضر، عمدت إيطاليا إلى استخدامه لبلوغ غايتها، فطلبت من قنصلها في بيروت أن يتحرى التنقيب عن كاتب توفرت فيه الشروط الموافقة للقيام بهذا المشروع. فلبى كبار بستلوسا أعمال قنصلية إيطاليا في المدينة المذكورة طلب دولته واستدعى إليهِ يوسف باخوس اللبناني، أستاذ الفلسفة والآداب العربية في مدرسة الحكمة المارونية وأوعز إليهِ بالسفر إلى رومة لمعاطاة صناعة التدريس العربي والترجمة. وعند وصوله إلى رومة أمرتهُ وزارتها الخارجية بالذهاب إلى جزيرة سردينيا مزودًا بالمحررات الرسمية إلى مدير جريدة «مستقبل سردينيا» الذي ذهب به

إلى تونس. وهناك أبرم العهد بين يوسف باخوس وبين السنيور ماتشو قنصل إيطاليا وجول بستلوسا الترجمان الأول للقنصلية على أحداث صحيفة عربية تدرأ عن مصالح العرب عمومًا وسكان شمال أفريقيا خصوصًا. واستقر رأيهم على أن تطبع بنفقة حكومية إيطالية وتكون ترجمان أفكارها وأن يجعل مركز إدارتها في مدينة «غلياري» قاعدة جزيرة سردينيا ويتولى يوسف خابوس كتابة فصولها، فسافر يوسف باخوس إلى غلياري وأنشأ في ٢٨ أيار ١٨٨٠ جريدة «المستقل» وهي أسبوعية سياسية أدبية وكان الشيخ أسعد حبيش مع ابن وطنه زين يساعدانهِ في رصف حروف الجريدة وأعداد «المستقل» الأولى ما تخطت حد الإفصاح عن مجد العرب الباسق في القرون السابقة وعن انحطاط شأنهم في العصور اللاحقة ثم أخذت تطعن في حكومة فرنسا التي كان نفوذها يهدد نفوذ إيطاليا في تونس[١١].

فلما نشرت الحكومة الفرنسية حمايتها على هذه المملكة، صرف يوسف باخوس نظره عن إيطاليا وذهب إلى باريس ليتولى كتابة جريدة «البصيرة» بدعوة خاصة من صاحبها خليل غانم وعاش «المستقل» إلى نهاية شهر نيسان ١٨٨١ وكان من أرقى صحف عصره في بلاغة الإنشاء وسمو المعاني وحرية الأفكار وحسن انتقاء الأخبار.

(١١) راجع تفاصيل هذه الأخبار وسواها عن يوسف باخوس في أعداد جريدة «Voltaire» وجريدة « Le Temps» الصادرتين بباريس في شهر كانون الأول ١٨٨١

الفصل الثالث

أخبار صحف الجزائر البريطانية في البحر المتوسط

مالطا

جريدة سياسية ظهرت في مدينة لافالنا «La Valelna» قاعدة جزيرة مالطا في البحر المتوسط ولا نعلم اسم منشئها، فكانت تصدر باللغة المالطية ثم تعطلت قبل سنة **١٨٩٣** كما روي جرجي زيدان في مجلة «الهلال» المصرية (عدد ١: سنة١). واللغة المالطية تتألف من ألفاظ عربية عامية مخلوطة بألفاظ إفرنجية لاسيما الإيطالية منها وحروف هذه اللغة هي نفس الحروف الأوروبية وإليك شيء من ذلك على سبيل المثال(١٢):

Seuola di Taglio Per Sarü & Sarte

«Fi Strada Reale No. 32 Birebircara infethet Scola gdida tat-tifsil gbar-rgiel u innisa. Dauc colla tai geometria, ghand il prot. Vincenzo Grech, Ippremlat Bosta Accademt La Londra, Parlgi Torino Ghall' arti il lippossied ta intagilatur. - 8 ta Ghodu sat-8 ta gracia »

وإليك كتابتها العربية مع ترجمة ألفاظها المكتوبة بالحروف الإفرنجية:

---

(١٢) نقلاً عن جريدة Malta Taghna أو «مالطاتيمنا» عدد ١٨١ بتاريخ تشرين الأول ١٩٠٩

«مدرسة التفصيل للخياطين والخياطات »

«في الشارع الملكي عدد ٣٢ في بيركركارا (اسم مدينة) افتتحت مدرسة للتفصيل للرجال والإناث. فكل الذين يريدوا تعلم التفصيل بحسب فن الهندسة يذهبوا إلى المعلم منصور غريك الحائز من محافل لندن وباريز وطوربنو على شهادة فن التفصيل. يتواجد من الساعة ٨ مساء إلى الساعة ٩ في العشاء».

زمان

أنشئت هذه الصحيفة السياسية الأسبوعية باللسان التركي سنة ١٨٧٨ في نيكوزيا عاصمة جزيرة قبرص. وكان صاحبها درويش باشا رجلًا تركيًا أميًا اتخذ مهنة الصحافة سبيلًا للارتزاق في ظل الراية البريطانية، فأخذ يكشف النقاب عن آفات الدولة العثمانية وسوضح أسباب انحطاطها بما لا يوصف من حرية الأفكار. وأفسح في جريدته مجالًا لأرباب الأقلام لنشر آرائهم فيها. فحسب السلطان عبد الحميد الثاني لذلك ألف حساب وسعى في استمالة درويش باشا إليه بقوة المال، فرتب له معاشًا سنويًا قدره ٢٠٠ ليرة عثمانية ترويجًا لسياسته الخرفاء. وكان مؤسس الجريدة ينشر من وقت إلى آخر على صفحاتها مقالات عربية ليطلع عليها المسلمون الناطقون بالضاد وقد أنشأ فيها الشيخ حبيب ابن الشيخ صعب الخوري اللبناني سنة ١٨٩٦ فصولًا جديرة بالذكر حث فيها العثمانيين على طلب إعادة الدستور لتركيا. فكان

ذلك داعيًا لصدور إرادة السلطان بإعدامه كما سنروي ذلك في الحقبة الثالثة من هذا الكتاب وانتهت حياة جريدة «زمان» بقطع المدد عن درويش باشا لدى حدوث الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨.

ديك الشرق

اسم لجريدة سياسية أدبية أسبوعية ظهرت عام ١٨٨٩ في قاعدة جزيرة قبرص لمؤسسها علكسان سرافيان. وهو أرمني الأصل لجأ إلى الجزيرة المذكورة بعد تعطيل جريدة «الزمان» المشهورة التي كان ينشرها قبل هذا العهد في عاصمة وادي النيل.

وخطة «ديك الشرق» ترمي إلى الدفاع عن الأرمن وحقوقهم المهضومة في الممالك العثمانية ثم تستنجد الدولة الإنكليزية لحماية مصالحهم من تعديات الأكراد ونجاتهم من مظالم عبد الحميد الثاني سلطان العثمانيين وقد جاهد صاحبها في هذا السبيل جهادًا مستمرًا إلى أن عطل جريدتهُ بعد سنتين من عهد ظهورها.

الباب الرابع

تراجم مشاهير الصحافيين في أوروبا في الحقبة الثانية

١٨٧٠ -١٨٩٢

«١»

خليل غانم

أحد منشئي مواد الدستور العثماني ومؤسس جريدتي «البصير» العربية و«تركيا الفتاة» العربية الفرنسية والصحيفتين الفرنسيتين «الهلال» و«لافرانس انترناسيونال» في باريز وجريدة «الكروزان» في سويسرا ومحرر جريدة «مشورت» و«الديبا» و«الفيغارو» و«تركيا» في باريس وغيرها من الصحف. هو خليل بن إبراهيم بن إلياس بن إبراهيم بن زيتون بن خليل بن إبراهيم بن سرجيس بن جرجس من سلالة موسى بن المقدم سعادة اللحفدي الذي اشتهر في جبل لبنان في أوائل القرن الرابع عشر وأمه مريم بنت عبود بن نصر بن نجم بن ضو بن نصر وهي لبنانية الأصل أيضًا من قرية «شننعير».

وُلد بتاريخ ٨ تشرين الثاني ١٨٤٦ في بيروت. ولما بلغ الحادية عشرة من عمره دخل مدرسة عينطورا، فجلى في مضمار اللغة الفرنسية وكان فيها شاعرًا مطبوعًا وكاتبًا ضليعًا وخطيبًا بليغًا ورياشيًا بارعًا ثم أخذ

اللغة العربية عن الشيخ ناصيف اليازجي واللغة التركية عن المعلم الباحوط وأحكم أصول اللغة الإنكليزية حتى بلغ من هذه الألسنة شأوًا بعيدًا.

وقد بدأت حياته السياسية عام ١٨٦٢ بتعيينه عضوًّا في محكمة التجارة. وفي السنة التابعة عينه إبراهيم باشا متصرف بيروت ترجمانًا للمتصرفية وأنهى له بالرتبة الثانية وزادهُ إنعامًا بزيادة المعاش. ولما تولى راشد باشا سنة ١٨٦٥ ولاية سورية جعله ترجمانًا للولاية، فخدم هذه الوظيفة بعزة النفس وحرية الضمير في مدة الوالي المشار إليه ومدة الواليين صبحي باشا وأسعد باشا. وعندما أسندت الصدارة العظمى لعهدة هذا الأخير ستصحبه معه وجعله ترجمانًا للوزارة الخارجية، فبقي في هذا المنصب إلى سنة ١٨٧٥ إذ فيها قلد ترجمة الصدارة العظمى ورئاسة تشريفاتها. وفي سنة ١٨٧٧ انتخبه سكان سوريا نائبًا عنهم في مجلس المبعوثان. وقد عهد إليه مدحت باشا أن يطالع مع أغوب باشا قانون حكومات الدول الدستورية ويؤلفا منه قانونًا ملائمًا وموافقًا لحالة الدوبة، فقام هذان العظيمان خليل وأغوب بوضع القانون الأساسي بإخلاص للدولة والأمة وأظهر خليل في جلسات ذاك المجلس ما اختل من النظامات ودافع عن كيان الدولة وأعلن بحرية ضمير وثبات جأش مطامع الدولة الأجنبية والدسائس الخفية مظهرًا واجبات المندوب الأمين والنائب عن قوم وبلاد يعلقون عليه الآمال الطوال.

وقد حمل حملة شديدة في المجلس مع أحمد أفندي، مبعوث أزمير، عَلَى الحكومة لنفيها مدحت باشا وقاوم آراء حسين فهمي باشا الذي تعرض لمناقشة المجلس في نفي مدحت باشا. وقد بلغت الجاسوسية وأعداء الوطن والدولة العثمانية غايتها من إقناع السلطان عبد الحميد بفض مجلس المبعوثان، فأمر بفضه ثم تعرض خليل لإرادة عبد الحميد بحل ذاك المجلس وكان أول المعارضين فيه عندئذٍ خطب خطابهُ المشهور ولفظ فيهِ كلمته المأثورة: «أبد حرية المنبر وأسندها إلى القانون ومنذ شاءِ السلطان أن يمنح الدستور، فلا يحق له الرجوع عما صدق عليه ومنحه وصدرت إرادتهُ بهِ رسميًا والسلطان تحت الدستور لا فوقه». فلما نقلت الجاسوسية حرية أفكار خليل لعبد الحميد، أصدر أمره بالقبض على بعض أعضاء مجلس الأحرار وإعدامهم وفي مقدمتهم الخليل الذي هيأت له العناية أحد الأبناء، فأعلمه بالدسيسة فاضطر مكرهًا للالتجاء إلى السفارة الفرنسية. وفي الحال أرسلته على إحدى بواخرها التجارية إلى مرسيليا ومنها يمم باريس وليس من درهم في الكيس لكونه مع كل المناصب السامية التي تقلدها لم تشبهُ شائبة الارتشاء.

وبعد وصول المترجم إلى باريس خالي الوفاض، أنشأَ جريدة عربية دعاها باسم «البصير» خدمة للوطن ولكسب المعاش الضروري معًا. غير أن جريدته لم تطل حياتها؛ حيث إن الحكومة العثمانية منعت دخولها إلى بلادها وأنذرت بالعقاب الشديد كل من وجدت عنده وقد شددت المراقبة على دخولها بالبريد العثماني والأجنبي، فاضطرته هذه المضايقة

إلى العدول عن نشرها. وقد انصب بعدها على التأليف والتحرير في الجرائد ليكتسب ما يسد بهِ الرمق في ذلك المنفى الطويل، فألف كتاب «الاقتصاد السياسي» بالعربية وكُتيبًا أنكر فيه حماية الأجانب للعثمانيين المسيحيين نشرته جريدة «تركيا» ونظم قصيدة بالفرنسية إبان الثورة الإيطالية واستقلال إيطاليا. كما ألف كتاب «تاريخ سلاطين آل عثمان» في مجلدين بالفرنسية وهو تأليف نادر المثال. وله قصيدة قدمها للبرنس كلوتيلد والبرنس نابليون حينما كانا في سوريا، وقد أظهر عدة جرائد كان يقدمها تقدمة مجانية خدمة للدولة والوطن كجريدة «تركيا الفتاة» بالفرنسية والعربية «والهلال» بالفرنسية و«لافرنس انترناسيونال». وكان يحرر بجريدة «مشورت» لصاحبها أحمد رضا بك وله كتاب «حياة المسيح» بالعربية وكتب كثيرًا من المقالات الشائقة التي كانت تزدان بها أعمدة جريدة «الديبا» و«الفيغارو» وغيرهما من الجرائد.

فطار ذكره في أوروبا عامة وفي باريس خاصة؛ لسمو مداركه وغزارة علمه وأصالة رأيه وشدة إخلاصه لوطنه، فأصبح محجة خواطر العلماء وأرباب السياسة وذوي النفوس الشماء وأصحاب المقامات العالية من مثل المسيو هانوتو، سفير الدولة الفرنسية في لندن، والفيلسوف الشهير جمال الدين الأفغاني شهيد الحرية ومدحت باشا شهيد الإنسانية والعثمانية والعلامة الشيخ محمد عبده وغمبتا رئيس الوزارة الفرنسية الذائع الصيت بين أهل السياسة. وكان غمبتا يعتمد عَلَى آرائه وقد أحبهُ وآخاه وكان يتأبط ذراعه في ساحات باريس العمومية وهما يتجاذبان أحاديث السياسة مما دعا الباريسيون أن ينظروا إليه نظرة الاعتبار

والإكرام كما ينظر الناس إلى الرجل العظيم والسياسي الخطير والفيلسوف الشهير. وسنة ١٨٩٣ أنشأ في سويسرا جريدة «الكروازان» الفرنسية وحمل بها على السلطان وحاشيتهِ وجاهد لأجل القانون الأساسي.

وبعد جهاد طويل في سبيل الوطن بما كان يحرره في الجرائد الفرنسية من المقالات السامية في المسائل الشرقية، عرف الأتراك فضله وحرية ضميره وصدق وطنيته، فوافاه منهم إلى باريس جمهور كبير هجروا الأوطان هربًا من الاستبداد، وفي مقدمتهم: محمود باشا داماد صهر السلطان عبد الحميد وأحمد رضا بك رئيس مجلس النواب سابقًا والأمير صباح الدين وأديب بك إسحاق والأمير أمين مجيد أرسلان صاحب جريدة «كشف النقاب» التي كان يطبعها في باريس، وسليم سركيس صاحب جريدة «المشير» سابقًا ومجلة سركيس حاليًا.

وقد يمم باريس غير من تقدم ذكرهم كثير من الرجال الأحرار، فأثار فيهم خليل غانم روح النهضة الوطنية وألف لهم «جمعية تركيا الفتاة» فرأسوه عليهم وبقي رئيسًا لتلك الجمعية المقدسة إلى الممات وأخذوا ينشرون على صفحات الجرائد مبادئهم الشريفة. فلما أدرك السلطان عبد الحميد جهاد المترجم، أهدى إليه بواسطة سفيره في باريس «النيشان العثماني» من الصنف الأول وإلى قرينته «نيشان الشفقة» من الطبقة الأولى مع خمسة عشر ألف ليرة عثمانية راجيًا منه قبولها وكف جهاده في طلب الدستور ونشره نور الحرية وعرض عليه أن يكون معتمدًا للدولة في باريس بمعاش وافر مدى حياته وكان ذلك عقب الحوادث الأرمنية

الهائلة. بيد أنهُ رفض بعزة نفس قبول النيشان والوظيفة والمبلغ الطائل، قائلًا: «إنني لا أحب أن أدنس صدري وصدر امرأتي بنياشين مهداة من يد أثيمة سفاكة دماء عباد الله ولا أقبل نقودًا جمعت من الرشوة أو سرقت من بيت مال الدولة، وكان يجب أن تبذل لإصلاح شؤون الأمة العثمانية ولا أرغب مطلقًا في أن أكون معتمدًا لمن لا يعتمد عليه لا في مصلحة نفسه ولا في مصلحة دولته وتبعتهِ».

فمن هذا الجواب والمقالات التي كان ينشرها في الجرائد العربية والفرنسية والتركية في الحوادث الأرمنية عن سوء السياسة الحميدية، أقام عليه السلطان عبد الحميد دعوى في محاكم باريس اتهمهُ وتعدى عليه بما هو بريء منه وطلب مجازاتهُ. فأقيمت الدعوى على المترجم وعلى رفيقه أحمد رضا بك فاضطربت لهذه الدعوى باريس وقامت وقعدت وهب عامة المحامين الشهيرين أمثال «روشفور» وخلافه وقدموا أنفسهم للمحاماة مجانًا في هذه الدعوى عن المدعي عليهما. وقد صار طبع متفرعات هذه الدعوى ومحاماة المحامين بظروفها ومجرياتها في جريدة «مشورت» المذكورة. وقد جمعت في كتاب خاص وهي من أهم الكتب التي تشتاق النفس إلى مطالعتها وقد أسفرت هذه الدعوى عن لا شيء.

وفي غرة حزيران سنة ١٨٨٣ اقترن بالسيدة ماري رينو من أسرة شهيرة في باريس ولم يرزق منها سوى بابنة ونال في باريس أوسمة عديدة، منها: وسام جوفة الشرف «اللجيون دونور» وانتخب عضوًا عاملًا في الجمعية العلمية الوطنية في باريس، فأحيا بذلك شأن الأمم السورية وعرف فيه الغربيون مقدرة العقل الشرقي وقد كان قدوة كمال ومشكاة فضائل ومرآة محاسن

المبادئ للجميع ولم يتعرض حياته كلها لدين من الأديان وكان مع احترامه لرؤساء جميع الأديان، ذا ميل خاص إلى رؤساء طائفته المارونية وإجلالهم.

أحمد رضا بك

رئيس مجلس النواب العثماني سابقًا ومؤسس جريدة «مشورت» ، ورفيق خليل غانم في الجهاد لإنقاذ السلطة العثمانية من نير الظلم والاستبداد ..

وقد واصل جهاده المبرور وسعيه المشكور بالدفاع عن الوطن، محاربًا الاستبداد ومحييًا النهضة الراقية وخادمًا أمينًا لجمعية «تركيا الفتاة»، متفانيًا في بث مبادئها الشريفة إلى أن دعاه ربه لملاقاته فوافاه براحة ضمير. وقد أتم أنفاسه المعدودة في أرض الغربة في باريس في غرة حزيران سنة ١٩٠٣، فذهب شهيدًا في سبيل الحرية والوطن والإنسانية وكانت آخر نفثات قلمه مقالة فرنسية نشرتها جريدة «مشورت» في أول شباط سنة ١٩٠٣ عنوانها: «خاتمة سنة عمل وجد» فكانت كنبوة لخاتمة عمله وجده. ولما طار منعاه للعالم الإنساني، اهتزت له جوانبه وأثرت خطبته تأثيرًا عظيمًا عَلَى جمعية «تركيا الفتاة» لفقدها رئيسها الأعظم وشهد مشهده نخبة رجال الفضل والحرية من العثمانيين والفرنسيين فندبوه وبكوه وأبنوه ورثوه واشتركت الحكومة الفرنسية رسميًا في جنازته؛ لأنه كان حاملًا لوسام «جوفة الشرف» منذ كان صديقًا لغمبتا. وفد ابنهُ صديقه الحميم وخله الوفي أحمد رضا بك صاحب جريدة «مشورت» ورئيس مجلس النواب تأبينًا باللغة الفرنسية نثرًا أظهر فيه شرف عواطفه وصدق ولائه وإخائهِ للفقيد، فترجم يوسف خطار غانم هذا التأبين وألبسهُ حلة شعر عربي ننقلهُ عن «الرسائل الغانمية» بالحرف الواحد:

اليوم أُطفيء نور بدرٍ لامعٍ ... بسما المواطن فالمصاب بهِ وقعْ
وخلا شهاب فؤَاد حرٍ صادقٍ ... ومجاهدٍ أضناهُ الوطن الولعْ
قد فاجأتنا الحادثات وأسرعت ... بسقوط صاعقة لها القلب الصدعْ
والآن قد سالت جراح قلوبنا ... بعد الخليل الغانم المنشئ المبدعْ
رجل الكمال بعينه عرفوا به ... رجل الضمير بل رجل الورعْ
إن المصاب بهِ محرقٍ ... كلشان «بركان» عَلَى الأرض اندلعْ
ما خص فيه حزينًا متفردًا ... بل كل أحزاب المواطن قد جمعْ
منذ غاب عن بيروت مسقط رأسه ... في مجلس النواب فالظلم ارتفعْ
وأنال سوريا بنسبتهِ لها ... فخراً ومجداً خالداً ولا ينتزعْ
بجدارة وبجد عزمٍ ثابتٍ ... لإراحة الأهلين جهداً لم يدعْ
ومضى لباريس بواصل نفعهُ ... في كل رأي صائب فيه نفعْ
بجرائد وبجد والأتراك الـ ... إفرنج راح محرراً اسمى القطعْ
فيها لإصلاح البلاد نصائحُ ... عن خبرة وسعت وعن علمٍ وسعْ
مشروعهُ ما شابه غبن ولا ... غرض سوى النهج القويم بما شرعْ
قراءُ «مشورتٍ» لقد حفظوا له ... تلك المقالات التي فيها طبعْ
منها لقد عرفوا جدارة كاتب ... بعواطف كرمت بها الشأن ارتفعْ
ما كنت في هذا المقام مبيناً ... شرف الحياة به وفخر المجتمعْ
مع أنه فرضٌ علي وواجبٌ ... لكنما حزني الشديد له منعْ
بعد البواكر من دموعي والأسى ... آتيكم في بسط تاريخ سطعْ
لكن قصدي الآن كان مجردًا ... في وقفتي هذي لا صرخ عن جزعْ
أنا ترجمان باضريح فقيدنا ... للسان حرزب للوداع قد اجتمعْ
بتلقه يبكي رئيسًا أعظمًا ... حجتهُ ظلمتك التي فيها الصرعْ
يسدي فرضًا بالأسى لأقاربٍ ... في غربة فقدوه قبل المرتجعْ
وعاً تذوق «فتاة تركيا» بهِ ... وأنا أشد مرارةً ذقت الوجعْ

قد كنت يا شخص الخليل بغربتي خــلا وفيــاً ثابتــاً فيمــا اتبــعْ
أواه لــو ســمح الزمــان بفرصــةٍ حتــى ذاكــركم بــه وبمــا صــنعْ
عــن فــوط حبيــهِ لكــم وثباتــهِ بحياتــهِ قطعًــا فمــا عنــه انقطــع
يــا أهــل ودي خطبنــا أضــحى بــه خطبــاً جســيماً ســهمهُ لا ينــدفعْ
أمثولــــة وافــــى يعلمنــــا بهــــا هــذه الحقيقــة بالعيــان وبالســمعْ
فمــــرارة المنفــــى تقصــــر عمرنــــا حقًــا وهــاكم ســفها فينــا لمــعْ
فلنســــــرعن لنصــــــرنا بتضــــــافرٍ قبـل الوصـول ليـوم سـوء لـم يـدعْ
مــــن دون إبطــــاء نهضــــة عامــــلٍ أفنــى بحــب مــواطن وبهــا شــغفْ
رجل الحقيقة لن يموت لدى الأولى ســمعوه واعتبــروه بــالحق ادرعْ
مــا مــات غانمنــا بلــى يحيــا إذنْ فــي نهجنـا فـي فكرنـا فيمـا وضـعْ
وفــــؤاده كنــــهُ الطهــــارة انــــه لقلوبنــا يــوحي ثبــات المجتمــعْ
ومحــــركٌ فيهــــا صــــلاح مــــواطنٍ عظمـت وبالنصـر القريـب المرتفـعْ
هـذا النشـيط قـد اسـتراح اليـوم مـن تعـب الحراثـة والزراعـة واضـطجعْ
لكــن فيمــا زرعــت يــداه لــم يضــع إذ لا نــزال الحــافظين لمــا زرع
كــيلا بجــف الــزرع فــي بســتانه ويـوى الفريسـة للنسـور وللبجـعْ
فبــذاك فــي حضــن المــواطن خلنــا يحيــا بــأمنٍ لــن يخــامرهُ فــزعْ
ويــــدوم معتــــزاً بمــــا أهــــادُ مــــن حريــةٍ فــي نورهــا وطــنٌ رتــعْ

«٢»

إبراهيم بك المويلحي

مؤسس جريدة «الخلافة» في نابولي وصحف «الاتحاد» و«الأنباء» و«الرجاء» في باريس ومؤسس جريدتي «نزهة الأفكار» و«مصباح الشرق» ومحرر جريدة «سوق العصر» وغيرها من الصحف في القاهرة وناشر بعض المقالات في جريدتي «العروة الوثقى» بباريس ومراسل جرائد شتى من القسطنطينية.

يتصل نسبه ببيت من البيوتات الكريمة التي ظهرت بمصر بعد الانقلاب في أول القرن الماضي وكان جده السيد إبراهيم المويلحي في أول أمره كاتبًا للمرحوم حبيب أفندي «كخيا» المغفور له محمد على باشا الكبير ثم ارتقى كما ارتقى سواه من ذوي المواهب في مثل حال مصر في دورها الانتقالي من عصر الأمراء المماليك إلى عصر التمدن الحديث، إذ هددتها مطامع الدول وحام حولها طلاب السيادة من الوزراء والقواد، فتسابقت العقول واختلفت الأغراض ففاز كل بما بلغ إليه إمكانهُ وساقه إليه فطرته، فارتقى بعضهم إلى منصات الحكم واشتغل آخرون بالتجارة أو الزراعة أو الصناعة وغيرها. فكان للسيد إبراهيم المويلحي جد المترجم حظ كبير من ذلك الارتقاء. ومع انغماس أهل ذلك الانقلاب بالمطامع السياسية والمكاتب المالية واستغالهم بالملاذ والملاهي لتسلط الجهل عَلَى معظمهم فالسيد إبراهيم كان محبًا للأدب

لا يخلو مجلسه من الأدباء والشعراء يطارحهم ويذاكرهم وقد أدى لمحمد على في أوائل ولايته خدمًا جليلة حفظها له البيت الخديوي فانتفع بها المترجم في حال ضيقه كما سترى.

وُلد صاحب الترجمة في أوائل سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ ميلادية) في بيت وجاهة وعز وكان والده مشهورًا بصناعة الحرير نسيج مصر وله فيها بيت تجاري كبير فجمع ثروة طائلة ونشأ إبراهيم في سعة ورغد وهو يتهيأ للعمل في تجارة والده ولكنه كان مولعًا بالأدب والشعر من حداثتهِ وورث ذلك من جده ولم يحظر له ولا لوالده أنه سيجعل الأدب مهنته وهي يومئذ للفقراء ولكن الأقدار ساقته إلى الاشتغال بها في كهولته، فكان من أعظم نوابغها.

ظلَّ إبراهيم في حجر والده آمنًا سعيدًا حتى توفي الوالد سنة ١٢٨٢ هـ والمترجم في العشرين من عمره، فتولى تجارة أبيه وقبض عَلَى ثروته وجرى عَلَى خطته في العمل حينًا فازداد تقدمًا وكانت مضاربات البورصة حديثة العهد في هذا القطر وتحدث الناس بمعجزاتها وبهروا من سرعة الأثراء بها. وكان إبراهيم طالبًا للعلى، فلم يكتف بما بين يديه من الرزق الواسع وحدثته نفسه أن يطلب الزيادة بالمضاربة، فضارب وهو يكسب تارةً فيطمع بالمزيد ويخسر أخرى، فيطلب التعويض على نحو ما نشاهده الآن مع ما يعلمه الأكثرون من عواقبها الوخيمة. فما زال المترجم يتدرج في المضاربة حتى استنزفت ثروته وأثقلتهُ بالديون.

إلا أن فروغ يده من المال لم يذهب بما نشأ عليه من العز والأنفة ولا ضاعت مآثر جده لدى البيت الخديوي، فنظر إسماعيل باشا الخديوي في هذا البيت نظر الانعطاف وكان إسماعيل إذا أعطى أغنى، فوهبهُ هبات الملوك فوفى الديون ووسع التجارة ثم أنعم عليه بالرتبة الثانية وعينه عضوًا في مجلس الاستئناف وهو في الثامنة والعشرين من عمره وأنعم عَلَى أخيه عبد السلام باشا بتلك الرتبة أيضًا وأبقاه في مزاولة التجارة محافظة على ذلك المعهد التجاري. وتأييدًا لذلك أصدر أوامره لجميع من في قصوره من النساء أن يعدلن عن لبس الأنسجة المصرية من صنع هذا البيت وأن لا يدخل في تشريفات السيدات سيدة لابسة غير هذه الانسجة وأمر باصطناع كمية منها لإرسالها إلى معرض فيينا في تلك الأيام.

وما زال المترجم في وظيفته بمجلس الاستئناف حتى أفضت رئاستهُ إلى المرحوم حيدر باشا يكن، فوقع بينهما شقاق انتهى باستقالة المترجم ولكن عناية الخديوي إسماعيل ما زالت شاملة له، فأمر بإعطائه مصلحة بيع المشغولات والمنسوجات على سبيل الالتزام واتفق في أثناء ذلك سقوط وزارة نوبار باشا المختلطة التي كان فيها عضوان أجنبيان وخلفتها وزارة شريف باشا المعروفة بالوزارة الوطنية وهموا بإنشاء اللائحة الوطنية لتأسيس مبادىء الحكومة الدستورية، فانتدب المترجم للاشتغال في ذلك مع المرحوم السيد علي البكري ثم صدر الأمر بتعيينه سكرتيرًا للمرحوم راغب باشا ناظر المالية، ولم يقولَّ هذه الوظائف إلا لما ظهر من نجابته وسداد رأيهِ.

على أن ميله إلى الأدب والشعر كان ينمو فيه بين مشاغل السياسة والإدارة، فاتفق مع المرحوم عارف باشا أحد أعضاء مجلس الأحكام وصاحب المآثر الكبرى في نشر الكتب على تأسيس جمعية عرفت بجمعية المعارف غرضها نشر الكتب النافعة وتسهيل اقتنائها وأنشأ هو مطبعة باسمه سنة **١٢٨٥** لطبع تلك الكتب وهي من أقدم المطابع المصرية. إلا أن الجمعية كانت تطبع كتبها أيضًا في مطابع أُخرى وخصوصًا المطبعة الوهبية ولهذه الجمعية شأن كبير في تاريخ هذه النهضة؛ لأنها نشرت كثيرًا من الكتب المهمة مثل كتاب «تاج العروس» و«أسد الغابة» و«رسائل بديع الزمان» و«سلوك المماليك» و«ألف باء»، وغيرها من كتب التاريخ والأدب والفقه.

أما صاحب الترجمة، ففي السنة التالية لإنشاء مطبعته، اتحد محمد عثمان بك جلال لإنشاء جريدة عربية ولم يكن من الجرائد العربية بمصر إلا الجرائد الرسمية وجريدة وادي النيل، فنال رخصة بجريدة سماها «نزهة الأفكار» ولكنه لم يصدر منها إلا عددين ثم حالت العوائق دون إصدارها ويقال عن السبب في ذلك إن المرحوم شاهين باشا أظهر لإسماعيل باشا تخوفه من أنها تثير الأفكار وتبعث عَلَى الفتن، فصدر الأمر بإلغائها وظلت المطبعة تشتغل بطبع الكتب لجمعية المعارف وغيرها وقد طبع فيها كتبًا عَلَى نفقتهِ.

فترى أنَّ المترجم تقلب في أعمال مختلفة بين تجارة وخدمة في الحكومة وإنشاء المطابع والجرائد ونشر الكتب وغيرها وهو دون

الثلاثين من العمر ولم ينل كل مرامه من واحد منها مع اقتداره وذكائه. ولعل السبب في ذلك لحاجته في استثمار عمله قبل أن ينضج وعدم ثباته في خطة واحدة لأنهُ لو ثبت في التجارة مثلًا ولم يرغب عنها في خدمة الحكومة لكانت تجارتهُ من أوسع التجارات أو لو ثبت في الخدمة ولم يعدل عنها إلى الصحافة والطباعة لكان من أكبر أصحاب المناصب ولو ثبت في الصحافة إلى الآن لكانت صحيفته من أكبر الصحف وأهمها، ولكنه لم يكن يستقر عَلَى حال. والأذكياء الذين لا يثبتون في عمل إنما يكون سبب لقلبهم الرغبة في النجاح في عمل تركوه وانتقلوا إلى سواه، فيأول ذلك في الأكثرين إلى ضياع العمر في بناء القصور في الهواء ولو ثبتوا في عمل واحد مهما يكن نوعه، لكفاهم مؤونة الشكوى من معاكسات الزمن.

عَلَى أن المترجم لم يشك ضيمًا لأنه كان مرعيَّ الجانب وما زال الخديوي إسماعيل يذكر صدق خدمته له. فلما حدث التغيير في منصب الخديوي سنة ١٨٧٩ وأبعد الخديوي إلى أوروبا واستقر في إيطاليا، استقدم المترجم إليه فجاءه وأقام في معيته بضع سنوات كان في أثنائها كاتب يده (سكرتيره العربي) يكتب عنه الرسائل إلى الملوك والأمراء. ولم يكن ذلك ليمنعه من العمل لنفسهِ، فأنشأَ أثناء إقامته بأوروبا عدة جرائد كجريدة «الاتحاد» وجريدة «الأنباء» ولم يثبت في واحدة منهما أو لعله كان ينشئها لغرض مؤقت فإذا ناله عطلها.

في سنة ١٣٠٣هـ ذهب إلى الأستانة إثر إنشائهِ تلك الجرائد، فأكرم السلطان وفادته وعينهُ عضوًا في مجلس المعارف وناظرها يومئذ منيف باشا العالم الشهير، فقدَّر الرجل حق قدره وقربه منهُ وعوَّل عليه في كثير من شؤون النظارة. وبعد أن أقام في هذا المنصب نحو عشر سنوات عاد إلى مصر وعاد إلى الاشتغال بالكتابة وقد نضجت مواهبهُ الإنشائية واكتسب ملكة الصحافة لطول ممارستهِ إياها مع ما اختبره بنفسه في أثناء أسفاره ومخالطته كبار ورجال السياسة واطلاعه على مخبآت الأمور، فعمد أولًا إلى مراسلة الجرائد بمقالات جامعة بين السياسة والأدب وقواعد العمران، أشهرها ما جمع على حدة في كتاب «ما هنالك» ثم أنشأَ جريدة «مصباح الشرق» الأسبوعية وهو يتردد في خلال ذلك إلى الأستانة ويعود منها مشمولًا بالنعم السلطانية من العطايا والرتب حتى بلغ الرتبة الأولى من الصنف الأول. ومازال عاملًا في خدمة الصحافة العربية مخلصًا للبيت الخديوي، شديد التعلق بمرضاة الجناب العالي وسموهُ يخصه بالمنح والمنن حتى توفاه الله في ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦ وهو في الستين من عمره.

كان ربع القامة، ممتلئَ الجسم، حسن الملامح كما ترى رسمه في صدر هذه الترجمة وكان حلو الحديث لطيف النادرة سريع الخاطر حسن الأسلوب نابغة في الإنشاء الصحافي وفي الطبقة الأولى بين كتاب السياسة ورشاقة ومتانة وأسلوبًا مع ميل إلى النقد والمداعبة ولا يخلو نقد من لذع أو قرص لا يراعي في ذلك صديقًا ولا قريبًا حتى قيل «لم ينج من قوارص قلمه إلا الذي لم يعرفه».

وقد انتقدوا عليه تقلبه في خطته وذلك تابع لتقلبه في سائر أحوال معائشه لما قدمناه من تردده في أعماله حتى قضى العمر في التنقل من عمل إلى آخر وضاعت الفائدة التي كان يُرجى استثمارها من مواهبهِ لأنه كان نادرة في الذكاء وحدة الذهن والاقتدار على تفهم الأمور والإحاطة بخفاياها وكشف غوامضها. فلو رافقه الثبات في المبادىء والأعمال، لكان من هذا الرجل غير ما كان (جرجي زيدان).

«٣»

عبد الله مرَّاش

محرر جريدة «مرآة الأحوال» في لندن وصحف «مصر القاهرة» و«الحقوق» و«كوكب المشرق» في باريز وناشر المقالات المفيدة في مجلتي «البيان» و«الضياء» في القاهرة وغير ذلك من الصحف.

هو عبد الله بن فتح الله بن نصر الله بن بطرس مرَّاش من أسرةٍ عريقة في الفضل والوجاهة، معروفة بالعلم والأدب وكفاهُ شهرة أنه أخو فرنسيس مرَّاش كبير شعراء حلب وشقيق مريانا مرَّاش الشاعرة العربية ومن شهيرات النساء الكاتبات في سوريا. وُلد في حلب في ١٤ آيار سنة ١٨٣٩ ونشأً بها وتأدب على والدهِ وغيره، فتلقى في حداثته مبادىء علوم العربية والخط والحساب ثم دخل مدرسة الرهبان الفرنسيين فأخذ عنهم أصول اللغة الإيطالية ويعد ذلك انصرف إلى أعمال التجارة، فتخرَّج في أبوابها وفنونها ولما بدت نجابته فيها انتدبتهُ جماعةٌ من جلة

تجار حلب لعقد شركة تجارية ينشيء لها محلًا في مانشستر من بلاد الإنكليز، فسافر إليها سنة ١٨٦١ ولبث فيها إلى سنة ١٨٦٩ واشتهر بما كان عليه من الأمانة والدراية، فكان له مقامٌ محمود بين معامليه من أرباب التجارة وأحرز منها ثروة صالحة. وفي تلك السنة تم فتح خليج السويس، فاستشف من وراء هذا الفتح أنهُ سيكون ضربة قاضية عَلَى تجارة حلب لأنهُ قدر أن البضائع التي كانت ترسل إليها فتحملها القوافل برا إلى نواحي العراق وبلاد العجم، لابد أن ترسل بعد ذلك بحرًا عن طريق السويس ثم البصرة ولهذا السبب ولأسبابٍ أُخرى نوى العدول عن التجارة وشرع في حلّ الشركة وتصفية أعمالها.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بين الفرنسيس والألمان سنة ١٨٧٠، انتقل إلى باريس فأقام بها وتعاطى التجارة وخدمة المعارف. ولما أنشأ رزق الله حسون سنة ١٨٧٦ جريدة «مرآة الأحوال» في لندن، تولى عبد الله مراش تحريرها ثم عاد إلى مانشستر فلبث إلى سنة ١٨٨٠ كاتبًا لأشغال فتح الله طرازي وأعماله التجارية. وبعد ذلك فارقها فأتى باريس مرَّة ثانية حيث حرَّر في جريدة «مصر القاهرة» لأديب إسحاق وجريدة «الحقوق» لميخائيل عورا وصحيفة «كوكب المشرق» لأحد رجال الفرنسيس ثم زايلها وسافر إلى مرسيليا وألقى بها عصاهُ ولم يزل مقيمًا فيها إلى أن توفاهُ الله في ١٧ كانون الثاني ١٩٠٠.

هذا مجمل ما يذكر من تاريخ هذا الرجل وما تقلب فيه من أطوار الحياة وقد عبرت أيامهُ كلها عَلَى السكينة والدعة لأنهُ كان قليل

المزاحمة والتطاول إلى بعيد الشؤون والتفاني في معالجة الحظوظ وابتغاء الشهرة والمقامات العليا بالإكثار من الجلبة والحراك. عَلَى أنه كان على حظ من الدنيا بلغ به مبلغ الرضى وهو الغنى كله، فلم يكن بعد ذلك يحرص عَلَى حشد الدينار ويعاني الكسب ولكنهُ انصرف إلى المطالعة والتوسع في العلم وهو ما لم ينقطع عنه قط مع اشتغاله بالتجارة أيضًا. فإنهُ كان كثير الاختلاف إلى مكاتب لندن وباريز يتصفح ما فيها من الأسفار قديمها وحديثها ولاسيما الخطية منها، فتدارك حظًّا وافرًا من لغة العرب وتواريخهم وآدابهم وانتسخ منها عدة كتب غزيرة، نذكر منها كتاب «يتيمة الدر» للثعالبي وهو مصنف ضخم من ألف وخمس مائة صفحة كبيرة انتسخته من مكتبة باريز ثم عارضه بنسخة لندن وأشار إلى مواضع الفرق بين النسختين ونبه عَلَى ما وجده مباينًا للصحة من غلط النساخ مما استدركه بنفسه. وبعد ذلك عارضهُ بالنسخة المطبوعة في دمشق وبعد أن جمع بينها وبين نسخته علق على هوامشها كل ما وجده من الفروق والزيادات وغيرها، فكانت كل واحدةٍ من هاتين النسختين أصح نسخ هذا الكتاب.

وهناك كتب ورسائل أخرى كلها غرر آثار الأقدمين ونوادر تآليفهم انتسخها بخطهِ مع العناية والتدقيق في مقابلتها وتصحيحها وكان مليح الخط، نقي الرقعة، كثير التأنق كأكثر خطاطي حلب. وكان يكتب أولًا بقلم من القصب الهندي وهو شديد الصلابة لا يكاد يتشعت ولا يتغير ثم صار يكتب بأقلام الحديد ولذلك ترى خطه من أول الكتاب إلى آخره واحدًا.

وكان عبد الله من أكابر أهل الإنشاء حسن الترسل سهل العبارة واضح الأسلوب بصيرًا باختيار الألفاظ والتراكيب حسن النقد حريصًا على البلاغة ووضوح المعاني، آخذًا بالنصيب الأوفر من قوالب فصحاء العرب وألفاظ الخاصة من أهل الأدب وكان مع ذلك متقنًا للغة الإنكليزية والفرنسية والإيطالية يكتب فيهن حميعًا وله باعٌ طويل في التاريخ والفلسفة وعلم الأخلاق والأديان والشرائع المختلفة، مشاركًا في كثير من علوم المعاصرين كالطبيعيات والهيئة وسائر الفنون الرياضية وكان بصيرًا بالسياسة مطلعًا عَلَى أسرارها ودقائقها وله في كل ذلك مقالاتٌ ورسائل شتى منها ما هو يأتي بخطهِ ومنها ما نشر في بعض الجرائد العربية في لندن وباريس وجرائد ومجلات القطر المصري.

وأشهر ما طبع له منها مقالة «التربية» التي نشرها تباعًا في مجلة «البيان» اليازجية، فلا حاجة إلى الإطناب في وصفها. وأما النظم فإنهُ مع تضلعه من فنون البلاغة كثرة ما كان يحفظ من اشعار العرب والمولدين ومع اشتهار بيتهم بالشعر، كان قليل الرغبة فيه والمعاناة له ولاسيما مع ما بلغ إليه الشعر في هذا العصر من الانحطاط والتفاهة ومع قلة المميزين بين جيده ورديئهِ.

وأما صفاته الشخصية، فقد كان ربعة القوام معتدل الجسم أبيض اللون طلق الحيا، فصيح اللسان، مهذب المنطق، واسع الرواية لطيف المحاضرة وكان رجلًا جليل القدر كامل الصفات قد جمع بين رزانة الإنكليز ورقة الفرنسيس وأريحية العرب وكان عَلَى أعظم جانب من الزهد

وخفض الجناح بعيدًا عن الزهو والخُيلاء منزهًا عن الدعوى والكبر. حتى أنه مع سعة فضلهِ ورسوخ قدمهِ في العلم والإنشاء وإجماع المطالعين علَى استحسان كلامه كان يتفادى من ذكر اسمه في أكثر ما كتبهُ وما طُبع له. ويشترط ذلك عَلَى من يروم نشر شيء من آثاره. هذا ولا جرم من عنوان تمام فضله وتتهأيه في الكمالات الإنسانية. لأنهُ لم يكن يتوخى فيما يكتبهُ إلا نشر فائدة أو تقرير حقيقة دون ابتغاء الشهرة والتهالك عَلَى طلب الإطراء وتوجد ممن آثار قلمه رسالتان إحداهما جمع فيها فوائد متفرقة في «علم الهيئة وتخطيط الأرض» والثانية عرب فيها خواطر الدوك دولارشفو كوفي «الأخلاق والآداب».

وأما فصولهُ في «الهيئة»، فإنها لا تخلو من إحياء ألفاظ من مصطلحات العرب في هذا العلم مما ذهبت بأكثرهِ الأيام إلاَّ من بعض الأسفار الباقية إلى هذا العهد في خزائن أوروبا مما دلَّ على وفرة اطلاعهِ وإمعانهِ في البحث. وله أيضًا نقد مطول على ترجمة فرنسية لكتاب «مروجِ الذهب» بقلم واحدِ من أكابر علماء الفرنسيس يقال له بربياي دي مينار وهو نقد جزيل الفائدة نشرته مجلة «الضياء» اليازجية في القاهرة سنة ١٩٠٠.

«٤»

الشيخ أبو نظارة

مؤسس الصحف الآتية: «أبو نظارة زرقاء» و«رحلة أبي نظارة زرقاء» و«أبو زماره» و«أبو صفارة» و«الحاوي» و«الوطني المصري» و«النظارات المصرية» و«أبو نظارة» و«الثرثارة المصرية» و«التودد» و«المنصف» و«العالم الإسلامي» وغيرها وناشر المقالات الكثيرة في أِهم الصحف الفرنسية.

لا نظن أحدًا من كتبة الأعارب والأعاجم في هذا العصر يجهل اسم الشيخ أبي نظارة المصري الذي اشتهر ذكره في الخافقين ورن صدى مقالاتهِ الطريفة من مشارق الأرض إلى مغاربها، فهو الكاتب الانتقادي الكبير الذي علت شهرتهُ في عالم السياسة وذاع صيته بين خاصة الناس وعامتهم ومازال منذ أكثر من نصف قرن يدافع قولًا وعملًا عن وطنه المحبوب، بل يجاهد بثبات جأش وحماسةٍ لا توصف عن مصلحة بلاده واستقلالها من نير الغرباء، فترى من باب العدل تخليدًا لمآثره أن نكيل له بمكيال أعماله ونزين صفحات هذا الكتاب برسمه وترجمته:

هو يعقوب بن رافائيل صنوع [١٣]. وُلد في القاهرة بتاريخ ٩ شباط ١٨٣٩ من أبوين إسرائيلين وأتقن منذ نعومة أظفاره تعاليم التوراة حتى

[١٣] صنوع لفظة عبرانية معناها محتشم ومتواضع

استحق أن يكون لاويًا أي مؤمنًا بعقيدة وجود الله سبحانهُ ثم درس الإنجيل والقرآن ووقف هكذا على عقائد الأديان القائلة بوحدانية اللاهوت. وكان أبوه مستشارًا لدى الأمير أحمد باشا يكن حفيد محمد علي باشا الكبير رأس العائلة الخديوية. إذ شاهد هذا الأمير نباهة يعقوب فأرسله عَلَى نفقته إلى أوروبا لإتقان العلوم المصرية، فذهب الفتى إلى مدينة ليفورنو (Livourne) في إيطاليا حيث تلقى العلوم وبرع فيها ثم عاد منها بعد ثلاث سنين بالغًا لحول السادش عشر من عمره. وفي أثناء ذلك فقد أباه والمحسن إليه، فتأسف عليهما كثيرًا وبكاهما بكاءً مرا. ومن ذاك العهد أخذ يدرس اللغات لأغصان العائلة الخديوية وأبناء الأعيان حتى نبغ كثير من تلامذته الذين ارتقوا إلى أعلى المناصب والمراتب.

وفي سنة ١٨٧٠ أنشأ أول مسرح عربي في القاهرة بمساعدة الخديوي إسماعيل الذي منحهُ لقب «موليير مصر» ونشطهُ عَلَى عمله وشهد مرارًا تمثيل رواياته .فألف صاحب الترجمة حينئذ اثنتين وثلاثين رواية هزلية وغرامية منها بفصل واحد ومنها بخمسة فصول لم يزل صداها يرن في آذان الشيوخ على ضفاف النيل. ثم أسس سنة ١٨٧٢ جمعيتين عمليتين إحداهما «محفل التقدم» والأخرى «جمعية محبي العلم» وتولى رئاستهما. وسنة ١٨٧٤ سافر إلى أوروبا حيث بقي مدة يدرس أحوالها السياسية وأخلاق شعوبها ثم قفل راجعًا إلى وطنه مشغوفًا بتقدم الأفرنج ومتلهبًا بنار الغيرة لبث روح الحضارة العصرية بين الشعب المصري.

وكان السيد جمال الدين الأفغاني الفيلسوف المشهور والشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية سابقًا متحدين معهُ بعرى المحبة وقد درسا عليه شيئًا من اللغة الفرنسية، فاتفق ثلاثتهم على إنشاء جريدة عربية هزلية لانتقاد أعمال الخديوي إسماعيل ثم استقرَّ رأيهم على أن يتولى إدارتها صاحب الترجمة ويحرّر معهُ العالمان المذكوران. وقد أوعز السيد جمال الدين إلى يعقوب في إيجاد عنوان للجريدة يليق بمسلكها، فخرج هذا إلى بيته باحثًا عن حمار يركبهُ، فإذا بالفلاحين أصحاب الحمير تجمعوا حوله وأراد كلٌّ منهم أن يركبهُ حماره. فلما زاحموا أحب التخلص منهم وإذا بصوتٍ من ورائه يناديه «يا أبا النظارة الزرقاء» وكان وقتئذ يستعمل النظارات الزرقاء وقاية لعيونه من حرارة الشمس، فرنَّ هذا الصوت في أذنيه واستحسن عبارة «أبي النظارة الزرقاء» وصمم عَلَى اتخاذها عنوانًا للجريدة الهزلية، فرجع إلى السيد جمال الدين وأخبره بما جرى لهُ مع أصحاب الحمير وباختياره العنوان المذكور للجريدة، فضحك من كلامه لكنه استحسن الاسم وهكذا صدر العدد الأول سنة ١٨٧٧ من الصحيفة المذكورة التي تعدُّ أُولى الصحف الهزلية عند الناطقين بالضاد، فانتشرت في أربعة أقطار المعمورة حتى صار اسمها ملازمًا لصاحبها الذي أطلق عليه من ذاك الحين اسم «الشيخ أبي نظارة». وكان يعقوب صنوع أول من استعمل القلم الدارج عند عامة المصريين في الكتابة، فتبعهُ كثير من الكتاب الذين أنشأوا صحفًا شتى بالقلم العامي في جميع الأقطار العربية شرقًا وغربًا.

ولما كانت مقالات جريدته تنتقد أعمالَ خديوي مصر بلهجة شديدة، أصدر إسماعيل باشا أمرًا بإبطالها بعد ظهور العدد الخامس عشر منها. وكان الخديوي متعمدًا الانتقام من منشئها بكل الوسائل حتى القتل لو استطاع إلى ذلك سبيلًا. وأوعز إلى قنصل إيطاليا بأن يطردهُ من الديار المصرية لأنهُ كان مجتمعًا بالدولة المذكورة، فتوجه صاحب الترجمة إلى الإسكندرية ومنها ركب سفينة لتنقله إلى أوروبا، فمر الخديوي بعربتهِ أمام رصيف المينا ورأَى بعينه الوفا من الناس يشيعونه، فصاح بعضهم وقال له: «انظر يا أبا النظارة الزرقاء كيف جاء شيخ الحارة[١٤] ليشتفي منك ويراك بعينهِ منفيًا من بلاده»، فأجابهم بقوله: «بعد سنةٍ ينفى هو مثلي من مصر». وفي الواقع خُلع إسماعيل من سرير الخديوية بعد سنةٍ من التاريخ المذكور.

فسافر صاحب الترجمة إلى باريس وهناك استأنف إصدار الجريدة بعنوان «رحلة أبي نظارة زرقاء» مقبحًا فيها سياسة إسماعيل ولبث الخديوي يصادر الجريدة محرمًا على الناس مطالعتها حتى اضطر الشيخ إلى تبديل اسمها تارة باسم «أبي زمارة» وطورًا باسم «أبي صفارة» وحينًا باسم «الحاوي» وباسم «الوطني المصري» أو «النظارات المصرية» لئلا تفوت القراء فائدتها. ثم أصدر مجلة «التودد» وجريدة «المنصف» وجريدة «العالم الإسلامي» وجريدة «أبي نظارة» وغيرها. وقد أصدر سنة ١٨٨٦ جريدة بثماني لغات سماها «الثرثارة المصرية» أو «الباقار

(١٤) شيخ الحارة هو لقب اطلقه أبو نظارة في جريدته على الخديو إسمعيل

إجبسيان» وهي أول جريدة في العالم صدرت بهذا العدد الكثير من اللغات عَلَى ما نعلم. ولم تقتصر همته عَلَى كتابة جرائده المذكورة، بل كان ينشر المقالات الضافية الذيول في الجريدة الفرنسية الكبرى مثل «التان» و«الماتين» و«الفيغار» وسواها.

وفي ٢٢ أيلول ١٩٠٠ ألقى في معرض باريز تحت رئاسة السيد حسن ابن السلطان عمر الهنزواني خطبة بعشر لغات مختلفة رددت صداها جرائد العاصمة الفرنسية. وبعد ذلك حمل على أكفء السامعين بموكب حافل يتقدمه جوق الموسيقى إلى ساحة «برج إيفل» حيث دعا دعاءً حارًا لفرنسا وللدول الشرقية ثم ترنم القوم بالنشيدين الفرنسي والخديوي. وفي تلك السنة دعاه شاه العجم إلى ضيافته في «كنتر كسفيل ليبين» وأهداه وسامًا عاليًا وخاتمًا ثمينًا.

وسنة ١٩٠١ زار الشيخ أبو نظارة سمو الخديوي عباس الثاني في مدينة ديفون بفرنسا، فأوعز إليه بالرجوع إلى وادي النيل ممتعًا بالحرية التامة لكن شيخنا رفض إجابة الطلب ما زال القطر المصري مقيدًا بالاحتلال الإنكليزي. وفي السنة ذاتها زاره في مصيفه الواقع في شامبيني (Cammpigny) السلطان عمر حاكم الهنزوان، فتناول عنده طعام الظهر وتبادل الاثنان نخب المحبة ثم تصورا في رسم واحد. وسنة ١٩٠٢ وافق مرور خمسة وعشرين عامًا عَلَى ظهور جريدته الأولى، فاحتفل أصحابه بذلك احتفالًا شائقًا وأقاموا له مأدبة أنيقة جمعت مائة نفس من مصريين وسوريين وتونسيين وجزائريين وفرنسيس وسواهم. وفي سنة

١٩٠٥ جرى الاحتفال باليوبيل الخمسيني لدخوله في سلك التأليف والتدريس؛ فكان أول صحافي عربي نال هذه الكرامة الشريفة في حال حياته.

ولصاحب الترجمة معرفة تامة بلغاتٍ شتى قديمة وحديثة؛ بحيث إنهُ كان يكتب نثرًا وشعرًا في العبرانية والعربية والإيطالية والفرنسية والإنكليزية والألمانية مع إلمام بالإسبانية واليونانية وغيرها. ثم أتقن بعض الفنون الجميلة كالموسيقى والرسم، فإنه ألف ألحانًا بديعةً للملوك والأمراء ورسم بقلمهِ أكثر التصاوير التي نشرها في جرائده منذ نشأتها حتى احتجابها. وكان في الخطابة آية عصره ولو جمعت خطبهُ لبلغت المجلدات وقد أُعجب الغربيون بفصاحة لسانهِ وقوة حجته. وكان مرتبطًا بعلائق المودة مع أكبر علماء زمانه في مصر وسوريا والعراق وتونس والمغرب الأقصى والهند، فضلًا عما أحرزه من الاعتبار لدى جهابذة الفرنسيس كالجنرال دودس وجول سيمون ولمبرت وسواهم.

وابتكر في اللغة الفرنسية طريقة النثر المسجوع كما هو شائع عند العرب، فألف من هذا النوع مقالات شتى وخطبًا عديدة نذكر منها النبذة المعروفة بالعنوان الآتي « Constitution Ottomane et ses héros»، فإنها بليغة المعاني والمباني وقد كتبها احتفالًا بإعلان الدستور في السلطنة العثمانية وله مؤلفات كثيرة غير ذلك.

وبمناسبه يوبيله الخمسيني المذكور، أجمعت الجرائد العربية والأفرنجية عَلَى تقريظه، فتواردت عليه رسائل الإطراء بكثرة من الأمراء والشعراء والعلماء والعظماء شرقًا وغربًا ونال من رؤساء الحكومات وسامات الشرف الكثيرة التي زينت صدره، فجاءت مصداقًا على سمو منزلتهِ الأدبية عندهم. وإليك أسماء البعض منها:

* الوسامات ذات الدرجة الأولى أو غران كردون: وسام «النجم الثلاث» من محمد سلطان جزائر القمور. وسام «الكوكب الدري» من السيد برغش سلطان زنجبار، وسام «الهنزوان» من السيد عمر سلطان الهنزوان.

* الوسامات ذات الطبقة الثانية أو غران أوفيسيه: وسام «سان مارينو» من رئيس جمهورية سان مارينو في إيطاليا.

* الوسامات ذات الطبقة الثالثة أو قومندور: «الوسام العثماني» من السلطان عبد الحميد .وسام «الشمس والأسد» من ناصر شاه إيران .ووسام «انج» من سلطانها . وسام «الافتخار» من محمد الهادي باي تونس . ووسام «أوبوك» من حاكم هذه الولاية

* الوسامات ذات الطبقة الرابعة أو أوفيسيه: «الوسام المجيدي» من السلطان عبد الحميد. ووسام «المحفل العلمي الفرنسي» أو أكاديمي من رئيس جمهورية فرنسا ووسام «كمبودج» من دولة الكبودج ووسام «أنام» من ملك هذه الدولة.

* الوسامات ذات الطبقة الخامسة أو كواليير: وسام «إيزابلا الكاثوليكية» من ملك أسبانيا ووسامًا من ليوبلج الثاني ملك بلجيكا، وغير ذلك من الأوسمة وعلامات الشرف التي نالها من الحكومات والجمعيات الأدبية والمحافل العلمية.

وله مع أكثر الملوك المشار إليهم، لاسيما مع سلاطين الإسلام وأمرائهم وعلمائهم وشعرائهم ومشاهيرهم، مكاتبات تضمنت آيات الثناء عَلَى مآتيه الحسنة وقد أتحف بها قبل وفاته مؤلف هذا التاريخ عَلى سبيل الهدية والتذكار وهي مجموعة أدبية ثمينة يندر وجود نظيرها عند أحد الشرقيين الذين لا يكترثون عادةً لصيانة الآثار القديمة أو النفيسة.

ونال الشيخ أبو نظارة ألقابًا مهمة من السلاطين والملوك نذكر منها: لقب «موليير مصر» من إسماعيل باشا خديوي مصر على إثر حضوره تمثيل بعض روايات من قلمه ولقب «صديق الإسلام» سنة ١٨٩١ عندما زار السلطان عبد الحميد الثاني في القسطنطينية، فكلفهُ السلطان تبليغ سلامه إلى كرنو رئيس الجمهورية الفرنسية ثم كانت سنة ١٨٩٩ الواسطة الودية بين السلطان المشار إليه وبين لوبه رئيس جمهورية فرنسا. ونال سنة ١٩٠٠ لقب «صديق فرنسا الكبير» من حكومة فرنسا عند افتتاح معرض باريس العام كما أحرز لقب «شاعر الملك» من شاه إيران ولقب «كوكب الشرق» من سلطان الهنزوان ولقب «الوطني المخلص» من عباس الثاني خديوي مصر ولقب «مقوّي الرابطة الأخوية العامة» من «دون يدرو» امبراطور البرازيل.

وبعد إعلان الدستور في السلطنة العثمانية بثلاثة أيام، سافر إلى الأستانة للاشتراك مع العثمانيين في أفراحهم الوطنية ثم عاد مشيعًا بالإكرام إلى باريس ومن ذاك الحين أخذ نور عينه يضعف حتى كف بصره. وفي ٣١ كانون الأول ١٩١٠ أصدر العدد الأخير من جريدة «أبي نظارة» بعد انتشارها أربع وثلاثين سنة ودفاعها عن حقوق وادي النيل بثبات لا يوصف. وبعدما قضى أربعًا وسبعين سنة، توفاه الله في آيلول ١٩١٢ في باريس، فنقلت شركة «روتر» التلغرافية خبر نعيه إلى الشرق والغرب.

«٥»

الشيخ محمد عبده

محرر جريدة «الوقائع المصرية» في القاهرة و«العروة الوثقى» في باريس

نشأته الأولى

نشأَ في قرية صغيرة (محلة نصر) من أبوين فقيرين، فلم يمنعه ذلك من الارتقاء بجده واستعداده حتى بلغ منصب الإفتاء وأصبح علمًا في الشرق وقطبًا من أقطاب الدهر سينقش اسمهُ عَلَى صفحات الأيام ويبقى ذكره ما بقي الإسلام.

وُلد عام ١٢٥٨هـ (١٨٥٢ ميلادية) وأبوه يتعاطى الفلاحة وقد أدخل فيها أولاده إلا محمدًا لأنه توسم فيه الذكاء، فأراد أن يجعله من

الفقهاء، فأدخله كتاب القرية تردد إليه حينًا ثم أرسله إلى «الجامع الأحمدي» في طنطا أقام فيه ثلاث سنوات ثم نقله إلى «الجامع الأزهر» فقضى فيه عامين لم يستفيد فيهما شيئًا وهو ينسب ذلك بالأكثر إلى فساد طريقة التعليم ثم انتبه لنفسه ولم يرَ بدًّا من تلقي العلم فاستنبط لنفسه أسلوبًا في المطالعة وأعمل فكرته في تفهم ما يقرأه، فاستلذ العلم واستغرق في طلبهِ، فأحرز منه جانبًا كبيرًا على ما يستطاع إدراكه بتلك الطريقة.

واتفق أن ورد على مصر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) السيد جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام وصاحب الترجمة لا يزال في الأزهر وقد أدرك الثلاثين من عمره وتولى جمال الدين تعلم المنطق والفلسفة، فانخرط محمد في سلك تلامذته مع جماعة من نوابغ المصريين تخرجوا على جمال الدين فخرجوا لا يشق لهم غبار كان الرجل نفخ فيهم من روحه ففتحوا أعينهم وإذا هم في ظلمة وقد جاءهم النور، فاقتبسوا منهُ فضلًا عن العلم والفلسفة روحًا حية أرتهم حالهم كما هي إذ تمزقت عن عقولهم حجب الأوهام، فنشطوا للعمل في الكتابة وأنشأوا الفصول الأدبية والحكمية والدينية وكان صاحب الترجمة ألصق الجميع بهِ وأقربهم إلى طبعه وأقدرهم على مباراته. فلما قضى على جمال الدين بالإبعاد من هذه الديار قال يوم وداعه لبعض خاصته: «قد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى بهِ لمصر عالمًا».

وتقلب محمد في بعض المناصب العلمية بين تدريس في المدارس الأميرية وتحرير في «الوقائع المصرية» وكتابة في الدوائر الرسمية حتى كانت الحوادث العرابية، فحمله أصحابها على السير معهم وهو ينصح لهم أن لا يفعلوا وينذرهم بسوء العاقبة. ولما استفحل أمر العرابيين، اختلط الحابل بالنابل وسبق الناس بتيار الثورة وهم لا يعلمون مصيرهم، فدخل الانكليز مصر والشيخ محمد عبده في جملة الذين قبض عليهم وحوكموا، فحكم عليه بالنفي لأنهُ أفتى بعزل توفيق باشا الخديوي السابق، فاختار الإقامة في سوريا فرحب به السوريون وأعجبوا بعلمه وفضله، فأقام هناك ست سنوات فاغتنموا إقامته بينهم وعهدوا إليه بالتدريس في بعض مدارسهم.

وانتقل من سوريا إلى باريس، فالتقى فيها بأستاذه وصديقه جمال الدين وكانا قد تواعدا على اللقاء هناك، فأنشأُوا جريدة «العروة الوثقى» وكتابتها منوطة بالشيخ محمد فكانت لها رنة شديدة في العالم الإسلامي ولكنها لم تعش طويلًا وتمكن الشيخ في أثناء إقامتهِ بباريس من الاطلاع على أحوال التمدن الحديث وقرأ اللغة الفرنسية على نفسه حتى أصبح قادرًا على المطالعة فيها ثم سعى بعضهم في إصدار العفو عنه فعاد إلى مصر فولاه الخديوي السابق القضاء وظهرت مناقبه ومواهبه، فعين مستشارًا في محكمة الاستئناف وسمي عضوًا في مجلس إدارة الأزهر ثم عين أخيرًا مفتيًا للديار المصرية سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) وما زال في هذا المنصب حتى توفاه الله في ١١ تموز ١٩٠٥ ولم يعقب ذكرًا يبقى به اسمه ولكنه خلف آثارًا يخلد بها ذكره.

مناقبه وأعماله

كان ربع القامة، أسمر اللون، قوي البنية، حاد النظر فصيح اللسان قوي العارضة متوقد الفؤاد بليغ العبارة، حاضر الذهن، سريع الخاطر، قوي الحافظة وقد ساعده ذلك على إحراز ما أحرزه من العلوم الكثيرة الدينية والعقلية والفلسفية والمنطقية والطبيعية وتلقى اللغة الفرنسية وهو في حدود الكهولة في بضعة أشهر. وكان شديد الغيرة على وطنه حريصًا على رفع شأن ملته وذاع ذلك عنه في العالم الإسلامي، فكاتبه المسلمون من أربعة أقطار المسكونة يستفنونه ويستفيدون من علمه وهو لا يرد طالبًا ولا يقصر في واجب.

ناهيك بما عهد إليه من المشروعات الوطنية، فقد كان القوم لا يقدمون على عمل كبير إلا رأسوه عليه أو استشاروه فيه، ورأس «الجمعية اخيرية الإسلامية» وألف «شركة طبع الكتب العربية» وشارك مجلس شورى القوانين في مباحثه. وآخر ما عهد إليه تنظيم مدرسة يتخرج فيها قضاة الشريعة ومحاموها. فضلًا عما اشتغل فيه من التأليف والتصنيف وما كان يستشار فيه من الأمور الهامة في القضاء أو الإدارة بالمصالح العامة والخاصة. وبالجملة فقد كان كنز فوائد للقريب والبعيد بين إفتاء ومشورة وإحسان وكتابة ومداولة ووعظ وخطابة وغير ذلك.

على أن عظمته الحقيقية لا تتوقف على ما تقدم من أعماله الخيرية أو العملية أو القضائية، وإنما تقوم بمشروعه الإصلاحي الذي لا يتصدى لمثله إلا أفراد لا يقوم منهم في الأمة الواحدة مهما طال عمرها إلا بضعة قليلة وهذا ما أردنا بسطه على الخصوص في هذه العجالة:

(العظمة الحيقيقة) تختلف العظمة شكلًا وأثرًا باختلاف السبيل الذي يسعى صاحبها فيه أو الغرض الذي يرمى إليه. فمنهم العظيم في السياسة أو الحرب أو العلم أو الدين. ومن العظماء من يوفق إلى إتمام عمله ومنهم من يرجع بصفقة الخاسر من نصف الطريق. إلا أن أكثر العظماء إنما يأتون العظائم لمجرد الرغبة في الشهرة الواسعة ويغلب أن يكون ذلك في رجال الحرب وهؤلاء تنحصر ثمار أعمالهم في أنفسهم أو أهلهم أو أمتهم على أنهم لا يستطيعون نفعًا لأنفسهم إلا بضر الآخرين. اعتبر ذلك في سير كبار الفاتحين مثل الإسكندر وبونابرت وغيرهما. فكم سفكوا في سبيل عظمتهم من الدماء أو ارتكبوا من المحرمات وكان النفع عائدًا على أنفسهم أو أمتهم ولم يطل مكثه فيهم إلا قليلًا؟

وأما رجال العلم، فعظمتهم تقوم بما ينيرون به الأذهان من الأصول العلمية أو يكتشفونه من أسباب الأمراض والوقاية منها أو يضعونه من النظامات والقوانين أو غير ذلك ونفعهم يشمل القريب والبعيد ولا

يسفكون في سبيل نشره دمًا ولا يرتكبون محرمًا وهو باقٍ ما بقي الإنسان وينمو بنمو المدنية.

وأمال رجال الدين ومن جرى مجراهم من واضعي الشرائع والأحكام، فتأثيرهم أوسع دائرة وأعم شمولًا لأنهُ يتناول البشر على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم رجالًا ونساءً. وعليهم يتوقف نظام الاجتماع وآدابه وأخلاق الناس وعاداتهم وعلائقهم بعضهم ببعض. وعظماء الدين فئتان، الفئة الأولى: واضعو الشرائع كالأنبياء أو من في معناهم ممن ينسبون أعمالهم إلى ما وراء الطبيعة. والفئة الثانية: المصلحون الذين يصلحون الدين بعد فساده– لأن الدين إذا مر عليه بضعة قرون فسد وتغير شكله وانقلب وضعه تبعًت لمطامع الذين يتولون شؤونه، فتفسد الأمة وينحط شأنها حتى يقوم من يصلحه ويعيده إلى رونقه. ووضع الأديان عمل شاق قل من يفوز به والإصلاح الديني لا يقل مشقة عنه. وربما كان إدخال دين جديد أيسر من إصلاح دين قديم. فالديانة المسيحية لم تكلف البشر في قيامها من الدماء أكثر مما كلفتهم في إصلاحها. على أن ما يضيعه رجال الدين في نشره من الدماء يعوضونه بسرعة انتشاره. اعتبر ذلك في الفرق بين النصرانية والإسلام. ويقال نحو ذلك في الإصلاح فقد طلبه وسعى فيه غير واحد من رجال النصرانية، فلم يتفق منهم إلى إصلاح كبير غير «لوثر» لأن أهل السياسة نصروه ولابد من استعداد الأذهان لقبول الإصلاح وتهيئة الأسباب الأخرى. فكم نهض من المصلحين بالسيف فغلبوا على أمورهم وذهب سعيهم عبثًا وأقربهم عهدًا منا صاحب مذهب «الوهابية» في نجد فقد استفحل

أمره في أوائل القرن الماضي وأراده لوثر النصرانية. فلم يوفق إلى غرضه لأن الجنود المصرية غلبته وفلت عزيمته. أما المصلحون بالموعظة الحسنة والتعليم فعملهم بطيىء ولكنه أرسخ في الأذهان وأصبر على كوارث الحدثان– والشيخ محمد عبده واحد منهم.

(وهو جمال الدين) نشأ الشيخ المفتي نير البصيرة حر الضمير وربى في الاسلام وتعلم علومه فشب غيورًا عليه ثم اطلع على علوم الأمم الراقية من أهل هذا التمدن ودرس تاريخ الاجتماع ونواميس العمران، فرأى الإسلام في حاجة إلى نهضة ترفع شأنهُ وتجمع كلمته واتفق اجتماعه بالسيد جمال الدين الأفغاني، فأخذ عنه الفلسفة والمنطق والحكمة المشرقية وكان جمال الدين غيورًا على الإسلام راغبًا في جمع كلمتهِ ورفع شأنه. فتوافقا في الغاية ولكنهما اختلفا في الوسيلة لأن جمال الدين سعى في ذلك من طريق السياسة، فأراد جمع شتات المسلمين في أقطار العالم تحت ظل دولة إسلامية واحدة وقد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من أجله، فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبًا وإنما جعل همهُ السعي إلى تلك الغاية، فلم يوفق إلى غرضه لأسباب عمرانية وطبيعية لا محل لذكرها. وكان الشيخ محمد عبده رفيقه في كثير من مساعيه واطلع على دخائل أموره وعرف أسباب حبوطه. فلعم أن جمع كلمة المسلمين ورفع شأنهم من طريق السياسة لا يتيسر الوصول إليه، فسعى فيه من طريق العلم فجعل همهُ رفع منار الإسلام وجمع كلمة المسلمين بالتعليم والتهذيب وتقريبهم من أسباب المدنية الحديثة ليستطيعوا مجاراة الأمم الراقية في هذا العصر ورأى ذلك لا

يتأتى إلا بتنقية الدين مما اعتوره من الشوائب التي طرأت عليه بتوالي العصور وتغالب الدول واختلاف أغراض أصحابها وأئمتها كما أصاب النصرانية في القرون المتوسطة، إذ تمسك الناس بالعرض وتركوا الجوهر واستغرقوا في الأوهام ونبذوا الحقائق والسبيل الوحيد لمغالبة الأوهام والخرافات إنما هو العلم الصحيح على ما بلغ إليه في هذا العهد وعلم صاحب الترجمة أن محور العلوم الإسلامية اليوم مصر ومركز العلم بمصر أو في العالم الإسلامي كافة «الجامع الأزهر»، فرأى أنهّ إذا أصلح «الأزهر» فقد أصلح الإسلام. فسعى جهده في ذلك، فاعترضه إنسٌ من أهل المراتب يفضلون بقاء التقديم على قدمه واستنصروا العامة عليه وغرسوا في أذهانهم أن المفتي ذاهب بالمسلمين إلى مهاوي الضلال والبدع. فلم يهمه قولهم لعلمهِ أن ذلك نسيب أمثاله من قديم الزمان. على أنهُ لم ينجح في إصلاح الأزهر إلا قليلًا ولكنهُ وضع الأساس ولابد من رجوع الأمة إلى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين، فيكون الفضل له في تأسيسها.

بينما الجانب الأعظم من عقلاء المسلمين وخاصتهم يرون رأيه في إصلاح الدين ورجاله وربما سبقهُ كثيرون إلى الشعور بحاجة الإسلام إلى ذلك ولاسيما المتخرجين بالعلوم العصرية من الناشئة المصرية ولكنهم لم يجسروا على التصريح بأفكارهم في غير المجتمعات الخصوصية لئلاَّ ينسبهم الناس إلى المروق من الدين. فلما جاهر محمد عبده برأيه وافقوه وصاروا من مريديه ونصروه بألسنتهم وأقلامهم. فحاجة الإسلام إلى الإصلاح ليس أول من انتبه إليها ولكنه أول من جاهر بها، كما أن لوثر

المصلح المسيحي ليس أول من انتبه لحاجة النصرانية إلى الإصلاح ولكنه أول من جاهد في سبيلها وقد فاز بجهاده لقيام السياسة بنصرتهِ. وأما مصلح الإسلام فكانت السياسة ضده إنما حمله على تلك المجاهرة حرية ضميره وجسارتهُ الأدبية ومنصبه الرفيع في الإفتاء.

الإسلام والمدينة

فلما صرح الشيخ محمد عبده بحاجة الإسلام إلى الإصلاح، انقسم المسلمون إلى فئتين، فئة ترى بقاء القديم على قدمه وهم حزب المحافظين وفئة ترى حل القيود القديمة وإطلاق حرية الفكر والرجوع إلى الصحيح من قواعد الدين ونبذ ما خالطه من الاعتقادات الداخلية. وكان زعيم هذه الفئة يناضل عن مبادئها بلسان قلمه وبكل جارحة من جوارحه وكانت مساعيه من هذا القبيل ترمي إلى غرضين رئيسيين؛ الأول تنقية الدين الإسلامي من الشوائب التي طرأت عليه والثاني تقريب المسلمين من أهل التمدن الحديث ليستفيدوا من ثمار مدنيته علميًا وصناعيًا وتجاريًا وسياسيًا. فأهل العصبية الإسلامية يرون هذا التقريب مغايرًا لما يرجونه من استقلال المسلمين بالجامعة السياسية؛ لأن مجاراة أهل التمدن الحديث بأسباب مدنيتهم وتسهيل الاختلاط بهم يضعف عصبية الإسلام على زعمهم ويبعث على تشتيت عناصره، فيستحيل جمعها في ظل دولة واحدة. ولكن الشيخ المفتي كان يرى ذلك الاجتماع السياسي مستحيلًا في هذه الحال، فلم يشأ أن يضيع وقتهُ سدى كما أضاعه أستاذه وصديقهُ جمال الدين وأن يخسر فائدة تقرب

المسلمين من أسباب هذا التمدن. فسعى في ذلك بما نشره من فتاويه المتعلقة بالربا والموقوذة ولبس القبعة ونحو ذلك؛ مما يقرب المسلمين من الأمم الأخرى ويسهل أسباب التجارة.

تنقية الدين

وأما تنقية الدين الإسلامي من الشوائب الطارئة عليه، فأساس سعيه فيها أنه أطلق لفكره الحرية في تفسير القرآن ولم يتقيد بما قاله القدماء أو وضعوه من القواعد التي يحرم الأئمة تبديل شيء منها، فرأى أن يحل نفسه من هذه القيود ويفسر القرآن وما يوافق هذا العصر، فيجعل آراءه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح المبني على المشاهدة والاختبار ولنواميس العمران على ما بلغ إليه هذا العلم إلى الآن مع مطابقته لأحكام العقل وأصول الدين كما فعل النصارى في تفسير الكتاب المقدس بعد ثبوت مذاهب العلم الجديد. وهو أوعر مسلك في الإسلام لارتباط الدين بالسياسة فيه والقرآن أساس الدين والدنيا عندهم فيعلقون على تفسيره أهمية كبرى لأنهُ مرجع الفقه وغيره من الأحكام الشرعية والسياسية. ولذلك رأى أهل السنة تقييده بأقوال الأئمة الأربعة وخالفهم الشيعة باستبقاء باب الاجتهاد مفتوحًا، فلا يرون بأسًا في العدول عن تفسير إلى آخر بشروط يشترطونها في مفسريهم وهم يعرفون عندهم بالأئمة المجتهدين.

وقد توالى على تفسير القرآن أحوال تختلف باختلاف العصور من الإسلام إلى الآن ترجع إلى أربعة عصور:

أولًا. العصر الشفاهي:

وهو ينحصر في أيام النبي وأصحابه، فقد كانوا عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سورة أو آية فهموها وأدركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لأنها بلسانهم وعلى أساليب بلاغتهم ولأن أكثرها قيلت في أحوال كانت القرائن تسهل فهمها وإذا أشكل عليهم شيء منها، سألوا النبي فيفسره لهم وكان التفسير مختصرًا بسيطًا لسذاجة الدولة الإسلامية يومئذٍ.

ثانيًا. العصر التقليدي:

ونريد به عصر التابعين وكانت الدولة الإسلامية قد أخذت في النمو والارتقاء، فاحتاجوا إلى التوسع في التفسير وكان أكثرهم أُميين. فإذا أعجزهم تفسير بعض الآيات، سألوا عنها من أسلم من أهل الكتاب ولا سيما اليهود المقيمين في اليمن وأسلموا وظلوا على ماكان عندهم من التقايلد المتناقلة شفاهًا أو كتابة مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية.

ثالثًاـ العصر الفلسفي المنطقي:

ونريد به تدوين التفسير وضبطهُ بالقياس الفلسفي والحكم المنطقي بعد أن اختلط المسلمون بأهل العلم القديم في الشام والعراق وفارس واطلعوا على علوم القدماء فلسفة اليونان والهند ونقلوا ذلك إلى لسانهم واستخرجوا منه علم الكلام. وكان العرب قد وضعوا العلوم اللسانية وضبطوا معاني الألفاظ وأساليب التعبير، فنظروا في التفاسير السابقة نظر الناقد ومحصوها وضبطوها بالقياس العقلي بالاعتماد على قواعد المنطق بما تقتضيه الفلسفة اليونانية القديمة على نحو ما فعله النصارى قبل ذلك.

رابعًا ـ العصر العلمي:

الذي نحن فيه وهو عصر الفلسفة الجديدة المبنية على العلم الطبيعي الثابت بالمشاهدة والاختبار. ويمتاز عن العصر السابق بإطلاق حرية الفكر من قيود التقليد القديمة التي أغلت ألسنة أسلافنا وأقلامهم وأوقفت مجاري التمدن أجيالًا متطاولة، فالشيخ المفتي أراد أن ينقل التفسير إلى روح هذا العصر، فيفسر القرآن بما يطابق أحكام العقل ويحل الإسلام من قيود التقليد، فسار في هذا الطريق شوطًا بعيدًا، فألقى على طلبة «الأزهر» خطبًا كثيرة في التفسير نشرت في مجلة «المنار» وطبع بعضها على حدة وكان لها تأثير حسن في نفوس العقلاء ولو مد الله في أجله لأتم هذا العمل ولكنهُ قضى آسفًا خائفًا ولسان حاله يردد هذين البيتين وقد قيل أنهما من قصيدة في أثناء مرضه وهما:

ولســـت أبـــالي أن يقـــال محمـــدٌ أبـــل أو اكتظـــت عليـــه المـــآتمُ
ولكـــن دينًـــا قـــد أردت صـــلاحه أحـــاذر ان تقضـــي عليـــه العمـــائمُ

على أنهُ خلف جماعة من تلامذته ومريديه أكثرهم من أهل العلم وأرباب الأقلام وفيهم نخبة كتاب المسلمين وشعرائهم في هذا العصر وأكثرهم مجهرة بنصرته وإذاعة لآرائه رصيفنا السيد رشيد رضا صاحب «المنار» الإسلامي.

والشيخ محمد عبده زعيم نهضة إصلاحية لا خوف منها على الدماء أو الأرواح وأكثر نهضات الأمم في سبيل إصلاحها لا تخلو من إهراق الدماء. فهو رجل عظيم يجدر بالمسلمين أن يقتفوا آثاره في التوفيق بين الإسلام والمدنية الحاضرة وتنقيته مما ألم به بتوالي الأزمان. وذلك ميسور لمن أطلق فكره من قيود التقليد واسترشد بما يهديه إليه العقل الصحيح بالإسناد إلى العلم الصحيح. على أننا نرجو ألا تعدم هذه النهضة من يخلف الإمام في الأنصار لها والعمل بها والله على كل شيء قدير (جرجي زيدان).

«٦»

جمال الدين الأفغاني

فيلسوف الإسلام وأحد مؤسسي جريدة «العروة الوثقى» في باريس ومدير سياستها وناشر المقالات الشائقة في جرائد «مرآة الشرق» بالقاهرة و«مصر» و«المحروسة» بالإسكندرية

هو السيد محمد جمال الدين الحسيني ابن السيد صفتر. ينتمي إلى أسرة عريقة النسب كانت تحكم قسمًا من أراضي الدولة الأفغانية في خطة «كنر» من أعمال كابل. وإنما نزع السيادةَ من أيديها دوست محمد خان أمير الأفغان وأمر بنفي السيد صفتر وسائر آلهِ إلى مدينة كابل ويتصل نسبهُ بالسيد علي الترمذي المحدث المشهور ويرتقي إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب.

(هذا جمالُ الدين أمسى نازلًا جدثاً تضمن منه أي دفينِ)
(قدرٌ به عم البكاءُ على امرىء فقدت بهِ الدنيا جمال الدينِ)

وُلد السيد جمال الدين في «أسعد آباد» التابعة لخطة كنر سنة ١٢٥٤ هجرية (١٨٣٨ مسيحية) وتلقى العلوم العقلية والنقلية في كابل على أشهر الأساتذة حتى استكمل دروسهُ في الثامنة عشرة من عمره ثم سافر إلى الهند، حيث أتقن العلوم الرياضية على الطريقة الأوروبية. ومنها ذهب سياحتهِ وبعد عودته إلى وطنه، انتظم في سلك خدمةِ الحكومة مدة إحدى عشرة سنة على عهد الأمير المشار إليه ثم لأمور سياسية اضطر

أن يفارق بلاده فارتحل عن طريق الهند إلى القطر المصري على نفقة الحكومة الانكليزية ومنهُ إلى عاصمة تركيا.

وفي أثناء إقامته في الأستانة، أحرز كرامة عالية في عيون رجال السلطنة العثمانية لا سيما أمين عالي باشا الصدر الأعظم فعرفوا له فضله. وبعد ستة شهور عين عضوًا في مجلس المعارف، فخدم وظيفته بنشاط وأشار إلى طرق لتوسيع نطاق العلوم خالفهُ فيها زملاؤه في المجلس المذكور. ولما كلفهُ الصدر الأعظم للخطابة في دار الشورى، ارتجل خطبةّ في الصنائع غالى فيها إلى حد أن أدمج النبوة في عداد الصناعات المعنوية. فغب عليه طلبة العلم وشددت جريدة «الوقت» عليه التكبر مما ألجأ الصدر إلى إبعاده عن تركيا. فزايلها في ٢٢ أيار سنة ١٨٧١ متوجهًا إلى وادي النيل حيث عينت له الحكومة المصرية راتبًا شهريًا بمساعي رياض باشا وهناك التف حوله كثير من طلبة العلم الذين قرأوا عليه ونقلوا عنه وأذاعوا بين طبقات المصريين فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية وعلم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وأصول الفقه الإسلامي. ولذلك دعاه تلامذتهُ بفيلسوف الشرق وفاخروا به سائر علماء عصره، وإليك ما ورد عنهُ في كتاب «العروة الوثقى» المطبوع ببيروت:

«وكانت مدرستهُ بيته الأول ولم يذهب إلى الأزهر مدرسًا ولا يومًا واحدًا. نعم كان يذهب إليه زائرًا وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة ثم وجه عنايتهُ لحل عقد الأوهام عن قوائم العقول وحمل تلامذته على العمل في

الكتابة وأنشأ الفصول الأدبية والحكمية والدينية، فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيهِ».

وقد وصفه سليم عنجوري في ديوان «سحر هاروت» بالعبارة الآتية: «يلبس السواد ويتزيا بزي العلماء، طلي الكلام، ذرب اللسان، مليح النكستة، سمح الكف، طلق المحيا، وقور السمت. يجتنب النساء ويعظم نفسه عن الشهوات ويكره الحلو ويحب المر وقلما خلت جيوبه من خشب الكينا والرواند ينتقل فيها تفكهًا. يأكل الوجبة (مرة كل يوم) ولا يأكل إلا منفردًا. يكثر من شرب الشاي والتبغ وإذا تعاطى مسكرًا، فقليل من الكونياك، وليس له من التآليف المطبوعة سوى «لتنة البيان في تاريخ الأفغان»، يكرهُ الكتابة ويتثاقل منها. فإذا رام أنشأ مقالة ألقى على كاتب من مثل إبراهيم اللقاني إلقاء قلمًا يراجعه ويصلحه، فيجيء من أول وهلة مسبوكًا مفرغ المعالي بقول لفظ لا تنقص عنها ولا تزيد».

وكان السيد جمال الدين ذا إلمام واسع بالشؤون السياسية. إلا أنهُ كان متطرقًا في حرية الأفكار إلى درجة متناهية، فأخذ يعقد الاجتماعات السرية والعلنية ويلقي الخطب الرنانة حاضًّا المصريين بلهجة شديدة على المطالبة بحقوقهم والتنصل من ربقة الظلم وقد وقف يومًا سنة ١٨٧٩ في «ساحة محمد علي» المعروفة بالمنشية الكبرى في الإسكندرية وخاطب الفلاح المصري على مسمع من محافظ المدينة وقواد الجيش والعلماء والأعيان، قائلًا: «أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض

لتستنبت منها ما تسد به الرمق وتقوم بوأد العيال. فلماذا لا تشق قلب ظالمك وتشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك؟».

وكان السامعون ينظر بعضهم إلى بعض مندهشين لأنهم لم يسمعوا في حياتهم مثل هذا الكلام. فوشوا به إلى الخديوي الذي أمر بتوقيفه في دار المحافظة ونفيه إلى بلاده في شهر آيلول ١٨٧٩، فقبض على من كان في حلقته وأرسل هو وخادمه الأمين «أبو تراب» مخفورين إلى السويس. وقبيل السفر أتاه السيد النقادي قنصل إيران بذلك الثغر ومعه نفر من تجار العجم وقدموا لهُ مقدارًا من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن، فرده وقال لهم: «احفظوا المال فأنتم إليه أحوج. إن الليث لا يعدمُ فريسة حيثما ذهب» ونزل إلى الباخرة ميممًا البلاد الهندية وأقام بمدينة «حيدر آباد الدكن».

ولما قدحت شرارة الثورة العرابية بمصر، كلفته الحكومة الإنكليزية إلى الإقامة في مدينة كلكتا حتى استتب الأمن في وداي النيل ثم رخص له بالسفر إلى حيث شاء، فجاء أوروبا وأقام في باريز نيفًا وثلاث سنين وهناك أنشأ مع الشيخ محمد عبده المصري جريدة «العروة الوثقى» لدعوة المسلمين إلى الاتحاد سياسيًا ودينيًا تحت لواء الخلافة الإسلامية، فنشر منها ثمانية عشر عددًا ثم قامت الموانع دون استمرارها كما سبق الكلام عن أخبارها في الباب السابق وكتب في جرائد باريس فصولًا تبحث في سياسة روسيا وانكلترا وتركيا ومصر، فنقلت كثيرًا منها صحف انكلترا وجرت له أبحاث فلسفية في «العلم والإسلام» مع رينان

الكاتب الفرنسي الذي شهد لهُ بقوة البرهان وغزارة المعارف ثم ذهب إلى لندن بإيعاز من اللورد شرشل واللورد سالسبري ليطلعا على رأيه في «المهدي» وظهوره في السودان.

وبعد رجوعه إلى فرنسا، استقدمه إلى طهران ناصر الدين شاه الفرس على لسان البرق، فسار إليها وأكرم الشاه وفادته وجعله وزيرًا للحربية، فنال لدى أمراء تلك البلاد وسراتها وعلمائها منزلة سامية حتى صاروا يتسابقون إلى منزله للاستفادة من علمهِ، فخشي الشاه من ذلك وتغير عليه، فأدرك السيد جمال الدين ارتياب الشاه منه فاستأذنه في السفر تبديلًا للهواء، فسافر إلى روسيا واختلط بمشاهير أرباب العلم والسياسة فيها وكتب في صحفها فصولًا طويلة تبحث في أحوال الدولة الفارسية والأفغانية والعثمانية والروسية والإنكليزية كان لها تأثير عظيم في عالم السياسة. وهنا ننقل ما رواه جرجي بك زيدان عن بقية أخبار صاحب الترجمة، قال:

واتفق إذ ذاك فتح معرض باريس لسنة ١٨٨٩، فشخص جمال الدين إليها، فالتقى بالشاه في ميونخ عاصمة بافار عائدًا من باريس فدعاه الشاه إلى مرافقته، فأجاب الدعوة وسار في معيتهِ إلى فارس. فلم يكد يصل طهران حتى عاد الناس إلى الاجتماع بهِ والانتفاع بعلمهِ والشاه لا يرتاب من أمره كأن سياحتهُ في أوروبا محت كثيرًا من شكوكه؛ فكان يقربه منه ويوسطه في قضاء كثير من مهام حكومته ويستشيره في سن القوانين ونحوها. فشق ذلك على أصحاب النفوذ وخصوصًا الصدر الأعظم،

فأسر إلى الشاه أن هذه القوانين وإن تكن لا تخلو من النفع، فهي لا توافق حال البلاد فضلًا عما ستؤول إليه من تحويل نفوذ الشاه إلى سواه فأثر ذلك في الشاه حتى ظهر على وجههِ.

فأحس جمال الدين بالأمر، فاستأذنه في المسير إلى بلده «شاه عبد العظيم» على بعد ٢٠ كيلو مترًا من طهران فأذن له، فتبعه جم غفير من العلماء والوجهاء وكان يخطب فيهم ويستحثهم على إصلاح حكومتهم. فلم تمضِ ثمانية أشهر حتى ذاعت في أقاصي بلاد الفرس وشاع عزمه على إصلاح إيران فخاف ناصر الدين عاقبة ذلك، فأنفذ إلى شاه عبد العظيم خمسمائة فارس قبضوا على جمال الدين وكان مريضًا، فحملوه من فراشه وساقوه يخفره خمسون فارسًا إلى حدود المملكة العثمانية، فعظم ذلك على مريديه في إيران فثاروا حتى خاف الشاه على حياته.

أما جمال الدين، فمكث في البصرة ريثما عادت إليهِ صحته، فشخص إلى لندرا وقد عرفوه الانكليز من قبل فتلقوه بالإكرام ودعوه إلى مجتمعاتهم السياسية وأنديتهم العلمية ليروه ويسمعوا حديثهُ. وكان أكثر كلامهِ معهم في بيان حال الشاه وتصرفه في المملكه وما آلت إليهِ في عهده مع حث الحكومة الانكليزية على العسي في خلعه. وفيما هو في ذلك ورد عليه كتاب من المابين الهمايوني بواسطة رستم باشا سفير الدولة العليا في لندرا إذ ذاك أن يقدم إلى الأستانة، فاعتذر لأنه في شاغل وقته لإصلاح بلاده، فورد عليه كتاب آخر وفيهِ ثناء وتحريض،

فأجاب الدعوة تلغراف على أن يتشرف بمقابلة جلال السلطان ثم يعود. فقدم الأستانة سنة ١٨٩٢ فطابت له فيها الإقامة لما لاقاه من التفات الحضرة السلطانية وإكرام العلماء ورجال السياسة وما زال فيها معززًا مكرمًا حتى داهمه السرطان في فكه أواخر سنة ١٨٩٦ وامتد إلى عنقه، فتوفاه الله في ٩ مارس سنة ١٨٩٧ واحتفل بجنازته ودفنه في مدفن «شيخار مزارلغي» قرب «نشان طاش».

صفاته الشخصية

كان أسمر اللون بما يشبه أهل الحجاز، ربعة ممتلىء البنية، أسود العينين نافذ اللحظ، جذاب النظر مع قصر فيهِ. فإذا قرأ أدنى الكتاب من عينيه ولكنهُ لم يستخدم النظارات وكان خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زي علماء الأستانة.

طعامه

كان قانتًا قليل الطعام لا يتناوله إلا مرة في النهار ويعتاض عما يفوته من ذلك بما يشربه من منقوع الشاي مرارًا في اليوم. والعفة في الطعام لازمة لمن يعمل أعمالًا عقلية لأن البطنة تذهب الفطنة. وكان يدخن نوعًا من السيجار الأفرنجي الجيد ولشدة ولعه بالتدخين وعنايته في انتقاء السيجار، لم يكن يركن إلى أحد من خدمه في ابتياعه فيبتاعه هو بنفسه.

مسكنه

كان يقيم في أواخر أيامه بقصر في «نشان طاش» بالأستانة، أنعم عليه به السلطان وفيه الأثاث والرياض وعربة من الاصطبل العامر يجرها جوادان وأجرى عليه رزفا مقداره خمس وسبعون ليرة عثمانية في الشهر. فكان قبل مرضه الأخير يقيم معظم النهار في منزله. فإذا كان الأصيل، ركب العربة لترويح النفس في منتزه «كاغد خانة» بضواحي الأستانة وكان كثير القيام لا ينام إلا الغلس إلى الضحى.

مجلسه وخطابه

كان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزائر به على اختلاف طبقاتهم، ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته تزلفًا. وكان ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم إلا اللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية وإذا آنس سامعه التباسًا، بسط مراده بعبارة أوضح. فإذا كان السامع عاميًا، تنازل إلى مخاطبتهِ بلغة العامة وكان خطيبًا مصقعًا لم يقم في الشرق أخطب منه. وكان قليل المزاح ورزينًا كتومًا قد يخاطب عشرات من الناس في اليوم فيبحث مع كل منهم في موضوع سهمه. فإذا خرج جليسه كان خروجه آخر عهده بذلك الموضوع حتى يعود هو إليهِ بشأنه.

الخلافة

كان حر الضمير، صادق الأهجة، عفيف النفس رقيق الجانب وديعًا مع إلفه وثابت الجأش قد يُساق إلى القتل، فيسير إليهِ سير الشجاع إلى الظفر وكان راغبًا عن حطام الدنيا لا يدخر مالًا ولا يخاف عوزًا. وكان مقدامًا حانًا على الأقدام، فلا يخرج جليسه من بين يديهِ إلاَّ وقد قام في نفسه محرض على العلى منشط على السعي في سبيلها ولكنه كان على فضله لا يخلو من حدة المزاج ولعلها كانت من أكبر الأسباب لما لاقاه من عواقب الوشاية.

عقله

كان ذكيًّا فطنًا، حاد الذهن، سريع الملاحظة، يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك أسرار السرائر، دقيق النظر في المسائل العقلية، قوي الحجة ذا نفوذ عجيب. فلا يباحثه أحد في موضوع الشعر بانقياد إلى برهانه وربما لا يكون البرهان بحد ذاتهِ مقنعا. وكان مع ذلك قوي الذاكرة حتى قيل إنه تعلم اللغة الفرنسية أو بعضها وصار يقدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئًا كثيرًا في أقل من ثلاثة أشهر بلا أستاذ إلا من علمهُ حروف هجائها يومين.

علومها

كان واسع الاطلاع في العلوم العقلية والنقلية وخصوصًا الفلسفية وفلسفة تاريخ الإسلام والتمدن الإسلامي وسائر أحوال الإسلام. وكان

يعرف اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية جيدًا مع المام باللغتين الانكليزية والروسية وأكثر مطالعاتهِ في اللغتين العربية والفارسية.

آماله وأعماله

يؤخذ من مجمل أحواله أن الغرض الذي كان يصوب نحوه أعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله؛ توحيد كلمة الإسلام وجمع شتات المسلمين في سائر أقطار العالم في حوزة دولة واحدة الإسلامية تحت ظل الخلافة العظمى. وقد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من أجله، فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبًا ولكنهُ مع ذلك لم يتوفق إلى ما أراده، فقضى ولم يدون من بنات أفكاره إلا رسالة في نفي مذهب الدهريين ورسائل متفرقة في مواضيع مختلفة قد تقدم ذكرها ولكنهُ بث في نفوس أصدقائه ومريديه روحًا حية حركت هممهم وحددت أقلامهم، فانتفع الشرق وسوف ينتفع بأعمالهم.

«٧»

ميخائيل عورا

منشيء جريدة «الحقوق» في باريس ومؤسس مجلة «الحضارة» وجريدة «البيان» ومحرر صحيفة «الزمان» في القاهرة ومراسل جريدتي «الأهرام» و«المحروسة» وغيرها من الصحف.

أسرته

قليلة هي العائلات السورية التي يتسلسل فيها الكتاب والمنشئون والخطاطون من قديم الزمان بلا انقطاع. وأقدم عائلة استحقت هذه الكرامة– على ما نعلم– أسرة «عورا» التي قضى أفرادها السنين الطوال بين المحابر والأقلام أو في خدمة دواوين الحكومة العثمانية والخديوية المصرية. فإنها نشأت في مدينة صيدا أولًا ثم انتقلت منها إلى عكا في عهد واليها أحمد الجزار. ويتصل نسبها بميخائيل جدها الأعلى الذي عاش في أوائل القرن السابع عشر. غير أن أخبارها طمس عليها الزمان ولم يحفظ منها التاريخ سوى ما كتبه سليلها إبراهيم (١٧٩٦–١٨٦٣) أحد أحفاد الجد المشار إليهِ أو ما نقله بعض الرواة الموثوق بصدقهم.

أما منشأ هذه الأسرة، فقد روى البعض أنهُ من أصل يوناني وذهب غيرهم إلى أنه يتصل الكونت عورا أو «قنطور» الذي كان حاكمًا على حاصبيا سنة ١١٧٣ في عهد الصليبيين. وقد ورد ذكر هذا الرجل في

كتاب «تاريخ الأعيان في جبل لبنان» صفحة ٤٤-٤٥ لمؤلفه الشيخ طنوس الشدياق اللبناني وهذا نصهُ:

«وكانت الأفرنج حينئذٍ قد استولت على وادي التيم وتوطنوا حاصبيا وحصنوها بالآلات الحربية والعساكر الوفية قلما بلغهم نزول آل شهاب بعشايرهم في الظهر الأحمر جمع قنطورا قائدهم خمسين ألف مقاتل وطلب الإمداد من ذخاتر الأفرنجي صاحب قلعة الشقيف وما يليها. فأمده بخمسة عشر ألف مقاتل وزحف بعساكره لقتال الشهابيين. فما التقى الجيشان، استل الأمير منقذ سيفه وتبعه قومه وغاروا على الأفرنج، فكسروهم وقتلوا منهم ثلاثة آلاف رجل وقتل من عشاير الشهابيين ثلاثمائة فارس، فدفنوهم بثيابهم وكتبوا إلى نور الدين يبشرونه. ولما طلع النهار زحف الجيشان للقتال، فصرخ أحد نواد الأفرنج بالعربية «ليبرز إلى إشجبكم» فبرز إليه الأمير نجم ابن الأمير منقذ وهجما على بعضهما وتضاربا. فلم يقدر أحدهما على الآخر، فتعانقا حتي سقطا عن جواديهما على الأرض فاستل الأمير نجم خنجر الأفرنجي وضربه به فقتله، فانكسرت الأفرنج إلى الحولانية وقتل منهم خلق كثير وقتل من عشاير الشهابيين ستمائة رجل وانهزم خمسمائة رجل إلى حاصبيا، فأسر الشهابيون ذلك اليوم خمسمائة أسير من الأفرنج وأرسلوهم إلى نور الدين، فأجابهم مادحًا شجاعتهم وجهادهم. وفي اليوم العاشر قصد الشهابيون الأفرنج وتدرجوا إلى حاصبيا ليلًا فتملكوها بالسيف وبقي قنطورا في القلعة مع خاصته الشجعان محاصرًا عشرة أيام ثم تملكها الشهابيون بالسيف وقتلوا قنطورا وأصحابه وأرسل الأمير منقذ

رؤوسهم إلى نور الدين. فسر بذلك وولاه أميرًا على تلك البلاد التي فتحها وأرسل له خلعة سنية مع أحد خواصه. ولما بلغ دفاتر الأفرنجي صاحب قلعة الشقيف ما جرى أرسل بطلب الصلح».

وأقدم من شهرته من آل عورا المعلم ميخائيل بن إبراهيم بن حنا بن ميخائيل. وُلد في سنة ١٧٤٦ وكان بارعًا في اللغات العربية والفارسية والتركية، فأحبهُ أحمد الجزار والي عكا لفضله وأدبه واستقامة مبادئه وجعله بوظيفة «ديوان أفنديسي»، فخدمها إلى نهاية أجله في ٥ شباط ١٧٧٦.

وقام من بعده بكر أولاده حنا (١٧٦٣– ١٨٢٨) الذي خلفه في منصبه وعمره ١٦ سنة وكان ذا حظ حسن وأدب جم. فلما علم الجزار بإعلان الحرب على الأمير بسير الشهابي الكبير والاستيلاء على جبل لبنان كما استولى على بلاد صفد وبلاد المتاولة أو بعزل المعلم حنا عورا بمرافقة سليم باشا رئيس العساكر في الحملة المذكورة وقد رافقتهم بعض القواد كسليمان باشا وعلي باشا وسليم باشا الصغير. فبدلًا من محاربي اللبنانيين، اتفق سليم باشا مع قواده على الرجوع إلى عكا بعد خروجهم منها للفتك بالجزار تخلصًا من مظالمه، إلا أن الجزار أحس بالمؤامرة، فقابلهم بعساكر القلعة وبدد شملهم وذهب المعلم حنا حينئذ إلى مدينة صور فأقام فيها حتى استقدمهُ إليه الجزار وإعاده إلى وظيفته .ثم أمر بحبسه في أحد الأيام ظلماً وبتعذيبه ضرباً على رجليه حتى تناثر اللحم من ساقيه .وبعد ذلك أصدر أمره إلى السجان بقطع أنوف بعض

المحابيس وبقلع عيون البعض الآخر فكان نصيب المعلم حنا ان قطعوا أنفه .فتظاهر بالاستياء من فعل السجان وأمر بقتله . وأطلق سبيل المعلم حنا الذي هرب إلى جبل لبنان ثم إلى دمشق .فلبث حنا هناك إّلى سنة ١٨٠٤ وفيها عاد إلى عكا مع سليمان باشا وإليها الذي جعله رئيساً لديوانه .ثم توفي سنة ١٨٢٨ في عهد عبدالله باشا والي الايالة المذكورة. وقد رزقه الله سبعة أبناء نجباء أشتهر منهم ميخائيل وإبراهيم وجبرائيل وروفائيل .فأعتنى بتربيتهم على سنن الآداب فنبغوا في الكتابة وقضوا حياتهم في هذه المهنة الشريفة

فأكبرهم ميخائيل (١٧٩٤ –١٨٦٨) وضع مواد «تاريخ سوريا» التي جمعها ابنهُ يوسف من بعده وتوسع فيها كما سيأتي الكلام .وثانيهم جبرائيل الذي وُلد في تشرين الثاني ١٨٠٤ في دمشق وخدم الحكومة المصرية في عكا على عهد إبراهيم باشا .ثم انتقل إلى خدمة الحكومة العثمانية في بيروت سنة ١٨٤٠ عندما صارت هذه المدينة مركزاً لايالة صيدا الملغاة .فأحرز مكانة رفيعة وجاهاً عريضاً بآدابه وعفة نفسهِ .ومن مآثره أنهُ جمع في كراس مخصوص «وقائع إبراهيم باشا المصري» وكتب أخبار الأربعة عشر والياً الذين حكموا ايالة صيدا إلى سنة ١٨٦٠ ميلادية.

وتوفي سنة ١٨٧١ فنقشوا على ضريحه هذا التاريخ الشعري:

شـهمٌ فضـى مـن آلـ عـورا نحبـهُ	فغـدت عيـون المكرمـات تسـيلُ
سـبعٌ وسـتونٌ سـنوه قـد مضـت	وبصـدق خدمـة ربـهِ مشـغولُ
ولـذا فضـائلهُ تـؤرخُ قـائمٌ	فـي خدمـة الـرحمن جبرائيـلُ

سنة ١٨٧١

وثالث أبناء المعلم يوحنا ابن المعلم ميخائيل عورا كان روفائيل الذي وُلد في شهر آيلول سنة ١٨٠٦ في عكا .فدخل في الخدم الأميرية حتى صارت سنة ١٨٤٥ رئيساً للديوان في عهد مصطفى باشا والي ايالة صيدا .وفي عام ١٨٦٥ تعين مديراً لتحريرات بيروت قلبث في هذه الوظيفة عشر سنوات حتى استقال منها لمرض طرأ على عينيهِ .وكان منشئاً بليغاً في اللغات العربية والتركية والفارسية مع إلمام الإيطالية .واشتهر شهرة خاصة باجادة الخطوط على اختلاف اشكالها ونسخ كتباً عديدة من دينية وعلمية .ووضع جدولاً بديعاً لمطابقة السنين والشهور والأيام القمرية على السنين والشهور والأيام الشمسية .وجمع نباً فكاهية في كتاب خاص سماه «تحف وطرف الزمان» لم يطبع .

وقال الشعر منذ صباه ومن نظمه نذكر هذا التخميس:

إذا ما الشوق في قلبي ألما ... تذكرت الحبيب فزدت سقما
يذكرني الهوى شوقاً ولما ... أمر على الديار ديار يلمى
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا ... ولكن حب من سكن الديار
نسيم رسائل الأحبابِ هي ... على روحي ولحماني ولبي
خليلي سر بنا أحياء حي ... فما حب الديار شغفن قلبي

ولما كان قليل الحرص على صيانة منظوماته فقد لعبت بأكثرها يد الضياع .وانتقل إلى جوار ربه في ٤ آب ١٨٧٩ في بيروت فدُفن في ضريح خاص ونُقشت فوقهُ هذا الأبيات

رمس بـه مـن بنـي العـوراء مرتحـل	أجـرى العيـون لـدى ترحالـه اسـفا
ناحت عليه العلى والمكرمات كما	أبكـى المحـابر والأقـلام والصـحفا
مرت على الخير والاحسـان مدتـه	حتـى ثـوى فـي جـوار الله منصـرفا
فقلــت لمــا مصــى ارخ لســاحته	في جانب العرش روفائيل قد وقفا

سنة ١٨٧٩

ورابع أنجال المعلم حنا ابن المعلم ميخائيل عورا بل أِهرهم كان إبراهيم الذي وُلد بتاريخ ٣١ آب ١٧٩٦ في صور بينما كان والده فاراً من وجه الجزار .فتفقه باللسان العربي وأحرز شيئاً من اللغات التركية والايطالية واليونايينة .واتصل بسليمان باشا وعبد الله باشا من ولاة عكا فخدم في ديوانهما حتى سقطت سوريا سنة ١٨٣٠ فما بعد بيد العساكر المصرية زفأبقاه إبراهيم باشا المصري في وظيفته ثم غضب عليه بدسيسة بعض الحساد وألقى القبض على أفراد عائلته وزجهم في الحبس .فتمكن إبراهيم من الهرب بواسطة قنصل روسيا وسافر إلى جزيرة قبرص .ولم يزايلها إلا بعد خروج المصريين من سوريا وكان قدومهُ إليها مع الأصطول العثماني .ومن ذلك الحين عاد إبراهيم إلى خدمة الحكومة العثمانية فقام بمهما وظيفته بكل إخلاص ثم تركها لمعاطاة التجارة حتى توفاه الله

حنا عورا

مراقب الجرائد سابقًا في بيروت

في ٢ نيسان ١٨٦٣ في بيروت .فنظم الشيخ ناصيف اليازجي مؤرخا وفاتهُ في هذين البيتين:

لا تجزعوا يا بني العوراء واصطبروا　　بفقد ذخر لكم بالأمس قد فقدا
من فوقه أحرف التاريخ ناطقة　　في طاعة الله إبراهيم قد رفدا

سنة ١٨٦٣

وكان إبراهيم طاهر الذيل عالي الهمة قوي الحجة صبورًا على الأشغال، راغبًا في العلوم، لم يقع بيده كتاب إلا نسخه بخطه حتى بلغ عدد المخطوطات التي كتبها بيده على المائتين عدا .إلا أن القسم الوافر منها غرق في ميتا يافا ولم يسلم سوى ما هو محفوظ عند عائلته وفي بعض خزائن الكتب. وكان له ولع بتدوين أخبار أيامه وهذا ما دعاه إلى تأليف «تاريخ سليمان باشا» و«تاريخ عبدالله باشا» وهما من ولاة عكا. وجمع شذرات من حوادث سنة ١٢٤٨ إلى سنة ١٢٥٥ هجرية ولهُ رسائل وكراريس شتى مطبوعة بحث فيها عن الحسابين اليولي والغريغوري (أي الشرقي والغربي) وله أيضًا مقالة في «الذمة» وأخرى في «صحة الاعتقاد» وغيرها من المسائل الدينية لم تطبع. ونال في شهر رجب ١٢٦٨ هجرية «الوسام المجيدي» من السلطان عبد الحميد ثم وسام «القديس ساوسترس» في ٢٧ أيار ١٨٦٠ من البابا بيوس التاسع.

وبين آل عورا الذين اشتهروا بخدمة المعارف خمنا بن إبراهيم ابن المعلم حنا. وُلد بتاريخ ٢٩ حزيران ١٨٣٠ في عكا وقضى حياته كلها في خدمة الحومة العثمانية، فتقلب في مأموريات شتى وتولى في بيروت مديرية التحريرات ووظيفة مميز لقلم المكتوبي وعضوية محكمة الاستئناف ومراقبة المطبوعات والجرائد. ولما تشكلت حكومة لبنان بعد

حوادث سنة ١٨٦٠ جعله داود باشا كاتبًا خاصًا له. ومما يؤثر عنه أنه أول من هيأ المواد لنظام جبل لبنان سنة ١٨٦١، فكتبها بخط يده طبقًا لحاجة المكان والسكان بإيعاز من داود باشا الذي حوره بالاشتراك مع فؤاد باشا. وهو نفس النظام الذي أرسل بعد ذلك إلى القسطنطينية حيث جرى التصديق عليه من الدولة العثمانية والدول الكبرى الموقعة على النظام المذكور .وكانت وفاة حنا في ٩ تشرين الأول ١٩٠٧ وكان حائزًا على الرتبة المتمايزة والوسام المجيدي ونسخ بيده بعض كتب وكان يعرف اللغات العربية والتركية واليونانية والإيطالية والفرنسية.

ومن آل عورا يوسف بن ميخائيل. وُلد سنة ١٨٢٨ وعاش في القسطنطينية ومات فيها سنة ١٩١٢ بالغًا شيخوخة كبيرة. وقد ترك آثارًا كتابية أشهرها «تاريخ بونابرت» الذي وصفه جودت باشا الوزير العثماني قائلًا إنهُ أشبه بتاريخ نقولا الترك. وله في مدح نابليون الثالث قصائد نفيسة أيضًا وجمع مواد «تاريخ سوريا» التي وضعها أبوه ميخائيل وزاد عليها ورتبها فجاءت وافية بالمقصود.

ومنهم بتراكي أخوه يوسقف بن ميخائيل. وُلد في نيسان ١٨٣٠ وتولى رئاسة كتاب الجمرك ثم أمانة الصندوق في لواء بيروت. ولما تشكلت المحاكم العدلية تعين مدعيًا عموميًا للواء حماه ثم استقال من وظائف الحكومة وتعاطى مهنة المحاماة في دمشق حتى توفاه الله في ٧ كانون الثاني ١٨٨٠ ميلادية.

وكان بتراكي من أدباء عصره، فإنهُ نشر مقالات عديدة في مجلة «الجنان» وجريدة «الجنة» البستانيتين وترجم من اللسان التركي إلى العربي «قانون الإجراء» للمعاملات الجزائية وبعض شذرات في الحقوق وغير ذلك.

ترجمتهُ

هو ميخائيل بن جرجس بن ميخائيل ابن المعلم حنا ابن المعلم ميخائيل بن إبراهيم بن حنا بن ميخائيل عورا وأمهُ بنت ديمتري نحاس. ولد سنة ١٨٥٥ في عكا وما كاد يفطم عن الرضاع حتى فقد أباه فاعتفت والدته بتربيته. ولما تأسست المدرسة البطريركية سنة ١٨٦٥ في بيروت دخل إليها فكان من بواكير تلامذتها ونوابغهم وتلقى فيها العلوم العقلية والنقلية وأحكم معرفة اللغات العربية والإيطالية والفرنسية والتركية، فبرع فيها كلها مع إلمام بالانكليزية وكان أستاذه الشيخ ناصيف اليازجي علمه أسرار اللسان العربي حتى صار يشار إليه بالبنان في براعة الإنشاء شعرًا ونثرًا. وبعد إحرازه شهادة المدرسة، أكب في بيته على المطالعة ثم درس الفقه على الشيخ يوسف الأسير فأحكم أصولهُ.

ولما أنشأت الحكومة الفرنسية سنة ١٨٧٨ معرضها العام طمحت نفسه إلى التجارة فذهب بالبضائع الشرقية إلى باريس، ولكن تجارته لم تفلح فخسر مالًا كثيرًا. وفي أثناء إقامته في عاصمة الفرنسيس، أصدر بتاريخ ١٦ نيسان ١٨٨٠ جريدة «الحقوق» التي عطلها بعد وقت قصير بداعي سفره إلى مصر. وهناك عرفت الحكومة الخديوية فضله فجعلته مديرًا لمكتب

الترجمة. ثم ترك وظيفته وأنشأ في ٢٢ أيار ١٨٨٢ مجلة «الحضارة» التي ما كادت تبرز لعالم الوجود حتى احتجت بظهور الفتنة العرابية المشهورة. ولما كانت خطته السياسية تقتبح سياسة مصطفى رياض باشا رئيس الوزراء، ألقت الحكومة المصرية القبض عليه ولكنه نجا بفضل قنصل فرنسا، فلجأ إلى بيروت ولبنان فلبث فيهما مدة سنة.

وبعد استتاب الراحة في وادي النيل وصدور العفو العام عن المتهمين بقضايا سياسية، عاد إلى القاهرة فحرر في جريدة «الزمان» لصاحبها علكسان صرافيان وقضى مدة يراسل جريدتي «الأهرام» و«المحروسة» اللتين كان مركزهما حيئنذ في الإسكندرية. وفي ١٣ أيار ١٨٨٤ أصدر باالشركة مع يوسف شيت صحيفة «البيان» التي عاشت ثلاث سنين ونالت نصيبًا وافرًا من النجاح ثم ترك مهنة الصحافة وتعاطى فن المحاماة لدى المحاكم، فاكتسب ثقة جميع المتعاملين معه. وفي سنة ١٩٠٦ سافر إلى أوروبا انتجاعًا للعافية، فأدركته المنية في شهر تموز يف مدينة نابولي، بينما كان مستعدًا للرجوع إلى مصر.

وكان حاد الذكاء، صائب الرأي، حر الضمير، واسع الاطلاع، يجيد الترجمة من اللغة العربية إلى الفرنسية والتركية وبالعكس. وكان كثير الإعجاب باللغة العربية، فخاض عبابها واتسع في كشف غوامضها وإظهار محاسنها. قيل إنهُ ترك في بعض التآليف النفيسة التي لعبت بها أيدي الضياع أثناء هربه من وجه الحكومة المصرية. ومن مآثره الأدبية رواية «منتهى العجب في آكلة الذهب» المطبوعة عام ١٨٨٥ ورواية «الجنون في حب مانون» وغيرهما. وترك خزائن غنية بالأسفار الكثيرة والمخطوطات النادرة لا سيما في العلوم

الفلسفية والشرعية وشغف بنظم الشعر منذ حداثته ولكنه قلل منه في آخر حياته. ومن شعره الرقيق قصيدة في رثاء أديب إسحاق سنة ١٨٨٥ قال:

الصبر ليس على فراقك يحسنُ ... ولمثل هذا الخطب تبكي الأعينُ
يا من تحركت النفوس تأسفًا ... لفراقه هيهات بعدك تسكنُ
فلئن تمكن منك سلطان الردى ... لنفوسنا فيها الأسى متمكنُ
يا عين جودي بالبكاء وتكلمي ... بمدامع إن المدامع السنُ
هل ثم عين لم تجد بدموعها ... طفا علك ومقلةٌ لا تحزنُ
أو ثم قلبٌ لم يمزقهُ الأسى ... أو هل هنالك قوة لا توهنُ
تالله ما الدنيا بدار يبتغي ... فيها النوا ويطيب فيها المسكنُ
كلا ولا للدهر عهد يرتجى ... منه الوثوق وليس منه مأمنُ
والأرض يورثها الإلهُ عبادهُ ... وهمو مسيء نفسهُ أو محسنُ
كأس الممات على البرية شربهُ ... حتم ومنه ليس ينجو ممكنُ
كيف النجاة من الممات وهذه ... جند المنية بالأسنة تطعنُ
أم كيف يطمع في الصفاء فتى لهُ ... بالطين والماء المهين تكونُ
والمرء مرمى الموت فهو إذا نجا ... منهُ النهار ففي غد لا يمكنُ
لا ينفع الأسف النفوس ولا الأسى ... الكف أولى والتصبر أحسنُ

«٨»

يوسف باخوس

مؤسس جريدة «المستقل» في غلياري ومحرر صحيفة «البصير» في باريس

أسرتهُ

من العائلات الوجيهة في جبل لبنان أسرة «باخوس» التي تنتمي إلى أصل آثوري من بلاد بين النهرين. وقد جاء سوريا أحد أفرادها في القرن السابع عشر وكان على مذهب السريان اليعاقبة القائلين بطبيعة واحدة في المسيح. فانقسمت سلالتهُ فيها من بعده إلى فرعين كبيرين: أولهما سكن في دمشق فتبع مذهب السريان الكاثوليك وأقام الآخر في قصبة «غزير» من لبنان فانحاز إلى الطائفة المارونية.

وقد اشتهر من الفرع الثاني اللبناني أبو إنطون يوسف الذي كان في سنة ١٨٠٥ مديرًا لأشغال الأمير حسن الشهابي أخي الأمير بشير الثالث الكبير. ومنهم الأستاذ الفاضل نجيب بن فارس الذي عولنا على أبحاثه في أخبار عمه يوسف صاحب هذه الترجمة. ومنهم سليم بك ناظر إدارة القسم المالي في محافظة القاهرة ثم خليل بن طنوس منشىء جريدة «الروضة» حاليا.ونعوم بن جبرائيل الذي انتخبهُ سكان فضاء كسروان نائبًا عنهم في مجلس إدارة لبنان ثم جد دور انتخابهُ بإجماع الآراءِ في شهر حزيران ١٩١٣ لما تزين بهِ من الصفات التي رفعته بكل

استحقاق إلى هذا المنصب الشريف. ومن أشهر العائلات المرتبطة بالنسابة مع أسرة باخوس آل اصفر وثابت وتيان وخضرا ودوماني وخوام وسواهم. وقد عرف آل باخوس بغيرتهم الوطنية وبكثير من الأعمال المبرورة.

يوسف باخوس

ترجمتهُ

هو يوسف بن حبيب باخوس. وُلد في بلدة غزير قاعدة كسروان في ٥ آيار من سنة ١٨٤٥ ولما بلغ أشده أدخله والده مدرسة «ماري عبدا هرهريا» الشهيرة في ذلك الحين في عر أمون بجوار غزير. فدرس فيها اللغات العربية والإيطالية واللاتينية والسريانية والعلوم الفلسفية والتاريخية وبرع في جميعها لاسيما اللغة العربية التي جعلها غاية همهِ ومرأى لسهمهِ.

وكان رئيسه ومدرسوه الأفاضل يعجبون بتوقد فؤاده وحدة ذكائه وخصوصًا بغرابة حافظته وسرعة خاطره. وبعد أن أنهى دروسهُ في المدرسة المشار إليها، درس الفقه وقوانين الدولة العثمانية على الأب العالم الخوري أرسانيوس الفاخوري ثم عين مدرسًا للبيان في اللغة العربية في مدرسة عينطور للأباء اللعازريين على عهد رئاسة الأب كوكيل الطيب الذكر.

وفي مده وجوبه في هذه المدرسة انصبْ على درس اللغة الفرنسية بمزيد الهمة والنشاط حتى حذقها ومهر فيها. وهناك ألف كتابهُ «الهدية السنية لأبناء المدرسة اللعازرية» وهو مؤلف جزيل الفائدة قد ضمنهُ جلَّ

القواعد الصرفية والنحوية في اللغة العربية جرى فيهِ مأمورًا على الخطة المتبوعة هنالك في تعليم القواعد الأفرنسية وقد نشر بالطبع مرتين.

ثم ما لبث أن ترك مدرسة عينطور وانتدبه رهبان دير المخلص بالقرب من صيدا لتعليم الفلسفة والآداب العربية في مدرستهم. ومن تلاميذه فيها جرمانوس معقد مطران اللاذقية وافتيميوس زلحف مطران صور وغيرهما من مشاهير الرهبان. ثم أبحر بعد سنتين إلى الأستانة لقضاء بعض المهام، فنال إذ ذاك حظوة في أعين رجال الدولة العظام وامتدح بعضهم بقصائد غراء نذكر منها واحدة قد نظمها في مدح صفوت باشا وزير الخارجية في ذلك الحين، قال في مطلعها:

هي المراتب قد عَّزت مبانيها ... والحزم والعزم طبعًا من مباديها
وذي المعالي فمن رام الدراك لها ... بالفخر فالجد يؤتيه معاليها
لا يدرك المجد إلا فارسٌ بطلٌ ... ولا يوم المعالى غير واليها
لابد للمجد من شهم ومن نبهٍ ... يزهى بهِ المجد دانيها وقاصيها
كالفرد صفوتَ من تاهت بعزتهِ ... مراتب المجد دانيها وقاصيها
هو الوزير الذي شاعت مآثره ... في المجد لا يبرح التاريخ يرويها
واقبلت شعراء العصر تنشدها ... وتستهل القوافي من معانيها

ومنها في الختام:

حمدًا وشكرًا لمولانا العزيز على ... إنعامهِ حين أعطى القوس باريها
سلطاننا المالك الدنيا بقبضته ... مولى الخلافة ملجاها وكاليها
يارب خلد مدى الأيام شوكتهُ ... واحفظ عدالتهُ ورداً لظاميها
ياربّ نعم رعاياه برأفته ... وعث نعمته لا زال يحييها

ثم عاد إلى بيروت واشتغل في إنشاء الفصول الفلسفية في كتاب «آثار الأدهار» لصاحبيهِ سليم شحاده وسليم الخوري وعين مدرسًا للفصاحة العربية في مدرسة الحكمة المارونية لسيادة مؤسسها المطران يوسف الدبس الذي قدره حق قدره، فأجله ورفع منزلته. وله في مدح سيادته القوافي المتينة والمنظومات الرائعة منها قصيدة في بيان «محاسن اللغة العربية» رفعها لسيادة الحبر المشار إليه قال في مطلعها:

للشعر في خطوات الفكر آمال ... للقصائد إعراض وإقبالُ
وللعروض بحار عم طالبها ... طوراً نداها وطوراً خاب تسآلُ
وللمعاني إذا جادت بها دورٌ ... يزينها النظم لا فعلٌ وفعالُ
بيانها السحر من أسراره انكشفت ... غوامض الحكم يروى سعدها الفالُ

ومنها:

تطوي وتنشر من تدبيجها غررًا ... والطبق والجمع والتفريق إشكالُ
حلت عقود معاليها بتورية ... حلت بها الذوق والتشبيهُ سلسالُ
عزت فلا وصل إلا من مكارمها ... يرجى وبالفضل للآمال آجالُ
تلقي المدائح اسناداً بمسندها ... وتستقل بها في الحمد أقوالُ
عن حسنها غرر الأشعار قد قصرت ... وصفاً وبالقصر إحسان واجمالُ
أنعم بها فهي إعرابية سفرتْ ... وأسعد بطلعتها فالسعد اقبالُ
تفردتْ بين ابكار اللغي وعلتْ ... قدراً وعزت بها بالفخر أجيالُ
صحت بإعلالها الافهام واتعصمتُ ... حكماً وفي صحة الأحكام اعلالُ
وقد نحت نحوها الأفكار وارتفعت ... بنصبها منصب التفضيل ابطالُ
تنازعتها معاني الوصف واشتغلتْ ... بنعت عاملها الموصوف اشعالُ

ومنها:

وكم رجال أفاض الدهر شهرتهم ... براية المجد في مضمارها جالوا
هيهات هيهات ادراك لشوطهم ... فدون ذلك أخطارٌ وأهوالٌ
وكل علمٍ وفنٍ ظل ينشدهم ... بدائع الشكر تقريظاً لما نالوا
لا زال يزهو بناهم كلما خطرتْ ... للشعر في خطرات الفكر آمالُ

وفي ٣٠ تموز سنة ١٨٧٩ دعتهُ الحكومة الايطالية بواسطة قنصلها في بيروت ليتولى تحرير جريدة عربية «المستقبل» تطبع في غلياري (Cagliari) في سردينيا (Sardaigne) من أعمال إيطالية وشأنها أن تدرأ عن المصالح العربية وتدافع عن حقوقها وأبنائها. فأجات إلى هذه الدعوة يطيب الخاطر وغاية ما تمناه وقوف النفس للدفاع عن حقوق أمتهِ العربية وواقع الأمر أن أعداد «المستقبل» الأولى ما تخطت ولا تعدت حد الإفصاح عن مجد العرب الباسق السابق وعن إمحاء ذلك البهاء في أخريات الأيام.

فغادر هذا الأصقاع مريدًا أولًا رومة العظمى، حيث حظى بمقابلة البابا لاون الثالث عشر الذي رمقهُ بعين الرعاية والالتفات متمنيًا له الفوز والنجاح في مهمته الجديدة. وبقي يتنقل في البلاد الإيطالية من مكان إلى آخر متفقدًا ما فيها من جميل الآثار التي لقوا عليها صروف الزمان. وفي أثناء ذلك كتب رسالته المعنونة «عشرون يومًا في رومة» أتى فيها بأطلى عبارة وأجمل أسلوب على ذكر ما تحويه المدينة الأبدية من الآثار

التي تركها الأقدمون. وقد طبعت منها مقالة نفيسة في وصف مشهد الألعاب القديم.

وفي ٢٨ أيار من سنة ١٨٨٠ ظهر العدد الأول من «المستقل»، فأحسن الأدباء استقباله وتهافتوا على الاشتراك بهذه الصحيفة التي عظم شأنها وانتشارها واشتهر أمر محررها ولعبت دورًا مهمًا في عالم الصحافة والسياسة. فتشاغلت بها الجرائد الأوروبية لا سيما الفرنسية وتحدثت عنها مرارًا عديدة. كما أثبت ذلك في مقالة نشرها في أعمدة تلك الصحيفة. وبعد أن مر على تحريره للمستقبل نيفًا وسنة، غادر غلياري قاصدًا باريس مدعوا من قبل الحكومة الفرنسية لتحرير جريدة عربية أيضًا تعرف «بالبصير»، فوصلها في اليوم الثالث من شهر آيار لسنة ١٨٨١.

وعند وصوله إلى محطة السكة الحديدية أحسن استقباله بعض الكتبة ومحررو الجرائد الذين أظهروا مزيد الارتياح والسرور للتعرف بعالم شرقي اشتهر أمره في بلادهم «وأعطي موهبة تتميق الألفاظ فسحر الألباب بعبارته الطنانة». كما ذكروا ذلك مرارًا في بعض جرائدهم ثم لم يلبث أن أصاب «البصير» من النجاح ما قد أصاب «المستقل» في إيطاليا. وكنا نود أن نأتي هنا على ذكر بعض عبارات من مقالات نفيسة نشرها في أعمدة تلك الجريدة، إنما يمنعنا عن ذلك ضيق المجال.

وقد عرفت إذ ذاك الحكومة التونسية ما كان لمقالات محرر البصير وكتاباته من النفع والوقع في نفوس أبنائها وذويها وما أتاه من

الجد في سبيل إحياء روح اللغة العربية في تلك الأصقاع الغربية. فمنحتهُ وسان كومندور من «نيشان الافتخار» وذلك في ١٥ تموز لسنة ١٨٨١.

وبقي متوليًا إدارة البصير وتحريره إلى أن أصيب بمرض عضال، فأشار عليه الأطباء بالعودة إلى وطنه، فعاد إليه وقد تخون جسمه النحول والهزال حتى لم يعد ينجح به دواء ولا يرجى له شفاء فاستأثر به الله في شرخ الشباب ونضارة العمر غير متجاوز السابعة والثلاثين من سنه، فبكى عليه ذوو الأدب والمعارف الذين كانوا يتوسمون به حسن الاستقبال ودفن في ضريح خاص في غزير قد عُلق عليه تاريخ نظمهُ المرحوم الخوري الشاعر أرسانيوس الفاخوري.

وكان شهمًا ذكيًا، متضلعًا في العلوم الفلسفية والتاريخية وخطيبًا مصقعًا وشاعرًا مجيدًا له شعر أعذب من الماء الزلال وأغرب من السحر الحلال. وكان سريع الخاطر طلق اللسان لطيف المعاشرة يطرب الألباب ويسكر العقول، بل تعشق كلامه الطباع وتلذ به الأسماع. يشهد له بذلك كثير من ذوي الأدب والعلم في الديار الشرقية والغربية الذين كانوا يعجبون ويطربون بكلامه الدري. وله مع بعض محرري الجرائد في ذلك الحين ولاسيما مع أحمد فارس الشدياق محرر «الجوائب» المناقشات الحسنة والمجادلات اللطيفة التي تشف عن دهاء ودراية في الأمور واتساع في العلوم وطول باع في الإنشاء.

صحف السلطنة العثمانية

مرآة الأحوال	رزق الله حسون			١٨٥٥
السلطنة	اسكندر شلهوب			١٨٥٧
الجوائب	أحمد فارس الشدياق		تموز	١٨٦٠
السلام	جبرائيل دلال	٢٣	تموز	١٨٧٩
الاعتدال	أحمد قدري	٢٩	آب	١٨٨٣
الانسان	حسن حسني باشا الطوبراني	٥ جماد	الآخر١٣٠٣	١٨٨٦
السلام	الحاج صالح الصائغ			١٨٨٥
الحقائق	إبراهيم أدهم	٢٨	تشرين الثاني	١٨٨٨
مدرسة الفنون	حميد وهبي	٢٥	كانون الأول	١٨٨٢
الانسان	حسن حسني باشا الطوبراني	٢٨	آيار	١٨٨٤
كوكب العلم	نجيب نادر صوايا	١٣	كانون الثاني	١٨٨٥
الحقائق	أبو النصر يحيى السلاوي	٨	كانون الأول	١٨٨٥
الحقوق	إلياس مطر وإلياس رسام	١٣	تموز	١٨٩٠
حديقة الأخبار	خليل الخوري	١	كانون الثاني	١٨٥٨
نفير سوريا	بطرس البستاني			١٨٦٠
أخبارعن انتشار الانجيل	المرسلون الاميركيون	١	أيار	١٨٦٣
النشرة الشهرية	الدكتوركنيليوس فاديك	١	كانون الثاني	١٨٦٦
الزهرة	يوسف الشلفون			١٨٧٠
المهماز	خليل عطية	٢٥	شباط	–
الجنة	سليم البستاني	١١	حزيران	–
البشير	الآباء اليسوعيون	٣	ايلول	–

كوكب الصبح المنير	المرسلون الاميركيون	١	كانون الثاني	١٨٧١
النشرة الأسبوعية		١٠		–
التقدم	يوسف الشلفون	١		١٨٧٤
ثمرات الفنون	عبد القادر قباني	٢٠	نيسان	١٨٧٥
لسان الحال	خليل سركيس	١٨	تشرين الأول	١٨٧٧
المصباح	نقولا نقاش	١	كانون الثاني	١٨٨٠
الهدية	جمعية التعليم المسيحي الارثوذكسية	١	كانون الثاني	١٨٨٣
بيروت	محمد رشيد الدنا	٢٢	أيار	١٨٨٦
دليل بيروت	أمين الخوري	١	كانون الثاني	١٨٨٨
بيروت الرسمية	على باشا	٢٢	كانون الثاني	–
الفوائد	خليل البدوي	١	أيار	١٨٨٩
الأحوال		١	تشرين الأول	١٨٩١
مجموع فوائد	المرسلون الأميركيون	١	كانون الثاني	١٨٥١
أعمال الجمعية السورية	الجمعية السورية	٦	كانون الثاني	١٨٥٢
الشركة الشهرية	يوسف الشلفون	١	كانون الثاني	١٨٦٦
أعمال شركة مار منصور	ميخائيل فرج الله	١	حزيران	١٨٦٧
مجموعة العلوم	الجمعية العلمية السورية	١٥	كانون الثاني	١٨٦٨
المجمع الفاتيكاني	الآباء اليسوعيون	١	كانون الثاني	١٨٧٠
الجنان	بطرس البستاني	١	– –	–
النحلة	القس لويس صابونجي	١١	آيار	–
النجاح	-----ويوسف الشلقون	٩	كانون الثاني	١٨٧١
الطبيب	الدكتور جورج بوست	١	كانون الثاني	١٨٧٤
المقتطف	يعقوب صروف وفارس نمر	١	حزيران	١٨٧٦
المشكاة	خليل شركيس	١	نيسان	١٨٧٨

سلسلة الفكاهات	نخله قلقاط	١	تشرين الثاني	١٨٨٤
ديوان الفكاهة	سليم شحاده وسليم طراد	١	كانون الثاني	١٨٨٥
الصفا	على ناصر الدين	١	كانون الثاني	١٨٨٦
الكنيسة الكاثوليكية	خليل البدوي	–	–	١٨٨٨
سورية (جريدة)	راشد باشا	١٩	تشرين الثاني	١٨٦٥
دمشق (جريدة)	أحمد عزت باشا العابد			١٨٧٨
مرآة الأخلاق (مجلة)	سليم وحنا عنحوري	١	كانون الثاني	١٨٨٦
فرات	جودت باشا			١٨٦٧
الشهباء	عطار وكواكبي وصقال	١٠	آيار	١٨٧٧
الاعتدال	عبد الرحمن الكواكبي	٢٥	تموز	١٨٧٩
لبنان	داود باشا	٤	آيار	١٨٦٧
الجعبة	الشيخ نوفل الخازن			١٨٧٣
لبنان	إبراهيم الأسود	١	تشرين الأول	١٨٩١
ثامناً :جرائد سائر أنحاء السلطنة العثمانية				
الزوراء (بغداد)	مدحت باشا			١٨٦٨
طرابلس الغرب	رسمية			١٨٧١
صنعاء (اليمن)	رسمية			١٨٧٧
الموصل[١٥] (الموصل)	رسمية			١٨٨٥
«٢»				
آل سام	رزق الله حسون			١٨٧٢
مرآة الأحوال	....	١٩	تشرين الأول	١٨٧٦

(١٥) حدث سهو في عدم نشر أخبار هذه الجريدة الرسمية بين صحف الحقبة الثانية فلزم التنويه

الخلافة	الدكتور لويس صابونجي		كانون الثاني	١٨٨١
الغيرة	عبد الرسول الهندي	١٠	شباط	١٨٨١
الاتحاد العربي	الدكتور لويس صابونجي			١٨٨١
النحلة	....	٢٦	نيسان	١٨٨٤
رجوم وغساق	رزق حسون			١٨٦٨
النحلة	الدكتور لويس صابونجي	٢	نيسان	١٨٧٧
حل المسألتين الشرقية والغربية	رزق الله حسون			١٨٧٩
برجيس باريس	الكونت رشيد الدحداح	٢٤	حزيران	١٨٥٨
المشتري	(مجهول)			١٨٦٧
الصدى	جبرائيل دلال			١٨٧٧
رحلة أبي نظارة زرقاء	يعقوب صنوع	٧	آب	١٨٧٨
ابو نظارة زرقاء	....	٢١	أيار	١٨٧٩
النظارات المصرية	....	١٦	آيلول	–
مصر القاهرة	أديب أسحق	٢٤	كانون الأول	١٨٧٩
الحقوق	ميخائيل عورا	١٦	نيسان	١٨٨٠
الاتحاد	إبراهيم المويلحي			–
الأنباء	....			–
الرجاء	....			–
ابو صفاره	يعقوب صنوع	٤	حزيران	–
أبو زماره	....	١٧	تموز	–
الحاوي	....	٥	شباط	١٨٨١
أبو نظلرة	....	٨	نيسان	–
البصير	خليل غانم	٢١	–	–

كوكب المشرق	عبدالله مراش			١٨٨٣
الوطني المصري	يعقوب صنوع	٢٩	آيلول	–
العروة الوثقى	جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده	١٣	أيار	١٨٨٤
الشمس	سليم قويطه والياهو ساسون	٢٢	شباط	١٨٨٥
الثرثارة المصرية	يعقوب صنوع			١٨٨٦
عطارد (مرسيليا)	منصور كرلتي			١٨٥٨
الشهرة (انجه)	منصور جاماتي	١	آب	١٨٨٨
الخلافة (نابولي)	إبراهيم المويلحي			١٨٧٩
المستقل (غلياري)	يوسف باخوس	٢٨	أيار	١٨٨٠
سادساً :صحف الجزائر البريطانية في البحر المتوسط				
مالطا (مالطا)	(مجهول)		نواحي سنة	١٨٨٩
زمان (قبرص)	درويش باشا			١٨٧٨
ديك الشرق (قبرص)	علكسان صرافيان			

الفهرس

الباب الخامس